.ناجي طاهر.

جسور متأرجحة

مشاهدات انطباعية

في الفلسفة والحياة والتغيير

ناجي طاهر

جسور متأرجحة

مشاهدات انطباعية

فـــــي

الفلسفة والحياة والتغيير

2023م

- **كتاب جسور متأرجحة (مشاهدات انطباعية في الفلسفة والحياة والتغيير)**
- **المؤلف: ناجي طاهر (لبنان) مقيم في ألمانيا.**
- **التصنيف: نصوص فلسفية ومقالات مغايرة**
- **الطبعة الإلكترونية الرقمية الأولى: طوقان للنشر الإلكتروني والحلول الرقمية. فلسطين 2023م ISBN: Amazon Kdp B0BY7L2LYH**
- **الغلاف للفنان التشكيلي . برنارد رنو.**
- **الطبعة الورقية، كانت قد صدرت عن. دار فواصل للنشر والتوزيع. بيروت . لبنان. 2022م**

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو اختزان مادّته بطريقة الاسترجاع أو نقله على أي نحو أو بأي طريقة سواء كانت "إلكترونية" أو "ميكانيكية" أو بالتصوير، أو بالتسجيل أو خلاف ذلك. إلا بموافقة كتابية من المؤلف.

الإهداء

إلى أمي، التي علمتني كل الحروف والأسماء من دون أن تلمَّ بأي حرفٍ من الأبجدية! وإلى أبي، الذي غيّبته حروبُ الأهلِ الباردة، منذ كنت صغيراً، فغدا طيفاً لا يفارق أيامي! وإلى زوجتي، التي بدورها الدَّؤوب وظلّها الطيب جعلت فوضى الأشياء ودورة الحياة، تسير إلى اتساقها بطريقة ساحرة!

وإلى هبة، حبة المحبة، التي أهدتنا إياها الحياة، أن تروم الحياة!

وإلى ولديَّ، عليّ وريّان، جناحي الود والجمال، اللذين يؤنسان ويُظلّان أيامنا!

«..لم يعد للتجرد أي قيمة لا في السماء ولا في الأرض؛ تفرض الإشكالات العظيمة كلها حباً عظيماً، والأذهان القوية، الواضحة والواثقة، القوية الارتكاز، قادرة على هذا الحب. ثمة فرق هائل بين مفكر ينخرط بشخصيته في إشكالاته لدرجة أنه يجعل منها قدره، ألمه وأعظم سعادةٍ لديه، وبين من يبقى «لا شخصي». من لا يعرفها ولا يتلمسها ولا يدركها إلا بأطراف أصابعه وبحشرية باردة. لن يتوصل هذا الأخير إلى شيء، يمكننا أن نتكهَّن بذلك بكل ثقة».

(*) فريدريك نيتشه، العلم الجذل، ترجمة د. سعاد حرب، دار المنتخب العربي، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى،2001، ص197.

المقدمة

هذا الكتاب هو جمع لنصوص وخواطر ومقالات متنوعة، كتبها صاحبها على مدار ما يقرب من العقدين من الزمن. وقد يرجع تاريخ كتابة بعضها إلى ما قبل العام 2000، إذا ما أردنا أن نحتسبه كمفصلٍ بين الألفيتين.

أغلبية هذه النصوص تُنشر لأول مرة. أما بعضُها الآخر فقد نُشر في ملحق السفير وفي صُحفٍ ومواقع أخرى مختلفة، وهذا على مدار أعوامٍ عديدة.

بعد توقف جريدة السفير عن الصدور، والصعوبة التي باتت تعتري عملية الدخول إلى أرشيفها الإلكتروني، إضافةً إلى الكثافة التي تحفل بها الشبكة العنكبوتية بشكل عامٍ بالنسبة للبعض الآخر، صار الوصول إلى هذه النصوص على الانترنت، أمراً متعذراً، فكانت فكرة إعادة نشر بعضها في هذا الكتاب من جديد.

وقد خضعت مسألة اختيار هذه النصوص المنشورة لخاصيتين؛ راهنية موضوعها، ودوام تواصله في الحاضر، أو أنها صارت بمثابة الشاهد على حدثها وموضوعه.

ترى هذه النصوص إذا، شذرات من الروح تبعثرت هنا أو هناك، حتى غدت كلماتٍ وصفحاتٍ تتنقل على جسورٍ متأرجحةٍ ما بين

أصناف العلوم؛ والأدب؛ والفلسفة؛ والسياسة؛ قبل أن تحط رحالها، بعد أن تآلفت ظروفها، والتأم شملها بين دفتيّ هذا الكتاب.

وعليه، فالكاتب لا يدّعي أبداً أنه قارب شتى الموضوعات التي تطرق لها بغاية البحث العلمي الدقيق، ولكنه في الآنِ نفسه حافظَ على قدرٍ كبيرٍ من الأمانة الفكرية والأكاديمية التي تقتضيها الحال، إذ أنّه إمّا ذكر اسم المصدر، أو المفكِّر المقصود، أو أشار إلى الكتاب الذي قرأ هذه الفكرة أو تلك فيه. هذا لأنها كانت أغلبها بمثابة الخواطر أو المقالات القصيرة أو الحوارات، ولم تكن أبحاثاً دراسية بحد ذاتها. ولكن هذا لا يجب أن يُعفي الكاتب من تحمّل أية مسؤولية قد تترتب من جرَّاء المكتوب في هذا الكتاب، فهو يتحملُّها كلها على عاتقه، وهو مسؤول عن كل شاردة وواردةٍ في متنه أو هوامشه!

كذلك لا بدَّ من الإشارة إلى مسألة الأسماء الواردة في هذا الكتاب، حيث يهم الكاتب أن يؤكد أن جميع الأسماء الواردة هي من خيال الكاتب ولا وجود لها في الواقع، وأي تشابهٍ لأيٍّ من هذه الأسماء مع أي شخصٍ آخر هو محض صدفة لا أكثر. لكن بالطبع هذا التعهد لا يشمل أسماء الإعلام والفكر العموميين وأهل السياسة المعروفين.

وفي الختام، لا بدّ لي من توجيه كلمة شكر وتقدير لكل من أيّدني بكلمة أو شجعني وساعدني على شحذ الهمّة، لإنجاز باكورة إنتاجي الأدبي، وأخصُّ بالذكر زميلة البدايات في صحيفة السفير،

الكاتبة المميزة سحر مندور، وكذلك الشاعرة والإعلامية الصديقة ليلى الداهوك، على كل جهودها ومثابرتها وإصرارها على إنجاز هذا العمل، فلها كل الشكر والتحية.

كذلك؛ الشكر موصول إلى الأستاذ الشاعر والأديب الشيخ نعيم تلحوق على لفتته الكريمة وإيلائه هذا العمل رعايته الخاصة واهتمامه وجهده الكريمين. فله خالص الشكر والتقدير. كما أود أن أشكر الفنان التشكيلي برنارد رنو، على ذوقه الرفيع، وتقدمته لوحة الغلاف لهذا الكتاب!

الجزء الأول:

فلسفيات خفيفة

اِعرف نفسك!

قالها مرةً سقراط، ويدّعي أغلبنا ويظن، أنه لا يعرف نفسه وحسب وإنما تتسع حدود معرفته أكثر من حدود نفسه وتتعداها إلى ما بعد حدود الآخرين! ما يبدو عليه الحال أكثر أننا لا نعرف شيئاً البتَّة! والحال أن كل شيءٍ هو غيره بعد كل لحظةٍ وتكَّة، فلا سبيل أو قدرة على التقاط حقيقة الثبات في المتغير، ويبدو أنه لا مناص من الركون إلى الصور، تلك التي تُجمِّد صورة الأشياء والأفكار في العقل والمكان والزمان!

وعليه؛ تبدو معرفة أي شيءٍ على حقيقته مستحيلة، ويبدو أننا منذ أن حسم ذلك العجوز المستطير، في أمر حدود معرفتنا، لا نزال نقبع في حدود الاحتمال والرجحان بإزاء المعارف المفارقة التي لا تحتاج إلى أي برهان أو إثبات. فهي تقوم هكذا بمجرد أن يمرّرها ويُقرّها اليقين المستريح!

الفلسفة ومكانتها ما بين الألمان وبيننا

إذا ما جادل شخص ما في قضية ما، وطرح عدة أسئلة تريد استنطاق الموضوع واستكشاف بنيته، يُقال له، «إنه يتفلسف»، وهذا من باب إحراجه فإسكاته. أمّا إذا ما أراد أحدهم تجريح شخص وتقريعه، فيقول له: أنت فيلسوف! أمّا إذا ما كان جُرم هذا المتهم المسكين عظيماً، فيرجمه بقوله له: وهل أنت فيلسوف زمانك؟!

ويحضرنا بهذا السياق قول نيتشه حول الفلسفة ودورها الراهن في خضمِ التحديات التي باتت تواجهها، بأنه: «إذا كان للفلسفة يوماً ما دور في الحماية والخلاص، فإن هذا الدور برز بالنسبة لشعوب متعافية. لقد ضاعفت الفلسفة دائماً من سوء حالة الشعوب المريضة».[1]

فالأصل عندنا على ما يبدو ميل العقل العام إلى التصديق ومن ثم التسليم بما يُقال، وعدم الرغبة في الخوض والجدال. أي باختصار عدم الرغبة في التفكير.

يجرُّنا هذا كذلك إلى مسألة التعليم وسلطة الحقيقة ومَن يدّعي امتلاك أسلحة المعرفة المدموغة بالأختام الشرعية الاجتماعية والاقتصادية والثقافية، هكذا نرى «القول الفلسفي؛ الرسمي» في

([1]) فريدريك نيتشه، الفلسفة في العصر المأساوي الإغريقي، ترجمة سهيل القش (بيروت، المؤسسة الجامعية،1983) ص30.

بلادنا، كما هو ملقن في المراحل الممهدة للجامعة، يندرج ضمن سياسة معرفية «وضعية» لا تلغي «سلطة» المعرفة الفلسفية والنظرية إلاّ لتحل مكانها «سلطة» المعرفة التطبيقية (الطب، الهندسة، الفيزياء..)، التي تبرز في حيز الحداثة كمشروع هيمنة ثقافية على المعارف الأخرى. [1]

وإذ يدور الحديث هنا عن إطار الحداثة الذي أزاح الفلسفة وفروعها المعرفية النظرية الأخرى لصالح العلوم «الصحيحة» وفق منظورها، يأتي في هذا السياق «المثال الهيغلي حول سلطة الطبيب، الذي لا يناقشه المريض في تشخيصه لمرضه، ولكن هذا الشخص نفسه سوف يبيح لنفسه مناقشة الفيلسوف أو عالم السياسة وهو يجاهر برأيٍ مخالف»[2]

أمّا أحد أكبر التيارات الإسلامية فقد هادنت الملك، وقد منحها وزارة التعليم وفق طلبها، فأول أمر قامت به هو: إلغاء مادة الفلسفة برمتها من مناهج التعليم!

وموقف التيارات الإسلامية من الفلسفة قديم ومعروف، وهم يؤصِّلون هذا الموقف من الفلسفة إلى الزمن الغابر، ويردُّونه إلى

([1]) المصدر السابق نفسه ص 29، من نص مقدمة المترجم سهيل القش وقد استند فيها إلى مقالة ميشال فوكو، الحقيقة والسلطة.

([2]) م. ن. ص28 بتصرف.

موقف الغزالي في كتابه المشهور «تهافت الفلاسفة»، وغيره من فقهاء ومفكري الإسلام.

وبهذا الصدد يمكن مراجعة موقف سيد قطب بهذا الصدد حيث يعتبر أنّ «كل اتجاهات الفلسفة وعلم النفس ومباحث الأخلاق ودراسة الأديان المقارنة وغيرها، هذه الاتجاهات كلها في الفكر الجاهلي –أي غير الإسلامي– قديماً وحديثاً، متأثرة تأثراً مباشراً بتصورات اعتقادية جاهلية؛ ومعظمها –إن لم يكن كلها– يتضمن في أصوله المنهجية عداءً ظاهراً أو خفياً للتصور الديني جملة؛ وللتصور الإسلامي على وجه خاص»[1]

وهكذا نرى أنه في بلادنا لم تُنقل «سلطة» المعرفة إلى الطبيب أو المهندس، ولكن إلى الشيخ المعمّم وغير الفقيه حتى.

ويقودنا هذا ليس فقط للحديث عن «موت الفلسفة» في بلادنا لا.. بل إقصائها لصالح حراس هياكل النصوص الميتافيزيقية المجمّدة في رفوف الماضي. أي أنها تُزاح من حيز الحداثة العقلانية لصالح ما قبل الحداثة «اللاعقلانية» في الشرق.. أي لصالح رجال الدين والنص الثابت.

وليس كما قد يحلو للبعض أن يرى في هذه «الردة» على الفلسفة واستثناء العلوم، على أنها نقلة «سحرية» تحاكي مقولات ما

([1]) سيد قطب، معالم في الطريق، دار دمشق، د، ت، ص 171 و 172

بعد الحداثة التي ظهرت في الغرب، في النصف الثاني من القرن العشرين، كردة فعل على طغيان البرامج العقلية الجاهزة المتعلقة بالثقافة والأفكار والهوية والتاريخ وتحطيم السرديات الكبرى وأحادية الوجود واليقين المعرفي، وفتح الباب أمام لغات القول الأخرى كأشكال للتعبير عن ذاتها تشتمل على مشروعية بإزاء العلوم التي ختمها الغرب ومهرها ببصمته الأحادية!

ونرى في هذا الاستثناء للعلوم من قبل هذه التيارات الدينية رغبة منها في مماشاة الحداثة بأشكالها التكنولوجية التي تطال جوانب الحياة العصرية وتسهلها، ولكنهم لا يعترفون بالمنظومة المعرفية والفكرية التي أتاحت الوصول لهذه المعرفة والتملص –بالتالي– من مبادئها وقيمها، وذلك على عكس مناهضتهم الواضحة والعلنية للفلسفة، التي يستشعرون بخطرها المحدق بهم، كونها تسبح في فلك الميتافيزيقا؛ أحد الميادين المعرفية الأساسية المتبقية للفلسفة وهو ما يهدد بسحب البساط من تحت أرجل رجال الدين الذين يمتهنون السياسة كآخر «موضة»، لا.. بل باتوا ينافسون رجال السياسة على أدوارهم!

لكن الفلسفة –إلى هذا– لم تعدم أن تكون منتعشةً وحيويةً ومعاصرةً، وتُثبت يوماً بعد يومٍ أنها لم تمت ولا تزال حيّةً نابضةً، إذا ما أحسنَّا التفكير والاشتغال بها، لكي تتحول عبر طرائق التعليم المعاصرة والمرنة، إلى نمط من التفكير المنطقي الذي يتأسس في

بنية عقل الناشئة، فتدخل مجتمعاتنا عصر التفكير القائم على قيم الحرية والعدل والتسامح وقبول الآخر، وتعدد الآراء، ونسبية الأفكار، والأحكام. وأنه لا أحد يملك الحقيقة لوحده!

وما لفتني إلى هذا الموضوع، هو سهولة وترسخ تدريس هذه المادة في المدارس الألمانية منذ الصغر، وبموضوعات يحسبها نمط تفكيرنا العربيّ أنها مخصصة فقط للكبار، ولذوي الأدمغة الضخمة والخاصة.

فالألمان لا يحترمون فقط الطفل، بل يحترمون كذلك عقله ويقدرونه. وهذا ما يجعل من مادة الفلسفة، محبوبةً جداً من أغلب التلاميذ، كونها ساعة لإعمال العقل والتفكير الحر.

فهذه عينة من كتاب الفلسفة للصف السادس، الذي تدرس فيه ابنتي التي تبلغ اثني عشر عاماً، أول ما لفتني اسم الكتاب «الفلسفة العملية»[1] وقد فتحتُ الفهرس فباغتتني المواضيع الآتية:

الفهرس مقسم إلى سبعة محاور:

<u>المحور الأول: الفلسفة تجلب المتعة:</u>

1 – من خلال الأسئلة التي تأتي من التفكير.

---

(1) Fair Play 1 für den Unterricht im Fach praktische Philosophie, herausgegeben von: Volker Pfeifer, Schöningh Verlag, Jührnplatz 1-3, 33098 Paderborn, Seite 3-4.

2 – اللعب من أجل التعارف.

سؤال هذا المحور الأساسي: سؤال الذات ومعرفتها.

- «أنا» – ما هذا؟

1 – كيف أرى نفسي أنا؟ – وكيف يراني الآخرون؟

2 – من تراني أكون، إذا لم أكن أنا نفسي؟

3 – هل أنت أكيد أنك أنت؟

4 – مَن هذا الذي في المرآة؟

5 – دائماً فقط أنا؟

6 – مَن أكون أنا؟ ومَن تكون أنت؟

7 – أنا أشعر بما لا تشعر أنت به؟

ماذا تعرف وماذا تقدر.

- الوقت، وقت الفراغ، فراغ الوقت (Freizeit, freie Zeit).

1 – الوقت، (Zeit)، (في اللغة الألمانية تستعمل مفردة (Zeit)، للدلالة على الزمن والوقت. والتمييز فيما بينهما يتم وفق السياق أو الاستعمال).

2 – الوقت هو لي..؟

3 – كيفية التعامل مع الوقت.

<u>المحور الثاني:</u>

وسؤاله البحث أو التعرف على الآخرين:

- ناس بين الناس

مثال: الآخرون وأنا/...

- النزاعات – كيف يتوجب علينا التصرف حيالها؟

(المقصود بها الشجارات بين الأولاد والبالغين/ شجار دون أذية/ شجار عادل – كيف يكون)؟

المحور الثالث:

وسؤاله: العمل الجيد.

- **الحقيقة والكذب.** (تستعمل مفردة Wahrheit أيضاً للدلالة على الحقيقة وعلى الصدق كذلك).

(المقصود هنا: الأكاذيب/ الصدق والكذب/ متى يتوقف المزاح؟ / الكذب الاضطراري)..؟

- **الخير والشر.** (Böse und Gut)، نلاحظ أن مرادفة Gut تفيد الخير وكذلك الحسن/الجيد، التي يقابلها لفظ schlecht سيء.

1 – ما هو الفعل الحسن/ الجيد، وما هو الفعل السيئ/...

المحور الرابع:

وسؤاله: عن الحق، الدولة والاقتصاد.

- **القواعد والقوانين:**

مثال: هل القوانين تُطاع دون استثناءات؟ /..

- **الفقر والازدهار:**

الغنيّ والفقير في الحكايات الشعبية/ الفقر والاكتفاء/ الرخاء في ألمانيا.

العيش في ظروف العوز/ مساعدة الفقراء.

المحور الخامس:

وسؤاله: عن الطبيعة، الثقافة والتقنية.

- الحياة من ومع الطبيعة.
- ماهي الطبيعة؟ / وجوب أخذ موضوع حماية البيئة بجدية/ تنازل أو ربح/ ما هو القادم الينا؟/ إنقاذ أرضنا (كوكبنا).
- الحيوانات ككائنات حية تعيش معنا.
- بمَ يتميز الإنسان عن الحيوان؟ /.

المحور السادس:

وسؤاله: الحقيقة، الواقع والإعلام.

- الإعلام – نافذة على العالم.
- لماذا توجد وسائل الإعلام؟ /..
- جميل؟ – قبيح؟
- من الأجمل؟ من الأقبح؟ / المرء يرى الحسن بقلبه فقط.

المحور السابع:

وسؤاله: الأصل، المستقبل والمعنى.

• من بداية العالم

1 – التفلسف حول البدايات.

2 – من أين جاء العالم؟

3 – العالم كمخلوق.

4 – كيف نشأ العالم؟

5 – فلاسفة يشرحون بداية العالم.

• الحياة والثوابت في أديان مختلفة.

• ما هي الأديان الكبرى ومن هم مؤسِّسُوها؟

• هل يمكن أن تكون الكتب مقدسة؟ /أبنية/ أماكن مقدسة؟

الأعياد والأحكام الواجبة على المؤمنين.

زينة المدينة وتجميل بشاعة العالم

منذ قليل هاتفني صديقي، صاحب زينة المدينة المكروبة، وقد حوَّله الركام إلى فيلسوف، حدثني عن الوجود واللاوجود، وأنهما لا ينفكّان يتقاتلان على متر أرضٍ في ساحة البرج.

عوّض السلطان عليهما بخيمة. وعن الزمان المقلوب إلى أقراط وحِلى في مستودعٍ تجسّد في العدم فأنجب مسخاً للمكان.

وعن تطور العالم وتمدده في جوف امرأةٍ بلا قضيب أو دنس.

بعد أن حوّله الركام –بعد عدة أسابيع– إلى كومة من الآثار والذكريات والصور، وإلى رقم في ملف التعويضات.

زارني في مدينتي الضبابية الباردة، وقد تظاهرتْ ذاتُه من الركام وتعرَّفت على نفسها، أنها أختُ العدم.

وبعد أن جلا عن معدنِ نفسهِ غبارَ السوق والعمل والناس والتقوى والدجل اهتدى، بعد أن شاهد بأم العين والعينين، رفوف البناء –الذي ادّخر جنى العمر فيه– زينةً وخواتم وعقوداً كان يتفاخر بتقديمها وعرضها على فتيات المدينة والضواحي، وقبلة سعيهِ، حكمةٌ من قولٍ حكيم مأثور له، لا ينفك يردده: «البشاعة تحتل العالم، وأكثر ما ينبغي فعله هو تجميل هذه البشاعة!».

بعد أن صيّرته القاصفات حطاماً، اهتدى إلى حل معضلة الوجود وأصله من عدمه؛ قال:

وجود الضوء بلا حركة هو «لا شيء». إذن الحركة هي سبب وجود الضوء. وهي كذلك سبب وجود عبد الودود. المولود قرب الحدود. على ما تذهب إليه الأغنية.

لأن الوجود بلا حركة هو «لا شيء»، أي لا وجود وليس بالضرورة عدماً.

قياس الحرارة على الأرض هو «نسبي»، أي بالنسبة للأرض.

مقياس الحرارة في الكون هو درجة معينة من البرودة تحتها لا وجود وفوقها وجود.

الحرارة والتمدد شكلان من أشكال الوجود.

لا وجود في العدم، تعني أن الكون يتمدد في العدم.

الوجود يتطور، يقتضي عنها تمدد الكون، وهذا شكل من أشكال تطور الوجود.

الوجود أوجد نفسه بنفسه.

التمدد سبب الوجود.

الوجود يهرم ويتجه إلى اللاوجود/ العدم.

التمدد أوجد الزمن. أي أن الزمن لم يكن موجوداً.

الحركة أوجدت الزمن، أي أن الزمن شكل من أشكال الحركة والتمدد..

لو لم يكن هناك موجود يعي الوجود لكان الوجود ليس موجوداً.

الوجود يعي وجوده.

الوجود هو نتيجة احتمالات.

الوجود صراع بين الوجود واللاوجود (العدم).

الكون موجود وهو يتمدد في اللاوجود.

«الوجود في صراعه مع اللاوجود يلجأ إلى الاحتمالات، أي إلى الوجود».

انتهى بلاغ الوجود والعدم!

عدَّاد العمر

كأنما العقل عندما ينشد الراحة يعبث بسوّيته.. وأنّ لحظة توقفه عن العمل، كأنما تتوقف لعبة العمر ذاتها هذه، كأنها عدَّاد سخيف، رتيب، ومؤلم! لا شك أنّ لقطةً بارعةً للحظات عمل الدماغ مع الآلة، الحاسوب، والزمن، سوف تضيء لنا الكثير من عتمات أسرار الحياة!

أعتقد أن مسألة توالي التكَّات والثواني مطروقة من قبل، ولكن ما يميزها هذه المرة، هو شكل وعينا الحديث لها، ووجودنا الملتبس مع الآلة، وبالتالي، سيطرة هذه الآلة على زمننا الخاص، عبر قدرتها المدهشة –حتى الملل والرتابة– على كشف سريان زمننا الخاص أمامنا على شاشتها منذ بدايته، وإن شئنا أن نقبع أمامها، لفعلتْ ذلك حتى النهاية!

لو تأملنا لحظات الهدوء الخالصة – (بلا آلاتٍ حديثة)– المشبعة بالوحشة الطبيعية وهدوء الذات والبال، لبدا زمننا الداخلي كذلك بطيئاً، ثقيلاً، وكأن ساعتنا الداخلية –(أو حاسوبنا البشري)– تقوم بنفس العملية، ولكن على شاشة عقلنا!

تمارين على الوحدة الوجودية

«إنك في هذا العالم كائن وموجود»، جملة قد لا تعني الكثير!، ولكي تدلّل على هذه الكينونة وعلى هذا الوجود! ربما لا يكون هذا بالأمر الشاق! فأنت تنام مع النائمين وتصحو أحياناً متوتراً، لهاجس تريد أن تبدّده، بأن تكون حاضراً على الموعد في بعض المواعيد، كذلك ربما لا يكون الأمر في غاية الكمال، أو صعب المنال، أن تكرر لوازم بعض الأمور أو العادات اليومية، كإلقاء التحية أو الإجابة عن سؤال غير مغرض.

أن تكون!، تعني أن توجد في المكان والزمان المناسبين، في الآن نفسه مرةً، أو مرات متتالية، أمر لا يجدر ربما البرهنة عليه.

هكذا، في الوحدة، في المكان الطبيعي، نسعى أن نعثر على آخرين، ربما لكي نتأكد من وجودنا بعد في هذا العالم، مع علمنا أننا لا نستطيع التأكد من أننا سوياً مع هذا الموجود الآخر أمامنا، كائنين في هذا العالم، أم في عالمٍ أو واقعٍ آخرين!

أن تفكر فتعي أنك موجود، ليس ذلك بالأمر المحال، فأنت موجود طالما أنك لم تمت بعد، بكل بساطة هذه الجملة. سيقول الواقف قبالتك دون كثير عناء –إن لم ينعتك بالخبل وباختلال الحال والسوّية! وأن تموت يعني أن أحداً قد رمى على شاهد قبرك وردة الوداع الأخير، فهذا لن يدخل بعد تلك اللحظة في عداد اهتماماتك

الخاصة، وإنما سوف يكون في عداد جداول موجودين وكائنين آخرين.

والوجود لا يكون فقط في اختبار اللحظة الواحدة، أو في محاولة الفهم أو التلمس، لبعض قوانين الطبيعة، كتتالي الزمن أو تدفقه، وانشغال العلل بأدوارها، وبما سيلي هذه الأدوار من حالات ونتائج، أو بمسألة الضرورة والأحكام اللازمة لها، إذ لا بد لكل ضرورة من حكم. أو كما يقول المثل، إن للضرورة أحكامها!

هذا ما يحدث لنا عادة عندما نكون وحدنا في طريق موحش أو غابة متمادية في الوحشة. أي أننا في اختبار الوحدة مع الطبيعة.

غالباً ما نرتاب ونسعى لتوكيد تعالينا عن هذه الطبيعة، أو ارتفاعنا عنها في البعد الحي المفكر، لفعل التيقن من حضور ثنائية أنانا والطبيعة، وذلك عبر بحثنا عن سائرٍ آخر فوق التراب، وكأن وجودنا هذا لا يكون إلاّ بالإضافة إلى كائن آخر.

أتراه الخوف من أن نكون متروكين لوحدنا في الوجود مع الطبيعة. أم أنه هلع القبر الأصلي من الغياب من الحضور في الأشياء، والأسماء، والمكان، والزمان!

اختبار الوحدة اليومية مع الوجود الظاهر في الخارج هذه، لا تبدو هي نفسها لدى جميع الناس والأعراق.

ويبدو أنها تمتد إلى أعماق النفس البشرية، وتعبيرات هذه النفس وأشكال تعاطيها مع ظاهرة الجسد في الطبيعة والزمان. وفي تقاليد الثقافة المعبرة عن أشكال الفهم لوجود الذات في العالم، للتصوُّر الخاص بطبيعة هذا العالم وأشكال حضوره.

لا أعرف إن كان التعميم في هذا المجال مقبولاً أو ممكناً، أو إن كانت الملاحظة العيانية جديرة بالتدوين! غير أن أعراض الموضوع محمولة على كل ذات خاصة، والتجربة في هذا الإطار عامة بعموم الموجودين.

فالوحدة (كما يحلو لي أن أصفها): حالة تستبد فيها الأنا بخاصية الوجود كله وحدها –على الأقل– في بُعد واحدٍ من أبعاد الوجود المتداولة، وهو المكان. أي أن هذه الذات تستحوذ على مساحة الوجود في ذاك المكان لوحدها بمنأى عن أنه في الشارع الذي قد يكون غير بعيد كثيراً تضجُّ حيوات مارة وعابرون كثر في ذاك المكان وفي نفس الزمان من لحظة الوجود هذه.

إذاً هي لحظة امتلاءٍ لذاتٍ بعينها على عين المكان في حين ساد غياب حضور الآخرين.

لا شك أن جوهر فكرة التسليم بوجود الكائن في محدودية الحيز الزمني، وإشغاله هذا الحيز المكاني الصغير، وعلاقته بمحيطه والأشياء وما يرسخ من وجود صورها في ذاكرته، وهل يمكن لها

بالتالي أن تحمل وجودنا أو مرورنا في ذاكرتها -إن وُجدت- كالأشجار والحيوانات التي تمر في حياتنا!، هي التي ستقودنا، على الأرجح، إلى فكرة «الوجود هنا»، و«الوجود هناك»!

وقد يدخل كل ذلك في صميم القلق الوجودي الذي يعتري الإنسان الحر.

نعم فقط وحدها الأرواح المتمردة هي التي لا تُسلِّم بمعطى الوجود كما هو! بل تظل تسعى أبداً.

وأحسب أن هذا هو مظهر القلق الوجودي، أن تصبغ مشاركتها الوجود مع الكائنات.. وقد تكون هي السر أو ربما الشبق الذي يكتنف المعنى الكامن، في عملية الخلق والإبداع، التي تتخلل تلك اللحظات في مسارات الانتقال والتعبير والتمظهر، من حالات الوجود بالقوّة، إلى شذرات قوّة الوجود بالفعل!!

فن أن تكون دائماً على صواب

يحاول الفيلسوف الألماني شوبنهاور، في كتابه الموسوم بهذا الاسم[1]، أن يبيِّن كيف يسعى الإنسان دائماً أن يدعم حجته، وأن يرفدها بالدعائم من كل حدبٍ وصوب، وكيف أنه يتوسل لذلك كل الوسائل والطرق والمهارات المنطقية والبلاغية والخطابية في سبيل إثبات أن قضيته متينة الأسس، عظيمة المقدمات وراسخة وقاطعة النتائج..

وقد عرّف شوبنهاور (1788 – 1860) كتابه هذا، بأنه كتاب في الجدل المرائي وفن المماحكة وإثارة المغالطات.

وغالباً ما نلمس هذا الأمر في يومياتنا وخاصة إذا ما كنا قادمين من بلاد كبلادنا، حيث السياسة هي مخبزنا اليومي إن لم تكن أهم، ولهذا تراها تنتشر لدينا المقولة المأثورة: «ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان!»، فتراه يشقى ويهوى السياسة حتى آخر أيامه...!

ولكن ما يثير في نقاشاتنا هو ليس عندما يكوِّن المرء لنفسه موقفاً سياسياً ويصير يبحث له عن الحجج والدعائم التي تسنده وتقويه في مواجهة الأفكار المقابلة أو المنافسة، فهذا أمر لا ضير فيه، ولكنه عندما يحوِّل رأيه الموالي لهذا الفريق السياسي لحالة من القداسة التي

([1]) آرثور شوبنهاور، فن أن تكون دائماً على صواب. منشورات ضفاف ط. 1، بيروت 2014.

غالباً ما تنشرها الأيديولوجيات المحكمة، فإنه عند ذلك لا يعود يهمه مناقشة هذه النقطة أو تلك بالمفرد، لكنه يصير يذود عن المجمل العام، عن التيار أو الحزب الذي يؤلِّهه بالمطلق ولا يقبل معه أي نقاش قد يطاله بأي نقد..

وعند هذه النقطة يكون قد غادر المنطقة التي تحدَّث عنها شوبنهاور، وربما صار أكثر عند أمير ميكيافيلي، في الغاية التي تبرر كل وسيلة.. وليس كذلك عند سفسطائيي اليونان، الذين كانوا يحاججون دونما نهاية لمجرد المحاججة..

وتراه في هذه الحال يصير يذود عن رأيه المطلق ليس بالحجة والدليل الذين أشرنا إليهما، وإنما بتوزيع أدوار المنافحين المتصدرين لمواجهة المخالفين في الرأي؛ العابثين في هناء القطيع وسعادته وطاعته، فيقسمون الأدوار فيما بينهم؛ قسم يتولَّى عزل وتجاهل وإثارة علاقات القرابة بما يمكن أن يؤثر على مواقف المعترض من هذه البيئة أو المحيط. وقسم آخر يتولى القيام بالأمر على طريقة «أولاد الأزقة» البارعون بالشتيمة والسُّباب واللبط واللكم أو العض وتكسير العظام.. وهذا ما يكون عادة عمل أجهزة العسس في دول الاستبداد وجمهوريات الموز..

بالعودة إلى شوبنهاور ومراده من هذا الكتاب.

في الواقع يبدو هذا الموضوع بديهياً وقد يتساءل المرء إن كان ثمة حاجة أو داعٍ فلسفي ومعرفي أن يُجهد فيلسوف كبير كشوبنهاور نفسه به.

في الحقيقة، هذا الكتاب غير معروف كثيراً لهذا الفيلسوف، الذي عُرف أكثر في ألمانيا والعالم بكتابه، «العالم كتصوّر وإرادة».

وقد بلغ به الطموح والاعتداد بالنفس أن يضع محاضراته –بعد أن أصبح يدِّرس في جامعة برلين بالتوازي؛ أي في نفس الوقت الذي كان فيه الفيلسوف فيليلهم هيغل يعطي محاضراته. بالطبع لم يستطع شوبنهاور أن يجذب الجمهور والمستمعين من أمام فيلسوف ألمانيا الأكبر. وقد كان يعتبر هيغل وفيشته، وشيلنغ ليسوا بفلاسفة وإنما مهرجون، ولكنهم يجيدون استمالة الجمهور بأساليبهم الخداعية والكلامية..

بإزاء هذه الحال، اعتزل شوبنهاور التدريس وانعزل عن الحياة العامة في مدينة نائية.. ويُعَدُ شوبنهاور من الفلاسفة القلائل الذين يمكن إسقاط فلسفتهم على أسلوب حياتهم.

وقد عانى هذا الفيلسوف الكثير في حياته قبل أن ينال الاعتراف به كفيلسوف كبير. وقد بدأ في أواخر حياته يلمس الاهتمام المتزايد بفلسفته. وقد ذاع صيته وانتشرت فلسفته بشكل كبير وإلى خارج حدود ألمانيا بعد وفاته، خاصةً أن الفيلسوف الألماني فريدريك نيتشه قد تأثَّر به بشكل جليٍّ وكبير.

حديث في حداثة الآخرين،
وفي معالم طريق حداثتنا

عندما خرجنا من المكتبة، لنصوّر المقررات التي طلبها الدكتور منا (في مادة الاستشراق)، لم يكن صديقي المغربي الجديد، قد أفصح لي بعد عن الشخصية التي تعبّر عن تصوره الفكري.

صوّرنا المقرر، وعدنا إلى المكتبة. سألته عن مرجعٍ ألمانيٍّ كان الدكتور قد ذكره لنا يتضمن ترجمة لكثير من المصطلحات العويصة. سألني عن اسم المؤلف. بحثنا معاً. لم نجده، إذ لم يكن الاسم واضحاً في ذاكرتي، فرحنا نتفقد كتب آباءنا وأجدادنا الأولين.

هذا ابن عربي وفتوحاته المكية، وإلى جانبه رقَدَ ابن حزم الذي بدا أن صاحبي استأنس برفقته، فيما جلست القرفصاء، ليتسنى لي الاطلاع على جثمان الفارابي الذي سُجِّيَ في كعب أدراج الرفوف المتاخمة لابن عربي وابن حزم والغزالي.

قلت لصديقي ممازحاً:

«هذا تراثنا يرقد ها هنا على هذه الرفوف. ولكن لمَ تراهم أنزلوا الفارابي إلى هذا الدرك، فيما أعلوا من شأن ابن حزم وابن العربي». فقال:

«لأن ابن حزم أنتج جديداً أصيلاً من بيئته، فيما اكتفى الآخر بشرح ونقل وتقليد ما لدى غيره».

تذكرت إجابة هذا الدكتور نفسه –وهو بالمناسبة: البروفيسور المستشرق الألماني الهر رايشموت[1] على سؤالي له ذات مرة عن سرّ هذا الاهتمام الكبير بالغزالي فيما تغيب أسماء كبيرة أخرى كابن رشد!! أجابني حينها: أن ذاك يُدّرس في قسم الفلسفة. وعندما بحثت لاحقاً في مكتبة قسم الفلسفة وفي مقررات التدريس فيها لم أعثر على ذاك الأثر الكبير لابن رشد، الذي على ما يبدو ومع مرور الزمن، ولكثرة ما عملوا وأفاضوا في الاشتغال على أرسطو وعلى أعمال شارحه الأكبر، أنهم استنفذوه وتخطّوه بعد أن تفرَّع الشرح وتوسَّع، وتمّ تخطي وتجاوز المعلم الأول ومنطقه الصوري، غاب حينها الشارح الأكبر كلية بعد أن أفاد ذلك في إنجاز الغرب لنهضته وحداثته.

لكن صديقي لم ينسَ أن يسألني قبل أن يتابع عرضه عن المفكرين الذين يمثّلون القيمة الكبرى عندي.

احترتُ في السؤال غير المتوقع في هذا الظهر المتقلِّب بين غيوم ألمانيا وصحراء المشرق والمغرب.

قلت في نفسي، إن جواباً يبدأ ببعض الأنبياء والرسل من وزن نبيٍّ كمحمد والمسيح؛ وإماماً كعلي، ويمرُّ على جيراننا الإغريق ليستعير

([1]) شتيفان رايشموت، بروفيسور في الدراسات الإسلامية والاستشراق جامعة بوخوم غرب ألمانيا.

أسماءً مثل أفلاطون وأرسطو، ويعكف على بعض المدن الألمانية المجاورة بداعي اللياقة والكرم العربيين، ليستعين ببعض أعلامها ككانط وهيغل، علّ هذا يفي بغرض هذا السؤال ويلف دعوى الحرج فيه إلى سواء السبيل.

كاد الجواب أن يمضي عابراً سبيله مع سيل الكلام الذي يُسال كأشياءٍ أخرى كثيرة بأرطالٍ كل لحظة في الشوارع والحانات، لولا تلك النظرة التي رمقني بها عند مطلع الإجابة؛ أي عند ذكري لاسم نبي الإسلام محمد. وعلى الأرجح لأنني لفظته دون تبجيلٍ وتفخيم مميّز، ودون أن أتبعه بالمتلازمات المتداولة والتي يستعملها المسلمون كلما ذُكر اسم نبيهم أو أحد خلفائهم!

- وأنت؟ سألته.
- أنا أسير في طريق، بدأت بتلمس معالمه، يمضي بين جدارين أُسدلا على عالمنا وحقل معارفنا، أي ثقافتنا، وأرخيا بظلال التشويش والتجميد والتخريب عليها، وجعلاها تعاني ما تعانيه.
- ماذا تقصد بهذين الجدارين؟
- أقصد فريق الحداثيين المستغربين، هؤلاء في واقع الأمر هم الأكثر تقليداً، لأنهم لا يأتون بجديد، إنما يقلّدون الغرب. أمّا

الآخر، فهو فريق جامد متزمّت جعل من ثقافتنا ثقافة ميتة لا تصلح لحياتنا وشخصيتنا.

- ومَن من أعلام الساحة يعبّر عن هذا الطريق الثالث، الذي بدأتَ تتلمس معالمه كما تقول؟

- ثمة أشخاص كثر.

- حسناً، دعني أتلمس معك ملامح أو معالم هذه الطريق، لأنني أنا الآخر، أعاني من وطأة هذين الجدارين وربما جدران أخرى بعد، ولا ألمح في الأفق أية معالم أو تباشير خلاص واضحة!

- أنا أنطلق في تفنيد ما يصم آذاننا به أصحاب التغريب، من أبناء جلدتنا، ولكن ليس عبر تفكيك أقاويلهم، إنما تفكيك منابع أفكارهم، أي تجفيف تلك الحقول التي ينقلون منها؛ أي الغرب؛ أي تفكيك عقل الغرب، أو ما يسمى بعقلانيته. وتوصلت إلى أن هذه العقلانية تقوم في أساساتها وجذورها على مبدأ واحد هو: تأليه العقل.

الغرب أعلى من شأن العقل، وجعله مرجعيته العليا، وجعلوا منه ذاتاً مفكرة. وجذورهم في ذلك، تعود إلى اليونان، الذين عرّفوا الإنسان بأنه الحيوان الوحيد العاقل. فيما الحمار هو حيوان عاقل أيضاً هو الآخر. فهو ذو عقل يرى به ويحدد به طريقه، ينقل له الصورة

ويصدر به الحكم. هؤلاء لهم تراثهم وعقلانيتهم الخاصين بهم.. وهذه المرجعية ليست بالضرورة مرجعية عامة، صالحة وشاملة لكل الأمم. نحن لنا تراثنا ومرجعيتنا الخاصين بنا.

ثم قرأ لي من دفترٍ كان في حقيبته بعضاً ممّا توصل إليه من معالم لهذه الطريق التي ستفك عقدة الشرق وتدمر عقل الغرب وتأتي بما لم تستطعه الأوائل:

الغرب وضع أو يقوم على هذه المعادلة: **العقلانية = الإنسانية.**

فيما هي في تراثنا: **الإنسانية = الأخلاقية.**

أمّا معادلة حداثتنا فهي:

الفعل المبدع، يكون حداثياً ولو خالف حداثة الآخرين. والفعل الحداثي يكون تقليدياً ولو وافق حداثة الآخرين.

في الحقيقة لقد صعقني صفاء تحليله، وكذلك بعض المصطلحات الحاسمة التي يستعملها، وحدَّقت إليه مندهشاً. ولكني تمالكت نفسي المضطربة وقلت: لا بد لهذا المنطق إذن أن يكتنف على توصيف أو تعريف ما للحداثة هذه التي لا تنفك تلاحقني منذ ما قبل أن يصعقني دكتورنا العزيز في ذلك الامتحان الشفهي في الجامعة في بيروت، عندما سألني: (كيف تعّرف الحداثة؟). لم أعرّفها حينها، ببساطة شديدة لأني لا أعرفها، فكيف لي أن أعرّف شيئاً أجهله. كانت الحداثة في ذهني حينها، شيئاً يشبه الموضة وعلى علاقة بالثياب الحديثة

والأجهزة المستوردة من الخارج. لكنني لم أجد هذا الجواب لائقاً، فأجبت بما اعتبرته حينها أكثر جدية وأكثر منطقية، إذ قلت شيئاً عن الأسواق والتجارة كتلك التي كانت مزدهرة في العصر العباسي، وأنها على علاقة بمفهوم الانفتاح التجاري، الأمر الذي لم يعجب الدكتور كثيراً، وسألني إن كنت أريد الإجابة خطياً، فرفضت. على اعتبار أنّ الإجابة الخطية في امتحان شفهي قد تكون دليل ضعف في التعبير والكلام.

لكنني بعد هذا الامتحان السيئ الذكر رحت أتقصَّى وأتحرّى عن تعريفات الحداثة.

الغريب في الأمر أنني وجدت العشرات من الكتب والمقالات، التي تتحدث عن الحداثة أو تستخدم مصطلح أو كلمة «حداثة»، دون أن أعثر في أيٍّ منها على تعريفٍ واحدٍ مانعٍ جامعٍ للحداثة، أو حتى لأي إشارة إلى موضوع تعريفها.

والأنكى من ذلك، أنني وقعت على كتب ومواضيع تتحدث عن ما بعد الحداثة، كأنما الحداثة اللعينة هذه بديهية من بديهيات العقل القبلية، لا تحتاج لتعريف، أو أنها معروفة بشكل لا يرتابه أي شك، ولا تغيب عن ذهن أي عاقل غيري. بالطبع لم تتعدَّ عمليات بحثي وتحرياتي عن الحداثة حدود غرفتي ومكتبتي الشخصية، أو حدود ما يقع تحت يدي من جرائد أو مقالات أو كتب. وذلك عملاً بنظرية خاصة تقول:

أنّ الحداثة التي لا أجدها في غرفتي؛ لن أجدها في أيّ مكانٍ آخر. فأدرت السؤال المشؤوم إلى صديقي الجديد، صديق الاستشراق والفلسفة وعلم اللغة:

- رائع، جميل جداً، ولكن لكي أفهم الصورة جيداً، أتمنى لو توضّح لي ما تعنيه بالحداثة بالتحديد؟

تبسّم بمكر، وعدَّل في جلسته، قبل أن يشرع في الكلام.

- الحداثة مصطلحٌ مبهم، غير واضح، وتعريفه صعب. والمرء يقع على تعريفات كثيرة لها. وهذه تختلف باختلاف المعرِّفين وباختلاف البيئات والثقافات.

ابتلعتُ ريقي –كما يقولون– وقلت: هي هكذا إذن، مبهمة وغير واضحة، ومختَلفٌ عليها، وليست بديهة البداهة، أو بهيّة كعين الشمس. كما أنها ليست سوقاً من أسواق بغداد هارون الرشيد. ولكنها ليست في النهاية متضمنة في تلك الجملة التي أوجزها دكتور الامتحان الملعون، اختبار الحداثة والتقليد ذائع الصيت، (.. بأن الحداثة هي الاستعداد لقبول أي جديد أو كل جديد) على اعتبار أنّ هذا الجديد سوف يظل إلى أبد الآبدين جديداً لا يبلى، وأنه لن يغدو – بعد عهد قصير على ظهوره– قديماً هو الآخر، وأن متتبّعه لن يوصف بأنه تقليديٌّ بليد الذهن، لا حسَّ لديه للإبداع والتجديد والتغيير!

في هذه الأثناء كان صديقي الجديد، ينهال بسوط النقد الحازمي على هؤلاء المثقفين والمفكرين، الذين يُسمَّون حداثيين، فيما هم في حقيقة الأمر التقليديون الحقيقيون؛ لأنهم يأخذون ما لدى الغرب ويطبّلون ويزمرون له، زمر التغريب هؤلاء، الذين أشاعوا التخريب والترهيب...

- حداثة مستغربينا، هي تقليد ونقل أصليين، والأنكى أنها تقليد أعمى ونقل ليس عن أصولنا، ولكن عن أصول الآخرين، غيرنا. وهنا بالذات، تكمن حسنة مقلدينا المتجمدين على هؤلاء.

في الواقع بدأت أشعر ببؤس حالة هؤلاء المثقفين، الذين لا يفلحون إلاّ في تشويش الثقافة ومفاهيمها وإضفاء أجواء الرهبة والغموض والتعقيد عليها..، وذلك ليس لغاية مفيدة أبداً، سوى ظهورهم بمظهر المثقفين الذين يعلمون ما لا يعلمه غيرهم، ويصيرون يتشدقون ويرطنون ببعض المصطلحات الأجنبية.

وأنا لا أزال أذكر في حقيقة الأمر، اللحظة التي تشكلت فيها «عقدة الحداثة الملعونة» هذه عندي؛ وجعلتني أتطيّر وأتوجسُ من هذه «الحداثة» المرعبة أو «الفزّاعة». وذلك عندما قلت في مجلسٍ لبعض معارفنا من «المثقفين»، الذين يكبروننا سناً، ما معناه: «إن الحداثة هي من الحديث أي الجديد، الذي نستبدله بالقديم، وهذه فطرة الإنسان أو أغلب الناس الذين يتطلعون إلى كل جديد ووافدٍ وحديث،

فيلقون بقديمهم ويستقبلون جديدهم! وهكذا بهذا المعنى نكون كلنا حداثيين، أو على أبواب الحداثة..».

حينها رمقني أغلب الحاضرين، فيما صعقني أحد المتبجحين، برأيٍ أفاد بسطحية ما أدليت به، وأنّ المسألة معقدة جداً وليست بهذا التبسيط أو هذه البساطة. فلذتُ بالصمت حينها ورحت أتأمل وأستمع، وقد أزعجني هذا الأمر، ولكنني –رغم عناد طبعي– عادة أُجِلُ السعي نحو الفهم وبلوغ المعنى الذي يسمو عندي على كل أمرٍ آخر. ووضعت منذ ذلك الحين هذه الحداثة المستعصية على الفهم في أعلى لائحة الأعداء، الذين يجب فكفكة أصفادهم و«فصفصة» عظامهم، والنيل من هيامهم!

ولكن سؤال دكتورنا في امتحان "الحداثة والتقليد" في بيروت حينذاك، باغتني وأنا لا أزال بعد في أول معتركي مع هذه الحداثة المزعومة. وبدا أنني لن أعيد ما ذكرته في ذلك المجلس المشؤوم، فلا أنال الرضا، ولكن الوجوم، وربما الرجم الرجيم.

ولعلّ الفكرة التي فاتتني في تعريفي السالف للحداثة والجدالات حولها، هي مسألة «مقاومة» أو «ممانعة» الحالة القديمة لاستقبال الحالة الجديدة، لما قد تتوجسها من حالة التغيير القادمة هذه، وما يمكنها أن تطيح باستقرار الحال والمصالح التي تكون قائمة من قبل!

لكني تابعت رجم هؤلاء المثقفين في رأسي، كما لمحت وجه دكتور الحداثة بينهم ينظر إلى بأسىً كأنه يريد إفهامي شيئاً، ولكنه كان في معرضٍ لا يمكنه فيه الكلام، كأنه في غرفة تحقيق أحد الجيوش العاتية. وخزني ضميري اللعين، المغمود في مكان ما في خاصرتي كنصل أبديٍّ لا يموت أبداً، لا بموت الأب ولا الأم، ولا حتى الإله نفسه.

طلبت من صديقي أن ندقِّق قليلاً في حالة هؤلاء المتهمين؛ لنبدأ من حملة نابليون وإصلاحات محمد علي وصدمة التونسي والطهطاوي وطه حسين وغيرهم بالغرب. فهؤلاء أصيبوا من شدة الصدمة برهبة قوية سلبتهم ألبابهم وأُصيبوا بالاستلاب، أو بالإعجاب المرضي، فراحوا يترجمون، كل ما وقعت أيديهم عليه. ويرجمون كل ما كان تحت أيديهم. وهم بهذا المعنى مترجمين، أو في أحسن الحالات مشتغلين على التراجم، شرحاً وتوسيعاً..

وأنهم كانوا ليبقوا كذلك لو أن مجال تداولنا الثقافي، كان يشتغل بآليات النقد والغربلة لهذه الواردات الجديدة. غير أننا لم نكن كذلك آنذاك. أي أننا لا نتوفر على مؤشرات أو دلائل تاريخية واجتماعية وفكرية، تشير إلى أننا كنا في طور إنتاج نهضتنا وحداثتنا الخاصتين بنا، وجاء هؤلاء وعطلوّا أو شوشوا، وبالتالي صادروا ووأدوا هذه النهضة في مهدها، ليتبوءوا هم نهضة مزعومة وواهمة.

ثمّ إنّ هؤلاء وأتباعهم قد فقددوا حظوتهم وبريقهم، والباقي منهم، إما منفي أو منعزل، أو في أحسن الحالات منشق يعيش خارج دائرة ثقافته. وترى الساحة اليوم في أيدي تيار آخر.

- لا.. إنهم لا زالوا يسيطرون على الساحة، وعلى مراكز السلطة والتعليم، وأنا أتحدث على الأقل عن بلادي (المغرب العربي)، وهم ما زالوا ينتهجون نهج الإقصاء والإبعاد للآخر المختلف.

- حسناً، ربما، ولكن مسألة الإقصاء والإلغاء هي طبيعة عامة مستبدة بجميع التيارات السياسية العربية، فلا ميزة لأحدٍ فيها على الآخر، إلا بالنسبة. ولكن لنعد إلى موضوعنا! فأنا متشوّق لمعرفة بديلك العقلي، لذلك العقل المعمول به في الغرب –وربما على ما أعتقد في العالم أجمع– على الأقل لغاية الآن. ولكن رغم ذلك، أنا لا أستعجلك الجواب! إذ يمكنك أن تأخذ وقتك في الإجابة على هكذا سؤال على هذه الأهمية والخطورة! وربما قد يكون مفيداً ومساعداً لك، كتابة الأفكار وصياغتها خطياً. على أن تطلعني عليها لاحقاً، إذا شئت!

بدا عرضي الأخير –رغم الجدية والنوايا الحسنة– أنّه أثار لديه مشاعر مشابهة لتلك التي شعرت بها لحظة عرض دكتور حداثتي

عليّ الاستعانة بالقلم والورق للتعبير. فسارع صديقي هو الآخر للبدء بالإجابة:

- لا، إعطاء معالم هذه الطريق الأولية لا يحتاج إلى مثل هذه الأمور، والأمر باختصار شديد يدور حول مرجعيتنا، التي خصّنا الله عزّ وجل بها، أعني الوحي، الذي هو أعلى من العقل. والفكر الذي يثير إعجابي، هو رؤية ابن تيمية وفكره.
- هذا ما حدست به منذ البدء، ولكن مؤلفات ابن تيمية معروفة منذ القرن الثالث عشر، وليست جديدة، أمّا كيف ستقدّم من خلال ذلك صياغتك لعقلنا الجديد وحداثتنا الجديدة الخاصة بنا، فهذا ربما الجديد الذي تشير إليه، وهذا ما يحتاج منّا إلى جلسات أخرى قادمة.
- نعم، بالطبع، فكر ابن تيمية ليس مجهولاً، ولكنَّ الاكتشاف الجديد الذي أراه هو في تطبيق هذا الفكر اليوم على واقعنا، كونه يشكل المدخل الحقيقي، والذي ينتمي إلى هذه الحضارة العظيمة، وسوف يقودنا إلى قيامة عقلانتينا، وإحداث حداثتنا، ونقض المبدأ الأرضي والمادي لحضارة الغرب.

عند هذا الحد افترقنا أنا وصديقي الجديد، المتلبس شخصية «ابن تيمية»، وأنا أفكر في طبيعة العقل الذي أحمله، وفي أي خانةٍ من خانات رقعة صديقي تراني أتموضع، وماذا تراها كانت حداثة دكتوري

القديم، وكذلك حداثتي أو تعاستي تلك!؟ وكيف عساها ستغدو حداثة صديقي الجديد أو حداثتنا الجديدة الخاصة؟! أم أنّ ذلك كلّه لن يعدو كونه استعادةً لجدالات الفلاسفة والمتكلمين الإسلاميين القدامى أو المحدثين منهم على حد سواء، حول العقل والنقل، وحول الأولوية لمن منهما على الآخر.. والله أعلم.

الجزء الثاني:

شؤون وشجون لبنانية

غرام وانفصام و.. انتقام

هذا هو حالنا نحن اللبنانيين المغتربينَ ممّن يعيشون انفصاماً في أدوار حياتهم.. فنحن نمثل أو نحاول أن نمثل أو نتقمَّص عدة أدوار.. فنحن نعيش ها هنا بأجسادنا وحياتنا وأشغالنا اليومية، ولكن بالنا وفكرنا دائماً هناك، فيما جرى ويجري هناك في هذه الباخرة وذلك المستودع الذي عثروا فيه على خمسين ألف ليتر من المازوت، وهذا الذي قضى حنقاً، وذاك الذي سقط حرقاً أو خنقاً واختناقاً.. وهذا البوست من هناك، على الأرجح من كندا، ولكنه يتحدث عن عمالة المعترضين على قدوم الباخرة، فيصعد له آخر من لندن واضعاً علامة «أوكي» ذات الأصبع المرفوع، ولكن إلى الأسفل هذه المرة، علامة عدم الرضا وربما من باب المناكفة أو حتى التهديد؟!

هذه هي حالنا يا أيها المقيمون، ونحن إذ نقول هذا لا ترانا نفعل من باب «النّق» الإضافي أو أن نحمِّلكم جميلاً، والعياذ بالله، بل إنه من باب طرح الحال والتساؤل أو السؤال!

لا أعرف كم شخصاً لبنانياً على هذا الحال والمنوال، لكني أحسبهم بالمئات، بل بالألوف وأكثر..

نعم قد ينسى كثير من اللبنانيين أن ثمة ما يقرب من 25 مليون لبناني أو من أصول لبنانية يعيشون خارج لبنان، وإن ما يقرب من 5 ملايين فقط يعيشون في لبنان!!

إنه وطن الهجرة، أو محطة الهجرة، الذي لا ينجب إلاّ مهاجرين أو ساعين للهجرة.. نعم هذه هي حالنا ولا أعرف منذ متى، ولكنه مرض عضال وإدمان لا نجاة منه ولا مفر، أو غرام وانتقام، في الآن نفسه، يشتدُّ مع الأزمات ويخفت في الانفراجات فكيف سيكون عليه الحال في الإفلاسات العامة، واللحظات المصيرية التي لا تنتهي؟!

لا شك يا سادة أن لدينا هنا زوجات وأولاد وأشياء كثيرة نفعلها، وهمومنا هنا للأسف هي من نوع آخر، وأعرف أنكم ستصفونها بالترف حيال مشاكلكم..

ولكننا شئنا أم أبينا نحملها معكم ونعيشها ولو ليس بالوطأةِ نفسها...

لكن هؤلاء، مَن يعيشون هنا معنا، أو نعيش بينهم، يتذمرون أحياناً كثيرة من «دوشة» أخبارنا العربية، ومن طيلة الوقت الذي نهدره في هذه المهاترات و«البوستات» والمعارك الافتراضية التي نخوضها، وحجم العداوات التي قد تتأتى عنها، وبعض الصدامات وبعض الصداقات الجديدة التي نضيفها إلى السجل الرقمي الخيالي.. لكن من دون معرفة الفعالية أو التأثير الحقيقي لهذه «العجقة» الفايسبوكية الفضائية؟! لا نعرف حقاً ما هي انعكاساتها في الواقع المحسوس؟! سوى بعض التفاعلات من هنا وهناك، وكأنها «تنفيسات» عامة عمّا تختلج فيه صدورنا!!

إنهم يتذمرون ويضجرون أحياناً من هذا الحال، وهم في الأغلب محقُّون في ذلك، ليس لأنهم أقل وطنية أو أضعف حِسَّاً بالمسؤولية، بل لأن هؤلاء إمّا زوجات أجنبيات، أو نصف ذلك أو ولدوا هنا، كحال أغلب اللبنانيين المهاجرين، وأمّا الأبناء فهم بأجيالهم الثالثة والرابعة، قد جاؤوا إلى هذا العالم في الأوطان الجديدة التي تهجَّر أو هاجر أهلهم إليها.

هؤلاء الآباء -أي نحن- المسكونين في هذا الجرح الدفين، أي الأجيال التي ترعرعت ولم تعرف في طفولتها إلاّ صوت الرصاص والقذائف والدمار، ودفعنا أثمان حروب الأهل من دمائنا وشبابنا وعمرنا..

صغاراً كنا عندما حملنا ذلك الإثم المجهول، ولفظنا الأحزاب الزائفة أو هي لفظتنا، وقد أكلتنا الأيديولوجيات، وظننا أننا بتركنا للبلد ننجو من لعنته ومحنة الانجذاب والسكون فيه وإليه، لكننا في مهاجرنا اصطنعنا حياةً؛ هي دائماً نصف حياة، أو في المنتصف، فنحن لا ننجح أن ننتمي إلى هذا «الهنَا» المعنوي والمكاني المتاح ها هنا، ولا نفلح في الانفكاك من هذا «الهُناك» الارتجاجي المُنهك والمشحون أبداً هناك...

الفساد بين "غوغل" وسقراط؟!

سألني ابني عن معنى كلمة الفساد، فاحترت بما عساني أقول فلا أتوقف، فيشطُ الموضوع ويتشعب كالعادة. خاصةً أنني بدأت أسأله هو؛ في محاولة مني لخروج التعريف المنشود على لسانه، فيكون أعمق الرسوخ عنده. وهي طريقة بائسة طويلة مملَّة في أغلب الأحيان، وهي سوف تدور وتطيل الجولات وربما الحشو قبل الوصول إلى الغاية المقصودة. فسألت ابني (14 عاماً):

- أين برأيك تحدث أعمال الفساد؟

فتدخلت هنا ابنتي الكبرى (16 عاماً)، فيما بدا أنها محاولة لإنقاذ أخيها من براثن هذه الورطة العويصة، وقالت:

- ألا تستطيع أن تجيب على السؤال بجملة واحدة، دون الذهاب إلى العصور القديمة والبدايات؟

بدت في قولها منطقية حادة وصارمة كأبهى تعبير عن طريقة تفكير العصر وربما المدرسة الألمانية! وهي كانت على الأرجح تبنى على نقاش سابق حول النباتيين واللحميين (أكَلَة اللحوم الحيوانية)، عندما حطَّت رحالنا عند العصور الحجرية..

فيما قال ابني في محاولة لرأب الصدع فيما بين البينين:

- لا بأس، أنا أريد أيضاً أن نتعمَّق في الموضوع!

بأي حال، بدا نقدها اللاذع ذاك في محله وفي ميعاده، إذ أنني أعيش هذه الأيام في سياق مراجعة عامة لمسار من الحياة ونمط العيش، كان مستغرقاً ومشغولاً بقضايا كبرى أو صغرى كنت أظنها ذات حيوية وقيمة ما، وتبيَّن أنها كانت مضيعةً وهدراً عظيماً للوقت، وأنها كانت سراباً وأوهاماً أكثر منها حقائق.

ما علينا، فلنبقَ في الموضوع قبل أن نغرق في أصل الدولة والوظيفة العامة والموظف ودوره وظاهرة الفساد!

أجبتُ ابنتي:

- أنت محقة. لكنني أسعى، لأن يخرج الجواب من فم السائل، وذلك من خلال إثارة أسئلة واشتغال حوار ومناقشة تُفضي للوصول إلى التعريف المنشود أو الإجابة المطلوبة. وهكذا طريقة، أظن أنها ترسِّخ الأفكار وتعمق المعرفة والفهم.
- لكن يا بابا أحياناً لا يكون المرء مهيَّأ لسماع قصة طويلة، أو قد تكون الكلمة قد مرَّت معه، كما هي الحال مع أخي الآن في فرض مدرسيٍّ بيتيٍّ، ويحتاج لجواب مركَّز ومختصر.

ردَّت ابنتي، وكأنها تطيّب خاطري، بعد أن لاحظت أنها ربما جرحتني في سؤالها الاعتراضي الأول.

فأجبتها:

- بعض الأسئلة لا يمكن الإجابة عنها هكذا مباشرة، وهي تحتاج لبعض التقديم، والأسئلة الممهدة لفهم السؤال الأساسي، خاصة إذا ما كان السؤال من عيار "الفساد"! وأنا لا أمانع أن تستشيري السيد «غوغل» في الأمر.

فَفَعَلَتْ بسرعتها المعهودة في التعامل مع الهاتف الذكي وجاء الجواب من فوره، ووجهته لأخيها بشكل مباشر:

- الفساد هو سوء ائتمان موظف لمنصب أو وظيفة عامة.

فسألتهما:

هذا ممتاز؛ ولكن هل هذا التعريف المقتضب والمركَّز يفي بكل المطلوب؟! بمعنى آخر، هل فهمتم ما المقصود تحديداً بالفساد؟! وهل يمكن أن تضربي لنا مثلاً عنه!؟

وكان السؤال الأخير موجهاً لابنتي:

فقالت:

- نعم، الدكتاتور، أو الشرطي عندما يتجاوز الإشارة الحمراء وهو ليس في مهمة طارئة.

بالطبع أدهشني جوابها، وبدا أنه ألماني محض، فكيف تراها ستعرف الفساد، وهو ظاهرة «عالمثالثية» بامتياز، وتكاد تكون هنا في ألمانيا شبه معدومة، أو لنقل غير مرئية في أقصى حالاتها.

بمعنى أنها ليست ظاهرة معاشة بتكرار في المجتمع، أو وسائل الإعلام، وبالتالي يمكن أن نفهم لماذا اختارت مثال «الدكتاتور»، وذلك لكثرة تواتره في المدرسة والإعلام، وهو الاسم المستخدم لهتلر، أو يُطلق على رموز بعض الدول العربية التي خاضت حروباً كصدام حسين.

والمثال الثاني هو عن «الشرطي»، لكثرة ما يشاهدونه من تنظيم شديد واحترام للقانون.. وربما لتزايد حالات سيارات الشرطة في الآونة الأخيرة التي تسير بسرعات فائقة مطلقةً صفارات الإنذار، وكذلك ربما لتنامي وازدياد حالات السرقة والجريمة والحوادث الاجتماعية المتفرقة بشكل عام، مع تزايد أعداد البطالة، والمهاجرين وغير ذلك...

لا شكَّ أنّني فكرت في بساطة –وربما ترف– «فساد» بلادهم الألمانية، التي ولدوا فيها. بالمعنى الذي فهمه ولداي، وقد حلا لي أن أحدثهم عن فساد بلادي وعظمته، وروعة حكاياته وضروبه التي لا تنتهي، فهل أحدثهم، مثلاً كيف سطا «رئيس» على الجمهورية، وكيف صادر رئيس ثانٍ مجلس النواب، وكيف تمَّ نهب شعب بأكمله، وكيف أن هذا الشعب راضٍ وسعيد وقنوع وأليف؟!! لا لن أفعل كل هذا، لكنني اكتفيت بفضيحة الشاي كمثال عن الفساد السياسي والإداري، بعد أن قرر المسؤول (عندنا) أن يوزع الهبات المرسلة لضحايا انفجار بيروت العظيم، على حاشيته. أو كيف

حطّت هبة أخرى دوّن عليها عبارة: «غير مخصص للبيع»، في أسواق إحدى الدول المجاورة.

بعد أن لمسنا أن ابني قد خلص إلى فهم المقصود من هذه المجادلة السقراطية القديمة أو «الغوغلية» الحديثة.

تبادلنا الابتسامات والآراء، حيث إنّه لا ضير من المجادلة واختلاف الرأي طالما أن جميع الدروب ستوصلنا في نهاية المطاف إلى «الطاحونة»، أو الهدف.

انطباعات بلدية

حول الشعب العظيم والثورة المستحيلة:

1 – لكل شيء ثمن، ومَن لا يقبل بالقليل يقبل بالكثير.

2 – ما أُخذ بالقوة يُسترد بالمذلة والانصياع والخنوع والهوان. وليس على حسب قول شارون: بمزيد من القوة. الكلام هنا عن الحقوق وليس عن الشعارات.

3 – الثورة يقوم بها بضعة أفراد صادقون يأتون بالفانات. أمّا الآخرون فيركنون سياراتهم الفارهة في «الباركينغ» وينزلون إلى الثورة، ويركبون عليها؛ إمّا بمشروع خاص أو كاميرات مرافقة. وبضع خيم غامضة، مكيفة ومجهزة بأحدث التجهيزات.

4 – على بعد أمتار من خيم الثورة تدور حياة شبه طبيعية، فيما يتذمر الناس من كل شيء وخاصة هذه «الثورة»، التي يُجمع غالبية ساحقة من الناس –أو كل الناس– على أنّ الأعمال توقفت، والبنوك جفّت، والأموال تبخَّرت، والأرض انشقَّت وبلعتها، كل ذلك منذ اللحظة التي انتفض بها الناس على الزيادة على «الواتس آب».

(بعد ثلاثة أسابيع في بيروت/كانون الثاني/2020).

على الكلاب في لبنان، الانتباه!

- انتبه للكلب!

قلتها لقاسم فيما كان يقود مسرعاً، والكلب يحاول أن يقطع الطريق اللبناني المستعر كدرب الجلجلة يوم القيامة.

- على الكلب أن ينتبه ويؤمِّن طريقه، طالما ما زال هنا.

أجاب قاسم فيما تابع سيره إلى كوكب زحل.

نهاية الفيلم اللبناني

كما لكل بداية وقفة، كذلك لكل نهاية «زفّة»، هكذا الجشع اللبناني بكل شيء، من أسبقية المرور، وسرقة الموقف، للتعدّي على المشاع، للغش في اللحم بعجين، والعسل البلدي الموهوم. من أصغر حفرة، تناوب على سمسرة إصلاحها منذ قرون آلاف المنتفعين، إلى أعلى جورة، تضم رؤوس البلد من المودعين الصغار والمتوسطين إلى الكبار الذين طمعوا بنسب الفائدة غير الطبيعية التي لا يمكن أن تكون إلاّ «تجليطة»، إلى عشرات المصارف والبنوك، في بلد لا ينتج شيئاً، ويأكل ممّا لا يزرع.. حتى البرغل والبطاطا يستوردها من دول الجوار، شعب «طز»، لا يجدي معه ولا ينفع لا ثورة ولا من يحزنون، بل نيازك، أو قبلات حارة من الرفيق الأعلى كيم ايل سونغ!

حديثي مع شتيفان
فـي نقد الشعب والثقافة

في بداية الثورة وأنا مأخوذ بالحماس هنا في ألمانيا، قلت لمالك المحل الذي أديره هنا، وهو بالمناسبة صديق وذو خبرة واطلاع واسعين، ويعمل بنفسه أكثر من العاملين لديه، كحال أغلب أصحاب الشركات الألمان، ما أحسبه أحد أسرار نجاح ما يُسمّى في علم الاقتصاد الحديث، بـ «المعجزة الألمانية».. قلت له مازحاً:

- أرأيت أننا نقيم ثورة ضد الفاسدين والرأسماليين أمثالك في بلادنا!!

فهزّ رأسه هازئاً وقال:

- لقد سمعت أنّ معدل ساعات عمل الفرد عندكم لا تتجاوز الساعتين والنصف في اليوم.

تصرّمَ وجهي، وغارت الكلمات في فمي، وتكوَّرت العبارة. لقد أصابني شتيفان مايزن سليل المانيفكتورة الألمانية الكالفينية، ومولد الثورة الصناعية الأصيل، في صميم الوهن والوهم اللبناني.

في حين نرى هذا اللبناني نفسه مستعداً للسفر إلى أقصى الأرض ليعمل في محطة أو في أي مجالٍ آخر لا يقبل أن يعمل به في بلده، وقد يلجأ إلى الاستدانة على أن يقبل بمثل هكذا عمل! ومردُّ ذلك –

على الأرجح– شعور غريب بالتعالي والنفور من العمل، عائد ربما لجذور بدوية بادية وماثلة في تكوين شخصية غالبية كبرى من اللبنانيين.

في حديث آخر مع صديقي شتيفان ، بعد مرور أكثر من عام على حديثنا هذا، وعلى الجائحة وكساد الأعمال وإفلاس الكثير من الشركات الصغيرة، التقيت به في مكتبه، وجلسنا دون كمامات لأنه ورغم بدانته، ومرض السرطان الذي ذهب بوالده وأبعد أخاه ميشا عن العمل، إلاّ أنه لا يقيم وزناً كبيراً لهذه الإجراءات الصحية المبالغ بها برأيه.

وكنت قد أبلغته منذ فترة برغبتي بترك المحل الذي أشغله عنده منذ عدة سنوات، وأخذت مهلة ثلاثة أشهر قانونية على نفسي بأنني سأسلمه إياه عند نهايتها. لكنه استمهلني ليستشير أخته، وبالفعل ناداها من المكتب المجاور، كونها هي المعنية بأمر العقود:

- أليست المهلة في عقد الإيجار ستة أشهر؟

توجَّهت إليه بالقول: «بلى»، فنظر إليَّ وقال: «أنا سوف أغضُّ النظر عن المهلة القانونية هذه، وليكن كما تريد أنت، ولكن أسألك: هل تستطيع أن تخليه في هذه المهلة، وذلك وفقاً لمعرفتي الطويلة بك؟» ونظر إلى ومن ثمّ إلى أخته التي أضافت: «نحن إلى جانبك،

وربما أن تعطي لنفسك شهراً إضافياً، فلا تقع تحت ضغط كبير». فوافقتهما، ووقَّعنا على ما اتفقنا عليه.

كان هذا منذ قرابة الشهر.

بالأمس التقيت به، وانطلق حديثنا وغاص وتشعَّب، وأخته تتنصَّت من المكتب المجاور. بدأنا من العمل والكورونا، إلى أسعار الإطارات التي تتجه نحو الصعود، فسألته رأيه عن السبب، فقال:

• ثمة عوامل متعددة، أهمها ارتفاع أسعار الكاوتشوك الطبيعي، وارتفاع تكلفة الشحن والاستيراد إضافة إلى ارتفاع أسعار النفط.

ومن ثم انتقل إلى وصف البواخر العملاقة التي تنقل الحاويات الكبيرة، وعمّا تستهلكه من كميات هائلة من المازوت والزيوت وحجم الكهرباء التي تستهلكها، وكيف أنها تكاد تشغل محطة هامبورغ الكهربائية لوحدها في المرفأ الشهير في هذه المدينة، حيث تمرُّ وترسو معظم سفن الشحن التجاري.

ومن ثم انتقل إلى وصف محركاتها الخيالية حيث قد يصل طول الواحد منها إلى ثلاثين متراً، وبالطبع هنا بدأ ينتفش شعره، وينتفخ كرشه السمين، وصار يشد الحزامين المطاطين المعلَّقين على جنبي سرواله ويرفعهما إلى منكبيه.

عندها سألته:

- هل هذه المحركات العملاقة، ألمانية أصيلة؟، وأنا أتقصَّد أحياناً مثل هكذا أسئلة، بتُّ أعرف أنها تُشعره بالنشوة والاعتزاز والفخر، فأجاب جادلاً شفتيه، ونافشاً صدره إلى الإمام:

- نعم، ومَن تراه يجيد صنع هكذا قطع جنونية غير الألمان!!، وأكبر «برغي وعزقة» تصنعان كذلك هنا في هذه المدينة بالذات!

وقد أشار بيديه إلى المدينة التي نعيش فيها، وراح يصف لي أكبر «عزقة» وكيف أنه لا يوجد ماكينة لصبّها وحفر أسنانها الداخلية، وأنها تحتاج لعملٍ يدوي في غاية الدقة في المهارة والإتقان، ولدقَّة الحسابات التي تتطلبها لمعرفة ما إذا كانت هذه الأسنان مطابقةً مئة بالمئة للقياسات. إنهم الألمان ودقّتهم وبراعتهم المعهودة والمشهود لهم بها بأي حال.

كنت سعيداً صراحةً بهذا الحديث الذي يجيده شتيفان ويبرع فيه سيما في وصف الأمور بطريقة ذكية ومحكمة، وهو لا يشعرك بالضيق والملل رغم ميله إلى التشعُّب في شتّى المواضيع.

ومما لا شكَّ فيه أنّ سعة اطلاعه تتجاوز ربما حدود مجال عمله، كصاحب شركة إطارات معروفة، وتقديم خدمة السيارات، ولديه أكثر من فرع في المدن المجاورة. فهو عملي وبسيط كمعظم أرباب العمل الألمان؛ على عكس معظم أرباب العمل العرب الذين ينظرون إلى عملهم بطريقة فوقية، ولا أقصد الجميع، إذ أنّ شتيفان ينتمي إلى تلك

الفئة المشهورة في ألمانيا، وهي العائلات المهنية، كتلك التي أرجع ماكس فيبر أصل نشأة الرأسمالية وظهورها إليهم هنا في هذه الولاية بالذات، من غرب ألمانيا، (في كتابه الشهير، الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية)، هذه العائلات البروتستانتية الأصول والتي كانت ثقافتها الدينية تحثها على العمل ومضاعفة الربح الناتج عنه وتطويره دائماً في المجال المهني، وكانت هذه العائلات تعمل بأغلب أبنائها في هذه الشركات العائلية التي أسسّوها بأنفسهم، ولا زال الأبناء يتداولون عليها. إذ يعمل هو وأخوه ميشال وأخته أيضاً وولدي ميشا التوأم في هذه الشركة.

بأي حال، لا يعدم المرء أن يشاهد في بيروت أو دمشق وحلب والمدن العربية الأخرى ظواهر حرفية ومهنية مشابهة، تكون قد نشأت المهنة على يد الأب أو الجد وتوارثها الأبناء والأحفاد من بعدهم.

لكننا لا نعرف لماذا لم تُفضِ هذه إلى نهضةٍ وثورةٍ صناعية كتلك التي عرفتها أوروبا!

وواصل شتيفان حديثه عن القوانيين الأوروبية المتعلقة بالبيئة، التي باتت تشدّد كثيراً على وسائل النقل بالنفط، ولذلك ترتفع نفقات النقل، وأن وسائل النقل ومنها البواخر بدأت تتحوَّل تدريجياً إلى الطاقة الصديقة للبيئة، ولهذا تجد أن جُلَّ سفن النقل غير مسجلة بأوروبا وإنما بدول العالم الثالث كـ ليبيا وبنَمَا لتجنُّب هذه القوانين

ولصعوبة إعطاء التراخيص لهم، إضافة إلى الضريبة العالية التي يتوجّب عليهم دفعها في أوروبا.

وعزَّجنا على كيفية أن شركات الإطارات العالمية تعود إلى أوطانها، نتيجةً لانحسار الوفر التي كانت تحصل عليه من قبل عبر نقل مصانعها إلى الصين. وكيف أنّ هذا الارتفاع في الأسعار سوف يكون معقولاً وسوف يصبُّ في صالح الماركات العالمية على حساب البضاعة الصينية التي سترتفع أيضاً نتيجة هذه العوامل أيضاً ما سيقلِّص الفارق بينها وبين الماركات الشهيرة، وما سيدفع المواطن الأوروبي بالعودة إلى اختيار السلع المتميزة، والمتوسطة، بإزاء البضاعة الصينية الرخيصة والرديئة النوعية.

شتيفان هو الابن البكر لعائلة مايزن التي بدأت في تجارة الكاوتشوك وصناعات الأحذية المخصصَّة للعمل قبل أن تنتقل إلى ميدان الإطارات منذ ما يربو على نصف قرن.

ثمّ سألني: «كيف تسير الأمور عندك؟»

فأجبته: «آهٍ.. على فكرة! قبل أن أنسى، أنت قبل أن تؤجر المحل إلى شخص آخر عليك أن تحيطيني علماً!».

فنظر إليَّ مندهشاً وقال، «لماذا؟»، وهزّ رأسه مستغرباً.

فقلت له: «أنت تعرفني، وأصبحتَ تعرف كيف تسير الأمور على البرنامج العربي».

فقال: «نعم أعرف برنامجك العربي وهو عبارة عن الفوضى الشاملة أو الكاوس» فهززتُ رأسي موافقاً. وسألني: «ماذا يحصل وأنا أراك تنقل الأغراض منه؟». فقلت: «نعم أنا أنقل منه، ولكنني أجلب إليه أيضاً ربما أكثر ممّا أنقله منه»، ورحت أبرم يديَّ بحركة دائرية كالدولاب، فيما فرقعت أخته ضحكة من المكتب المجاور وقال هو والتعجب والاستغراب يهيمنان على وجهه: «ألم تحدثني عن خطة لديك وأنك سوف تسير بها؟!».

فأجبته: «صحيح أنا عندي خطة مرسومة في عقلي، ولكن أنت تعرف نحن قوم نكره الخطط والمخططات المسبقة، ونميل كثيراً إلى الارتجال والاتكال على الصدف والتطورات، ونتفاعل مع الظروف عند حدوثها، وليس قبل، أي أننا نعتني ونتعامل مع النتائج أكثر من الأسباب والمسببات».

- «ولكن الكائنات تتطور وتتعلم من التجارب وتستفيد من الخبرات وتستخلص العبر»، قال شتيفان بشيءٍ من السخرية الممزوجة بمزاحه المعتاد بيننا، وهو خلاصة علاقة تمتد لأكثر من عشر سنوات، تخللها الكثير من الأمور الجيدة بمعظمها. فقلت له متفلسفاً بعض الشيء:

«التطور هو سُنةَّ الحياة، ولكن على نفس المستوى والأهداف بين الكائنات، فمهما كان الانتخاب الطبيعي سائداً والتطور هو الاتجاه العام، لكنه قد لا يكون بنفس التعابير والأهداف».

لكنه قال لي: «أتمنى أن لا تصل الأمور كما في المرة السابقة، لهذا نصحتك أن تأخذ مهلة الستة أشهر للإخلاء!».

في الحقيقة، كان شتيفان يغمز من قناة المحل الكبير الذي نجلس الآن به، وقد طلبه مني حينذاك –هو هكذا دون مقدمات– بعد أن ترك المحل الكبير الذي كان يستأجره، وقرر أن يعود إلى ملكه، حينها رمى لي رسالة فيها قرار بوجوب تركي المأجور خلال مهلة ثلاثة أشهر!، ورفع دعوى ضدِّي في المحكمة، لرفضي إخلاء هذا المحل آنذاك، وقد كنت مستأجره منه بعقدٍ مفتوح وطالبني أن أخليه فجأةً دون مقدمات خلال ثلاثة أشهر حينذاك لحاجته الضرورية لنقل عمله إليه.

(لا أحد قليل) كما يُقال، فحينها كانت مصلحته تقتضي إخلائي مأجوره بأسرع وقت ممكن، مع أن القانون يلحظ إعطاء المهل الكافية في حالة المحال التجارية، ولكن المحامي قال لي حينها:

"نحن خاسرون لهذه القضية لا محال، لأنه المالك ويريد استعادة ملكه للاستخدام الشخصي الخاص، وكل ما أستطيع أن أفعله لك في هذه القضية هو كسب الوقت، وأشار إلى حدود السنة"، وهي المدة تقريباً التي احتجتها لإخلاء هذا المحل وتسليمه له.

اليوم الوضع مختلف، فأنا من يريد الترك، وهو لا يحتاج محلي، وهو يحصل على الإيجار الشهري، وكان التخوف أنني قد لا أستطيع

إفراغه وتسليمه في الوقت الذي ألزمت نفسي به. أي مهلة الثلاثة أشهر.

– «عند انتهاء المهلة سوف أرمي أغراضك في الشارع وعلى نفقتك!». قال شتيفان بنبرة تمزج الجد بالهزل.

شاءت الصدف أن أتمكّن من إفراغ المحل في مهلة الثلاثة أشهر، فتركت شتيفان وأحاديثه المفيدة حول العمل والجودة والبيروقراطية الألمانية العظيمة!

عبادة الزعيم..
هل هي مستمدة من عبادة الأصنام!

لقد بات من الجائز الجزم بالقول إننا لا نحبّ الزعيم –أيّ زعيم– لكننا نعبده!

ومهما حاول البعض منّا أن يجمّل هذه العلاقة مع زعيمنا، أو مع زعمائنا، فإنه لن يستطيع أن يدحض هذه الفكرة، أننا في الشرق نعبد الزعيم –الفرد– ونسعى باتجاه إيجاد هذا الزعيم وخلقه، وإذا ما تعذّر علينا إيجاده في وقت من الأوقات فإنّنا –والأمة كلّها– نصاب بالوهن، والضياع والتراجع والانحطاط!

وهذا يمتد وينطبق على الشرق كلّه، من روسيا إلى تركيا والصين والهند وبلاد مابين النهرين وفارس وبلاد الشام وبلاد الأصنام كلّها! نحن هكذا وانتهى الأمر بلا جدال.

أصل حبّنا هذا يعود بدرجة كبيرة إلى عبادة الأصنام، الّتي تميزت بتجسيد الآلهة.

فالميل إلى التجسيد مستمر حتى أيامنا عند شعوب الشرق كلّها، وقد تمثّلَ في الحقبة السوفياتية والصينية بالميل إلى الإكثار من تماثيل رموز مؤسسي الاشتراكية؛ كماركس وأنجلز ولينين حتى بوتين، وماو تسي تونغ، وعبد الناصر وصدام وبورقيبة، وصولاً إلى أصغر زعيم في الزواريب اللبنانية...إلخ... فإنّ طقوس التقديس والعبادة عند

الشعب اللبناني أو الشعوب أو القبائل اللبنانية تتمثّل في الإعلاء من شأن الزعيم ومن صورته وهالته وألقابه وجعل كلّ ما يتعلَّق بأيقونته بمنأىً عن التطاول أو التشبيه أو التدليس والنقد والانتقاد، ولو كانت هذه العصبة أو العصابة، من الزعماء وميليشياتهم، قد عاثت فساداً في البلاد، وأفقرت أهلها، وصادرت آمالها، ونهبت أموالها، ودمرت أحلامها ومستقبلها، فإنّ مجرد محاولة أحدهم انتقاد هذه «الأصنام» المقدسة، من «قديسين» و«أنصاف آلهة» منزّهين عن أيّ خطأ أو خطيئة، تقوم الدنيا ولا تقعد، ويكشّر الناس عن أنيابهم الكاسرة، ويُظهرون كل غضبهم وعنصريتهم وحدّتهم! حتى لقد حُقّ فيهم قول:

بلدٌ إذا ضُربَ الحذاء بأهلِهِ   صاحَ الحذاء بأيِّ ذنبٍ أُضربُ!!

سيكولوجية الجماهير.. من أخلاق العبيد، إلى أحزاب الزعيم

عطفاً على النص السابق حول عبادة الزعيم وعبادة الأصنام، فقد لفت نظري تعمُّق وتجذُّر هذه النزعة لدى جماعاتنا، الأمر الذي يسمح بإمكانية تجريدها وردّها إلى أصل أخلاق العبيد بموازاة أخلاق الأحرار أكثر منها إلى ظاهرة عبادة الأصنام التي عرفتها أكثر المجتمعات البشرية.

فأخلاق العبيد هذه هي التي تدفع بمن يرزِح تحتها ويتوارثها جيلاً بعد جيل أن يبحث حتى قُبيل المبيت عن زعيمٍ أو عن سيِّد يبايعه فيأمن نفسه عنده. ويرهنها في مقابل الشعور بالرضا الخانع المزيف، والاستكانة التي يحسبها رعاية وأماناً وحماية!!

إذ أنّ عدم المبايعة تكون في أعراف العشائر والأفخاذ والقبائل بمثابة الرفض أو عدم الاعتراف بسيادة هذا الزعيم أو الأمير أو الخليفة لاحقاً؛ الأمر الذي يستدعي التصرف معه بحزم وصرامة وسرعة؛ فإمّا تكون البيعة والرضوخ وإلاّ كانت الحرب والمواجهة، حتى يقضي الأمر بإنهاء ما يُحسب تمرداً أو تهديداً يزعزع صفو هذا الزعامة!

إنه مجتمع العبيد إذاً، والمبايعات وأخلاقها هي السائدة، وهذه الأخلاق وهذه المجتمعات، لا تنتج تالياً أفكاراً حرة ولا مؤسسات، ونعني أبرز مؤسسة أنتجها البشر وهي «الدولة»، وسنظل نرزح في مجتمعات اللادولة أو مجتمعات ما قبل ظهور الدولة الحديثة.

ولم نشهد كذلك ظهور أحزاب حقيقية كشكل حديث لتداول السلطة، ومثال تلك الأحزاب التي عرفتها مجتمعاتنا، ظلَّت شكلية أو بمثابة الواجهة للزعيم، أو آلية شكلية لتأكيد وتوارث الزعامة التي تتناسل وتترسخ الزعامة فيه من جيلٍ إلى جيل.

والأمثلة على ذلك كثيرة لا تنضب في حديقة أحزابنا اللبنانية.

هكذا نجد هذه الأحزاب اللبنانية القديمة والحديثة منها، أنها تقوم بشكل أساسي على تخليد الرموز الشخصية وتحية زعيمها، وبالتالي تواصل «شرش» أو جذر الزعامة في نسل الزعيم الذي يُضفى عليه هالة من الاصطفاء المقدس، والمنتخب من السماء، والمرصود لهذا الدور بشخصه وذريته!!

أنها حُمّى الشرق وميله الدفين نحو تقديس الفرد وتأليهه منذ «الطوطم» القديم والآباء الأولين؛ وصولاً للأنبياء والأولياء الصالحين؛ مروراً بشيخ العشيرة؛ وانتهاءً بأصغر حزبٍ في زاروبٍ محلي أو مؤمٍ للمصلِّين المؤمنين! وهكذا لن تقوم قيامة لهذا الشرق الأدنى أو الأوسط، ولن تكون أي «ثورة» تغيير عندنا أكثر من مجرد حفلة تنكر لا جذور أصيلة لها، طالما لا تنفكُّ أخلاق العبيد تستبدُّ وتسود فينا، فلن نشهد في هذه العصور المنحطَّة إلاّ ظهور مدعي نبوّة زائفين، أو حفنة من المنشقين اليائسين المنسحبين، أو كُتل متراصة لجموع الخانعين الطائعين، الساكنين!

تظاهرتا 8 و 14 آذار..
أعادتا حليمة إلى عادتها القديمة

عاد لبنان ليتصدر نشرات الأخبار هنا، جديد المشهد والخبر هذه المرة، «تصعيد كبير، المعارضة المدعومة من سوريا وإيران، يقودها حزب الله الشيعي والجنرال عون المسيحي، تضغط على حكومة السنيورة من أجل تشكيل حكومة وحدة وطنية، وإمّا اللجوء إلى انتخابات مبكرة».

(على فكرة، كان في السابق لا يُذكر اسم عون ويُكتفى بحزب الله الشيعي..).

كانت مشاهد الإطارات المشتعلة والعصي التي تنهال على رؤوس مَن هنا، ورؤوس مَن هناك، تنذر بانفراط عقد هذا الاجتماع «الملتبس»، اجتماع المِلَلَ والنِّحل.

سألني بعد هذا، «يَنَسْ» –صديقي الهادئ واللطيف دائماً– عن حال بلادي: «ماذا يجري عندكم؟».

كان يتوجب أن أردَّ على سؤال صديقي بشيءٍ ما، خاصة أن بعض الزملاء من شعبتنا الصغيرة في هذا الصف بدا أنهم مهتمون أيضاً! وبدا، أن جواباً، يبدأ أو يقتصر على «لا أعرف!»، سيكون غير لائق.

• هناك ثمة حكومة أكثرية برلمانية، تريد المعارضة أن تشاركها في الحكم.

قلت ليَنَسْ: وأنا لا أعرف كيف تيسّر لي اختصار الأمر على هذا النحو! ولكنني اعتقدت أنني قاربت الموضوع بما يمكن أن يكون قريباً لطريقة تفكيره.

• أمر غريب!، طالما هي أكثرية برلمانية أي مُنتخبة، فلماذا تريد المعارضة أن تشاركها؟

بدا أنه لا بدّ من التوسع أكثر، طالما أنّ الأمور بدأت تتعقد.

• تقول المعارضة إنّ الحكومة قد أخلّت باتفاقٍ كانت قد أبرمته معها قبيل الانتخابات، والذي على أساسه تشكّلت هذه الحكومة الحالية.

الأمر يشبه إلى حدٍّ بعيدٍ ما جرى هنا بين شرودر وميركل، أي أنّ الطرفان لم يتوفر لأيٍّ منهما الأكثرية المطلقة أو الحاسمة، فجرى التحالف، ولكن ليس بعد الانتخابات كما كان عليه الحال هنا في ألمانيا، وإنما تمّ ذلك الاتفاق قبلها.

كان يتابع بكثير من الاهتمام والإصغاء، غير أن حدقتي عينيه اتسعتا فجأة عند المقطع الذي ذكرت فيه التحالف قبل الانتخابات.. وبدا أن الأمر قد بدأ يلتبس عليه.

• والحكومة ماذا تقول؟، سألني.

• الحكومة تقول إنها الأكثرية، وبالتالي يجب أن تحكم حتى نهاية المدة، وما على المعارضة إلاّ أن تعترض في البرلمان.. والمعارضة تقول بدورها، أنّ الحكومة لا تستطيع أن تحكم لوحدها، وأنّ أكثريتها هذه وهمية ومزوّرة، وأنها ما كانت لتكون على هذا النحو، لولا تحالفها مع المعارضة أثناء الانتخابات!

• وماذا سيحدث برأيك؟، سألني «يَنَسْ» بصدق.

تمنيت لو أنّ «ينس» يعلم بأمر «حليمة» وعادتها القديمة، التي لا تنفكّ تعود إليها! (مَثَل بدا مناسباً جداً).. وعادت هذه الـ «لا أعرف» تفرض نفسها من جديد. فأجبته:

• لا أعرف، ربما يكون شيئ يشبه الحرب المؤقتة، أو القصيرة المدى، على ما يبدو أنها الحل اللبناني الأوحد والأمثل للأزمات التي لا تنفك تستجدّ وتعاود الانتعاش بعد كل عقد أو عقدين من الزمن على أبعد تقدير. وما جرى البارحة لا يعدو كونه «بروفة» أولية على جهوزية الأفرقاء على التوزُّع كلٌّ على مواقعه وعلى شكل الانتشار وملامح المحاور وخطوط التماس الجديدة.

ارتسمت معالم الأسى على وجهه، وقال بشيء من الأسف:

• هذا أمر مؤسف، ولكن ما لفتني في صور الأمس، وتلك السابقة حول التظاهرات الحاشدة، هو تلك الحيوية السياسية التي يتمتع بها شعبكم، وهذا الحماس والاندفاع الذي يبدو جلياً على وجوه

المشاركين، وغالبيتهم من فئة الشباب. وقد اعتقدت أنّ ثورةً أو انقلاباً قد وقع عندكم!

كانت ملاحظة «ينس» نابعة على ما يبدو من حالة الشباب الألماني المنكفئ بعامته عن السياسة، والذي تنصب جلّ اهتماماته على مواضيع أخرى كالرياضة والعمل أو ما شابه.

- لا، لا أبداً فعصرُ الثورات قد ولّى منذ عقود إلى غير رجعة، كما أنّ الانقلابات مستحيلة التحقق في لبنان، ولم يحدث في تاريخه الحديث أو القديم أن نجح انقلاب فيه.

- لماذا؟

- ربما لأن السلطة لا تقبع في يدي شخص واحد أو هيئة واحدة، وإنما تتوزَّع بشكل غريب ومعقّد على رموز المِلَلَ والنِحَل العديدة في البلد.

في هذه اللحظة دخل المحاضر كمنقذٍ مُنتظر وأنقذني ممّا كنت أتخبط فيه.

في الواقع أنا أجد متعة بالمحادثة مع «ينس» ولكن في مواضيع يمكن أن يتفاعل فيها، وقد بدأ موضوعنا يتعقد ويحتاج ربما إلى أكثر من أن يكون المرء لبنانياً لكي يستطيع الخوض فيه، كأن يكون مُلمَّاً أيضاً بكثير من فنون السحر والتعويذ، وربما ضرب المندل والتنجيم،

وهذا ما لا يتوفر لي ولا لصديقي اللطيف «ينس» البعيد عن كل شرّ أو ساحة.

أكملت التنجيم في رأسي فيما راح المحاضر يقلّب صفحات في مغلف كان بين يديه:

«.. أين كنَّا!، نعم، ثورة أو انقلاب.. قال: لا، لا، أبداً ما هذا القول، ثورة في لبنان! أيّ تخريف هذا! وعلى مَن؟، ولماذا؟

ربما كانت الحشود التي تجمعت في ساحة الموالاة وساحة المعارضة، قابلة لأن تكون الثورة الأولى في لبنان، لولا أن طبيعة الزعماء والأحزاب المتزعِّمة لكلا الحشدين كانت جديدة وتحمل مشروعاً تغييرياً، إصلاحياً، على قاعدة وطنية وليست طائفية أو مذهبية.. ولولا أنهم ربما كانوا قد تجمَّعوا في غير هاتين الساحتين! أو ربما خارج هذه المدينة برمتها! وربما يكون من المستحسن أن تكون خارج هذا البلد وهذا المكان والزمان كليهما!». رحت أقول لنفسي.

- ولكن، هذا هو الموجود لدينا، فهل يجب أن نستورد زعماء من الخارج لكي تسعد!

هتف صوتٌ داخلي من خلف رأسي.

ثمّ تذكرت قوله عن حماسة الشعب وحيوية شبابه السياسية، وقلت: تراها هذه هي المشكلة يا «ينس»؟!

أنها هذه الحماسة الزائدة، وهذا التحميس المتبادل والانفعال الذي يسبق الفعل وقد يتقدمه أحياناً. فلا أحد لدينا يتعلَّم من أحد، ولا التاريخ سجل للأحداث والمآسي لمَن اعتبر! وذلك كله جرياً على قول مضلّل وخاوٍ: «تتذكر ما تتعاد!»، و «لا يجب أن نعلّم أولادنا أو نربيهم على أحقاد أهلهم وظلمات ماضيهم!»، والتي تُرجمت تغييباً لأي تاريخ دقيق يشير لعقود السفك المتبادل على الهوية، وعلى طريق الخبز أو العمل، أو على أبواب السفارات والقناصل.. حتى غدت أجيال اليوم نسخات مكررة بلا كثير تعديل عن معامل جينات آبائها الذين أدوّا قسطهم للعلى في رجم جدران الشياطين المجاورة حتى الردم.. فجاءت أجيالهم الحالية فلذات أكبادهم، تُكمل حروب الأهل على مدينتهم وحاضرهم وماضيهم اللعين من أيام «دقرت، لأ ما دقرت..» إلى أيام آخر ذنب ذئب أو ذيل كلب.. يُكملون حُصرم ما ضرس أهلهم به دون روَّيةٍ أو حتى قليل تفكُّر..

وحدها الغرائز والنصال والثارات التي لا تندمل في شرقٍ بدا أنه يُجري حروبه الطائفية والمذهبية بعد مرور أكثر من خمسة قرون على مثيلتها في بلاد الفرنجة والعجم، تلك التي دارت حول طبيعة المسيح، نُجريها نحن اليوم بفارق زمنيٍّ يكاد لا يُرى في بلاد يتجمَّد فيها التاريخ على حدِّ قول أحدهم، ولا حتى يدور..

ألمانيا 29 كانون الثاني 2007

تعقيب:

عندما قرأت هذا النص قلت في البداية في نفسي: مَن تراه يهتم بهكذا نص مضى على كتابته ما يقرب من عقد ونصف من الزمن!، ولكنني -وبعد أن انتهيت من قراءته- لاحظت أنه لا يزال صالحاً بنسبة تكاد تصل المئة بالمئة، وإننا لو استبدلنا التاريخ الذي كُتب فيه النص بتاريخ اليوم لَما بدا الأمر نافراً أو مستغرباً!، ومن هنا تكَّون لديّ شعور بضرورة ترك هذا النص كما هو، وإعادة نشره لما في ذلك من فائدة مرجوّة لناحية التدليل على استقرار الزمن والأحوال السياسية على حالها في بلادنا، على الرغم من تراجع كل أوجه الحياة وإفلاس البلاد وهجرة الناس!

المسالك الإمبراطورية في المنطقة..
ما بين الواقع والخيال!

ما أريده بالسلوك الإمبراطوري هو ذلك السعي للتوسُّع وفرض السيطرة والهيمنة لقوة دولية أو دولة إقليمية طامحة للعب دور سياسي وعسكري خاص، أو دور نيابي أو تكميلي لقوة عُظمى. وعلى ما نعرفه في العصر الحديث، أي مطلع القرن العشرين إلى أيامنا هذه، فيمكن تشخيص حال الإمبراطوريات الدولية والقوى الصاعدة إقليمياً للعب أدوار تتجاوز حدودها على الشكل التالي:

على الصعيد الدولي تمثَّلت الإمبراطوريات الكبرى بأميركا والإتحاد السوفياتي (لغاية سقوطه في 1990) منذ نهاية الحرب العالمية الثانية، وقد قامتا على أنقاض آخر إمبراطورية أوروبية "أي؛ بريطانيا العُظمى»، التي لم تكن الشمس تغيب عن أطرافها...

وآخر إمبراطورية شهدتها منطقتنا كانت «السلطنة العثمانية (1918)، وقد تقاسمت تركتها قوى الانتداب والاستعمار، التي تمثلت حينذاك بكل من بريطانيا وفرنسا.. لندخل في عصر الدول الوطنية الكيانية..

ولملء الفراغ المعنوي والحضاري الذي خلّفه مجتمعَين –الثقل العثماني من جهةٍ بقرونه الخمسة، حيث لم تُدرس هذه الحقبة بشكل يفي بأدوارها الإيجابية والسلبية على مكوّنات المنطقة العربية بعمق

وعلمية، ومن جهةٍ أخرى، الاستعمار والانتداب وأدواره الناهبة والمستغِلة والتنويرية- ظهرت دول ذات مسلك إمبراطوري إقليمي أبرزها:

انبعاث القومية العربية، الناصرية:

من بين هذه المحاولات السالكة مسالك الإمبراطوريات هي «مصر عبد الناصر»، التي قامت على خطاب التحرّر الوطني وتحرير الذات والموارد الوطنية، وقامت على مقوماتٍ ثلاث: الإيديولوجية العربية مدعَّمة بالاشتراكية وفكرة الوحدة العربية، والقوّة الذاتية المسلحة مدعومةً من الاتحاد السوفياتي، وكاريزما عبد الناصر.

ولا شك أن لمصر ميزات تاريخية وحضارية تخوّلها لعب أدوار مركزية.. تخطّى المد الناصري حدود مصر ليصل المشرق والمغرب وبعض أفريقيا، وكحال كل مسعى إمبراطوري ناشئ لا بدّ له أن يصطدم في الأطراف والدول أو الكيانات المستهدفة من حيث التناغم مع النسيج الاجتماعي الذي ينسجم أو ربما تنشد أوضاعه الذاتية هكذا ظهورٍ لقوى إقليمية تسنده، لكي يغيرِّ واقعاً يرزح تحته، ويرى أن المشروع الصاعد يعبر عنه، أو أنه سيكون بمثابة الرافعة السياسية له لتغيير واقعه لمصلحته!

هذه التصدُّعات التي تلحق بالأقاليم والأطراف التي تتقدم قوة «المسالك الامبراطورية» إليها، قد تؤدي في أكثر الأحيان إلى انقسامات أو نزاعات مجتمعية أو حتى حروب، لأنها لا تتقدم دائماً

في فضاءات حرة وخالية من أي تأثير أو نفوذ، وبالتالي فهي سوف تقوّي مكوّنات محلية لها مصلحة بتغيير الواقع لمصلحتها، هكذا رأينا مع المد الناصري التصدُّعات التالية في الأطراف في لبنان 1958، تصدُّع الكيان ونزول المارينز.

كذلك وقعت أحداث اليمن أواسط الستينات، وآنذاك كان الصراع اليمني يتمحور بين مصر والسعودية آنذاك!! ومرحلة الانقلابات المتتالية بين الأجنحة المختلفة، التي شهدتها العديد من الدول العربية الأخرى، مثال: العراق، سوريا، السودان، الجزائر، ليبيا، الأردن، موريتانيا ودول أفريقية أخرى.. ناهيك عن الساحة الفلسطينية..

بإزاء المحور أو «المشروع الناصري»، شكَّلت أميركا محورها أيضاً، الذي تمثل بطهران الشاه، والسعودية ودول الخليج الأخرى وتركيا..

على الرغم من كل العوامل المساعدة التي توفرت للمشروع الإمبراطوري المصري، من وحدة اللغة والتاريخ شبه المشترك والمتقارب والتأييد الشعبي الواسع، ووجود القائد الكاريزما، والدعم الدولي، إلاّ أن هذا المشروع أصيب بالفشل، وحتى التجربة الوحدوية اليتيمة التي قام بها بين مصر وسوريا، لم تدم أكثر من عامين وفشلت كذلك فشلاً ذريعاً..

ومع نهاية المشروع الناصري، بعد وفاة عبد الناصر وزيارة السادات إلى إسرائيل، خرجت مصر من المعادلة العربية، وربما كان مشهد خروج المقاتلين الفلسطينيين من بيروت 1982 آخر حصن في المشروع القومي العربي الذي أطلقه عبد الناصر..

وعاد الفراغ السياسي ليرخي بظلاله على المنطقة، وقد جرت محاولات لملء هذا الفراغ من قبل العراق وسوريا والسعودية وإلى حدٍّ ما الجزائر...

الحالة السعودية:

برزت الحالة السعودية دائماً في المجال العربي، كمحاولة لسلوك امبراطوري موضعي، قام على قوة المال الذي وفرته ما عُرف بـ «فورة النفط»، والحماية الأمريكية والعباءة الإسلامية التي يعززها وجود مكة المكرمة على أراضي المملكة. ويلفت في هذا السياق أن لقب الملك السعودي، هو خادم الحرمين الشريفين...

لكن هذا كله لم يمنع المنطقة من الوقوع في حالة الضعف والانقسام وسيادة الخلافات العربية والقلاقل السياسية، إلى أن ظهرت إيران «الثورة الإسلامية».. و«العثمانية الجديدة»، في تركيا.

العثمانيون الجدد، والحلّة الإسلامية السياسية:

مع فوز العدالة والتنمية في تركيا وحكمه وتراجع دور العلمانيين في الجيش، انتشر مسلكٌ إمبراطوري عثماني جديد ناعم في المنطقة،

أرسى دعائمه أردوغان، وكانت أعلى مراحله ما عُرف بثورات الربيع العربي التي استفاد منها الإخوان بشكل كبير في العديد من الدول، إلى أن أزاحتهم الجماهير بمعية الجيوش والدول العميقة فيها، لينتهي مشروع «الإخوان» الإمبراطوري العثماني.

وقد تهَّيأت له ظروف كبيرة للنجاح كانت بمثابة الركائز الأساسية التي قام عليها؛ أي رابطة الدين الإسلامي (ذي الغالبية السنيَّة)، التاريخ (الخلافة العثمانية)، تجانس الأرض والشعوب، الأيديولوجية الإسلامية السياسية والرافعة الدولية، أميركا (أوباما)، مع هذا فشل هذا المسعى فشلاً ذريعاً.

المسلك الإمبراطوري الإيراني، الإسلام السياسي (الشيعي):

لم تعدم «الجمهورية الإسلامية في إيران»، وهو الاسم الذي أخذته إيران لنفسها، ما بعد ثورة الإمام الخميني، المسعى أو السلوك التوسُّعي أو التمدّدي الواضح، الذي يمكن أن نطلق عليه «المسعى الإمبراطوري» الإقليمي.

وبهذا السياق على سبيل المثال، لا يمكن وصف «السلوك الصيني» بوصف «الإمبراطوري» لأنه لا يتمدد في الأطراف على شكل مشروع سياسي قابل للعسكرة والمواجهة، بينما يسلك مسار التمدد الاقتصادي والبناء التحتي المكمِّل والمستفيد من علاقات الهيمنة والسيطرة الرأسمالية الدولية، بغية بلورة «قوة ما» مستقبلاً !.. أمّا المسلك الإيراني فهو من النوع «التغييري» «الانقلابي»، الذي

يسعى لبناء واقع مغاير لما كان سائداً من قبل، أي منطق التصدع نفسه الذي سلكته «مصر الناصرية»..

ولقد أبطأت الحرب الإيرانية/ العراقية من الاندفاعة الإيرانية ما يقرب من عشر سنوات، لتعاود الانطلاق من جديد من البوابة اللبنانية نهاية الثمانينات..

وراح المشروع الإيراني بالتمدد والتوسع في العالم العربي، من لبنان إلى فلسطين فالعراق وسوريا واليمن إلى بعض دول الخليج ومحاولات لا نعرف حجمها وحدودها في المغرب العربي ومصر...

ولقد تجلّى هذا المسلك الإمبراطوري، بشكل خاص ومؤثر، في كل من لبنان والعراق وسوريا واليمن وإلى حدّ ما فلسطين، ويُطلق عليه تسمية «محور الممانعة»، لكن تبقى الأسئلة المشروعة والموضوعية، من دون اصطفافات سياسية من هنا وهناك مثال:

ما هي حظوظ؛ وأفق؛ وصورة هذا المسلك الإمبراطوري الإيراني؟!

لقد رأينا كيف أن كل المشاريع الإمبراطورية السابقة على هذا المشروع أو المتزامنة معه، التي عرفتها المنطقة بكل ما تملك من مقومات ورافعات إيديولوجية ودينية وتاريخية وبشرية، وعلى الرغم من كل ذلك.. فشلت!

فكيف سيكون عليه الحال مع المسلك الإمبراطوري الإيراني، الذي يقوم على الأيديولوجية الإسلامية نفسها، ولكن بحلّتها أو نسختها

«الشيعية»، والتي يستعيض فيها عن موقع «الخليفة» ولي أمر المسلمين، بمقام «الولي الفقيه» نائب الإمام المنتظر، في جمع للولاية السياسية والدينية في هذا المركز، ما يجعلنا أمام «ثيوقراطية» دينية، ولكن بعباءة الانتخابات العصرية ورئاسة الجمهورية من حيث الشكل.

ولا شك أن كاريزما الإمام الخميني ساهمت إلى حدّ كبير في بروز المشروع الإيراني، إضافة إلى القوة الذاتية العسكرية والاقتصادية المستندة بشكل أساسي على النفط، والدعم الدولي من الصين وروسيا..

استعصاء المشروع الإمبراطوري الإيراني واستحالته:

لعلّ أبرز العوامل والعوائق أمام هذا المشروع هي عدم التجانس العرقي ما بين المكونات الاجتماعية، إن لناحية التاريخ أو الثقافة واللغة، والتطلعات المشتركة..

وبينما لم تستطع إيران النفاذ إلى الداخل الأذربيجاني في حظيرتها الخلفية الحميمة، وحيث الامتداد العرقي الأذري، (الشيعي أيضاً)، المتداخل في إيران والذي يشكِّل تركيباً أساسياً من مكوّنات الشعب الإيراني، إلاّ أنها لم تنجح في إقامة العلاقات الوشيجة مع الأذريين، الذين تشرَّبوا الثقافة الروسية العلمانية وأقاموا العلاقات مع الأتراك ومع «إسرائيل» ما جعل من «العدو الصهيوني» و«ربيب الشيطان الأكبر» يرابض عند الخاصرة الإيرانية الرخوة. بالمقابل اتخذت إيران جانب «أرمينيا» المسيحية، في النزاع الدائم بينها وبين أذربيجان.

عوضاً عن ذلك كله، كان الخيار الإيراني باختراق المجال العربي ولو أدَّى ذلك إلى تصدّعات اجتماعية هائلة، (وهنا لا يجب أن يعني هذا تحميل إيران كل ويلات الواقع العربي المضطرب، وإنما نعني في حدود الدول التي برز النفوذ الإيراني فيها وقد ذكرناها)..

وكدليلٍ على هذا الاستعصاء، أنه حتى في الأماكن التي تتحقق فيها السيطرة لأطرافٍ من هذا المشروع فإننا نجد أنها غير قادرة على الحكم لوحدها، فنراها تلجأ إلى التحالف إمّا مع أقليات أو مع أحزاب الفساد السياسي السابقة عليها كما هو الحال في لبنان والعراق على سبيل المثال..

دروس غير مستفادة:

ويتجلّى هذا بالسعي الإيراني لتحويل المواطنين «الشيعة» في الدول العربية إلى كتل منظمة سياسياً، وتعاملهم كأنهم «جاليات طارئة»، تدفع باتجاه تمتين أواصر مشروعها بشكل عام، ولكنها تضع هذه المكوّنات الشيعية الأصيلة في هذه البلدان بمواجهة أترابهم من المكوِّنات المجتمعية الأخرى أو كحالة «سياسية» وعسكرية أحياناً بمواجهة الداخل أو دول المحيط. وهذا ما يدفع بهذه المجتمعات إلى حالة من التصدع والانقسام.

وكأنما إيران لا تريد أن تستفيد من دروس التاريخ عندما لجأ الشاه اسماعيل الصفوي، في القرن السادس عشر إلى فرض التشيُّع بالقوة،

الأمر الذي أثار حفيظة الدولة العثمانية وأدى إلى وقوع مجازر بحق «الشيعة» الموجودين في مناطق سيطرة السلطنة...

وأن «الانزياحات الديمغرافية» و«فائض القوة»، اليوم لا يجب أن تدفع إلى التمادي في إرساء حالات التشظِّي ومحاولات «لي عنق» التاريخ والجغرافيا، واصطناع هياكل وكيانات سياسية تجافي الواقع، وتحاول فرضها على المنطقة، فيكفينا «الكيان الاسرائيلي»، وما خلّفه من حروب ومآسٍ..

هذا دون أن ننجرف إلى القول بما يسميه البعض بـ «الهلال الشيعي»، الذي يقسِّم «الأمة» ويفصل مشرقها عن مغربها، ويشكل سداً جغرافياً سياسياً بوجه «المسلك الإمبراطوري العثماني».

لا نريد أن نرى الأمر على هذا النحو، نريد أن نرى إيران دولة مزدهرة مستقلة صاعدةً تعيش بوئام وتعاون مع المحيط العربي، كما كان عليه الحال في التاريخ في أغلب أوقاته وأحواله..

كما أنه لم ولن يكون يوماً من مشروع خاص بـ «الشيعة» يجافي روح «الأمة» والمنطقة، فهم كانوا دوماً، جزءاً أصيلاً في أوطانهم وضحوا وقدموا الكثير من أجلها وانخرطوا في نضالاتها وحركاتها الوطنية..

والحق، أن خيرَ وصفٍ لحالة المسلمين «الشيعة» في أي بلد عربي، أو إسلامي، هو رأي الإمام محمد مهدي شمس الدين[1] أنَّ على الشيعة كمكوِّن وطني أصيل في أوطانهم، أن يندمجوا فيها مع الحفاظ على خصوصيتهم.

هذه الخصوصية التي لا يجب أن تمنعهم من أن ينخرطوا في أي تشكيل وطني أو تمنعهم من قيام علاقة شراكة ومواطنة حقيقية مع الآخر في بلدانهم.

ولعلّ المعنى المقصود بالحفاظ على الخصوصية «الشيعية» هي أن لا ينحوا إلى حالة انقسامية في المجتمعات التي ينتمون بأصالة إليها، وإنما كحالة فكرية/ فلسفية تاريخية، يتواصل من يشاء من أبنائها بما توارثه من إرث ثقافي وليس من باب تحويله إلى أيديولوجيا راهنة تؤسس لصراعات سياسية في المجتمع!

([1]) الإمام محمد مهدي شمس الدين، 1936 - 2001، عالم دين ومجدد في الفكر الإسلامي، رئيس المجلس الإسلامي الشيعي الأعلى، كان مع الإمام موسى الصدر. وقف إلى جانب الثورة الإسلامية في إيران في بداياتها، لكنه طوّر موقفه الشهير المعروف بـ «ولاية الأمة على نفسها»، في غياب الإمام المنتظر، وهذا بإزاء نظرية الخميني، المعروفة بـ «ولاية الفقيه». وكان يؤكد دائماً على استقلال لبنان واندماج المواطنين الشيعة فيه وانتمائهم إليه.. ألّف العديد من الكتب أبرزها، نظام الحكم والإدارة في الإسلام، وأنصار الحسين.

أمَا علاقاتهم مع إيران والعراق، فتبقى علاقة روحية معنوية تتمثل في زيارة الأماكن المقدسة في هذين البلدين، وفي التواصل الفكري والديني المرجعي، لوجود الحوزتين الدينيتين فيهما، النجف وقُم.. وقد يجوز تشبيه ذلك بعلاقة المسيحي الكاثوليكي بالفاتيكان..

التقاليد البالية، الأخلاقيات الزائفة

هذه التي يدَّعيها المتملِّقون والمدّعون، هذه التي نظن أننا نرذلها خلفنا هناك في البلاد القلقة والمضطربة، عندما تركناها مهاجرين بعد يأسٍ من التغيير وانعدام أفق الحياة والمستقبل والاستقرار، نراها تلاحقنا –أينما ذهبنا أو ولّينا وحللنا– كظلنا. أم تراها كانت مختبئة في حقائب سفرنا..

لا نعرف كيف ينفكّ المرء من هذه «اللقلقة» ومن لوثة «القيل والقال» واحتساب القيمة والاستماع لرأي الآخرين.

ألم نتفق كلنا مع ذلك الوجودي الفاجر عندما أخبرنا بأن «الجحيم هم الآخرون».. لست أدري كيف نكون أحراراً في عيشنا وحياتنا، وهي مطوقة من كل جانب وحَدٍّ بتلك الاعتبارات والآراء الثابتة، والأحكام أو الأعراف التي تتخذها جماعة من المجتمع، فتريد أن تمليها على كل فردٍ فيها.

بلى، لا يزال هو ذاته السؤال المؤرِّق نفسُه منذ البدء، سؤال: **الفرد والجماعة**

مَن يكون فرداً، ليحيا ويعيش كما يريد ويرى هو، أم كما تريد الجماعة منه أن يكون منوالاً أو نسجاً على نسقٍ يتوالى، فترضى الجماعة وتغضُّ الطرف عنه!؟ أمّا إذا ما شهر سيف تفرُّده وتميزه هو كما هو تنطلق سهام التقاليد تنهشه من كل حدبٍ وصوب.

كنا نحسب أن المدن هي الملاذ المنتظر والمنشود لضرب الجماعة التقليدية، نحو جنة الفرد!؟ لكن تراها قد تحوَّلت، إلى جماعات حديثة، تديرها الدولة وتجعلها الآلة الرقمية تحت الأعين والملاحظة، يبدو أنه لا مناص من التمرد على الذات أولاً وتحريرها قبل الدخول في معركة مع العام المثقل بسلاسله القديمة!

كلمات في معنى الثورة

الثورة ليست صورة ومشهد دم، إنما هي لحظة تاريخية يصل فيها تفاعل المكوّنات وتراكم العوامل الاجتماعية حدَّ الغليان، فتخرج الناس عن طورها، وعن طوع الحاكم أو الحاكمين، فتُحدث فعل التغيير، وتجبُّ ما قبلها.

لكن الثورة لا تصنعها الجماعات أو القطعان..

إنما الأفراد الأحرار..

وعندنا، الأفراد –الأفراد الحقيقيون– يغادرون

أو يرحلون أو ينتحرون.

رسالة إلى علي، الكافر!

الذي كفر بنا، وضاق به زيفنا وجوعنا، فتضرّج بدمائنا في شارع الثقافة والصرافة والنخاسة.

بلى، نحن قتلناك وإن كان دمنا هو الذي تضرَّج أمس في شارع المدينة. قتلناك يا علي[1] ألف مرة!

قتلناك عندما انتخبناهم، وعندما أعدنا انتخابهم لآلاف المرات.

قتلناك عندما قبلنا أن ننسحب من الشارع تحت رغبة «التكليف».

وكذلك فعلنا عندما أنزلناها في الصندوق، «زي ما هي»، هكذا على كل علاّتها.

وقتلناك منذ زمن بعيد عندما تحملنا كل الإساءات ومشينا مع الزعيم، وتقاتلنا من أجله، وحملنا صوره ننشرها في أرجاء العالم.

([1]) علي الهق، شاب لبناني انتحر في شارع الحمرا، من جملة عمليات انتحار فردية تزايدت وتيرتها مع اشتداد وطأة الأزمة الاقتصادية والسياسية الخانقة التي تعيشها البلاد، وقد ترك علي رسالة كُتب عليها، «أنا مش كافر بس الجوع كافر»، وهذه جملة مستقاة من أغنية للفنان اللبناني الساخر زياد الرحباني. وقد ذكر أحد أصدقاء علي أنه استحصل على سجل عدلي ليبين أن سجله نظيف ولا حكم عدلياً عليه، وقد أسر له، بأن «غداً سوف تسمع خبراً سيئاً»، ما أُعتبر بمثابة إشارة إلى النية المسبقة لديه للإقدام على هذا الفعل الأليم. كأنه أراد من حيث اختياره لطريقة ومكان التنفيذ أن يوصل رسالة ماضية وممهورة بحياته، تماهياً ربما مع فعل «البوعزيزي» في تونس، الذي أحرق نفسه، فحرّك فعله هذا الناس التي خرجت إلى الشوارع مُطلقة ما بات يُعرف بثورة «البوعزيزي»، الأمر الذي لم نشهد للأسف، مثيلاً له في لبنان.

وكنّا جاهزين أن نُشعل مئة حرب أهلية كرمى لعيونهم.

اعذرنا يا علي، إذ لم نجد لك هذه المرة أيَّ عذرٍ أو ذنبٍ سوى أنك بريء من كل ذنوبنا ومن دمنا ولا حكم عليك!!

لكنهم مجرمون وتاريخهم أسود. والحكم الحقيقي عليهم، لم يجرؤ قضاة الزور أن ينطقوه. لأننا في بلاد يعيّن فيها المجرمون والفاسدون قضاتها.

قتلناك وأنت المؤمن بحقيقة ذاتك، وكافر بزيف وجودنا، جُنداً وجمهوريةً وعامة.

رهانك على هذا الشعب المائع، كان في غير محله. فهذا شعب لن ينهض وينتفض ولو أطلقت مليون رصاصة على رأسك ورؤوس أولادك وأحفادك وكل أهلك!

لكن مع هذا كلِّه، رهاننا عليك وعلى أمثالك يا علي يتعاظم، وكنا نريد منك أن تظل معنا في المواجهة، في تحديد الأهداف والأسماء وتنفيذ حكم الشعب بحقهم؛ «كلن يعني كلن»، من أعلى رأس الهرم، مروراً برموز الأحزاب الطائفية الفاسدة وأحزاب اليسار المريض، إلى موظفي الدولة الفاقدة للشرعية، وأصحاب البنوك والصيارفة وكل من يثبت علاقته بسرقة أموال الناس ومدخراتها والمضاربة على العملة الوطنية، سراً أو علانيّة!

لقد كان حريّاً بك –وأنت الأصدق والأوفى والأطهر من كل عهرنا– أن توجِّه رصاصات مسدسك إلى رأس أيّ فاسدٍ تلتقيه، وهم كُثر، وفي كل مكان، لكان فعلك أرقى وأقوى وأبلغ.

ألا يكفينا جلداً لأنفسنا مرضاةً لآلهة المال والطوائف والحروب؟ ألم يمتلئ القربان بعد من دمائنا؟!

نعم لقد آن الأوان أن تعلَّق المشانق، وأن يُطلق الرصاص على الرؤوس المجرمة الفاجرة، الكافرة!!

كأنك ليس عبثاً تقصّدت أن تُقدّم وصلتك الأخيرة على باب مسرح هذه المدينة البائسة!

مشهد الحنق، والغضب، والشعور بالمرارة بالجرح وبالأسى والعجز والظلم والخذلان، سيل المشاعر هذا والصور لا يمكن أن تصف ما اختلج به عقلك ووجدانك لحظات إقدامك على تصوير مشهدك الحي الأخير، شهيداً شاهداً على رصيف هذا الوطن الغريب!!

فلنتذكر ولنعتبر من صوت علي وتضحيته ورسالته!

فلا يذهب دمه ودماء من سقط قبله هدراً. لأن الناس في بلادنا سريعة النسيان. وها هم تراهم ينصرفون كلٌّ إلى غايته، ومزرعته!!

الجزء الثالث:

يساريات

موت الأحزاب التقليدية اللبنانية

لا شك أن ما نشهده من فوزٍ لتيارات علمانيةٍ ومستقلة في الجامعات، خير دليلٍ على أنّ الأحزاب التقليدية الطائفية وكذلك حزب اليسار الرسمي، قد تجاوزها مزاج الشارع ومعطيات الواقع. وأنّ هذه الأحزاب قد اهترأت وهرهرت وهرمت، وعلى المجتمع اللبناني وحركاته الطلابية توليد أشكالها الجديدة. ولنعلنها بالفم الملآن:

لقد ماتت وانتهت الأحزاب التقليدية كلها.

نقد اليسار اللبناني؛ انفصام الشخصية..
ما بين الواقع والدور المفقود!
نحو يسارٍ إنساني جديد!

ما هو سبب تلك «النقزة» التي يحدثها اسم «اليسار» لدى غالبية الناس؟ ولماذا لا يكون «اليسار اللبناني» أو «الاتحاد العمالي» أو أي هيئة نقابية أخرى –بغض النظر عن اسمها– بمثابة «اتحاد الشغل التونسي» الذي يحظى برضى واحترام الجميع، وقد نال جائزة نوبل لدوره في حل الخلافات السياسية، وفي إطلاق الصيغة الدستورية التي حكمت تونس في الفترة التي تلت ما عُرف بالربيع العربي؟!

للإجابة عن هذه الأسئلة لا بد من النظر إلى الجوانب الموضوعية العامة، وتلك الذاتية المتعلقة بطبيعة وتجربة «اليسار اللبناني».

في الحقيقة إنّ اليسار اللبناني كان قد بلغ الذروة بما شكَّله امتداده على صعيد الوطن كله وكانت فترة الخمسينات والستينات ومطلع السبعينات هي الفترة الذهبية لصعود نجم اليسار، ولكن على ما يبدو أن هزيمة 67 أمام إسرائيل، التي أصابت الأنظمة العربية –وإن أُطلق تسمية «النكسة» عليها، تخفيفاً لتلك الهزيمة الكارثية– قد شكلت

صدمةً كبيرة ليس فقط للجماهير التي فقدت ثقتها بهذه الأنظمة، لا بل انعكست كذلك على الأحزاب عامة، والشيوعية منها بشكل خاص، ودفعتها إلى إقرار وتبني تغييراتٍ جديدة في برامجها وخطابها.

وعليه؛ يبدو أن نتائج المؤتمر الثاني 1968، تندرج في هذا السياق ويتوجب تالياً قراءتها على وقع تلك الهزيمة وما اقتضته تلك الظروف من الأحزاب أن تلاقي وجدان الناس المجروح والمكسور ببرامج وشعارات ورؤى «ثورية» تُعيد الثقة والأمل لها بعد أن استبد بها الوهن واليأس!!

وما لا شك فيه أن آثار الموقف اليساري السابق من قرار تقسيم فلسطين (1947) الذي كان يتماشى فيه مع الموقف السوفياتي الذي كان مؤيدا لذاك القرار حينذاك، كان لها الأثر البارز في ذلك.

وقد لعبت مسألة تصحيح هذا الموقف من القضية القومية، فعلاً عكسياً، إذ اندفع مباشرة إلى النقيض؛ لا بل للتطرف والمغالاة إن لم نقل المزايدة على أصحاب «القضية» بهذا السياق ما شكل انقلاباً كاملاً في الموقف!!

ومما لا شك فيه أيضاً أن النظرة اليوم لذلك القرار تبيّن أن من وقفوا معه كانوا على صواب، إذ أنّ ما يطالب به الفلسطينيون اليوم أو ما يقبلون به، يكاد لا يشكل على الأكثر ما يقرب من 15 الـ 20 ٪ ممّا كان مطروحاً عليهم في ذلك القرار! ولكن هذا شأن آخر الآن،

ولعل هذا هو الخطأ الفادح الذي وقع به اليسار، إذ غلّب الشأن القومي على المعطى الوطني الملح. وقد فاتهم أنّ يساراً وطنياً إنسانياً، متصالحاً مع واقعه وبيئته وينطلق من قضايا العدل والحرية والتغيير والديمقراطية سوف يكون خير معبّرٍ عن مصالح الناس، كذلك سيكون خير سندٍ نزيه وشريف وصادق لقضايا الأمة المحقة والعادلة، عوضاً عن أن يكون ذيلاً تابعاً لهذه الدولة أو تلك المنظومة!

ومما لا شك فيه، أن اليسار اللبناني كان يعاني من حالةٍ من الانفصام في الشخصية ما بين الواقع والدور المطلوب منه في عملية التغيير، فهكذا نراه عبر رموزه المتفوّهة من كمال جنبلاط إلى جورج حاوي ومحسن إبراهيم، حيث كانت عملية التغيير الديمقراطي عندهم -على ما يبدو- لا تبدأ إلاّ بعد أن تمر باليمن السعيد والجزائر وكوبا وفلسطين وفيتنام قبل أن تحط رحالها في لبنان!

هذا، وقد كان ثمة مواقف كثيرة معارضة من قبل نقابيين أو حتى مناضلين حزبيين من الذين عاشوا وعاينوا تلك المرحلة وكان لهم مواقف مغايرة عن تلك التي سارت بها القيادة اليسارية آنذاك، ولكننا في الواقع نجد أنه قد تم إزاحة أو إقصاء هذه الآراء في سبيل تغليب الكادرات العسكرية الشابة التي تم تدريبها على عجل في الاتحاد السوفياتي أو إحدى الدول الاشتراكية التابعة له، لكي تسير في هوى ووجهة القيادة اليسارية التي أمسكت بزمام اليسار منذ المؤتمر الثاني.

الأمر الذي حوّل هذه القيادات المستفيدة من الوقائع الجديدة على الصعيد الشخصي إلى العمل على تطوير وتعميق هذه الحالة، وتالياً عدم إتاحة الفرصة للتغيير الحقيقي الذي كانت تنادي به!

هكذا يبدو أنه بالإمكان تشبيه حالة اليسار عشيّة اندلاع الحرب الأهلية بحالة ما بات يُسمّى بـ «جبهة الممانعة» و«المقاومة» هذه الأيام، والتي يبدو أنها في حقيقة الأمر تمانع وتقاوم أي عملية تغيير سياسية حقيقية، أكثر ممّا تفعل أيِّ شيءٍ آخر. وهذا شكل من أشكال انفصام الشخصية يكاد يكون هو نفسه كالذي كان يعاني منه اليسار حينذاك.

لهذا لا يمكن معرفة لماذا انتهى حال اليسار إلى ما انتهى إليه من ضعفٍ وتراجع، من دون العودة لتلك الممارسات والأفكار التي انتهجها اليسار وتحديداً منذ منتصف الستينات!

وعليه تتبدّى أهمية إقامة عملية نقد الأحزاب وتجاربها وأسباب ودوافع مشاركتها في الحرب الأهلية!، وكذلك مراجعة تجارب اليسار عامة والحزب الشيوعي على رأسها، وذلك انطلاقاً من مؤتمره الثاني وكل ما شابه من أسئلة وعلامات استفهام لم تزل غير جلية أو واضحة ومحسومة حتى أيامنا هذه مروراً بكل من المحطات التالية:

1- المؤتمر الثاني للحزب الشيوعي اللبناني: (تموز 1968م)

خاصة لناحية التداعيات التي تولدت عنه، نتيجة سيطرة تيار أو مجموعة بعينها على مسار هذا الحزب الرئيسي في الحالة اليسارية بشكل عام، هذه الحلقة التي كان في صدارتها جورج حاوي ومجموعته، واستمرت بقيادة هذا الحزب إلى وقت غير بعيدٍ من أيامنا هذه.

وقد تجلّى هذا الأمر في السلوك السياسي الذي تلا هذا المؤتمر الذي تمثّل بغلبة التيار السوفياتي والقومي العربي، والعرفاتي لاحقاً، وانسياقه في إطار الحرب الباردة التي كانت دائرة في العالم فيما بين القطبين العالميين آنذاك؛ الاتحاد السوفياتي وأمريكا.

وهنا تحضرنا «سردية» جورج حاوي «المتواترة» التي يُجمِع هو ومجموعته من بعده، على المواظبة على تقديمها حول بداياته والمرحلة البكداشية وكيف أنه دخل على خط صراعات القوى التي كانت دائرة في الحزب الذي كان لا يزال بعد «لبنانياً/سورياً»، وكيف أنه تواصل مع مجموعة الضغط التي كانت تنقل التقارير والأخبار إلى السوفيات:

«.. لم يكن المؤتمر الثاني قد عقد بعد، ولم تكن قد سحبت رسالة سالم، ولم يكن قد صحح الموقف فيه من فرج الله الحلو، وهذا الأمر فجّر صراعات بدأ كل من حسن قريطم وصوايا فيها يستعينون بالكتابات السوفييتية ضدنا. كما كنا نحن نستعين بهذه الكتابات ضد خالد بكداش.

لقد كانت هذه الكتابات منسجمة مع موقفهم. حيث نشأ صراع أساسي داخل اللجنة المركزية حول الموقف من قضية فلسطين وحول الوحدة العربية وكذلك حول موقع لبنان من هذا الصراع»[1]

وهنا يشير حاوي إلى حالة تشبه «الانقلاب» على البكداشية، والخط السوفياتي في الحزب الشيوعي، والذي تم تسويته فيما بعد وأراد السوفيات معاقبة نقولا شاوي الذين استبقوه في موسكو بحجة مرضه وخضوعه للعلاج، في حين أنه كان يشكو من ألم في العين، والأمر لا يستدعي كل هذه المدة وفق رواية حاوي[2] وكان الوفد المعّد للمشاركة في مؤتمر الحزب الشيوعي السوفياتي في العام 1964، في موسكو قد ضم كل من نقولا شاوي وحسن قريطم وصوايا

صوايا[3]. وقد استبقي الشاوي في موسكو بحجة مرضه، فيما عاد كل من قريطم وصوايا إلى بيروت، الذي قدم تقريراً يشيد بمزايا قريطم

([1]) جورج حاوي...شهيداً، البدايات 1938–1967، إعداد يوسف مرتضى ومصطفى أحمد، تقديم جورج البطل، دار الفارابي، ط1، 2006، بيروت–لبنان.

([2]) مصدر سابق ص149. والنص المذكور هو عبارة عن مقابلات كان قد أجراها حاوي مع الإعلامي طانيوس دعيبس، وأُدرجت في سياق هذا الكتاب الذي ظهر بعد اغتيال حاوي. وهي نتاج مقابلات استمرت 12 ساعة على مدار عامٍ ونصف، وأخذت من الصفحة 9 إلى صفحة 158. وقد قطع اغتيال حاوي عملية استكمالها إلى ما بعد تلك الفترة على ما ذكر في الكتاب. ص 158.

([3]) مصدر سابق ص148

في الحزب، ما حذا بالقيادة الشابة آنذاك، والمؤلفة من جورج حاوي وكريم مروة وغسان الرفاعي. إلى الشك والريبة فيما يُخطط ويرسم في الخفاء، خاصة أن تقرير قريطم خلا من أي ذكر عن الشاوي[1] وقد فهموا من ذلك أن السوفيات يريدون إفشال المؤتمر الثاني الذي بدأت هذه الكوادر الشابة تعد له في القواعد، وبدا أن رياح التغيير قد أزفت.

وفي النهاية تنجح هذه القيادة في إجراء المؤتمر، وتنتهي هي كقيادة جديدة ويتم إقصاء الفريق القديم أو القيادة التاريخية كما كانت تعرف حينذاك.

وفي السياق يتحدث حاوي عن التهمة التي أطلقها السوفيات ضده بأنه عميل للأمريكان، والتي جرى بثها في أوساط الحزب، وحيث أن الأكثرية لم تصدق هذه التهمة «الدعاية»، غير أن (يوسف خطار الحلو ومادويان)، وبعض الرعيل القديم قد صدقوا ذلك.. [2]

ما يعنينا من سرد كل هذه الوقائع هو تبيان الصورة أو المشهد الذي آلت إليه الأمور فيما بعد. وقد تسارعت مسيرة صعود نجم حاوي في الحزب واليسار، منذ 1964 حيث صار العضو الأصغر سناً في اللجنة المركزية ومن ثمّ في سنة 1968 عضواً في المكتب السياسي.

([1]) نقلا عن رواية حاوي نفس المصدر ص 149 بتصرف بقصد الاختصار.

([2]) المصدر السابق ص 153.

ومن ثمّ أميناً عاماً مساعداً في أواسط السبعينيات، فأميناً عاماً أصيلاً في العام 1979، وفي أيلول 1982 أطلق بيان المقاومة الوطنية الشهير مع محسن إبراهيم. ليُعاد انتخابه في الأعوام 1987، و1993. إلى أن استقال من منصبه في العام 1993. وانتخب رئيساً للمجلس الوطني في العام 1999، إلى أن تعرّض للاغتيال في العام 2005، بعد نشاطه فيما عُرف بقرنة شهوان ولاحقاً 14 آذار.

لا شك أنّ مسيرة الرجل حافلة وهو أخذ من/ وأعطى اليسار. وتقييم مسيرته بسلبياتها وايجابياتها بالطبع ليست هي مطمح هذه المقالة، وإنما الهدف من هذه السطور تسليط الضوء على بعض الأوضاع التي كانت سائدة وبعض النقاط الغامضة وطرح الأسئلة النقدية حيالها. خاصةً أن حاوي كان هو العنوان الأبرز لتلك المرحلة وما تلاها.

في الواقع لا يجد المرء سوى أن يطرح التساؤل طالما أننا لم نكن من معايشي تلك الأحداث، ولم يتناه إلى أسماعنا من مصادر محايدة تأكيد أو نفي صحة هذه المعلومات. يبقى السؤال الأبرز هو التالي: كيف تسنى لحاوي والقيادة الصاعدة معه أن تفوز بقيادة هذا الحزب، وتتربع على رأس قيادته -وهو في مقدمتهم زهاء نصف قرن- وهم على هذه الدرجة من «العداء» أو الصدام والمواجهة مع السوفيات؟! علماً أن المعطيات والصور التي نعرفها من أيام الحرب وما تلاها، هي أن جورج حاوي وفريقه كانوا على وئام تام وصداقة كبيرة مع

الاتحاد السوفياتي!! ناهيك عن الصور «المقدسة» التي كانت تقدم من قبلهم عنه، بإنه «جنّات النعيم» على الأرض!

2- اتفاق القاهرة[1]:

تراهم اليوم يتحدثون عن قرار الحرب والسلم بيد مَن يجب أن يكون! «لكنهم ينسون أنهم حينذاك وضعوا قرار الحرب والسلم بيد ياسر عرفات». يقول بعض مَن عايش تلك المرحلة.

ويبدو أن حالة الانقسام الوطني وبعض النزعات الطائفية التي سادت في ما عُرف بأحداث 1958، التي كانت نذيراً أو تمهيداً لما سيأتي في نيسان 1975! خاصة لحالة الانقسام السياسي والشعبي والاندفاعة الحماسية القوية لنصرة القضايا العربية ولهالة عبد الناصر الشعارات القومية ومناصرة القضية الفلسطينية، التي تجلّت في تظاهرة 23 نيسان 1969، لنصرة المقاومة الفلسطينية، والتي اعتقل فيها قادة الحركة الطلابية واليسارية ومنهم جورج حاوي.

3- موقف اليسار الخاطئ من العمل الفدائي والتدريب.

---

(1) هو اتفاق عُقد في القاهرة بتاريخ 1969/11/13، بين ممثلين عن السلطات اللبنانية والمنظمات الفلسطينية، برعاية جمال عبد الناصر حول الوجود الفلسطيني في لبنان، حيث شرّع العمل الفدائي للفصائل الفلسطينية من الأراضي اللبنانية، الأمر الذي يعده الكثيرون أحد الأسباب الرئيسية في اندلاع الحرب الأهلية في العام 1975. وبقي هذا الإتفاق سرياً إلى أن نشرته جريدة النهار في 1970/4/20

4- انخراط اليسار في الحرب الأهلية:

بمَ تراها تنفع الحرب، حزباً أو تياراً يسارياً شعبياً عارماً ومنتشراً على كل الأراضي اللبنانية!؟

وهنا بمَ تراها تنفع أو تفيد في هذا السياق، التصريحات التي تشبه اعترافات المرتكبين أمام الكاهن في لحظات حياتهم الأخيرة كعملية تكفير واهية عن آثامهم؟!

هكذا كان حال أحد كبار أساطين اليسار المعروف بعلاقاته بالقوى الإقليمية في آخر أيام حياته عندما قال: «إننا استسهلنا الحرب من أجل إحداث التغيير الديمقراطي واستعجلنا الدخول في الحرب..».

بماذا تراه يفيد هذا الكلام المتأخر جداً والمبتور والناقص؟!

وكأن هذا الكلام يعوّض دماء الشهداء الذين سقطوا نتيجة الضخ الفكري المزيف الذي كانوا يبثونه في المجتمع!؟

هل كان لا بد من تكبُّد هذه الكلفة الباهظة التي تمثلت بحرب امتدت لعقد ونصف وتدخلت كل قوى العالم فيها، وخلّفت ما يربو على المئة وخمسين ألف قتيل وعشرات آلاف الجرحى والمعوقين، وآلاف المفقودين الذي لا يزال مصير الكثيرين منهم لغاية أيامنا هذه مجهولاً؟! ناهيك عن تدمير البلد وتقسيمه وإيقاف دورته الاقتصادية والاجتماعية التي نتجت عن عمليات التهجير القسري للسكان وتعطيل

المدارس. هل كان كل هذا لازماً وضرورياً لكي نصل إلى هذه النتيجة!!؟ لكي نفهم أنّ الحرب لا تغير شيئاً ولا تلغي أحداً؟!

بالطبع إنّ ما نوّجهه من نقد لقوى اليسار والقوى الوطنية والإسلامية الأخرى التي اندفعت إلى الحرب، لا يجب أن يعني بأي حالٍ من الأحوال أننا نستثني أو نبرئ بذلك ساحة قوى اليمين التي تتحمل بدورها الدور والمسؤولية الكبرى بهذا السياق، كونها كانت تحمل تصوراً متعالياً وتقدم خطاباً «عنصرياً» مفارقاً للواقع!

هل يجب أن نمر على كل ذلك بجرّة قلم أو بكلمة تبرير خجولة!! من هذا الفريق أو ذاك؟!

5- قرار عزل الكتائب:

لقد بات معلوماً أن هذا القرار أفاد الكتائب أكثر ما أضرها، لا بل صبّ في صلب مشروعها «الانعزالي» آنذاك، أمّا الضرر الأكبر فقد لحق باليسار لأنه في الحقيقة عزل وفصل نفسه عن تلك المناطق التي كان له فيها جماهير وامتدادات واسعة..

6- الإسهام في عملية تدمير الدولة والجيش:

لقد بدا أثناء بدايات الحرب الأهلية وكأنّ اليمين يدافع عن الدولة وجيشها التي كان يعتبرها بأي حال «دولته» التي صنعها هو على قياسه وحساباته، واليسار يحارب ويسعى لتقويض هذه الدولة وأجهزتها

لذات الاعتبارات؛ «أنها دولة الامتيازات المارونية المدعومة من الغرب وأميركا..».

7- عدم سعي اليسار إلى تفادي هذه الحرب: وإنه كان بمقدور اليسار لعب أدوار كبيرة وتواصلية ما بين المناطق، لكن يبدو أن قيادات اليسار انغمست في اللحظة السائدة وفي اللعبة الدائرة دولياً وإقليمياً، ولقد كانت منصاعة وطيّعة لتنفيذ أوامر و«رغبات الرفيق الأعلى»!!

ألم يكن من الأجدر مناقشة إذا ما كان بالإمكان تفادي هذه الحرب؟!

وهنا يقول بعض من عايشوا تلك الفترة: «إن هذا الأمر كان ممكناً، وإن الحرب لم تكن قدراً محتوماً لا مفر منه!» لولا خطأ اليسار في الانجرار والانبهار الأعمى وحتى الاستقواء بالعامل الفلسطيني، حيث كان بإمكان اليسار وحده لعب دور لجم وتصويب وترشيد هذا الوجود الفلسطيني عبر أن يقوم اليسار ويضطلع مع السكان –في القرى الحدودية– بدوره في عملية التصدي للعدوان؛ عوضاً عن أن يتغاضى أو يشارك في عملية تسليم القرى والبلدات الحدودية كهدية لـ«الثورة» التي ستتحول إلى «دولة» على حساب الدولة الحقيقية وهيبتها! فأين مصلحة اليسار في ذلك؟

حتى إذا ما خرجت هذه الممارسات عن كل سيطرة ودور حتى لليسار نفسه، ومهّدت هذه الممارسات والتجاوزات إلى تململ الأهالي والسكان من «المقاومة» الاستعراضية والسلوكيات الشاذة، لتلد من رحم هذه الاختلالات، الحركات الدينية وتأخذ المبادرة في الميدان. فيما راح اليسار يتداعى ويدفع ثمن فشل وارتهان خياراته الأساسية؛ في التخلّي عن دوره الوطني وتقاعسه عن القيام بمسؤولياته الوطنية! وغدا يومذاك، ككثيرين غيره، لا يجدون حلاً محلياً قادراً على مواجهة هذه الوقائع التي استفحلت. حتى بدا حينها، أنّ الدخول «الإسرائيلي»، آتٍ لا محالة! وأنّه سيدخل على الخط ويغير الوقائع المستجدة ويعيد خلط الأوراق من جديد.

ويروي بعض معايشي تلك الفترة بهذا الصدد: «إنّ الاجتياح الإسرائيلي صار متوقعاً؛ لا بل معروفاً أنه سيحصل من قبل الجميع بما فيهم قيادات اليسار وغيرهم الذي بدا كأنه القدر المحتوم!». هذا الذي بدا، كأنه يستكمل ما بدأته وعجزت عنه قوات الردع العربية، المرسلة بوحيٍ لبناني ورضى عربي وضوء أخضر دولي! بهدف إنجاز عملية إقصاء أو إبعاد العامل الفلسطيني الفدائي المسلح، الذي تمدد وانتشر في الخراب الذي خلفته الحرب الأهلية، فيما استفحل الصلف اليميني في الشطر الثاني من الوطن.

بشير الجميل وجورج حاوي.

ويذهب البعض من هؤلاء إلى حد القول بأن: «جورج حاوي كان يتناغم ويشكِّل ما يكون بمثابة الند لبشير الجميل الذي صار يجد في خطابات حاوي المبرر للمضيّ قدماً في مشاريعه الرعناء». وأنه كان يتماشى مع منطق بشير وينزل إلى مستوى خطابه الفئوي والعنصري المحموم، في حين كان يتوجب على «الفكر اليساري الإنساني» أن يتعالى ويستوعب ويسعى لتفريغ خطاب الكراهية والتفرد لـ «بشير» وليس ملاقاته على الطرف الآخر من التطرف الذي بات يأخذ طابعاً إسلامياً. وهذا ما أشار إليه بأي حالٍ كثيرون من قادة الكتائب والأحرار ممن شاركوا في الحرب الأهلية بأن اليسار كان يقاتل تحت راية المسلمين، أو بدا أن مشروعه كأنه في صف المسلمين، وهذا كان المقتل الكبير ليسارٍ كان فوق الطوائف وعابراً لقارَّاتها ومنتشراً في كل مناطقها إلى يسارٍ شبه فئوي ينطوي في مشروع عبّر عن مصالح الطوائف الإسلامية!

هذا الانزلاق الكبير والمفصلي لليسار أدّى إلى التفاف الشريحة الكبرى من المسيحيين حول «الخطاب الكتائبي» وملحقاته، وأدّت في واقع الحال إلى مفعول عكسي تمثل بـ «عزل اليسار» نفسه عن جماهيره المتواجدين في المناطق المسيحية أو ما بات يُعرف وفق مفردات الحرب الأهلية بـ «المنطقة الشرقية» وأعطى المشروعية، وقد ساهم، ربما –عن غير قصد– في تبلور مشروع الكتائب.

علماً أنه سبق لحاوي أن ارتبط بعلاقة أو معرفة بالكثير من رموز اليمين من بيار الجميل الذي كان يعرف والده أنيس حاوي –ابن عم والد ويليام حاوي– وآخرين إلى موريس الجميل وغيره[1]

هذا إضافة إلى مسعى حاوي لتحييد بلدته بتغرين إبّان أحداث أو «ثورة 1958»، إذ كان في بتغرين تواجد للشيوعيين والقوميين الذين كانوا متحالفين مع الكتائب حينذاك وكانوا مدربين على القتال أكثر من الشيوعيين والكتائب على حد سواء، حيث يقول: "…. وإن كانت الشراسة التي جوبهنا بها من قبل القوميين كانت تختلف عن مواجهة الكتائب الذين كنا نستهزئ بإمكانياتهم، ونعتبرهم فريقاً رياضياً أكثر من كونهم قوى مقاتلة»[2]

فهنا نجح حاوي وآخرون من بلدته في تحييد البلدة عن القتال، على أن يتوجه الراغبون بالمشاركة في المواجهات المسلحة إلى مناطق المتن الأخرى أو بيروت.

إنَّ داعي ذكر هذه الأحداث هو القول أو التساؤل عن سبب غياب مبادرات حقيقية ما قبل اندلاع الحرب الأهلية أو في بداياتها من قِبَل[3]

([1]) مصدر سابق نفسه ص 123. (بتصرف)

([2]) م. س.ن ص 70

3

اليسار عموماً لتفادي وقوع هذه الحرب!! على غرار المبادرة التي قام بها جورج حاوي إثر الإعلان عن نهاية الحرب الأهلية اللبنانية.

فوجَّه الدعوة إلى جميع الأفرقاء للحوار والمصالحة للذين كانوا مشاركين في هذه الحرب. وقد قام بزيارة سمير جعجع في غدراس ذلك في العام 1991.

وهنا تُطرح الأسئلة الجوهرية، ألم تكن مثل هكذا مبادرات ممكنة من قبل؟! أم أن الظرف وخدر الشعارات والمواقع والمصالح وحالات الانفعال والحماس وسطوة الأيديولوجيات، التي كانت سائدة كانت أقوى من أصوات العقل؟!

المقاومة والعمليات الانتحارية الاستشهادية

ومن الظواهر اللافتة التي شهدتها مسيرة اليسار هي دخوله في مرحلة الاجتياح الإسرائيلي 1982، على خط العمليات العسكرية الاستشهادية، والتي كانت –كما لدى كل الأحزاب التي نفذتها– عملياتٍ ذات طابع استعراضي وسياسي والهدف التعبوي «التجييشي» حاضرٌ فيها بدرجة كبيرة!

ولكن قد أثير في فترات ما بعد الحرب أن بعض هذه العمليات لم تكن أيضاً بعيدةً عن الاستغلال السياسي وحتى المادي لبعض قيادات هذه الأحزاب التي كانت تصرف وتقبض ثمن هذه العمليات في

الحقائب وفي السياسة!! فهل من توضيحات وأجوبة على هذه التساؤلات!؟

وهنا استذكر موضوعاً أخلاقياً وإنسانياً أُثير بهذا السياق حيال هذه العمليات التي نفذها علمانيون ينتمون لأحزاب عقائدية شيوعية أو قومية أو بعثية، وكانت تُثار أسئلة من قبيل: ما هي المسوّغات والتعليلات الفكرية والعقائدية التي كان يسوقها هؤلاء العلمانيون لأعضاء أحزابهم للإجابة على الأسئلة التي كانت تُطرح حول طبيعة ومغزى هذه العمليات التي كانت تدفع بأشخاص إلى موتهم المحتم، وبطرق قاسية ومأساوية وليس فقط هؤلاء الأفراد الذين كانوا في ريعان الشباب، لا؛ بل أنها طالت الحيوانات كالبغال والحمير!

ولقد تم إغفال وحجب هذه الأسئلة الأخلاقية بسرعة، وقد بقي طرح هكذا أسئلة خافتاً وغير مرغوبٍ أو مرحبٍ به، وقد أُسدل الستار عليها تحت شعار أو مقولة: «لا صوت يعلو فوق صوت المعركة!».

بالطبع كان وقع وصدى هذه العمليات كبيراً لدى الناس، وشكلت حالة وجدانية عالية وفاقمت من الروح الثورية لدى الشباب الراغب بالمقاومة والاستشهاد في سبيل الوطن، بعد سيل الهزائم والمجازر والأهوال التي عايشناها!

ولكن تلك الأسئلة الجوهرية والأخلاقية، ذهبت أدراج الرياح وظلت دونما أجوبة شافية.

ومثال على بعض هذه الأسئلة، وبعيداً عن كل ما كان يتناهى أو يُحكى عن استخدامات معينة وتساؤلات حول توقيتها وأشكالها ومناطق تنفيذها وربطها بالحسابات السياسية والظروف المحيطة والرسائل المتبادلة.. لا أريد أن أخوض في كل هذا، وإنما ما يعنيني في هذه العمليات هو البعدين الإنساني والأخلاقي وهما يتمحوران حول السؤال التالي:

إذا ما كانت حياة الإنسان وكرامته هي القيمة الأسمى التي تتفق عليها كل من الأديان والدساتير والشرائع الوضعية، وكذلك حياة الحيوان، كونه الكائن الحي الذي يشاركنا الحياة على هذا الكوكب، ونحن لا نحمل الرخصة بالتصرف بوجوده وحياته هكذا وفق أهوائنا أو «أيديولوجيتنا» السياسية! فلماذا سيسمح الإنسان، أو أي شخص أو قيادة، وتحت أي ظرف أو وضع أو مسمّى، بأن يبيح ويرخص ويسوّغ ويدفع نحو بذل أو تقديم هذه الحياة من الإنسان أو الحيوان، كما كان يحصل في هذه العمليات؟!!

لا أعرف كيف سيستقبل الناس هذا الكلام، وهو يطال أرواحاً عزيزة على قلوبنا جميعاً، قدمت دماءها فداءً لهذا الوطن ومن أجل تحرير أرضه؟!

ولكن السؤال يتمحور حول أشكال الحرب والقتال والمواجهة والمقاومة وقيمة الإنسان في ثقافتنا ومجتمعاتنا! نعم مقاومة الاحتلال واجبة ومشروعة وهي حق شرعي لكل الشعوب وبكل الوسائل

المتاحة، ولكننا يجب أن نقاوم ونقارع المحتل أو الفاسد كما المعتدي بالعقل والتنظيم والإعداد والاستعداد، وليس وفق الطرق التي تتجاوز حدود ما يقبله العقل والأخلاق وحق الإنسان المقدس بالحياة!

نعم، تخوض تشكيلات المقاومة المواجهة مع العدو، ويسقط شهداء وجرحى في المعركة، ولكن المحارب أو الجندي يكون دائماً مستحوذاً على فرصة النجاة والمحافظة على حياته أثناء المعركة، بينما هذا النوع من العمليات لا توجد فيه هذه الاحتمالية التي تُبقي مسألة القيام بالواجب الحربي في دائرة الأعمال التي يُقدِم عليها الإنسان على نسبةٍ عاليةٍ من المخاطر.

وبهذا السياق ثمة أعمال خطرة كثيرة، منها العمل في مجالات الدفاع المدني أثناء الحروب، أو عمال المناجم والمفاعلات النووية والمناجم والأبنية الشاهقة... الخ. غير أنّ الجامع بين كل هذه الأعمال والعمليات العسكرية هي عامل المخاطرة المحتملة بنسبٍ متفاوتة، الأمر المعدوم في العمليات المسماة «استشهادية» أو «انتحارية» وفق وجهة نظر الناظر إلى هذا الموضوع!

كذلك كان يُثار أن منفِّذي أمثال هذه العمليات في المقاومة من الحركات والتيارات الدينية كانوا يُبشَّرون بالدخول إلى الجنة، فبماذا كان الشيوعيون والقوميون والبعثيون يعدون ويبشرون شهداءهم؟!

هل يجب أن يعني أننا بإثارتنا لهذه النقاط – (أي الانخراط في «الحرب الأهلية» وانزلاقاتها، ومسؤولية الضحايا الذين سقطوا فيها، والمسؤوليات حول تدمير البلاد وتهجير مئات الألوف، وكذلك ظاهرة العمليات «الانتحارية» أو شهداء «المقاومة الوطنية» في العمليات «الانتحارية»)– أننا نمس بمقدسات و«محرمات»، لا يجوز ولا يسمح الاقتراب منها، لأن ذلك قد يعني تنصلاً أو تنكراً لتضحيات ودماء آلاف الشهداء، والجرحى، والمعوقين، والمفقودين؟؟ أو ربما قد يحلو للبعض أن يقول: إننا بهذا نلوِّث أو نشوّه الصورة «الرومانسية» و«الهالة» «المقدسة» المضفاة على هذه السير و«العمليات»؟!

أم أن الأمر على العكس من ذلك؟، بمعنى أن الخوض في هذه المسائل هو المطلوب تماماً، وهو خير تعبيرٍ عن وفائنا لدماء جميع مَن سقط في هذه الحرب الأليمة وفي معركة التحرير، وهذا حقهم علينا أيضاً وواجبنا الأخلاقي والإنساني حيالهم أن نبيّن أنهم سقطوا من أجل ماذا؟ وبأي وجهة؟ ولأي غاية؟ في هذا فقط يتم تكريمهم وإيفاء هؤلاء الشهداء والضحايا حقوقهم علينا، لأننا بذلك نسعى أن نكون أوفياء لهم ولدمائهم، التي سالت من أجل هذا الوطن من كل الجهات. لأننا لو تركنا هذه «القبائل» اللبنانية وهذه الأحزاب الطائفية والعلمانية على حد سواء على سردياتها «المزيفة»، لهذه الحرب تالياً، حول قداسة ورفعة شهداء كل طرف شارك فيها، بأنهم سقطوا دفاعاً عن القضية الحق والمحقة والصائبة بوجه «قضية» الآخر التي كانت

خاطئة ومعادية، لكنه اليوم حليف وشريك في الوطن؟!! هذه «التسويات» و«التلفيقات» البالية على الطريقة اللبنانية، لن تكون سوى وصفة سحرية قابلة للاشتعال في أي لحظة، كلما توافرت الظروف والمعطيات لاستئناف هذه الحرب من جديد!!

وعليه لا بد من تفكيك هذه الأساطير والسرديات الخرافية حول الحق والصواب والخطأ في الحروب الأهلية، والبحث عن أشكال النقد الحقيقي والمكاشفة والمصارحة، واعتبار كل ضحايا الأحزاب والطوائف والأبرياء بمثابة الشهداء الذين قدموا أرواحهم من أجل قيامة هذا الوطن الذي يضم ويتسع للجميع دون استثناء!

وهذا يدحض الفكرة التي ستُثار ضد كلامنا هذا، بأننا نرمي من إلقاء هذه الأسئلة وفتح هذه المواضيع تبيان أن «أحزاب/ نا» كانت خاطئةً، وأننا تالياً نعطي صك براءة لـ «أحزاب/ هم» أي اليمين والكتائب، ووثيقة تفيد بأنهم كانوا على حق، وتبرئتهم تالياً من كل المجازر التي اقترفوها والدماء التي سالت!

لا أبداً.. ليس هذا هو الهدف أو الحقيقة، فاليمين أخطاؤه وأمراضه وعقده وأعراضها أكبر وأعمق من قصص اليسار، وتفنيد هذا وذاك بالتفصيل سوف يتم في معرضٍ وشكلٍ آخرين!

محاولات التغيير في اليسار وأصنام الستار الحديدي

لا شك أنَّ ثمة محاولاتٍ للتغيير والتجديد والإصلاح في جسد وبنية وهيكل اليسار المحلي قد جرت وباءت جميعها بالفشل، أو أجهضت في مهدها ولم تخرج أخبارها إلى العلن، ولاذ أصحابها بالصمت أو الموت الطبيعي، لا فرق بات بين الاثنين هذه الأيام! لكن ما يعنينا أكثر هي تلك المحاولات التي كنت شاهداً عليها، وبهذا السياق تحضرني المحاولات الطلابية التي جرت في أعقاب عدوان 1996 في بيروت والتي حملت جملة من المفاهيم والأفكار التي كانت حقيقة جديرة بأن تُعطى الفرصة لكنها أجهضت من قبل «العقليات الجامدة» وحراس الهيكل وأصنامه آنذاك..

وكانت نماذج تلك المحاولات تشتمل على مسائل كإعادة التأسيس وتغيير الاسم، أو مؤتمر تأسيسي لليسار عامة في لبنان يضم يساريين وغيرهم من مختلف مشاربهم، ويحافظ في الوقت نفسه على الإرث النضالي والفكري للجميع..

وقد تبلورت تلك المحاولات الشبابية غداة ذلك العدوان الذي دفع بمئات العائلات الجنوبية لترك قُراها في الجنوب فتوزعت في مدارس ومراكز إيواء في بيروت والمناطق، وتداعى حينها حشد كبير من الشباب من كل المشارب للمساعدة، وراحت تدور لقاءات تطرح أشكالاً محتملة لجمع هذه الطاقات في إطار شكلٍ جامعٍ يعيد الثقة والحيوية للحركة اليسارية والتغييرية بشكل عام، وضمت شاباتٍ وشباناً من مشارب مختلفة. وكانت تجربة فريدة من نوعها يومها، إذ وافق

الجميع على العمل أو البدء من داخل الجسم اليساري الأكبر، بعد أن داخله الكسل والتآكل، بعد اقتراحٍ من بعض حراسه حينذاك، وبعد أن هالهم مشهد العمل الشبابي الجماعي وتلك الحيوية الكبيرة والروح العالية، التي ظهرت دونما تخطيط أو توجيهٍ من أحد، فقط من طلاب جامعيين وآخرين، فاقترحوا أن نأتي أو «يعود بعضنا» إلى هذا «الهيكل القديم» وهم يحسبونه كالعود الكبير، فقلنا لهم: «إننا لم نعد بوارد الهياكل القديمة، وما ننشده هو التغيير والتجديد!». فعرض علينا أحدهم أن ندخل الهيكل ونعيد الحياة إليه وأنهم جاهزون لتقبل أي تغيير ينتج عن هذه الحركة.. وافقنا ودخلنا إليه أفواجاً، وكنا نعلم ماذا يرمي هو من ذلك، أي أن يُدخلنا إلى هيكله حيث أصنامه القديمة، ومن ثمَ يعاود تدجيننا، ونحن كنا نرمي الدخول إلى الهيكل وتحطيم تلك الأصنام، وتراه كان يرى ويحتسب لذلك! لكنه في لحظة واحدة، عندما أحسّ بخطر التغيير القادم، أقفل باب الهيكل على نفسه وطرد الجميع منه، وأخفى المفتاح في جيبه! فخرجنا، ولسان حالنا يقول: يسارٌ له أبواب تُقفل بالمفاتيح، هو يسار حجري لا يجدر به إلاّ المتاحف، أمّا اليسار الذي ننشده هو ذلك اليسار الإنساني ذا الأبواب المشرّعة والمفتوحة للجميع وعلى النقد وعلى المستقبل!

لا شك أنها تجربة لم تأخذ حقها، وهي جديرة بالكتابة والنقاش، وأن نخصص لها مكاناً آخر أوسع وطريقة أخرى لأهميتها! لأنه كان

من شأن ذلك، لو تطور وأخذ مداه، أن نكون أمام حالة يسارية إنسانية أخرى غير الحالة البائسة التي نشاهدها هذه الأيام!

كانت هذه عينة صغيرة عن أخطاء اليسار وزلاته المحلية وما يتحمله هو ذاتياً في تجربته ومساره، ولكن مما لا شك فيه أنّ لمسار التجارب الاشتراكية في العالم وما رافقها من نماذج توتاليتارية ودكتاتورية، وحالات القمع والانغلاق، وغياب روح الإبداع الفردي في مجالات الحياة المتعددة، ومن ثم الانهيارات التي حصلت بالجملة في البلدان الاشتراكية.. كل هذه العوامل كان لها التأثير الكبير في الفكر والأشكال اليسارية في العالم ومنها لبنان.

خلاصة:

وبعد هذه الحالات بدأت مرحلة انزلاق اليسار وبداية انهياره وتراجعه الكبير، بعدما كان أحد أكبر الأحزاب الشيوعية العربية، وتظاهراته تصل إلى حدود المليون متظاهر وأكثر، وكان يُحسب له ألف حساب، من قبل الدولة واليمين.

لقد كان اليسار متغلغلاً في كل قطاعات المجتمع من النقابات إلى العمال والطلاب والأساتذة والمثقفين وحتى موظفي الدولة.

لقد كان اليسار «موضة العصر»، والناس ائتمنته على مصيرها وأمانيها.

نعم لقد نغل اليسار في القرى والأرياف كما المدن وأحزمتها منذ الأربعينات وما قبل. ولكنه فرّط في كل هذه الآمال وعناصر القوّة هذه، ليدخل في الألاعيب والدهاليز السياسية ولعبة موازين القوى ومراكز التأثير، فراحت عملية تقهقره وانحداره تتسع وتتسارع حتى غدت الهوّة فيما بين ممارساته وتطلعات الجماهير التي آمنت به تتسع بدورها حتى غدا مضرب المثل؛ يسار هرم ناهز عمره القرن من الزمن لكنه لم ينجح في إيصال مجرد نائب إلى البرلمان!! لقد صار اليسار «مهتة» الناس ومدعاة سخريتها ومحط تندرها.

نعم لقد فشل «اليسار» فيما كان بمقدوره أن ينجح!

فما هو السبب الحقيقي وراء هذا الفشل اليساري الذريع؟! لماذا لم ينجح اليسار في إدارة البلاد أو على الأقل المشاركة الفعلية في ذلك على الرغم من كل القوة والحضور التي كانت متحققة له؟

لقد بات من شبه المسلّم به، أنّ كثيراً من سياسات اليسار كانت تتم وفق «التوصيات» و «الإرشادات» و«النصائح» الدولية أو الإقليمية، ومدفوعة بكثير من العوامل والعلاقات وحتى الطلبات و«التنفيعات»..

وإذا ما كان لمن بقي من تلك القيادة المسماة «تاريخية» لليسار من «ذاكرة»، و«قدرة» على فتح أوراقها المغلقة للجمهور، فلتبادر إلى فتح جلسات نقاش ومكاشفة مفتوحة بحقيقة تلك المرحلة التي مهدّت

للحرب الأهلية، وتالياً شرح مسوغات مشاركتها الحقيقية بها. هذه النقاط التي لم يناقشها ولم يفتح موضوعها أي من الأحزاب اللبنانية التي شاركت في الحرب، واليسار على رأسها.

في الواقع، راح اليسار يخسر جمهوره بعد كل هذه الأخطاء والمسار الذي سلكه. كما أنه بات عاجزاً بصورة كبيرة عن الحفاظ على ثقة شرائح كبرى من المجتمع. وقد يكون مرد ذلك إلى أن أغلب المفاهيم والنظريات كانت تنزل بـ «الباراشوت» السوفياتي وتحاول أن تطوع الواقع وفق ترسيماتها ومفاهيمها، دون أن يُبذل الجهد المعرفي والنظري الحقيقي نحو «تبيئة» هذه النظرية الفكرية التي ولدت في بيئة ومجتمعات مختلفة.. ولا لسبر أغوار العلاقة المركبة والعميقة التي تشكلها التصورات الدينية في ترابطها المحكم في البنية الثقافية والاجتماعية والاقتصادية المعاشة لأبناء هذه المنطقة. فهي لم يكن مطلوباً منها أن تتنكر لكل ما في سلة التراث القديم، ولا أن تتحول لمرجع في تأويل نصوصه المقدسة، ولكن الدفع نحو التنوير و«تثوير» ما في هذا التراث من شخصيات لعبت أدواراً ثورية وتنويرية والبناء والجمع فيما بينها نحو رؤية اشتراكية محلية تستلهم المنهج ولا تطرح الأصيل والثوري في التاريخ المحلي.

عالم جديد يحتاج لأدوات معرفية جديدة

لا شك أننا بتنا نعيش في عالم جديد وبأبعاد مختلفة، وما كان يصح قبل قرن ونصف من الزمن لا يمكن أن يصح بنفس الدقة

ومجال الرؤية اليوم. وأننا بالتالي بحاجة لأدوات فهم وعدّة معرفية جديدة تستطيع تحليل وفهم ما يجري وتكون قادرة على استشراف المستقبل.

وما لا شك فيه أيضاً أن التطورات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والمعرفية الهائلة التي عرفتها البشرية في النصف الأخير من القرن المنصرم، وتجلّت بما بات يُعرف بـ «ثورة المعلومات الرقمية»، وما نتج عن تطور التكنولوجيا في الدول الصناعية الرأسمالية الكبرى من ظهور آليات متعددة للإنتاج تجاوزت الرؤية والطرح الماركسي الذي كان بلا شك أصيلاً في مرحلته وفي تصديه لمعالجة مسألة التفاوت الاجتماعي وأشكال الاستغلال التي تنشأ جراء العمل. ففيما كان يرى ماركس أن العمل المأجور الذي يؤديه العمال وحده هو الذي ينتج عنه قيمة هذا العمل وبالتالي القيمة المضافة، أي من دون العمال لا يوجد قيمة، وهذه القيمة تساوي العمل المبذول فيها لإنتاجها، وهذا ما اعتبره ماركس القانون الأساسي في الرأسمالية..

وأن اعتماد أصحاب العمل الرأسماليين المتزايد على الآلات، التي لا تنتج القيمة المضافة، ما سوف يعني تراجع الأرباح، وأن هذا الأمر سيؤدي في نهاية المطاف إلى أزمة الرأسمالية وحتمية زوالها وقيام الاشتراكية تالياً.. ولكن في المجتمعات الصناعية الحديثة باتت الآلات الرقمية والمعامل المشغلة من قبل الروبوتات في اليابان

وألمانيا وأميركا تنتج قيمة مضاعفة بأشكالٍ مضاعفة، وبتنا نشهد أصحاب الثروات الطائلة التي تحصَّلوا عليها نتيجة استثمارات بهذه المجالات التكنولوجية وغيرها، مثال: ألون ماسك وبيل غيتس وغيرهم..

ماركس الذي قدمته المدرسة السوفياتية أو الصينية، مات وانتهى! أمّا ما بقي من ماركس فهو الفكرة، والأفكار كما الطيور، تحب التحليق وليس الجمود والانحباس في الأقفاص.

والفكرة الأساس في الفكر الماركسي هي إحلال التكافل الاجتماعي والرعاية الاجتماعية، والعدالة.. وهذا ما نرى بعض أشكاله تتحقق في بعض الدول دونما الحاجة إلى ثورة وحزب حديدي.. ويكفي بهذا السياق ملاحظة كيف أن الاتحادات الجهوية الخاصة، من المهن الحرة وما شابه، في المناطق التي شهدت انطلاق الرأسمالية هنا في غرب ألمانيا، كيف أنها باتت تحل محل الدولة أو تتكامل معها أو تسبقها في أحيانٍ كثيرة في تقديم مشاريع خلَّاقة، لخدمة المجتمع..

ويأتي بهذا السياق التغير اللافت أو التطور الذي لحق النظرة للملكيات العامة والخاصة. حيث برزت الشركات المساهمة، تلك التي يتحول فيها العمال إلى مساهمين في ملكية أصول هذه الشركات، الأمر الذي يزيد الإنتاجية ويعزز من فرص التواصل الاجتماعي، ويقلل من حدة الصدامات أو الاضطرابات المفترضة فيما بين العمال وأصحاب العمل..

ويمكن إدراج كل هذه الأشكال في سياق التطور الاقتصادي والسياسي والاجتماعي الذي تشهده هذه المجتمعات. كما أنها بلا شك تستفيد من الطروحات الاشتراكية السابقة، وربما تبني على مسألة تفادي نشوبها، وفي هذا مصلحة مشتركة للعمال ولأرباب العمل. حيث إنّ هذه العلاقة يمكن تشذيبها وإبعادها عن هواجس الماضي وستائره المشحونة بالكثير من «الأساطير» الحديثة. فهذه العلاقة لا بد لها أن تكون واقعية وأن تتطور وفق النزعة الإنسانية والاجتماعية التي يجب أن تكون هي الميزان والحكم في أساس اعتباراتها، وبالطبع ليس مصالح الرأسماليين الجشعين من أصحاب الشركات العابرة للقارات.

لينين المحنط ونهاية التاريخ:

ما يعنينا من هذا السرد هو القول أنَّ الماركسية ليست ديناً كما أن ماركس ليس نبياً. وأنّ التاريخ لم ينتهِ في الواقع عندما بشّر به فوكوياما غداة سقوط الاتحاد السوفياتي ومنظومته وشيوع أحاديث ما بعد التاريخ! لا، إنما انتهى التاريخ فعلياً في رؤوس اشتراكيي الماضي، عند لحظة قيام الاشتراكية في روسيا، وعندما حُنط جسد لينين وصار مزاراً على طريقة الفراعنة وأنصاف الآلهة المقدسين عند الشعوب القديمة.

وامتدت ثقافة تمجيد الفرد وإشاعة عبادة الأصنام من ماركس إلى لينين وانجلز وماوتسي تونغ.. وامتدت هذه الثقافة إلى أحزابنا اليسارية

وصار الأمين العام هو الخليفة على الأرض وأقواله هي المقدسة، وغابت روح النقد والمساءلة ومحاولات الفهم، وغاب الفرد في نعيم أو أديم الجماعة والأيديولوجيا، وصارت أقوال ماركس تخضع لعمليات التأويل –كما هو الحال في النصوص الدينية المقدسة– وفق الواقع، لا بل صار يتم تطويع الواقع من أجل أن يلاءم النظرية، وهكذا صارت الماركسية ديناً كالذي نهى عنه ماركس، عندما يتحول في أيدي فقهاء السلاطين إلى وسيلة أو أفيون لتخدير الجماهير عن التفكير في حقيقة الاستغلال والظلم الذي ترزح تحته، عندما كانوا يفسرون هذا بأنه قسمة من السماء، وأنهم سيتحصَّلون على النعيم في الجنَّات السماوية وليس على الأرض، هذا فيما كانت محاولة ماركس هي إنزال هذه الجنة إلى الأرض، بمعنى إحقاق العدالة والمساواة الاجتماعية في الحياة والقضاء على مسألة التفاوت الاجتماعي والفقر والاستبداد..

إذاً ماركس كان يسعى للتنوير نحو إحقاق العدالة والسعادة للإنسان الحديث، وقد أبرم فكرة الاغتراب الهيغلية حول الروح إلى فكرة اغتراب العامل عمّا ينتجه في المجتمعات الرأسمالية، ما قاده إلى القول بدكتاتورية البروليتاريا والحتمية التاريخية لبروز الاشتراكية ونهاية الرأسمالية، إضافة إلى مقولات كثيرة كلها سقطت في التجارب الاشتراكية السابقة، ومنها ضرورة وجود حزب شيوعي بالمعنى

التقليدي كحزب الطليعة، ودوره بثُّ الوعي في الطبقة العاملة، وأنه الذي يقود التغيير ويصنع التاريخ..

لا شك أنّ هذه المقولات كلها قد تجاوزها الزمن، وعليه فإن كل هذه العوامل والتطورات قد أرخت ظلالاً قوية على حركة اليسار العالمي والعربي تحديداً. وبات لا بد من طرح فلسفة جديدة لليسار المنشود.

يسار إنساني جديد لا يكون ماركسياً، إلاّ بعد أن يتجاوز ماركس ذاته.

نعم نحن نعيش اليوم أطوار عالم جديد يتشكل أمامنا. منذ أن ظهرت جائحة كورونا وكل ما رافقها من تهويل ولقاحات وعوارض غريبة وغير معهودة أو مسبوقة، وما أثير حولها من علامات استفهام كثيرة مريبة وغامضة! لكن ما كشفته هذه الجائحة من عاهات النظام القديم شكّل ذريعة ومقدمة للشركات الرأسمالية الكبرى وكبار الرأسماليين أن يطرحوا أسئلة جدية حول الدولة وأدوارها القديمة بإزاء الفشل الذي أظهره قيامها بأدوارها التقليدية في أوجه الحياة المتعددة أثناء كورونا، هذه الأدوار التي كانت تتمثل في حفظ دورة «السيستم» وإدارته ورعاية الضعفاء والمحتاجين عبر جباية الضرائب وغيرها من وظائف الحماية والمراقبة (لكيلا يضطرب أو ينهار هذا النظام)، وأن الدولة كمؤسسة عامة كبرى ثبتَ فشلها –وفق رأيهم– وأن دورها بعد كورونا قد انتهى، وأن هذه الشركات الرأسمالية الضخمة تالياً باتت تتقدم بنفسها، وقد نزعت ذاك القناع القديم عن وجهها لتطرح نفسها

مباشرةً بديلاً فظّاً وشرساً وعديم الأخلاق عن الدولة. وهذا ما يفتح الصراع على مصراعيه، ليس فقط مع العمال والطبقات الفقيرة، لا؛ بل مع الطبقة المتوسطة التي بدا أنها في زمن الجوائح هي أكبر الخاسرين والمهددة بوجودها. إضافة إلى الشركات الصغيرة والمتوسطة، والمهن الحرة والخاصة، كذلك العالم الثاني والثالث كلهم باتوا مهددين بهذا النمط الجديد من «الرأسمالية المتوحشة» ولكن المقنعة والمختبئة تحت ألف قنا عٍ، واسمٍ، ووجهٍ، ودور.

وعليه، وإزاء هذه المستجدات الراهنة، وضبابية صورة أو مشهد العالم الجديد الذي هو في طور التشكل أمام أعيننا ما علينا سوى الانتظار لفهم ضراوته وقوة سطوته والتحضير وإعداد العدّة والوسائل واللغة المفهومية المطلوبة للمواجهة الجديدة التي لن تكون بلا أدنى شك من دون نظرة جديدة لماركس ولكل الملهمين الكبار والعظام الذين مروا في تاريخ البشرية.

نعم؛ لقد باتت البشرية بحاجة إلى يسار جديد، يسار يبتلع كل تجارب الماضي ويستفرغها، بعد أن تختمر في عقله عصارة كل التجارب.

ولهذا فهو بحاجة لفلسفة إنسانية شاملة، تطال كل تاريخه وحاضره ونظرته للمستقبل، وإزاء هذه الانطلاقة الجديدة لا بد من فهم جديد لماركس، بل لا بد من ماركس جديد، لا بالأحرى لا بد من تجاوز ماركس نفسه.. وإسقاط هذه الهالة المؤلَّهة عنه والتي أحاطت

بشخصه وفكره، من أجل ولادة هذه الفكر اليساري الإنساني الجديد، الذي يبحث في وجود هذا الإنسان المعاصر وفي علاقته بالطبيعة وفي الأزمات التي تولّدت عن مساره وغيّه وتماديه، وعدوانه على البيئة والحيوان، واستفحال التفاوت الاجتماعي. ماركس الجديد ترى لبناته وأدواته قد تشكلت وتبلورت من كثرة النقد الذي أعمله مفكرون يساريون وغيرهم في الفكر اليساري عامة، خاصة في التطور الذي لحق الرأسمالية والتكنولوجيا الراهنة ومشاكلها المستجدة وجوائحها المتواصلة، وليس علينا إلاّ المضي قدماً في فتح طاقات العقل والنقد، والتفكير، والعمل، والعلم.

ظهور النازية والعداء لروسيا!

بعد انهيار الاتحاد السوفياتي وتفتُّت المنظومة الاشتراكية التي كانت تدور في فلكه، وانهيار جدار برلين، الذي كان يفصل ما بين الشرق والغرب الأوروبيين. بدأت ظاهرة تنامي الشعارات النازية والأعمال المعادية للمهاجرين، من مناطق ألمانيا الشرقية سابقاً إلى كل الدول الاشتراكية السابقة تقريباً، وبدا أن هذه من الظواهر الاجتماعية والسياسية الملفتة للنظر والتي لم يتم دراسة أسبابها الحقيقية الكامنة من ورائها.

ففي حين كانت الحركات النازية في ألمانيا الغربية محدودة الانتشار، صارت بعد الوحدة مناطق ألمانيا الشرقية سابقاً مثل دريسدن وغيرها، هي مراكز ومعاقل النازيين الكبرى..

هذه الدول والمناطق التي حررها الجيش الأحمر يومذاك وظلَّت حمراء، والتي لا ينفك بوتين يذكر العالم، بأنه هو من دحر النازية وقضى على الرايخ الرابع في عقر داره وليس أميركا، ولكنه يعود ويذكّر الأوكرانيين بأن «حفلة القضاء على الشيوعية التي بدأت في العام 90، كانت مجتزأة وأتت على حساب روسيا، ويجب الآن إكمال هذه العملية بشكلها المناسب والمنصف وكما كان، يجب أن تكون منذ البدء».

برأيي، إن سبعين عاماً من القهر الذي مورس على الدول التي انضوت فيما كان يُسمى حلف وارسو، والطمس لكثير من العوامل الثقافية والإرهاصات الخاصة بهذه الدول التي تتمايز بطبيعتها عن المناخ العام السائد في روسيا، ونشر اللغة الروسية، على هذه الشعوب، جعل هذه الهويات الخاصة بشعوب هذه الدول تختمر وتُضمر رفضاً؛ لا بل نوعاً من العداء والكره لكل ما هو روسي. وبالتالي تفجرّت لديها النزعة المعاكسة تماماً لمفهوم الأممية التي كانت طوال الوقت الاشتراكية الرسمية تنظر وتروّج له، أي النزعة القومية المتطرفة التي تشكِّل النازية أقصى وأكثر تعبيراتها.

اليوم تبدو فاتورة الانتقام وتحجيم روسيا قد بدأت، وأخذت مداها في محاولات عزلها ومعاقبتها، والذين يقودون هذه الحملة هم تحديداً تلك الدول الاشتراكية السابقة، هؤلاء الذين صاروا في أوروبا وبعضهم في حلف الناتو.. أوروبا والعالم يعودون اليوم إلى حضن القوميات الصغرى، وأمراض التقوقع والتمُّيز.

ما رأيناه في بداية هذه الحرب، وطالَبَنا البعضُ بأن نحتفظ به لنقارنه بما ستصل إليه الأمور، نراه وقد تحقق هذه الأيام، وقد علق بوتين على الشجرة، فيما اتسعت من تحته الحفرة، التي أعدت له بعناية، ودخل برجليه إليها مُكرهاً لا.. بطل.

حول لاعقلانية الإنسان والحرب

غريبة هي هذه الأيام، فسرعان ما تصير المشاهد واقعية ومعقولة ونعتاد عليها، ومألوفةً شيئاً فشيئاً..

هكذا يصير مشهد الدمار، دماراً للمشهد نفسه، ويحيل الصور إلى وقائع غير معقولة، ولكنها واقعية. هكذا تصير خاركيف مثل حمص وكييف مثل حلب، بكل ما في هذه المدن من تاريخٍ وفن عمارة وعلاقات حميمة وذكريات، كل ذلك تُحيله آلة الحرب إلى أطلال وإلى أثرٍ بعد عين.

ومهما علا الصراخ أو علامات الاستهجان أو الأسئلة التي قد يطلقها السكان المحليون أو أي عاقل عندما يخاطبون بها الجنود القادمين ويسألونهم: أن عودوا إلى بيوتكم، أو أولئك الذين يتوجَّهون إلى تلك الطائرات التي ترمي حممها عليهم، لكنّ ليس من مجيبٍ أو مستمع.

ولقد كفر سكان بعض المدن التي كانت تنزل الحمم والبراميل المنفجرة على رؤوس سكانها، بعدما كانوا يموتون فقط ولا يجدون من يستمع لآهاتهم!! لقد كانوا يموتون هكذا بصمت ومرارة غير مفهومة!

لأي سبب يجب أن تموت الناس وتدمر المدن؟!

أسئلة حسب الإنسان نفسه أنه قد وضع حدوداً لها بعد ويلات الحرب العالمية وغيرها، ولكن لا، لا حدود لصلف الإنسان ولا عقلانيته، لا حدود ولا سقوف!

لا أخلاق ولا عقل في الحروب، عندما يتحوَّل الإنسان إلى آلة للتنفيذ، والآلة لجهازٍ أصم للقتل والموت! وعندها تصير الهواجس هي الحقيقة والأوهام هي السياسة والطريق!

البوتينية كألد أعداء الشيوعية واللينينية

لقد فات الكثيرين التوقفَ عند خطاب إعلان الحرب الذي أطلقه بوتين في أول أيام الحرب التي شنَّها على أوكرانيا. لقد كان الرجل واضحاً في تحديد مهامه وتبيين خصومه وأهدافه، لكن الكثيرين وخاصة من اليساريين المشتبهين لم يكلفوا أنفسهم عناء البحث والتمعُّن في خطاب الرجل المهم جداً، لأنه ليس فقط أعلن فيه الحرب ولكنه أيضاً حدد فيه الوجهة والخصوم الذين يستهدفهم، ومن سخريات الأمور أن الناتو، والغرب، وأميركا ليسوا من بينهم، وإنما النازية التي قضى عليها الحلفاء والجيش الأحمر منذ ثلاثة أرباع القرن، والشيوعية، وقد حدد هذه الأهداف على الشكل التالي:

1 – استكمال القضاء وتصفية الشيوعية.

2 – القطع مع لينين، لا بل شيطنته، وإعلان البراءة منه، لا وبل تحميله وزر التفريط بحقوق وأراضي روسيا التاريخية، (وهذه تهمة ترقى إلى الخيانة العظمى).

3 – الإنطلاق من الحديث عن التاريخ الروسي، الغرض منه التمهيد لتأسيس قيصرية، بطرسية، أرثوذكسية، أوليغارشية جديدة.

4 – بوابة تنفيذ هذه الخطوات، هي القضاء على (النازية في) أوكرانيا ونزع سلاحها، واسترجاع ما فرط به لينين ولاحقاً غورباتشوف.

لا شك أنّ حسابات بوتين لم تتوافق مع حسابات البيدر وموازينه، وإلاّ لكان الطريق إلى تحقيق هذه الأهداف قد بات معبداً وميسَّراً.

كما أنني لن أتوقف كثيراً فيما آلت إليه هذه الحرب المجنونة، وأي مستنقع أضحت عليه، في هذه العجالة،

إن هذه الأمور كتبنا فيها وتوقعنا مآلتها منذ أول أيامها.

ولكن ما سأتوقف عنده هو النقطتين، الأولى والثانية، لأبيِّن كيف أنّ البوتينية هي أشد أعداء الشيوعية واللينينية!

لقد كان بوتين واضحاً في خطابه عندما قال للأوكرانيين: «أنتم فرحتم بتصفية الشيوعية لأنها جاءت لحسابكم، وأعطتكم ما ليس لكم، وتصفية الشيوعية لا تكون من المنتصف، بل يجب أن نبدأ بها منذ البداية، من عند لينين وإغداقاته عليكم وصولاً إلى القادة السوفيات اللاحقين..».

وبوتين محق فيما يرمي إليه، فالشيوعية لم تعد هي الأيديولوجيا التي تقوم عليها الأحلام والرؤى الروسية الحديثة، وبالتالي لا بدَّ من تصفيتها من الجذور ومن الأذهان ومن الواقع، وتصفية تركتها الثقيلة، لكي يحل مكانها أيديولوجيا جديدة هي خليط من الكنيسة

الأرثوذكسية، والرؤى القومية والوطنية المشبعة بالصور القيصرية في المخيال الجمعي الروسي..

أمّا لماذا هذا التحامل على لينين تحديداً؟! ولماذا هذا السعي لتدمير وتشويه صورته الآن؟

لماذا لينين الآن؟ وليس ماركس أو أنجلز مثلاً؟!

برأيي، لأن لينين رغم كل ما جرى من انهيار للاشتراكية وتجربتها، فإنّ شخصيته كانت راسخة في الوعي والخيال الجمعي الروسي وما زالت في وجدانه العميق كأحد الشخصيات التاريخية الكبرى التي نهضت بروسيا وجوارها إلى مصاف الدول الكبرى.. إضافة إلى قصر المدة التي قضاها لينين في السلطة، إذ توفي في العام 1924..

أقول رغم كل شيء، لا تزال صورة لينين –كرمز تاريخي كبير– حاضرة بقوة في الوعي والتاريخ الروسيين كأحد العظماء أو ممن أدُّوا أدواراً كبرى في بلادهم.

ومن هنا يشعر بوتين أن سرديته لن تنجح ولن تستقيم إلاّ عبر شيطنة صورة لينين والقطع معه ومع مرحلته، لتحل محلها السردية البوتينية.

وفي هذا أيضاً، ترى بوتين كان صادقاً مع نفسه، وعلى الأرجح كما تشير عليه دوائر الدرس والتاريخ في بلاده، فهو في واقع الحال

يمثل النقيض الحقيقي للينين في مسعاه للسيطرة والتوسع والاستحواذ، وفيما عُرف عن الآخر من أفكار اشتراكية وأممية..

فمن هنا تتجلَّى الضرورة لشيطنة وتشويه صورة الرجل، من استعادة مقولة عمالته للألمان إلى الحديث عن الماسونية وعلاقته بها، وأنّ ستالين من قضى على أتباعها الذين كانوا متغلغلين في الأوساط السياسية..

هذا وإن كنت مع نقد تلك التجارب ودراستها بشكل علمي، لكن ما يحدث هو عملية مسخ للتاريخ لاستنساخ أدلوجة جديدة، أقل ما يمكن أن يقال فيها أنها أوليغارشية فاسدة، باحثة عن دور أكبر في إطار عمليات الاستتباع والسيطرة والنهب العالمية، وأنها في مسار سعيها للخروج من مآزقها سعت لتلميع صورتها عبر اجتراح هذه الحرب، التي تبدّت عن عمق الحفرة التي رسمها وأعدَّها لها الغرب بعناية.

الأجور المرتفعة تغلب القناعات

«لو كنت أنت مكاني، لفعلت نفس الشيء، لا تقل لي غير ذلك! المبالغ التي أتقاضاها هنا على هذه القناة، وعلى تلك الشاشة لا يمكن أن أجنيها في تفاهات وطوباويات اليسار ولو بعد ألف عام!».

قال لي بكل تعابير وجهه الجادة والمنفعلة وعروقه النافرة...

حسبت أنني لو قلت أي شيءٍ غير الذي قاله لحصل شيء كبير غير متوقع. فلم أنبس ببنت شفة، كما أنني حافظت على حيادية تعابير وتقاسيم وجهي...

الجزء الرابع:

مشاهدات

الحضارة الفرعونية الفضائية

لعلّ من أغرب النظريات الغريبة وربما الخبيثة، التي ظهرت في الغرب فيما يخصُّ الحضارة الفرعونية العريقة والعظيمة، هي تلك التي ترى أنّ هذه الحضارة ليست من فعل البشر، وإنما من فعل كائنات فضائية..

وقد يكون الغرض من خلف هذه النظرية، سحب أو تجريد هذه الحضارة من الشعب المصري، وردّ أصلها إلى كائنات كونية غير موجودة إلاّ في خيال أصحاب هذه النظريات.

ولكن على رغم الاستبطان المغرض في الأمر إلا أنّ اللافت أكثر أن الحضارة المصرية الفرعونية القديمة لا تلقى الاهتمام الكبير والمميز لدى غالبية المصريين والعرب والمسلمين عموماً. كذلك الذي يبديه الغربيون لهذه الحضارة عموماً. وليس من داعٍ للتذكير أن علم المصريات وأهم الاكتشافات العلمية وفك اللغة الفرعونية لم يتم للأسف إلاّ على أيدي الغربيين، (شامبليون، وحملة بونابرت)..

لعلَّ هذا التنكر والاستخفاف بقيمة هذه الحضارة والنظر إليها دائماً من زاوية النظر الإسلامية التقليدية، كحضارة وثنية تقوم على التجسيم والأوثان والأهرام والتحنيط، وأنَّ بعض الفراعنة طاردوا الأنبياء. وتضعها في مقابل اليهودية أو المسيحية والإسلام..

وهي حضارة سابقة على هذه الديانات. فمن شأن هذا الأمر، أن يضيّع الأثر والقيمة العلمية والثقافية لهكذا حضارة إنسانية كبرى، هي محط إعجاب ودهشة كل العالم، حتى أنّ البعض بات يستكثر أو يستغرب أن يكون هذا الشعب المصري نفسه هو امتداد لذلك الشعب الذي بنى الأهرامات وكل تلك الحضارة العظيمة.

لذلك تراها نشأت هذه النظرية التي تنسب هذه الحضارة إلى كائنات غير أرضية، أقامت حضارة عريقة ومتقدمة في الصحراء واختفى أصحابها، أمّا الشعب الذي يستوطن أرض مصر اليوم قد يكون قدم إليها في أزمنة متقدمة لاحقاً..

وربما ما ساعد على ولادة هكذا اعتقاد هو أنّ من يُفترض أن يكونوا الأحفاد الطبيعيين وورثة هذه الحضارة الحاليين يتنكرون لها، ويتعاملون معها بازدراء واستخفاف، ولجوء البعض منهم، بدافع الجشع إلى نبش تلك القبور وكسر توابيت المومياوات بحثاً عن الجواهر والحلي، وبيعها للتجار الجشعين بدورهم.

وقد صبَّت أغلب هذه المسروقات في متاحف الغرب الشهيرة، كباريس وبرلين.. ومردُّ هذا الأمر إلى ضعف الثقافة التي تعلي من قيمة هذه الحضارة العظيمة، إلاّ ما خلا الاهتمام الرسمي الباهت الذي كان يتعاطى مع الموضوع من باب الحسابات الاقتصادية والقطاعات السياحية التي تجذب السيَّاح الأجانب.. أما عرض المومياوات مؤخراً فهو حدث يختلف في سياقه عمّا كان قائماً سابقاً،

لكنه لم يسلم بدوره من سيل الردود الناقدة له من ذات الخلفية الدينية التي أشرنا إليها سابقاً.

هذا فيما لم يبرز في تاريخ مصر ما بعد الفراعنة ما يضاهي هذه الحضارة لناحية التفوق والإبداع والتميُّز، وهذا ليس انتقاصاً من قدر الشعب المصري الطيب، ولكن حالة التميّز الحضاري والإبداع الفكري تتمركز في الغرب منذ عدة قرون، وهذا الوهن الحضاري لا يشتمل على مصر وحدها وإنما يمتدّ إلى الشرق كله. ولعلّ أكثر ما تميزت به مصر في القرن الأخير هو المجال الثقافي والفني. وقد تتوّج ببروز أعلام وأسماء كثيرة في هذا السياق مثل: أحمد شوقي وطه حسين وغيرهم، وظهور كوكب الشرق أم كلثوم وسيد درويش وعبد الوهاب والسنباطي وبليغ حمدي والشيخ إمام وغيرهم...

الصين والأسوار الثقافية العظيمة

لا أظن أنه بمقدور أي محلل استراتيجي أن يصف أو أن يقدم لنا صورةً عن النموذج الثقافي والحضاري الذي ستقدمه الصين للعالم!، وذلك على غرار ما لعبته هوليوود وأفلامها في تقديم نموذجٍ ثقافيٍ وحياتي عُرف بالنموذج الأمريكي أو«الحلم الأمريكي» الذي ترافق مع موجةٍ من الأغاني وأسلوب العيش واللباس، المتمثل في سراويل «الجينز» والسجائر الأمريكية والهمبرجر والمأكولات السريعة.. إضافة إلى النموذج الاقتصادي الرأسمالي الحر.

وهذا لا يعني أننا بالضرورة نتبنَّى بشكل أوتوماتيكي كل ما في هذا النموذج من سلبيات خاصة لناحية دور الدولة في الرعاية الاجتماعية وصون الحريات وحفظ حقوق العمال، وحقوق المواطنين في التعليم والصحة، كتلك الموجودة في أغلب الدول الأوروبية الغربية. كذلك يجوز للمرء أن يتساءل: هل تريد الصين أن تحكم العالم بالرداءة والتقليد المقيت.!؟

وكيف يمكنها أن تمحي صيت بضاعتها السيئة الجودة الراسخ والمتراكم في أذهان الأجيال؟!

ألا تتطلب الصدارة والريادة الأصالة والجدارة، وليس التقليد الرخيص الباهت!

فالصين لم تعوِّدنا على مشاهدة أفلام صينية تقدم نموذجاً إنسانياً تجذب الناس للتماهي معه وتسعى لتقليده! بل على العكس من ذلك، نجد أن الصين تسير على خطى العالم الثالث في تقليد الغرب، وليس تقديم نموذجها المختلف الخاص الذي يدفع الآخرين أن يحتذوا به.

وهذا على الرغم من كل ما يُقال عن «قصة» النمو الصيني المتسارع، وأن اقتصادها سوف يتجاوز اقتصاد أميركا بعد عدة سنوات، وهو تجاوز ألمانيا وأزاحها عن المرتبة الثانية من حيث حجم الإنتاج والعدد، ولكنها لم تتفوق على النموذج الألماني، لناحية الجودة والكفاءة والإبداع، في شتى المجالات.

ونحن لا نزال نشهد هنا في ألمانيا، العديد من قصص القبض على عملاء صينيين يتنكرون بصفة طلاب أو رجال أعمال فيما هم يسرقون نماذج صناعية كبرى عبر تصويرهم للتصاميم ونسخها وإرسالها إلى الصين.

كذلك نحن لا نشاهد أو نقرأ كتباً صينية أو مترجمة عن اللغة الصينية، وهذا قد يكون من تأثير السيطرة والهيمنة الثقافية العالمية للغة الإنكليزية، وتركُّز دور النشر في كبريات مدن الغرب عموماً، كنيويورك ولندن وباريس، وبرلين وروما وطوكيو.. لكن في المقابل أين بوادر الخرق الثقافي الصيني لهذه الأسوار الثقافية العظيمة المترسخة والمتجذرة؟!

لا أظن أن انتقال هوى العالم ومزاجه وأهواءه يتمّ فقط لمجرد أنّ دولةً، أتاحت لها ظروفها السكانية والعوامل العالمية، المتمثلة في إقامة العديد من الماركات العالمية الشهيرة مصانعها هناك، وذلك لرخص الأيدي العاملة فيها، استطاعت أن تحرز نهضة اقتصادية كبيرة. لكن رفع هذا الأمر إلى مرحلة تجعلها في مصاف القوة الحضارية الاقتصادية والثقافية العالمية الجارفة ما يتيح لها تشكيل قوة ونموذجاً عابراً للقارات ومهيمناً على الصعد السياسية والاجتماعية والاقتصادية، هذا أمرٌ سابق جداً لأوانه، ومبالغ فيه إلى حدٍّ بعيد.

ملاحظات لافتة في رحلة تركيا

كانت أغلب الماركات العالمية المشهورة المقَلّدة، التي شاهدناها آتيةً من فيتنام واسطنبول. الأولى خاضت حرباً ضروساً ضد الرأسمالية، خرج كلا الطرفين منها بندوبٍ وجراحٍ بليغة. ولعلّ هذه الجراح هي ما جعل التقليد يكون في مستوى الأصل من جهة الشكل، وحتى الاسم. ما يتطلب جرأة جليَّة. إذ لطالما حافظ المقلّدون، مع اختلاف مشاربهم –وفي مقدمتهم الصين– على حدٍ أدنى من التمايز يسمح للماركات الشهيرة أن تحافظ على امتيازها فيما تنجو هي بذلك من مغبَّة الملاحقة القانونية.

أما الآن، يبدو أن هذا التمايز الذي كان وقفاً على أولاد طبقات ميسورة، متوسطة وغنية، قد ولّى وبات الجميع في عُرف التقليد والأصالة سواسية وهذه مشكلة لا نرى لها حلاً. إذ كيف للناظر أن يدرك أنّ لابس أو منتعل أحد هذه الأحذية الباهظة الثمن من هذه الفصيلة الطبقية، أنها أصلية وليست مقلَّدة!

أمّا الجرأةُ التركية فتراها آتية من ينابيع عذبة صافية، كتلك التي شاهدتها في الجبال التركية، حيث أقيمت عليها السدود، لمنع تدفقها بغير سدىً. ينابيع «العنجهية» التركية الصلفة على أبواب أوروبا، حيث آلآم الأمجاد المنصرمة، وأحلام الولوج إلى جنة الحداثة المتعثرة.

يبقى أنّ تقليد الصين الأصيل ينهل من منابع أخرى تغوص في أعماق النفس الصينية متوسلةً فنون النسخ والتقليد. لكن تقليد الصين يبقى خجولاً وركيكاً، فنجد آلاف الماركات أو في الواقع مجرد أسماء توضع على منتوجات رخيصة الثمن رديئة الصنع. فيما لا يلوح في الأفق أيُّ ميعادٍ لظهور تنين الصين المنتظر. ولا صورة حداثتها أو ما بعد حداثتها المزعومة. فعلى رغم كل الزخم الاقتصادي والتجاري للصين، لا يزال سُورُ الصين العظيم، وهو معلمُ محافظة وتقوقع لا توسع، الرمزَ الأصيل الأبلغ فيما يُعرف عن الصين من معالم فارقة ومميزة.

تركيا/ انطاليا، 18 آب 2019

الحضارة البشرية تحتضر

بعدما تخلت المجتمعات البشرية عن ضوابط ومحددات بقائها، وعن آليات تحكُّمها الفريدة بأعداد سكانها، وتناغم أنماط إنتاجها مع طريقة حياتها، جاءت الرأسمالية وجشع الإنسان وطمعه اللامحدود لتضرب بُنى تلك المجتمعات وتفككها.

فتكاثرت أعداد الناس دون حسيبٍ أو حساب، بعد أن ظَّلت لآلاف السنين لم تتجاوز المليار نسمة.

فيما اليوم تشكِّل دولتان فقط هما الصين والهند ما يقرب من نصف سكان الأرض (ما يقرب من ثلاثة مليارات نسمة لوحدهما)، وأدّى ذلك إلى ظهور مدن التلوث والاكتظاظ وإنسان القطيع ذو البُعد الواحد، إنسان الرقم والنظام والحواسيب والفواتير التي لا تنتهي..

فتضخَّمت مجمّعات الصفيح وأحزمة البؤس والهوامش، فيما خلا الريف. واتسع الضغط على الموارد الطبيعية، ومضى الإنسان في مهب سعيه لإطعام ملايين الأفواه الجائعة إلى تشريع أكل كل ما يدبُّ على الأرض. وتسريع النمو والإنتاج دون توقف، واختراع حاجات واجتراح كماليات استهلاكية تافهة، كخيارات مجتمعية ضرورية. آل كل ذلك إلى تلوث البيئة وتضرر المناخ، وتهجين الزراعة والتلاعب بشتى الأنواع والأجناس. فظهرت الأمراض الغريبة والفيروسات الذكية..

وكأنما كان لا بدَّ للطبيعة أن تتدخل وتعيد التوازن الذي أخلَّ الإنسان به، وأصبح هو الحيوان المفترس وحده على هذا الكوكب الفريد من نوعه، والذي يسبح في كون هائلٍ من المجرات والنجوم والكواكب الخالية من أي حياة.

وحده هذا الإنسان العظيم بقدرته والفريد بسطوته وبفرادته، تمكَّن من تجاوز حدود كل الكائنات الحية، وتفوَّق عليها بقدرته ليس فقط على التفكير، بل وأيضاً على العمل وخلق الأدوات والأسلحة التي تعينه على السيطرة على هذا الكوكب والقدرة على محوه..

لذلك لم تعد «سمفونية الحياة» متوازنة البتة فيما بين الأنواع الحيوانية بما فيها الإنسان. وقد عبرَّ عن قمة شراسته وعنفه وتعسفه وإجرامه وتماديه المطلق، بأن استخدم ذكائه في تطوير أسلحة وقدرات تجعل بمقدوره قتل أو استغلال كل الأنواع الحيوانية الأخرى والسيطرة عليها من أجل غاياته هو فقط، فحوَّلها إلى مسالخ وأقام المصانع التي تتفنن في تعليب وتجميد لحومها، كما جعل منها معملاً حياً لإنتاج ألبانه وأجبانه.. واستثمر المساحات الهائلة من أجل شوارعه وأوتوستراداته ومطاراته، مشرِّداً ومدمرّاً أماكن وبيئات وممالك ومجتمعات هذه الحيوانات. وملأ المحيطات والبحار بمخلفات صناعاته الاستهلاكية المولدة لآلاف الأمراض.

بإزاء هذا كله، بدا أن على الطبيعة أن تتدخل لتعيدَ زمام الأمور إلى سويتِّها، وأن تأخذ دورتها في تنظيم وترتيب ما أفسدته يد الإنسان.. ولتعلِّمه درساً عظيماً، أنه ليس وحده على هذا الكوكب الفريد، وأنه كائن من ملايين، وبأن ليس له الحق أبداً أن يقضي على هذا الكوكب بقذارته. وأن يتواضع ويعي أنه لم يكن طوال ملايين السنين أكثر من مجرد حيوان صغير وضيع وحقير. حيث كان يعيش مختبئاً في المغاور والكهوف من الكائنات الضخمة والعملاقة، ويعتاش على بقايا اللحم وعظام الطرائد التي تصطادها الحيوانات الأصيلة، وهذا ليس مباشرة بعد الحيوانات الصائدة، وإنما كان يتوجب عليه أن ينتظر دوره ريثما تنتهي الضباع والكلاب منها أيضاً...!!

29 تشرين الأول 2020

تجربة الانفجار الكوني على الأرض، قد تقلب أسس الفيزياء الحديثة!

كيف نشأ وممَّ يتألف العالم؟، ومتى بدأ الزمان ثانيته الأولى؟ وماهي صورة التفاعلات الكونية الهائلة التي ظهرت غداة لحظات الخلق الأولى، أو لحظات الانفجار الكوني العظيم؟، هذه عّينة من الأسئلة التي تتنطح أوروبا –القارة العجوز– عبر تجربة علمية هائلة، أن تجيب عليها.

في أواسط شهر آب المقبل، تستعد أوروبا والعالم العلمي المتخصص منه والشعبي على حدٍّ سواء، لمتابعة مجريات ونتائج تجربة علمية لم يسبق للبشرية أن شهدت مثيلاً لها. ينفذها المركز الأوروبي للأبحاث العلمية[1] سرن، قرب مدينة جنيف السويسرية. ويشارك فيها علماء من أكثر من 35 دولة عبر العالم، وبكلفة تجاوزت ثلاث مليارات يورو. ساهمت ألمانيا لوحدها بخمس هذه التكاليف. [2]

زهاء نصف قرن من الزمن استغرق التحضير لهذه التجربة العلمية الأكثر تعقيداً في تاريخ البشرية، وقرابة 2700 عالم وباحث من

([1]) دير شبيغل العدد 2، تاريخ 2008/06/30

Cern ([2])

مختلف دول العالم، يعملون في جو من الحرية وتقريباً بلا رأس مدبر أو زعيم يدير عن بعد أو يحدد مهام كل شخص. وهذا ربما ما يفسر كثرة وتعدد الوجوه أو الرموز العلمية التي تطلُّ برأسها على هذا الموقع أو تلك القناة لتتحدث عن هذه التجربة، وفقاً للبلد الذي تنتمي إليه هذه الوسيلة الإعلامية أو تلك.

فإذا تناولت موقعاً من سويسرا، سوف تشاهد عالماً سويسرياً يشرح عن التجربة، وإذا كنت في ألمانيا فسوف تظن أن الألمان هم من يديرون هذا المشروع الضخم.. وأغلب الظن، أن السبب في ذلك يعود إلى كثرة الرؤوس العلمية والأسماء الكبيرة التي تشارك في هذه التجربة.. ولكن في مركز سرن تتدلى لائحة أسماء العلماء المشاركين الـ 2700 وفقاً للتسلسل الأبجدي، لا أفضلية لعالم تركي أو صيني أو ألماني وغيره على آخر. وباختصار، لن يكون هناك سوبر ستار لهذا العمل.

كثيرون كان لهم الفضل في إتمام العمل في هذه التجربة وجعلها بالتالي قابلة للتحقق، بدءاً من الروس الذين قدموا الكثير من خبراتهم في المجالات النووية. وبالطبع جميع المعاهد والجامعات العلمية الغربية والعالمية على حد سواء كما في أفلام هوليوود.

كذلك بدا الأمر بالنسبة ليورغان شواكرافت (ألماني)، عالم فيزياء الجزيئيات، عندما دخل مكتبه، أحد الروس، وقد بدا للوهلة الأولى كتاجر مخدرات عندما سحب من جيبه قطعة كريستال صفراء اللون

متسخة وسأله إذا ما كانوا يستطيعون البدء بشيء كهذا؟ حدث هذا في مطلع التسعينات من القرن الماضي، غداة انهيار الإتحاد السوفياتي مباشرة.

الآن قرابة 18000 من هذه البلورات الكريستالية الخاصة قد دخلت في بناء مراكز الاختبار المتعددة لهذه التجربة.

«منذ البدء كان بناء هكذا مشروع يتطلب، أن يكون المرء جاهزاً لتحطيم الأبواب التي تبدو موصدة بإحكام، بل مستحيلة»، يقول شواكرافت.

هدف شواكرافت وقرابة الألف من زملائه العلماء، أن يطلقوا كتلةً هائلة من اللهب في خضم عشرة آلاف طن من الحديد، في مركز «أليس» العملاق للأبحاث العلمية في جنيف، على أن يتم ترقب وملاحقة التفاعلات الفيزيائية للانفجار الكوني المصغّر، أي ما يُعرف بالكواركس – غلوون البلازما. عبر مدار أو نفق اصطناعي شبه دائري أقيم على عمق يتراوح بين 50 – 175 متراً تحت الأرض على شكل دائرة قطرها 27 كلم تمتد من قرب مدينة جنيف مخترقة الحدود الفرنسية في منطقة تحاذي جبال الألب.

«أليس» (ارتفاعه 16 متراً، وتكلفته بلغت 70 مليون يورو)، هو أحد أجزاء أو أقسام التجربة العملاقة التي أطلق عليها العلماء اسم، «أل أتش سي»[1] التي تنقسم إلى أربعة أقسام ودوائر.

أمّا «أطلس» (محيطه 22 متراً، ويزن 7000 طناً، وبلغت تكلفته 330 مليون يورو) فهو الاسم الذي أطلقه العلماء على مسرّع الشحنات الجبار، والذي تتركّز مهمته في البحث عن بوزون هيغز، وعن الثقوب السوداء.

وبوزون هيغز هو عبارة عن جُسيم افتراضي، كان قد تنبأ بوجوده العالم بيتر هيغز منذ قرابة 25 عاماً، دون أن يتمكن حينها من إجراء التجربة اللازمة لإثبات وجوده. لم تلقَ نظرية هيغز هذه حينها أي اهتمام من قبل العلماء الذين استخفوا، بل سخر البعض منها.

لكن اليوم يبدو أن حلم هيغز يتحقق وهو واثق بنسبة 90 % من وجود بوزوناته، ويقول ساخراً: «إذا لم تكن موجوداً فماذا سيكون البديل عنها، وهذا ما سوف تحسمه هذه التجربة».

إضافة إلى هذين المركزين الموجودين على الحلقة أو المدار الدائري كذلك يوجد مركزان أو محطتان هما: «أل أتش سي بي»

---

(1) Large Hadron Collider :LHC

و«سي أم أس»، الأول معنيٌ بالبحث عن مواصفات أو تحديد المواد العكسية أو اللامادة، أما الآخر فهو المقابل التجريبي لأطلس..

الرهان قائم في هذه التجربة على أن يتيح مسرِّع الشحنات أو الجزيئات العملاق النووي (أطلس)، عندما يبلغ طاقته القصوى فرصة العثور على جسيمات هيغز الافتراضية، وبالتالي انتزاعها من قلب المادة. في حال عدم وجود هذا الجسيم لا بد من البحث عن نظرية أخرى تفسِّر اكتساب الجسيمات للكتلة. وكذلك البحث عن تفسير لسبب افتقار جسيمات أخرى للكتلة. كالفوتونات المتعلّقة بالضوء على سبيل المثال.

وقد وضع هيغز نظرية الحقل الخفي التي ترى أن كتلة الأجسام ناجمة عن التفاعل مع هذا الحقل الافتراضي إلى الآن، ومفاد هذه النظرية: أنه كلما زادت كتلة الأجسام تعاظم تفاعلها مع هذا الحقل والعكس صحيح أيضاً، كما هو الحال في حالة الفوتون.

تقوم التجربة بدرجة أساسية على التقاء واصطدام شعاعين من الجسيمات الموجبة (بروتون) بسرعة تقرب من سرعة الضوء. يسير الواحد منهما في الاتجاه المعاكس للآخر، وذلك لمراقبة ماذا ينتج عن هذا الاصطدام، ولاكتشاف ما هو أصغر بعد هذه البروتونات، أي المتناهي في الصغر[1] حيث ستقوم أرقى الحواسيب البشرية واللاقطات الجزئية والكاميرات الرقمية ذات الحساسية العالية بمراقبة وملاحقة هذه

التفاعلات التي ستمر في أنابيب المدار الاصطناعي ومحطاته الرئيسية في عدة جولات.

وفي هذا السياق تجدر الإشارة إلى أن التجربة تشهد لائحة بناء الوجود: أو الجدول العام للفيزياء الجزئية:

1- كل مادة تتألف من ذرات، والتي تتألف بدورها من نواة إلكترونات تدور من حولها.
2- النواة بدورها تتألف من بروتونات ونيوترونات، تتألف الواحدة منها من ثلاثة كواركس.
3- في حين أن جميع المواد تتكوّن من نوعين من الكواركس والإلكترونات، نشهد تحت درجات حرارة عالية ظهور أشكال أولية أخرى.

توجد في جدول الفيزياء الجزئية 24 جزيء: 6 كواركس، 6 ما يُسمى باللبتونات (ولهذه ينتمي الألكترون أيضاً)، ومن 12 جزئياً تبادلياً، هكذا تتألف المادة عموماً من الكواركس واللبتونات ،التي تقوم الجزئيات التبادلية بنقل القوة بينهما(H-4) جزيء افتراضي لم يكتشف بعد، وهو الجزيء الخامس والعشرون في جدول الفيزياء الجزئية، ويحمل الحرف الأول من اسم العالم هيغز، وهو ما يعطي الجزئيات الأخرى كتلتها.

أنواعاً مختلفة من درجات الحرارة، تبدأ بـ 270 تحت الصفر وتصل إلى عشرة بلايين درجة فوق الصفر. وحول المخاطر التي قد تنجم عن هذه المعدلات المنخفضة أو المرتفعة من الحرارة يقول روديغر شميت – أحد العاملين في مراكز المراقبة الخاصة بسرن– أن: «أل أتش سي» هو المسرِّع الأول عبر العالم الذي يستطيع تدمير نفسه، في حالات الخطر المحددة. لذلك يتابع شميت: نحن سوف نرفع من طاقة الحلقة بتأنٍ وخطوة تلو الأخرى، ولا نقدم على الخطوة التالية إلاّ بعد أن يتم التأكد من السيطرة على حزمة البروتون الأولى، ندفع حينها بالحزمة التالية وهكذا، إلى أن نستطيع إطلاق 2808 حزمة من البروتونات في وقت واحد خلال النفق، تبدو كل حزمة منها على شكل إبرة صغيرة. في المحطات الأربعة على الحلقة المدارية للتجربة، سوف يتم اصطدام حزم البروتونات.

وبشكل عام يتوجب على العلماء السيطرة على 1700 دورة متسلسلة من التيارات.

من المصاعب أو التحديات التقنية التي تواجه هذه التجربة هي عمليات الحساب والتخزين على الحاسوب، كما يشرحها دوريس بوركارت الخبير في أنظمة الحواسيب، متسائلاً: هل بإمكان (السوفت واير) أن يسجل شيئاً لا يعرفه البتة. إضافة إلى أن السرعة الهائلة التي تنتقل بها البروتونات، إذ عندما تصطدم حزمة البروتونات مع الأخرى، فيما تكون الحزمة الأخرى لا تزال في المسرِّع، تصطدم

الحزمة الأولى ثلاثين مليون مرة مع الحزمة الثانية في الثانية الواحدة، وفي الإجمال يتقابل 600 مليون صدمة. لهذا بدا السؤال الأكثر أهمية هو: أيّ من المعلومات التي يتوجب تخزينها؟، لهذا أقيمت فلترات لهذه الغاية، يعبر من خلالها في النهاية فقط معطيات جزيء واحد.

ويضيف بوركارت، أنه على الحاسوب أن يقرر في خلال ميكروثواني، أي أثر جزيء سوف يسجل، الذي سيتم في النهاية دراسته وتسجيل معطياته.

أثارت هذه التجربة مخاوف لدى العديد من المواطنين في البلدان الأوروبية والغرب عموماً، وتحديداً المؤمنين منهم عبر العالم. حيث راح الكثيرون منهم يشيرون إلى أن هذه التجربة سوف تؤدي إلى نهاية العالم، أمّا البعض الآخر منهم فبدا متفائلاً، وبل واثقاً أكثر من معتقداته، فبشَّر هؤلاء بأن المجتمع العلمي سوف يؤمن عن بكرة أبيه بعد هذه التجربة، حيث سيكتشف صدق ما ورد في الكتب المقدسة.

أمّا هيغز نفسه، فيقلل من حدّة هذه المخاطر والمخاوف التي أثيرت من قبل العديد من المواطنين على الإنترنت وغيره من الوسائل الإعلامية، والتي تخوفت من حدوث ثقب أسود يبتلع ما حوله بسبب الجاذبية العالية.

هذا فيما اعترضت مواقع دينية مسيحية هنا على إطلاق اسم الجزئيات الإلهية على بوزونات هيغز، وانتقدت كذلك، وسائل الإعلام التي راحت تصور الأمر، كأنه بحث عن الله!

وكان علماء قد تخوفوا من أن الطاقة الهائلة المستخدمة يمكن أن تؤدي إلى ظهور ثقوب سوداء صغيرة، تكون قابلة للاندماج فيما بينها لتشكّل بقعة كبيرة تكون نتائجها كارثية. وقد ذهب البعض إلى التذكير بإحدى روايات الخيال العلمي التي تحدثت عن شيء مماثل من أنَّ ثقباً أسود لا يمكن السيطرة عليه قد يبتلع الأرض.

في هذا السياق شرح بعض العلماء المشرفون على هذه التجربة، أن الثقوب السوداء التي من المحتمل أن تنشأ جراء الاصطدام هي صغيرة جداً وسرعان ما ستختفي خلال ثوانٍ قليلة، دون أن يكون لها الأثر الخطير، كما هو الحال في حالات تصادم النجوم الكبيرة. كذلك اعتبروا أن إثارة المخاوف حيال هذه التجربة غير مبرر علمياً، لأنها لا تشبه تجارب القنابل النووية، التي تقوم على الانشطار النووي المتسلسل، وإنما هذه التجربة هي معاكسة لتلك. أي عملية إعادة البروتونات إلى الجزئيات من خلال التصادم. وأنه من شأن هذه التجربة المعاكسة، أن تسلط الضوء على نشأة العالم وعلى طبيعة المادة، وأن تضعنا أمام حقائق جديدة قد تقلب أسس الفيزياء وتحسم الجدل حول بعض النظريات العلمية كالإنفجار الكبير وغيرها من المسائل العلمية.

حاجز بلانك:

جدار أو حاجز ماكس بلانك[1] وقد وضع نظريته تلك في العام 1900 وعُرفت بنظرية الكم، وكان لها الأثر البالغ على الاعتقاد العلمي السائد في ذلك الوقت. جعلتنا نقترب أكثر من فهم أعمق لطبيعة المادة والإشعاع. إذ أوضح أن الطاقة المشعَّة إنما تنبعث على شكل وحدات قد أُطلق على كل واحد منها اسم «الكم». وفقا لهذه النظرية فإن كمية الأشعة الصادرة تتوقف على طول الموجة أو على اللون مثلاً.

كما اهتم بدراسة الإشعاع الذي يصدر عن الأجسام السوداء عندما يتم تسخينها. وتعريف الشيء الأسود هو: الذي لا يصدر أي إشعاع، إنما يمتص كل ما يسقط عليه من ضوء. وأصبحت هذه النظرية تُسمى فيما بعد بثابت أو حاجز بلانك، وهو ثابت فيزيائي له الرمز (أتش)، يُستخدم لوصف «الكوانتا»، أي أصغر مقدار للطاقة.

ما يهمنا من هذا العرض السريع والمقتضب لنظرية بلانك أو جداره، أن هذه التجربة التي يدور الحديث عليها، تحاول تخطي أو تجاوز حاجز بلانك المذكور، وهو في هذا السياق يشكّل الثواني الأولى القليلة، التي يقدرها العلماء بما بين 10 - 43 ميكروثانية، وذلك قبل 13,7

([1]) ماكس بلانك (1858 م –1947 م) عالم فيزياء ألماني مشهور، يُعد مؤسس نظرية الكم وهي أساس ميكانيكا الكم، ولهذا أُعتبر من أهم علماء الفيزياء في القرن العشرين، وقد حصل في العام 1918 على جائزة نوبل في الفيزياء.

مليار سنة وهذا هو العمر الذي يتوافق تقريباً أغلب العلماء على إعطائه لكوننا. أي اللحظات الأولى للانفجار العظيم.

عُرفت مرحلة ما قبل الثانية الأربعين بمرحلة التضخم والتمدد الهائل والعجيب، تلتها مرحلة النمو البطيء، وهذه شهدت ظهور العالم بما نعرفه وبما لا نعرفه منه، من مجرات وسدائم وسحب كونية وأرقام فلكية ونجوم كما يقسمها العلماء. أما ما قبل هذه الثواني الأربعين، فهو ما يُسمى بحاجز بلانك، بمعنى: أنه يستحيل علينا معرفة طبيعة الانفجارات الكونية الحقيقية التي حصلت في تلك الثواني القليلة من خلال التقنيات البشرية المتوفرة إلى الآن، وذلك لأن قوة الطاقة فيها تفوق كل الحسابات والتصوّرات..

روح العلاقة

عندما تغادر مكانك الأصلي، فإنك تكون عضواً في جماعة، وجزءاً من نسيج علاقات، وشاغل موقع ما كبُر أم صغر. عناصر علاقاتك هذه، تراهم يلجؤون إلى تعليقك على أدراج ذاكراتهم، ريثما تعود، ربما إلى رشدك! ولكنك كلما أطلت غيبتك عنهم كلما تكدّس غبار الأيام على موقع اسمك، وكلما أضحى بالتالي من الصعوبة بمكان أن تقرأه عيونهم. كذلك، أنك وفيما أنت تقتلع نفسك من نسيجك ذاك أو يقتلعك أحدهم، أو تقتلعك ظروف قاهرة أو خاصة، فإنك تقحم

أو تضع نفسك في نسيج آخر وفي لحظة اجتماعية أخرى، لن يكون من السهل عليك التقاط نبضها أو آليات حراكها وانسجامها.

ولسوف تجهد وتعاني كثيراً ريثما تتمكن من فهم لغة تلك اللحظة وإدراك أبعاد عالمك الجديد!

والحال هذه، تكون قد ولجت أو دخلت –هذا إن ولجت أو دخلت– في لحظة غيرك السائرة، فيما توقف أو تعلّق وجودك في محيطك، وتعطّل زمانك عند اللحظة التي انسحبت فيها.

لذا عندما تعود زائراً، لن تعود بالبساطة التي ربما كنت تتخيَّل إلى نفس اللحظة ونفس الموقع اللذين تركتهما، وإنما تعود إلى زمان لحظة أخرى ونسيج هو في الظاهر نفسه الذي كنت فيه، لكنه في الواقع تبدَّل وتغيّر، وعلى الأرجح تخطى بأطوار وتداعيات متداخلة كثيرة تلك اللحظة التي تركته فيها.

وبالتالي، أصحاب الأمس الذين قد تلتقي بهم لن يلاقوك بالضرورة بنفس الحفاوة التي كانوا يبدونها حيالك، وذلك على اعتبار منطقي ومفهوم أنك لم تعد صديق لحظتهم، كل لحظتهم وكلّ يومهم، وإنما زائر عابر، سوف تعود أدراجك بعد انتهاء عطلتك أو زيارتك... هذا، أنَّ العلاقة تشبه الحياة، هي بمثابة الروح من الجسد، متى غادرته.. ماتت.

العلاقة بين كتلة الكائنات
وسرعتها وأعمارها والنظرية النسبية

كم تعيش البعوضة؟ البعض يقول: أنها تعيش عدة أشهر قد تصل إلى الستة. وثمة أيضاً أنواع صغيرة من البعوض التي تتجمَّع حول ضوء المنزل في المناطق الشجرية، تكاد لا تتجاوز حياتها يوماً بشرياً كاملاً. فهل هذه الكائنات تعيش حياتها كاملة في هذه المدة الزمنية القصيرة؟ طفولتها ومراهقتها وشبابها فكهولتها ومن ثم شيخوختها فموتها في هذا الوقت القصير جداً؟

لا شك أنه لا بد من وجود تفسير لهذا الأمر. فهذه الكائنات الصغيرة الخفيفة الوزن، والتي تطير بسرعة عالية جداً مقارنة مع حجمها وكتلتها الصغيرتين، لابدَّ أنها تعيش بطئاً في الزمن، كالذي أشار إليه آينشتاين في نظريته النسبية. وعليه، تغدو هذه الساعات القليلة أو الأيام والشهور لديها، كافية لتعيش حياة مديدة، وأن اليوم (وفق حساباتنا الزمنية) الذي تقضيه هذه البعوضة الصغيرة، لا شك أنه بالنسبة لها ليس يوماً واحداً، وإنما مدة زمنية مديدة قد تساوي سنيناً من حسابات البشر.

فالإنسان يعيش هذا العدد المعين من السنين، لأنه على الأرجح كائن بطيء الحركة إلى درجة كبيرة. وأنه لو كانت سرعته أكبر ممّا

هي عليه في واقع الحال، لكان مرور الزمان عليه أبطأ بكثير ممّا هي عليه في واقعه الحالي!

ولكنني في الحقيقة، لا أزال أرزح تحت شعور داهم بسرعة توالي الأيام وانقضاء النهار، وذلك منذ أن أزاح ذلك الزلزال الجبار المخيف[1] محور الأرض عن عرشه، وأماله تلك السنتيمترات القليلة، ولكن الثمينة.

وقد بدأت ألمس وألاحظ ذلك بشكل دوري ويومي. وكثيراً ما صرت أسأل زوجتي عن اليوم والشهر فتقول كذا وكذا، فنستغرب معاً سرعة مرور وانقضاء هذه الأيام، ولا أعتقد أنّنا سنلقى أحداً يعارضنا في هذا الأمر! فالجميع متفقون على سرعة هذه الأيام، وكلهم يؤكدون ذلك ولسان حالهم يقول: «إنه عصر السرعة»، وأنّ سرعة هذه الأيام باتت لافتة ومثيرة للاهتمام والاغتمام في آنٍ واحد. إذ إننا صرنا نهرم بسرعة فائقة، وإن كانت الحواسيب المتآمرة علينا لا تلحظ هذه الفروقات الصغيرة في حياة البشر لكنها واقعة ملموسة، وقد بدأت بالتحري والبحث عنها، فاكتشفت أن دورة الأرض حول محورها كانت أبطأ ممّا هي عليه الآن، وأنَّ هذا الأمر في تزايد مطَّرد وملحوظ. وقد يحدث هذا الأمر في المستقبل، وأنه قد يخضع لحسابات فلكية وعلاقاتٍ دورية!

ولكن عملاق الحسابات الكبير فايسبوك يقول: «إن من شأن ذلك أن يؤدي إلى فقداننا ثانية من زمننا مع مرور الوقت، الأمر الذي يُنذر

([1]) الزلزال الذي ضرب تشيلي في 2010/2/27

بحدوث خلل كبير في عمل الحواسيب، الأمر الذي سينتج بالتالي عنه عواقب وخيمة.

ووفقاً لحسابات وكالة الفضاء الأمريكية ناسا، فقد مال محور الأرض بمقدار ثماني سنتيمترات في ذلك الزلزال. نتيجة لذلك تم تقليل طول اليوم أي الوقت الذي تستغرقه الأرض لإكمال دورة واحدة كاملة حول نفسها، بمقدار 26.1 ميكروثانية[1]

بالطبع لا يجب أن يعني ذلك أننا يجب أن نسارع على الفور إلى ضبط ساعاتنا اليدوية والمنزلية، ولكن ما لا شك فيه أن سرعة تسارع أيامنا وتواليها اللافت وطي الأسابيع والشهور بخفة سحرية كأنها لمح البصر، كل ذلك يدعونا للشك في أنّ أيامنا الحالية لم تعد بذلك البطء القديم الذي لطالما سمعنا به في حكايات الجدات والسهرات القمرية في القرى. وقد يكون مرد كل ذلك أننا في عصر السرعة هذا، وما وفرته وسائل التكنولوجيا من إمكانات هائلة لسبر الزمان والمكان، وخرق جدار الصوت والبحار، هكذا بتنا نتعانق من قارة إلى أخرى، صوتاً وصورةً، بسرعة مدهشة، وهكذا بات العالم بكل تقنياته بين يديك في جهازك المحمول السحري هذا، قريةً قمرّية، أو آلة رقمية واحدة، اختزلت جمهورية بأكملها؛ فبات لديك المصور وساعي البريد

([1]) الميكروثانية هي الجزء من المليون من الثانية. 2011/12/03

والمكتبة الوطنية، والهاتف الآلي، والمسجل وضابط الوقت والحركة، ومقيس النبض، ودقات القلب، والحرارة..

ولعل هذا هو مكمن النظرية النسبية عندما باتت كل الأشياء حلزونية ومتحركة ومناسبة ومتناسبة في الزمكان الشخصي والعام.

لست أدري على وجه الدقة ماذا تراه كان سيفعل أو يقول آينشتاين لو عاد به الزمن إلى أيامنا هذه!؟ هل تراه كان سيبدل في مضامين نظريته، على الرغم من تثبت الفيزياء الحديثة من كثير من منطلقاتها!

أو ماذا تراه سيقول ويفعل «آينشتاين النسبية» فيما لو استطاعت هذه البرمجيات الرقمية محاكاة عقله وتوقع إمكان إجاباته وتوقع ردة فعل عقله وتصرفاته حيال بعض الأسئلة الراهنة!؟

هذه الأرقام والتقنيات التي لا تنفك تدهشنا يوماً بعد يوم بكل جديد، ولا شك أنها سوف يكون بمقدورها إقامة تلك المحاكاة قريباً، والتي قد يحلو لبعض شياطين هذه العلوم الحديثة أن يصفها بأنها «بعث علمي، أو محاكاة رقمية للأرواح!».

ولكننا رغم ذلك لا نزال نعاني من فقدان الزمن، من تهاويه وسقوطه المدوّي في فوّهة ثقوب حياتنا السوداء!

فها نحن يا سيد ألبرت نسير بسرعات خيالية ونطير ونتحادث بموجات قريبة من سرعة الضوء أو لمح البصر، ولكن زماننا لا ينفك يتسارع ويضمحل وينحل أمام أعيننا ويذوب منّا كفراشة تحوم وتدور

حول شمعة النور، وهي تدرك أنها لن تدرك كنه الحياة ومعناها إلاّ إذا ما بذلت وقدمت كل حياتها!

لا يا سيد ألبرت، عليك أن تعذرنا، وتسامحنا على تطفلنا، ولكننا والحق يقال، لم نلمس في هذه السرعات الزمنية التقنية القياسية، ورغم هذا الكم الهائل من المعلومات الذي يتدفق في كل ثانية ويدخل ويخرج من فروات رؤوسنا، أفواجاً أفواجاً، ورغم كل ما يمكن أن يُقال من إننا ربما نعيش حيوات مضاعفة، وخبرات كبيرة كنا نحتاج لعيشها في السابق إلى أعمار متوالية وسنين كثيرة، إلاّ أننا لا نزال على ذلك الشعور الثابت الذي لا ينفك يتأكد لنا في كل يومٍ يعدو أمامنا وكل سنةٍ تفرُّ منّا أنها لا تساوي يوماً واحداً أو ليلة واحدة من أيام وليالي زمان.

أخلاق «التشيع العلوية» وروح الرفض «الثورية»؛ اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً! (محاولة سوسيولوجية، لتطبيق نموذج ماكس فيبر)

«ألا تتفكرون في آخرتكم، بماذا ينفعكم الرقص والبذخ في هذه الفانية، كثيرون منكم يتساهلون في إقامة الأعراس، أنها مرة في العمر. يقولون، ولكنهم لا يعرفون ماذا ينتظرهم في الآخرة.. ساعة لا ينفع ندم ولا بنون!».

قال الشيخ الذي كان يخطب على المنبر، فيما كان يشيح ببصرهِ تارةً إلى كرسيي العروسين اللذين كانا على يساره، وطوراً إلى الوجوه الشاخصة إليه من القاعة.

«لقد أقفلوا الجامع في المدينة، لأسباب تتعلق بالبناء». قال أحدهم. فكانت هذه القاعة المخصصة عادةً للأعراس، المكان الوحيد الذي أمكنهم أن يجتمعوا فيه ليحيوا مناسبة وفاة زوجة الخليفة الرابع، ابنة محمد، نبي الإسلام، فاطمة. وذلك قبل أن يجمعوا إلى هذه المناسبة مناسبة أخرى هي وفاة إحدى أمهات الشباب اللبنانيين هنا..

كان المشهد ملفتاً، وغريباً، وذلك ليس فقط لأننا في ألمانيا والمناسبتان تحييان في قاعة للأعراس فقط! ولكن لربما هو دخول المشاركين بأحذيتهم إلى الصالة الكبيرة، وجلوسهم على الكراسي الموزعة حول الطاولات المستطيلة..

لربما يكون هذا المشهد هو ما حدا بهذا الشيخ القادم من لبنان إلى الحديث عن الأعراس، ومن قبلها إلى حث التجار أن يلتفتوا إلى أنهم مهما كنزوا من مال فإنهم سوف يتركونه كله، ها هنا على هذه الأرض الفانية!، وبأن جميع من سبقهم فعل الشيء نفسه.

«ما حدا بياخد معو شي» قال الشيخ، فيما كان الصمت يلف المكان، ما عدا بعض الثرثرات الجانبية، التي كانت تدور حول تجارة السيارات على الأغلب، كون جل أبناء الجالية هنا هم من تجار السيارات، وبالتالي فهم يلتقون في هكذا مناسبات، وكأنهم لا يلتقون في غيرها.. حيث يتبادلون القبلات والعتاب والحديث في السيارات..

«شو أنت بتعرف أكثر من الشيخ» يقول أحدهم لزميله.. فيما يهمس آخر من جانبي موجهاً كلامه إلى الشيخ، ولكن بصوت هامس: «من كان بيته من زجاج فلا يرمي بيوت الناس بالأحجار!»..

«**اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً!**» قولٌ ختم الشيخ القادم من لبنان حديثه به، وكأنه سمع ما هتف

به هذا الشاب في سره، بعد أن نسبه إلى الإمام علي بن أبي طالب. هذا المجلس الذي كان حافلاً بالتأفف والتأوه والامتعاض على أنواعه حتى من الشيخ نفسه، لانشغال المستمعين بأمور دنياهم عمّا كان يتلوه هو من دررٍ سنية وحكم نورانية!

في الحقيقة كان الشيخ يشكي على الأرجح من عدم نجاح هذه الجاليات الضعيفة التعاضد والتماسك مقارنةً بجالياتٍ كبيرة أخرى هنا في هذه البلاد، كالأتراك والمغاربة. هؤلاء الذين ينجحون في بناء وتشييد الجوامع الضخمة والمرفقة بمجمعات تُخصص لنواحي الحياة الأخرى إضافة لدور الجامع التقليدي. بينما ترزح الجاليات العربية من لبنانية وفلسطينية تحت حالة من الضعف والتشرذم. ويغلب عليها الولاءات الطائفية والسياسية والمناطقية والحزبية، فترى أغلبها يفشل في إقامة أي أشكال ثقافية حقيقية تستطيع إيصال وربط الجسور فيما بينهم وخاصة أجيالهم الناشئة والمولودة هنا، وما بين أوطانهم أو ثقافتهم بما هي لغة وآداب وعادات وتراث، هذه التي لا يمكن اختزالها أبداً بهذه الصالات الصغيرة والمتنقلة والمتعثرة التي يؤجرونها ليقيموا فيها مثل هذه المناسبات الدينية، أو مناسبات العزاء فقط.

وأعني المدارس والنوادي الثقافية والمكتبات العربية والبرامج والنشاطات الثقافية والاجتماعية التي يمكن أن توطد الروابط فيما بين أبناء هذه الجاليات المولودة بالغرب أنفسهم بالدرجة الأولى، وتقوّي علاقتهم تالياً بلغتهم الأم وبثقافتهم من ناحية أخرى!

فالمرء لا يعدم أن يلمس هذه الرغبة وهذا التوق لدى الأجيال الثالثة والرابعة المولودة هنا، كيف تعبر عن حبها ورغبتها بالإلمام باللغة العربية والتمكن من قراءة مصادر هذه الثقافة بلغتها الأم!

لكنني سرحت في هذا القول وبلاغته، وتعدد الأوجه التي قد يحتملها تأويله وتفسيره، ورحت أفكر فيما اعتبرت أنه قد لا يتوافق كثيراً مع أطروحة الشيخ القادم من الوطن البعيد.

فإلى ماذا تراه كان يرمي إمام البلاغة والدين، من وراء هذا القول؟ وكيف يمكننا فهمه وتفسيره!؟ وإلى أي منطلق أو منهج فكري في التحليل والنظر إلى الأمور تراه أقرب؟! إلى المنهج المادي/ الماركسي على سبيل التجريب والعبث الفكري؟! أم إلى مفهوم ماكس فيبر وفرضيته حول النموذج المثالي!

وفكرت أنه سيكون من الطريف الممتع إعمال مقولات فيبر على هذا القول، على اعتبار أن المادية الماركسية لا تولي الاعتبار الكبير للمعتقدات الأخروية بمقدار ما تفعل حيال العوامل الاقتصادية وعلاقات العمل والإنتاج.

وقلت بأن المقطع الأول من هذا القول، يدعو جهاراً إلى ما تدل عليه كلماته:

«اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا».

وهذه دعوة صريحة –على ما حسبت وبيّنها ظاهر القول– إلى الاستغراق في عمل الدنيا وربما متاعها وعمرانها وبذخها كما قد حلى لعقلي أن يشطح ويتمادى، وبما تراه هذا يُسعف هذا الشيخ الذي خاب ظنه وأمله بجمهوره الذي وجده منغمساً في متاع الدنيا وبهرجة لحظاتها. فقلت في نفسي: لعل المقطع الثاني قد يفيد هذا الشيخ المسكين في مراده، فلنتفحص ذلك!:

«واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً!».

بدا هذا المقطع كأنه يفي بمراد الشيخ ويجب أو ينسخ ما ورد قبله في المقطع الأول.

ففي هذا المقطع نحن أمام دعوة واضحة وصريحة للانكباب على العمل للآخرة، وكأنها حالّةٌ غداً، ومعروفٌ ما المقصود بعمل الآخرة، على ما أشاعه الفقهاء والمفسرون والشارحون طوال قرون، بأنها العبادات والصلوات والإكثار منها ومن الأدعية وعمل الخير والبرِ ..... الخ. وهذا ما أحسبه ليس عملاً دنيوياً إنتاجياً، كما تهيأ لعقلي أن يشطح في المقطع الأول نحو تشبيه فيه الكثير من «الخيال» يتمثل في تأسيس نمط مثالي لسلوكٍ «رأسمالي» هجين وأولي لدى المسلمين «الشيعة»، وفق ما أراه أمامي من انكبابٍ وعمل دؤوب في جني المال والتجارة!!..

بالطبع، فيما لو صحت نسبة هذا القول إلى إمامهم المفضل والغني عن التعريف؛ علي بن أبي طالب.

وقد سوّغت لنفسي أن أتمادى في إسقاط هذا الفرض «التعسفي» الذي أطلقته عليهم تيمناً بعمل ماكس فيبر ونظريته في نشوء الرأسمالية، وردها إلى «الأخلاق البروتستانتية» التي كانت تحث على العمل الدنيوي في مقابل الأخلاق والقيم الكاثوليكية التي كانت تحث وترمز أكثر نحو قيم الخلاص والتقوى والعالم الآخر. وقلت في نفسي: «تراها قد تصح هذه الفرضية وينتج عنها بالتالي إمكانية إسقاطها بشكل عام على مسار اقتصادي ما اختص به «الشيعة» دون غيرهم في بعض الحواضر الإسلامية التي شهدت نهضة إنتاجية أو تمييزاً ما بهذا السياق، يمكن أن يُحسب لها كأقلية في التاريخ الإسلامي، بإزاء الأكثرية الكاثوليكية -أي «السُّنية»- التي تميل بطبيعتها إلى الإيمان والتوكل والانصياع العام للخليفة والحاكم والقول بالمشيئة!

بالطبع هذه فرضية فيها الكثير من «الفانتازيا» الفكرية والتجاوز العلمي، وتبقى بمثابة الفرض الخاص الذي لا أدعي صدقه أو صحته، وإنما يحتاج إلى المزيد من التعمق والدرس والفحص والبحث عن شواهد عيانية تدعمه من تاريخ الحواضر الإسلامية!

ولكني رغم هذا أخذت «دعابتي» الفكرية هذه من باب الجد ورحت أبحث فيما قيل أو كُتب حولها. وصرت أقرأ واستطلع أصل

هذا القول ونسبه وفصله، فكانت المفاجأة، لا بل المفاجآت بالجملة من عدة أمور ونواحٍ.

بعد رحلة قصيرة في البحث عن هذا القول المأثور سرعان ما اتضح أن هذا القول يُنسب إلى عددٍ كبير من الأشخاص، وأعتقد أنه من الأقوال القليلة التي شابها هذا القدر من الجدل في تفسير معناه والاختلاف حول نسبته إلى هذا أو ذاك، كمثل هذا القول. فتارةً ينسبه أحدهم لرسول الله، فيما يأتي من ينفي ذلك. ومن ثمّ تجد من ينسبه لعلي بن أبي طالب. ولكن نسبة لا بأس بها تنسب القول إلى ابنه الحسن، ومنهم من ينسبه إلى الإمام الكاظم، وهكذا.

فلنبدأ بالشيخ الألباني الذي لا يرى بصحة نسبة هذا القول إلى النبي (ص). وأنه لا أصل مرفوع له، وإن اشتهر على ألسنة العامة، وهو من الأحاديث الضعيفة. وأنه رُوي موقوفاً عن عبد الله بن عمر بن العاص، وسنده ضعيف برأيه[1]. وهو يرفض نسبة معنى شطره الأول للنبي بما هو حثٌ للاستغراق في مناعم ومباهج الدنيا، وهو الذي دعانا إلى الزهد فيها، بينما يرى صحة المعنى في الشطر الثاني، وفيه الحث على العمل للآخرة وهذا عمل مطلوب ومرغوب.

([1]) ناصر الدين الألباني، سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة، صفحة63.

وكذا ذهب الشيخ ابن عثيمين وغيرهما، في عدم جواز نسبة هذا القول إلى النبي، والمعنى المراد منه ليس ما قد يتبادر إلى فهم العامة، كدعوة للعناية بأمور الدنيا على حساب الآخرة، وإنما العكس من ذلك، وهو المبادرة والإسراع في إنجاز أمور الآخرة والتباطؤ في إنجاز أمور الدنيا.

فمعنى الشطر الأول، أن ما لا ينقضي اليوم ينقضي غداً، بمعنى أنك لديك الكثير من الوقت لإنجازه، وهو هنا بمعنى التمهل في عمل الدنيا، لأنك لست في عجلة من أمرك عليها، أمّا عمل الآخرة فهو الذي قد يداهمك القدر في أية لحظة (فاعمل لآخرتك كأنك تموت غداً!)، وقد يكون قد فاتك القطار دون إنجاز أعمال الآخرة، حينها لا تنفع ساعة الندم.

أمّا ابن الأثير فيذهب إلى القول:

«أمَّا فِي الدُّنْيَا فَلِلْحثِّ عَلَى عِمارتها وَبَقَاءِ النَّاسِ فِيهَا حَتَّى يَسْكُن فِيهَا ويَنْتَفع بِهَا مَنْ يَجيء بَعْدَكَ، كَمَا انْتَفَعْت أَنْتَ بعَمَل مَنْ كَانَ قَبْلَكَ وسَكَنْتَ فِيمَا عَمَرَه، فَإِنَّ الإنسان إذا عَلم أَنَّهُ يَطُول عُمْرُه أحْكَم مَا يَعمَلُه وحَرصَ عَلَى مَا يَكْسِبُه»[1] وفحوى هذه العبارة أنّ على الإنسان أن يجتهد في عمله، وأن يحتاط لمستقبله ويحتسب له، ويبني

(1) ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر، صفحة 359.

بطريقة تؤسس لدوام واستمرار هذا العمل وفائدته ليس فقط له وإنما لمن سيأتي من بعده.

وهذا مفهوم العمران والبنيان. وأن يؤدي عمله إلى زيادة في هذا الإنتاج وألا يستكين للتكاسل والتهاون والتفريط. كذلك يرمي إلى وجود معنى مغلوط سلبي لهذا القول قد يتبادر إلى ذهن العامة مفاده: الاستغراق والركون إلى متاع الدنيا وعدم الحرص، والزهد فيها.

أمّا في مقلب أعلام «الشيعة»، فإننا نلاحظ رغم اتفاقهم على أن الحديث من جهة الإسناد ضعيف لكونه تارةً مرسلاً وإمّا لجهالة بعض رواته لأصول علم الحديث، إلاّ إنهم يرون أن جميع الفرق الإسلامية متفقون على متنه على الرغم من ضعفه لجهة السند. وهكذا فإن كثيراً من العلماء يعدون معناه صحيحاً، وثمة رواية مقدرة تدعم مضمون هذا الحديث رواها الشيخ الكليني، في كتاب الكافي (٨٧/٢)، نقلاً عن النبي (ص):

«يا علي إنّ هذا الدين متين، فأوغل فيه برفق، ولا تبغض إلى نفسك عبادة ربك، فإن المنبت- المفرط- لا ظهراً أبقى ولا أرضاً قطع، فاعمل عمل من يرجو أن يموت هرماً، واحذر حذر من يتخوف أن يموت غداً!».[1]

([1]) جامع أحاديث الشيعة، ج 1، السيد البروجردي، ص 440.

ويروي ويتداول المسلمون الشيعة العديد من الأحاديث عن أئمة أهل البيت ما يفيد بمعنى الحديث المذكور. وهكذا يُنقل عن الصادق: «ليس منّا من ترك دنياه لآخرته، ولا آخرته لدنياه».

هكذا نلاحظ –بما لا يرقى إلى الشك– أننا أمام إصرار واضح من قبل المسلمين الشيعة على كثرة ترداده واستعماله، ولعل هذا ما يبرر نِسبَتَهُ الكثيرة إلى أحد أئمتهم «المعصومين»، أكثر منه لدى أترابهم من المسلمين «السُّنة»، اللذين على ما رأينا بعضهم يحاول رده أو نفي صحة نسبة هذا القول إلى النبي، أو اعتبار فساد أغلب أوجه قراءته وتفسيراته، والأخذ فقط بالمقطع الثاني منه، واعتباره من نوع الأحاديث أو الأقوال الموضوعة أو الضعيفة السند بأي حال.

فلنلحق هذا الفرض الذي تهيأت إمكانية إطلاقه، وإن من باب التعسف والفانتازيا الفكرية التي انطلقت عندي من واقع أنّ الشيعة «أقلية» بدت حالتها في التاريخ مغريةً أن تتهيأ للعب أدوارٍ «ثورية» أو تثويرية تنويرية، على غرار ما ذهب إليه ماكس فيبر في إعطائه «البروتستانتية» وأخلاقها الدور الأبرز في إطلاق «روح الرأسمالية».[1]

---

[1]) Max Weber Die protestantische Ethik und der Geist des Kapitalismus. Area-Verlag GmbH, Erftstadt 2006. S 166,25.

(ماكس فيبر الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية دار آريا، ارفشتاد 2006، النسخة الألمانية ص، 25، 166 هامش رقم 10). وقد استعنت وقارنت بعض المعطيات مع الترجمة العربية لهذا

بالطبع نأخذ هذا الأمر بمعزل عمّا تعرضت له نظرية فيبر هذه من انتقادات جمّة من علماء اجتماع ألمان وغيرهم، من أنّه ينطلق بشكلٍ من المكايدة الفكرية بإزاء القول بأنّ: «الرأسمالية تنتج أخلاقها التابعة والمتشكلة عن نمط علاقاتها وأشكال إنتاجها»، يذهب السيد فيبر إلى معاكسة ذلك بقوله: «إنّ نمط الأخلاق يؤدي إلى نشوء الرأسمالية».

هذا فيما لو أتيح لنا فرصة الوقوف على علامات لنهوض اقتصادي ما قام في حواضر امتازت بحضور خاص ومتميّز لهذه الطائفة، وكان للعوامل الأخلاقية الدينية الخاصة بها دور في عملية البناء والنهضة الاقتصادية؟!

الأمر الذي لا يمكننا ادعاؤه أو إثباته. كحال المعطيات المتوفرة في الغرب من دراسات وإحصاءات كانت متوفرة لماكس فيبر إبّان دراسته هذه التي دعّم فرضيته بها واستند عليها في كتابه السابق الذكر، ومنها على سبيل المثال: المقارنة بين ما كان يتوجب دفعه من ضريبة على الدخل لكل من الطوائف التي كانت في مدينة بادن

الكتاب؛ ماكس فيبر، الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية، ترجمة محمد علي مقلد ومراجعة جورج أبي صالح، مركز الإنماء القومي، لبنان– بيروت، دون تاريخ الطبع. (يُذكر أنه لا يوجد في هذه الترجمة من تمهيد أو مقدمة تفيد بالنسخة ولا اللغة، التي تُرجم عنها هذا الكتاب، وقد استشفينا أن تكون هذه الترجمة عن اللغة الفرنسية، من كلام قرأناه للمترجم في سياق بعض سيرته الذاتية).

الألمانية، حيث «بلغت قيمة الضريبة على دخل الرأسمال في العام 1895 في منطقة بادن: لكل ألف بروتستانتي 954060 مارك، ولكل ألف كاثوليكي 598000 مارك. أمّا اليهود فكانت حصتهم هي الأكبر بما يتجاوز الأربعة ملايين مارك. ويذكر فيبر أنه استقى معظم هذه المعلومات الإحصائية من الدراسة الوافية التي قام بها أحد تلامذته ويدعى مارتن أوفونباخر، وعنوانها: «المذهب والطبقة الاجتماعية؛ دراسة للوضع الاقتصادي للكاثوليك والبروتستانت في بادن لعام 1901»[1]

ولتدعيم وتأكيد فرضيته، يذهب فيبر إلى إسقاط هذه المعطيات على التوزيع السكاني الذي كان يتشكل حينها في هذه المدينة في نفس العام 1895، وكان على الشكل التالي:

% 36، بروتستانت، 61،% 3، كاثوليك، 1،% 5، يهود.[2]

ولكنه لا يكتفي بهذا القدر، بل يرفد فرضيته بمعطى قوي ومؤثر جداً هو: التعليم والخيارات التعليمية التي يتوجه إليها أبناء كل مذهب بدافعٍ من التربية والمُثُل والقيم التي يتداول بها الأهل ويتناقلونها إلى أبنائهم.

([1]) المصدر السابق نفسه، ص 166، الهامش رقم 9، م، أوفنباخر. توبنجن، لايبتزيغ 1901، الجزء4، ف.5، من مجلة الدراسات الاقتصادية، التابعة للمدرسة العليا في مدينة بادن.

([2]) الأرقام ينقلها فيبر عن أوفنباخر مصدر سابق، ص21.

فكانت هذه الاتجاهات كذلك لافتة في هذا السياق إذ بيّنت أنّ نسبة تقرب من 60 %، من الطلاب البروتستانت يتجهون إلى الثانوية العلمية، في مقابل 31 %، من الطلاب الكاثوليك و5،9 لليهود. وتتواصل النسبة في الارتفاع للطلاب البروتستانت في الثانوية العلمية والتقنية العالية والتطبيقية، فيما ترتفع نسبة الطلاب الكاثوليك في الثانوية العامة 46% التي تُعد سهلة وخالية من المواد العلمية واللغة اللاتينية.

ووفق فيبر فإن هذه النسب كانت متقاربة في أماكن أخرى من ألمانيا، كبروسيا، وبايير، وفورتونبورغ، وفي المجر.(1)

ولكن كيف تنعكس هذه المعطيات والأرقام في دراسة فيبر هذه وفرضيته الرئيسية؟

ينطلق فيبر لتوظيف معطياته هذه من خلال طرح السؤال التالي: لماذا تكون حصة العمال الكاثوليك قليلة على صعيد اليد العاملة المصنفة في مجال الصناعة الكبرى الحديثة؟

ما يعتبره فيبر أمراً مثيراً للدهشة والاستغراب هو أن ارتقاء العمال في هذه المجالات يكون من نصيب العمال البروتستانت الشباب أكثر ممّن يُبدون رغبة وقدرة واستعداداً أكثر للارتقاء في مجال عملهم هذا

(1) جدول من دراسة أوفنباخر نفسها، استند عليه فيبر مصدر سابق نفسه، وأدرجها في هامش رقم 13.

نحو تبوُّء مناصب عالية وإدارية، فيما يعبّر الشبّان الكاثوليك عن ميل واضح نحو البقاء في المحترف، وأقصى مرتبة يمكن أن يرتقوا إليها في نهاية المطاف أن يصير أحدهم مشرف أو مراقب على الشغيلة اليدويين.

وبرأي فيبر أن اختيار طبيعة المشاغل والاهتمامات العملية إنما تحددها الخلفيات التاريخية ومستوى المعيشة والثروة والخصوصيات العقلية التي تتأثر بالمحيط والتربية التي يشيعها بشكلٍ كبير نمط الأفكار الدينية السائدة في هذه الطائفة أو تلك.

ليخلص ماكس فيبر إلى فكرة مركزية في أطروحته وهي أن الأقليات التي كانت تتعرض للضغوطات والاضطهاد السياسي والديني كانت تلجأ لتركيز طاقاتها وجهودها على الأعمال الاقتصادية.

ويسوق في هذا السياق عدة أمثلة من ألمانيا وغيرها، مثال: حال البولونيون في روسيا وبروسيا الشرقية، كذلك حصل مع البروتستانت في إنكلترا، وفي فرنسا في عهد لويس الرابع عشر. ومن ثمّ اليهود منذ ألفين عام. ولكن فيبر لا يرى هذا الأمر عند الكاثوليك في ألمانيا حتى في الفترة التي كانوا فيها مضطهدين. فيما لا يرى هذا الميل نحو ما يسميه «العقلانية الاقتصادية» إلاّ عند البروتستانت في حالة كانوا هم الأكثرية أو الأقلية! أو كانوا مضطهدين أو حاكمين! هذه العقلانية والقدرة على استخراج وتجريد الأفكار واستخراج المفاهيم

وإقامة المؤسسات والبيروقراطية، هذه السمات التي خصها ماكس فيبر فقط بالغرب وبعقله المتميز. حيث يقول في مقدمة كتابه هذا: «نعم لقد اكتشف الصينيون الحبر منذ القدم لكنهم لم يكتشفوا المطبعة هذه التي اكتشفها الغرب فقط..» (1)

هكذا ينزع ماكس فيبر كل قيمة علمية أو حتى فنية أو حضارية عن الشرق، ويعتبر أن كل ما عرفته حضارات الشرق من الهند وفارس وبابل والإسلام لم تكن سوى محاولات جنينية لم ترتقِ إلى مستوى التجريد وعقلانية المفاهيم والمؤسسات القائمة على التراث العلمي.. الخ. وصولاً إلى أشكال ممارسة السلطة في الشرق والنفوذ، الذي ظل دون مستوى الوصول إلى مؤسسة «الدولة» الحديثة التي تقوم على دستور وقوانين عقلانية، هذه التي لم تظهر كذلك إلاّ في الغرب.. وذلك قبل أن يخلص إلى زبدة موضوعه وهي «روح الرأسمالية»، الذي جرّنا إلى كل هذه الدهاليز والشُعب. أعني مغزى وفحوى هذا القول المأثور، الذي بدأنا به موضوعنا وقادنا إلى معنى «الرأسمالية» والعمل والربح والسعي، والأخلاق التي تحث عليها.

وهكذا نتلمس في الميزان «الفيبري» أن الرغبة في الكسب، والبحث عن الربح وعن أكبر كمية من المال، ليس له أي علاقة بالرأسمالية البتة، فالحاجة إلى الكسب غير المحدود هي من

---

(1) فيبر، الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية، مصدر سابق، ص9.

التعريفات المغلوطة للرأسمالية، ولا تمت لها بصلة وليست من «روح الرأسمالية» بشيء. هذه الروح التي يصفها فيبر بأنها وإن كانت تشتمل على فكرة الهيمنة، بعد التلطيف العقلاني لهذه الرغبة أو الغريزة اللاعقلانية، فإنه يرى أن «الرأسمالية» مرادفة للسعي نحو الربح، ولكن هذا السعي نحو الربح يتوجب أن يتحول إلى فعل دائم القدرة على التجدد عبر مؤسسة ثابتة عقلانية ورأسمالية بما هي دأب نحو المردودية التي تلازم وتعد من شروط المشروع الرأسمالي.[1]

ولكن ما هي الإرهاصات المشابهة في المسار «الشيعي الحضاري» -إذا ما جاز لنا التعبير على هذا النحو- التي يمكن لها أن تؤشر على هذا الفرض الذي أطلقناه! ولطالما انتقلنا من حالة التجريب أو العبث الفكري، لندخل في الجد كما يُقال. فلنرَ ماذا يخبرنا السيد «غوغل» هرم المعرفة الفكري الأكبر في هذا العصر أو مصدره المعرفي والمعلوماتي العملاق الذي بات الجميع يستعين به كأنه مفتاح الغيب ومفكك الألغاز والأسرار! ولكن بالطبع بعد غربلة هذه المصادر والتأكد من رصانتها العلمية!، ولكن قبل أن ندخل في هذه المغامرة الفكرية، هل نفترض سلفاً بأننا بإزاء ملامح «رأسمالية» ولو كانت بعد في طورها الجنيني في هذه «الحواضر الإسلامية

([1]) فيبر، الأخلاق، ص 7.

الشيعية المفترضة»، إذا ما صح هذا التعبير، وهذا ما سنعرج عليه قليلاً!! الأمر الذي لا نظن أنه سيصح ويتطابق مع المعنى «الفيبري» الذي كما رأينا أنه ينفيه عن الشرق عامة فكيف بنا سنثبته بالقوّة والتجاوز النظري على فترة من هذا التاريخ اختصت بطائفة «أقلية» منه!؟

لكن يبدو أنه بمقدورنا أن ننطلق في هذا الاتجاه الفكري الفيبري، في مسار العقائد والنظرة الفكرية والقيم الأخلاقية التي يمكن أن تؤدي إلى إحداث التغيير والتنوير في الحقل الإسلامي عامة! وهذا بأي حال ما أثار دهشتنا «السيد غوغل» به. إذ رأينا أنّ ثمة نظرية غريبة أثيرت في فترة غزو العراق والتعاون الأمريكي مع «إيران والمعارضة الشيعية العراقية»، الأمر الذي أثار سخط وحفيظة العالم الإسلامي «السني».

ومن غرائب بعض التفسيرات التي وقعنا عليها هي ربط هذا الانقلاب في التوجه الأمريكي في المنطقة، وهو الحليف التاريخي للعالم الإسلامي «السني» المتمثل بتركيا والسعودية وباكستان. بالقول باعتماد الإدارة الأمريكية، في مشروعها «الشرق الأوسط الجديد»، على نظرية ماكس فيبر في النموذج المثالي ودور الأقليات في إحداث التغيير في رحاب المحيط الأكثري الذي يميل ويرزح تحت ثقافة التقليد والتزمت والمحافظة.

لقد فاجأنا بأي حال هذا الربط وبدا أننا مدفوعون نحو النظر بعمق إلى التاريخ الإسلامي العام علّنا نعثر فيه على ملامح حراكات سياسية واجتماعية مرتكزة على مقومات ومعطيات أخلاقية عقائدية لدى المسلمين «الشيعة».

هذا ويرى البعض أن إسقاط نظرية ماكس فيبر على الواقع الإسلامي بشطريه «السني» أو «الشيعي»، فيه شيء من التعسف الفكري، وهو بأي حال قد تعرض للنقد من قبل الكثيرين، الذين رأوا أن فيبر كان بصدد إعداد دراسات تشمل الإسلام، لكن وفاته المبكّرة حالت دون ذلك.

لكن ما تكوّن لدينا من المطالعات الأولية يُبدي أنّ الأفكار التي سيطرت على المسلمين الشيعة لم تنجح في الدفع نحو بروز «الرأسمالية» بالمعنى الفيبري الصرف (وإن كان البعض يرى في المسالك الإباضية وقيمهم ونظرتهم إلى العمل والثروة، وكذلك العمانيين، ما يمكن أن يدفع بهذا الاتجاه، وقد يفيد تعميق الدراسات بهذا السياق!).

بأي حال، لم ينجُ فيبر وفرضياته هذه من النقد، وقد لقي العديد من الانتقادات حول انتقائيته وتعاليه الفكري هو الآخر في التمحور حول الذات المركزية الغربية. بأي حال يبدو أنّ نمط الأفكار الثورية «الرفضية» لدى الطوائف الشيعية والدور الثوري الكبير الذي لعبته موقعة كربلاء، وما تشكل عنها من «أيديولوجية شيعية» متواصلة

وممتدة، قد سمح لها بتطوير «حوافز» ودعائم ثورية أدّت إلى بروز عدة دول وحركات ذات طابع «شيعي» وتحمل ملامح التغيير والتجديد في التاريخ الإسلامي.

الحزب العلوي

لا شك أن إرجاع إرهاصات هذا الفكر الأولى تعود بجذورها كلها إلى الإمام علي وتساميه وترفعه عن الوضائع والصغائر، وتعامله بسموٍّ بالغ حتى مع خصومه.

هكذا عندما أرسل ولديه الحسن والحسين ليقفا أمام بيت عثمان بن عفّان إبّان الفتنة. ونرى الإمام يذّكر معاوية بأنه تخلّف عن نداء هذا الأخير عندما استجار واستنصر بعشيرته من بني أميّة لكنهم تركوه لمصيره المعروف، «أَمَّنِ استنصَرَهُ فتراخى عنه وبثَّ اَلمَنُونَ إليه حتى أتى قَدَرُهُ علَيهِ.»(1)

كما أنه مَن أعاد عائشة زوج النبي مكرَّمةً على الجمل بعد الموقعة التي عُرفت باسم هذا الحيوان المميّز، أي «موقعة الجمل»، بعد أن قضى الإمام على التمرد.

---

(1) نهج البلاغة، شرح الإمام الشيخ محمد عبده، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت– لبنان. الجزء 3، ص34

وكذلك فعل مع قاتله «ابن ملجم»، الذي طعنه بخنجر مسموم في الجامع، إذ أمر ولده:

«انظر يا حسن، إن مت من ضربته هذه فاضربه ضربة بضربة، ولا تمثل بالرجل فإني سمعت رسول الله يقول: إياكم والمثلة ولو أنها بالكلب العقور».

فكانت هذه بمثابة اللبنات الأولى في مدماك ما سيُعرف لاحقاً في التاريخ الإسلامي بـ «الحزب العلوي» أو «شيعة علي»، الذي تمحور وتركّز حول شخصية هذا الإمام العظيم الذي يمكن وصفه بحق، بأنه إحدى لبنات التفكير العقلاني والثوري في الإسلام.

وخير دليل على ما نقول هو اتفاق جميع المسلمين على مكانته الفكرية والدينية الكبرى، ويكفي أن نرى عدد الفرق والطوائف والملل التي قامت فيه، وعدد المأخوذين بفكر وبلاغة وشجاعة وعدل علي من غير الطوائف الإسلامية، وكم الكتب والأبحاث التي خيضت وكُتبت فيه!

ولعلّ خير تعبير عن «محن الإمام علي الثلاث»، هو تعبير الدكتور علي شريعتي: «إن الإمام قضى الثلاثة وعشرين عاماً الأولى [من حياته] جهاداً عقائدياً وفكرياً واجتماعياً من أجل نشر الإسلام.» وهي الفترة التي قضاها الإمام مع النبي في مرحلة البناء والتأسيس.

ويضيف شريعتي: «إن الإمام بقي خمسة وعشرين عاماً صامتاً ليبقى الإسلام..»[1]. وهذه هي المدة التي استغرقها الخلفاء الثلاثة في فترات حكمهم، قبل أن يتسلم الإمام زمام الخلافة التي لم تدم سوى خمس سنوات.

وهنا نجد أنّ شريعتي يختلف مع جورج جرداق حول نظرته للإمام بأنه كان ثائراً قبل حكمه وأثناءه، حيث يذهب شريعتي للقول بأن الإمام على عكس القادة الآخرين الذين يقومون بالثورات والكفاح من أجل الوصول إلى أهدافهم، وعلى رأسها الوصول إلى السلطة، ومن ثم يبدأون بمرحلة البناء والحكم. فهو لم يفعل ذلك في فترة الخلفاء الثلاثة، لا بل لاذ بالصبر والصمت حفاظاً على وحدة الأمة وقوتها!

وهذا قول الإمام في نهج البلاغة، في كتاب له إلى معاوية يذكر فيه ادعاءات هذا الأخير، ويذكّر بفضل الإمام وأهله، فها هو يقول: «فنحن مرّةً أولى بالقرابة، وتارةً أولى بالطاعة. ولمّا احتج المهاجرون على الأنصارِ يومَ السقيفةِ برسولِ الله صلَّى اللهُ عليهِ وآلهِ فلجُوا

([1]) على شريعتي، الإمام علي في محنه الثلاث، التاريخ، التشيع، الإنسان، ترجمة علي الحسيني، دار الأمير، ط1، 2001، بيروت – لبنان، ص 120.

عليهم، فإن يكنِ الفلجُ بهِ فالحقُ لنا دونكم، وإن يكن بغيرِهِ فالأنصارُ على دعواهُم»[1]

وتوالت «السردية الشيعية» في التبلور عبر التاريخ المليء بالمكائد والدماء والآلام. إذ مات الحسن مسموماً والحسين مقتولاً في كربلاء، في خروج غير متكافئ لمواجهة سلطان جائر فيما كان شعاره:

«إني لا أرى الموت إلا سعادة والحياة مع الظالمين إلا برما».

لتكتمل مكونات تبلور وولادة «الأساطير المؤسسة»، التي توغل بعيداً في وجدان الجماهير.

هذا وقد ظهرت في العصور الإسلامية المختلفة دولٌ ذات خلفية «شيعية» أو «إسماعيلية»، أو ما عُرف بالدول «الشيعية التسعة»، وقد عرف بعضها حالات من الازدهار ونذكر هذه الدول من باب زيادة المعرفة:

- **دولة الأدارسة في المغرب (788م- 991 م):** تأسست هذه الدولة في المغرب على يد إدريس بن عبد الله وهو حفيد الحسن بن علي بن أبي طالب. وقد لاقت تجاوباً كبيراً بين قبائل البربر، ما استشعر الخليفة العباسي هارون بخطر

([1]) نهج البلاغة، شرح الإمام الشيخ محمد عبده، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت- لبنان، الجزء3، ص33.

الأدارسة المتزايد والذي كان إدريس وأخوه يحيا قد ثارا على حكمه، فعمد إلى اغتياله.

- **الدولة العلوية/ الزيدية (864م- 928 م):** في طبرستان شمال إيران.

- **دولة البوهيين (934م- 1062م):** وقد أسسها علي بن بويه الذي غزا فارس واتخذ من مدينة شيراز عاصمةً لدولته، التي امتد تفردها ليطال كل من إيران والعراق والكويت وسوريا وأجزاء من سلطنة عمان والإمارات العربية، وتركيا، وأفغانستان، وباكستان.

- **الدولة الحمدانية (890م- 1004):** تأسست على يد حمدان بن حمدون، ويعود نسبهم إلى قبيلة تغلب بن وائل من أرض الجزيرة وشرق سوريا. قامت هذه الدولة على استغلال حالة الضعف التي اعترت الدولة العباسية والأتراك الذين ينافسون ويسعون لقضم مناطق نفوذ جديدة لصالحها. ونتيجة مهاجمة الأتراك الدولة الجديدة، تركز نفوذ الحمدانيين في حلب بعد أن انتزعوها من الإخشيديين.. وقد عُرف من أعلام هذه الدولة المتنبي كبير شعراء العرب أشهر قصائده في بلاد سيف الدولة الحمداني. كذلك عُرف من شعرائها أبو فراس الحمداني.

- **الدولة الفاطمية (909م- 1171م):** مؤسسها عبيد الله المهدي بالله، ويعود نسبهم إلى محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق، وهكذا يتم إرجاع نسبهم إلى فاطمة بنت النبي محمد. وفي عام 913 شيدوا مدينة المهدية واتخذوها عاصمة لهم ثم نقلوها إلى المنصورية، وبعد فتحهم مصر أسسوا مدينة القاهرة لتصبح عاصمة الدولة الفاطمية لغاية انهيارها. اعتبر العصر الفاطمي امتداداً للعصر الذهبي الإسلامي وعُرف من أعلامه الحسن بن الهيثم، فيما كان الأزهر وبيت الحكمة معلمين لنشر الفكر والعلم وأصول الدين.
- **الدولة الصفوية، (1501-1785):** قامت في إيران بعد نجاح إسماعيل الصفوي عام (1494م) بالسيطرة على كامل البلاد وتحويل مذهبها إلى المذهب الإثنا عشري، بعد أن كانت على المذهب الشافعي (السُّني)، وأقلية شيعية.. ويرى البعض أنه منذ ذلك التاريخ الذي ازدهرت فيه إيران ومدينة أصفهان تحديداً، ازدهرت كذلك مجدداً المشاريع القومية الفارسية التي باتت ترتكز على التشيع وموالاة أهل البيت.
- **الدولة الزيدية:** قامت في إيران ما بين عامي 1750و1795. وعاصمتها شيراز وتميزت بازدهار تجارتها مع الهند.

- **دولة اودة:** وهي دولة حكمت الهند ما بين العامين، 1722 – 1858).
- **إيران:** الجمهورية الإسلامية في إيران التي قامت في أعقاب الثورة الإسلامية عام 1979.

هذا ويحلو للبعض أن يضيف إلى هذه القائمة القوى والتيارات السياسية الإسلامية التي تدور في الفلك الإيراني، وبعضها يتخذ أشكالاً تنظيمية كبيرة تكاد تُضاهي الدول الصغيرة، أو تلعب أدوار «الدويلة» داخل الدولة. مثال ذلك: التيارات والقوى الإسلامية في العراق، ولبنان، وسوريا، واليمن..

التشيع الصفوي والتشيع العلوي

أمّا وقد أبحرنا في هذه الجولة التي قادتنا بعيداً في التاريخ الإسلامي، فأجد أنه لا بد من الوقوف عند المفهوم الذي أطلقه د. علي شريعتي، للتشيع العلوي، والذي يقصد به هذا المخزون المشحون بالطاقة نحو التغيير والبحث عن العدالة الاجتماعية والإصلاح والتغيير. وهو المعنى الذي تلمسناه في سعينا في هذه السطور، ووجدنا خير تعبير أو تعريف لهذا النهج «الثوري» الأصيل، هو ما أتى به د. شريعتي في معرض مراجعته لكتابه «التشيع الصفوي

والتشيع العلوي»[1] الذي أثار لغطاً كبيراً وطرح كثيراً من الأسئلة. فها هو يشرح مقصده في هذين المصطلحين بقوله:

«ثمّ إني اكتشفت مدى النبوغ والذكاء الذي استطاعوا من خلاله تحريف «التشيع» الذي ابتدأ بكلمة ((لا)) وانطلق من الرفض لكل قوة وعدوان وخداع، وكافح خلال ألف عام كل نظام وتنظيم قام على غرار الأنظمة والتنظيمات التاريخية وفُرض على الناس وحُمل على ظهورهم باسم الإسلام. اكتشفت كيف (...) أنّ تشيع المطالبة بالتحرر والعدالة يغير موقعه فجأةً، فيهجر الوسط الجماهيري ويتربع على الأريكة التي تربع عليها ((التسنن)) باستمرار.

هذا ((التسنن)) الذي كان عبارة عن إسلام الخلافة، إسلام الحكومة، إسلام السلطة، الإسلام الرسمي، والتشيع إسلام الناس.. إسلام الشعب.. إسلام الجماهير التي دخلت الإسلام طلباً للعدالة والقيادة والحرية...» [2]

وبهذا المعنى لا يجب أن يختلط الفهم لدى البعض بالمقصود بمصطلح أو تسمية «التشيع العلوي»، وكأنه يهدف أو يشير إلى طائفة أو ملّة بعينها قائمة في الواقع الإسلامي الراهن، لا، فهذه

([1]) علي شريعتي، التشيع الصفوي والتشيع العلوي، دار الأمير للثقافة والعلوم، بيروت-لبنان، ط2، 2007.

([2]) علي شريعتي، الإمام علي في محنه الثلاث، مصدر سابق، 110-111.

التسمية تقصد التعبير عن حالة من الاعتراض السياسي والفكري والسعي نحو الإصلاح والتغيير والتجديد في الحقل الإسلامي في كل زمان ومكان، وإن كانت التسمية غير موفقة كثيراً لارتباطها بالموروث الثقيل للتاريخ السياسي الإسلامي الذي عرف أحزاباً وتياراًتٍ سياسية وخطاً «ثورياً»، ومجدداً ارتبطت كلها بشخصية علي وامتدت إلى ابنه الحسين، لكن هذا الخط نراه قد توارى بإزاء التحول الذي جرى وتمثل بقيام مذاهب وطوائف دينية مختلفة تحمل هذا الاسم وتنطلق من هذا التراث، لكنها صارت –كما أشار شريعتي– تشكل حالات في السلطة، سياسية كانت أم فقهية.

أمّا السعي نحو «روح» التمرد والتجديد التي أرساها الإمام علي وجسدها الحسين، تراها قد غُيبت واستبعدت عن ساحات القرار، وإن بدا لها ممثلون ودعاة في أرجاء متفرقة، نشدوا التنوير والإصلاح، ولكن الغلبة لليوم لا تزال «للتشيع الصفوي» بما هو تشيع «سلطة» تحول إلى دول ومؤسسات دينية كبرى، وأحزاب ومرجعيات تحظى بسلطات كبيرة وواسعة.

وبهذا المعنى يكون مفهوم «التشيع العلوي» المقصود لا يؤشر أو يعني طائفة قائمة بعينها، بقدر ما هو سلوك وطريقة تفكير وتعبير وممارسة تجلّت بمدرسة علي والحسين. وبهذا المعنى يكون هذا في صلب التفكير الإنساني الذي يتسع صدره وتنفتح رحابه على مدى الكون، ليضم في أفيائه أسماء عظام وفلاسفة ومعلمين

كباراً وثائرين نادرين، وأصحاب مدارس وطرق فكرية في الحياة قدموا حياتهم نماذج لرفعة وسمو المعنى، وكرامة الإنسان، والحق، والعدالة!

وربما هذه اللبنات «الثورية» الأولى عند الإمام علي والحسين هي ما تفسر لماذا انتشرت الأفكار اليسارية والاشتراكية الثورية وحتى الإصلاحية التنويرية في أوساط الطوائف «الشيعية» أكثر من غيرها، وهذا في كثير من البلدان من لبنان إلى العراق وإيران، واليمن، والبحرين، وغيرها..

الخلاصة:

ولكن ما هي الخلاصة من القول الذي بدأنا به حديثنا؟

وكيف يمكن النظر إليه علمياً؟

برأيي، تتجلى قيمة وأهمية هذا القول في أنه يكاد أن يكون بمثابة المعادلة الرياضية القائمة على ثلاثة عناصر هي:

الحياة والعمل والآخرة.

ولنحاول أن نتمثل عناصر هذه العلاقة في معادلة رياضية فيكون لدينا:

العمل • الحياة • الأبد = العمل • الآخرة • الغد

وكما لاحظنا، أن القول يبدأ بفعل الأمر «اِعمل»، فهذا يعني إضفاء القيمة الأساسية في الحياة والآخرة للعمل، وهذه هي القيمة العقلانية الأساسية –على ما أحسب– التي تقوم عليها المجتمعات الحديثة الرأسمالية التي عناها ماركس ومن بعده فيبر. فالعمل هو وحده الذي يؤدي إلى الإنتاج وإلى الحصول على القيمة. وهو بأي حال، محرك الحضارة البشرية، وذلك في زمنٍ مفتوح على مصراعيه، أي غير محدود، «كأنك تعيش أبداً!».

وأحسب أنّ العمق والبلاغة في الشطر الأول التي أوقعت هؤلاء المفسرين في هذه الحيرة وهذا التخبط، أنّه لا يهدف إلى معنى الإسراف أو التبذير والاستغراق في مباهج الدنيا ومتاعها كما ذهب بعضهم، وليس كذلك إلى التمهل في عمل الحياة الدنيا كون أن لدى الإنسان متسع من الوقت فلا داعي للاستعجال والاندفاع نحو العمل الدنيوي، وإنما المطلوب هو تقديم عمل الآخرة بما هو عمل لا يؤخر وقد تأزف ساعة المرء من غير ما يحتسب.

لا؛ ليس هذا ولا ذاك تراه ما يتضمنه هذا الشطر المسبوك بدقة عجيبة، وإنما المقصود هو العمل المستدام الذي يقوم به صاحبه على أنه سوف يؤسس ويبني للمستقبل. وهنا نلتقي إلى حدٍّ ما مع رأي ابن كثير في هذا الشطر.

وقد وُضعت عناصر هذا القول في علاقة تكاملية فيما بينها، ففيما يبدأ بالاستغراق والإتقان بعمل الأرض والدنيا كأنك مخلدٌ فيها –

وفي هذا يتجلى معنى البنيان والتطور- إلاّ أنه سرعان ما يكبح هذا الانطلاقة في العمل والحياة والاستثمار الطويل به، إلى حصره بفك الكماشة الثاني؛

«واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً!»

أي تذكر أنك راحل في أي لحظة! وما عليك سوى العمل كذلك على هذا الأساس! وهنا اكتمال عقد المقصلة؛ وانعقاد الحبكة؛ وإعلاء القبضة والقيد على الإرادة، والعقل، وحرية العمل، والفعل! هذا في ظاهر القول!!

لأن وضع العمل بين فكي كماشة الحياة المفتوحة على الأبدية والموت، والذي يمكن أن يحل في أي لحظة وقد تكون غداً! قد تؤدي هذه العلاقة المتناقضة في الظاهر إلى أن تُفهم كوصفة للتعطيل والتوكيل والتسليم الحكيم!

لكن في الواقع هذا الأمر غير ممكن التطبيق، وهذا ما تلمسه بعض العلماء الذين نفوا وترفعوا عن نسبته إلى النبي، لأنه يضع المؤمنين في حالة من الارتباك والحيرة في أمور حياتهم وآخرتهم!

وكان الحل لدى البعض بالحديث عن فساد اعتماد أي شطر من هذا القول لوحده والتمادي به على حساب الشطر الثاني، وإنما المطلوب هو عملية الموازنة والاتزان فيما بين عمل الدنيا وعمل الآخرة، وألا يطغى أيٌّ منهما على الآخر.

وهذا، من دون تبيان طبيعة هذه العلاقة المركبة ما بين شطري هذا القول، ومن دون الغوص في عمق المعاني والدلالات الكامنة خلف ظاهره الذي كان مدعاة هذه الالتباسات الكبيرة في تفسيره.

غير أننا لو تابعنا السير في خط المعادلة الرياضية التي وضعناها آنفاً لانتبهنا أن وظيفة الشطر الثاني هي بمثابة المعادل المتناظر للميزان، أو بمثابة عقرب الساعة، وهو في الحقيقة ليس إلاّ «باندول» زمني يهدف إلى ضبط ساعة العمل في حياة الإنسان. كما سيتبين معنا أن وظيفة الشطر الثاني محمولة ومضمرة على معنى ضبط الإيقاع الزمني الذي كان مفتوحاً في الشطر الأول فجاء الشطر الثاني لكي يصوّب هذه العلاقة وفق الثابت في هذه المعادلة أي ((عمل الدنيا)) في الشطر الأول كذا يُفترض أن يكون في الشطر الثاني وهو ((عمل الآخرة)) الذي لا يمكن أن يكون المقصود به هو العمل الفردي المشاع عن «عمل الآخرة»، الذي يؤديه الفرد ويبتغي منه نيل خلاصه الفردي في الآخرة! لا، لا أعتقد أنّ هذا هو المقصود، لا بل إن المعنى أعمق وأبعد من ذلك بكثير، ولا أجد مخرجاً أو تفسيراً له، إلاّ أن يكون العمل المقصود في الشطر الأول يوازي ويساوي لا بل هو نفسه العمل الموجود في الشطر الثاني، وهو الثابت الذي لا يتغير، أي:

((عمل الدنيا)) = ((عمل الآخرة)).

إذ من غير الجائز والمنطقي أن يقوم الإنسان بعملين متناقضين في الجوهر في آن واحد!! وإلاّ وقعنا في انفصام الشخصية وفي الدور، أو تمثيل الأدوار المواربة بغية كسب الخلاص الفردي، بمعزل عن الصالح الجماعي العام، وفي هذا أنانية مستغربة، لا أحسب أنّ الأخلاق السماوية والأرضية السويّة والعادلة ترمي إليها.

بمعنى؛ أنّ العمل الذي ينتج الإنسان منه معاشه، لا بد له بالضرورة أن يكون عملاً صالحاً وفيه الخير والمنفعة له وللمجتمع. وخير ما يدعم هذه الفكرة هو قول الإمام الصادق بهذا السياق:

«لا خير فيمن لا يجمع المال من حلال، يكفّ به وجهه، ويقضي به دينه، ويصل به رحمه. وقال له رجل: إنا لنطلب الدنيا ونحب أن نؤتاها، فسأله: ماذا تحب أن تصنع بها؟ فأجابه: أعود بها على نفسي وعيالي، وأصِلُ بها، وأتصدق بها، وأحج وأعتمر. فقال له الصادق: ليس هذا طلب الدنيا، هذا طلب الآخرة»[1]

وهكذا فإننا وفق المعادلة المساعدة التي افترضناها، والتي تفيد الإنسان في احتساب قيمة العمل والإعلاء من شأنه شريطة أن يوازن ما بين طغيان السعي الفردي والعمران والبنيان والتأسيس والإنتاج المفتوح في الزمن، وضبط حالات الإسراف والتعسف والإفراط في

---

(1) أخلاق أهل البيت (ع)، مهدي الصدر ص 133.

التبذير ومظاهر البذخ والبطر وفق معيار الفقد أو القحط وأوقات الشدّة التي قد تداهم الإنسان، وقد عبَّر عنها هذا الحديث بأقسى حد معروف؛ أي «الموت الداهم». لتصب في نهاية المطاف في صالح المجموع ككلٍّ إنسانيٍّ واحد.

بمعنى؛ أن العمل الفردي في الحياة إن لم يكن صالحاً له وللمجموع فهو عمل غير مشروع وغير مقبول، إذ لا يمكن أن يكون عمله الفردي مصلحة له وحده، حتى لو على ضرر المجموع. فالأصل الموقوف في هذا القول هو الصلاح الفردي الأرضي بمقدار ما هو صلاح في الآخرة، التي تأتي هنا بالمعنى المجازي الأخلاقي الذي يعصم ويضبط هذه العلاقة ويعقدها بإحكام.

بمعنى أن الإنسان وأثناء سعيه في عمله، يعمل ويستغرق في عمله وينسى الزمن، وقد يطغى ويشطح أو تخوّل له نفسه التمادي والتطرف في الربح والجني، فيأتي المقطع الثاني لينبهه إلى هذه الساعة أو الميقات الزمني الأخلاقي الذي يذكره بعمل الآخرة، بما هي عمل في صالح المجموع الكلي!

وبهذا المعنى يكون الزمن المقصود في الشطر الأول هو كحال عداد الموسيقى الذي يمثل الوحدة الزمنية وفق المقياس الموسيقي الأشهر 4/4، حيث يوجد أربع دقات في كل وزن، وكل ربع نغمة تساوي دقة.. فعند مرور أربع دقات يذّكره زمن الشطر الثاني، تماماً

كما يفعل ضابط الإيقاع في الفرقة الموسيقية، إذ يضبط عزف وحركة العازفين أن لا يشطح كل عازفٍ منهم على هواه!

وقد يفيدنا بهذا السياق التحليل النفسي الذي وضعه فرويد حيال الأنا والهو أو «الحال»، والأنا الأعلى بما هو ذلك الرف السميك من الأخلاق والتقاليد التي يضعها المجتمع في حيال الأنا بما هو الكائن المدرك لمشاعره، و«الهو» أي رغباته الغرائزية اللاواعية والمكبوتة. فإننا يمكننا القول بكثيرٍ من الثقة، أن الشطر الأول يمثل «أنا» الإنسان و«الهو» أي رغباته وغرائزه اللاواعية، فيما يشكل الشطر الثاني «الأنا الأعلى» بما هو الرادع الأخلاقي الذي يعصم الأنا ورغباتها عن الزلل والشطح[1]

هكذا، كما رأينا في سياق هذه السطور، أنه بات بالإمكان فهم ميل كثيرين من «الشيعة» إلى الأخذ بهذا القول واستعماله بكثرة بيّنة، عن أترابهم «السُّنة»، كونهم كانوا أقلية تعاني المضايقة والاضطهاد في أكثر مراحل تاريخها، فكان هذا القول يناسب نفسيتها و«مزاجها» العام، أو «عقلها الجمعي»، كونه يدفع ويصب في رغبتها في الانكباب على العمل الاقتصادي المنتج. الأمر الذي كان يشكل لها

([1]) سيغموند فرويد، الأنا والهو، دار الشروق، لبنان–بيروت، ط1، 1954، ص 40-42.

ملاذاً من سطوة حكم الأكثرية، وحافظت عليه كذلك حتى في الحالات التي كانت فيها هي «الأكثرية» في مواضعها أو هي الحاكمة.

كما هو الحال في أيامنا هذه في العراق وإيران ولبنان، فنحن نرى رواج هذا القول وانتشاره بشكل واسع في أوساط المسلمين «الشيعة». وهذا ما قد يرتبط بأوجه شبه كبيرة، ليس فقط مع أخلاق جماعات «فيبر» البروتستانتية، التي أرجع إليها فضل بروز الظاهرة الرأسمالية، وإنما أيضاً إلى لبنات التفكير العقلاني والإنساني بشكل عام.

عندما تقتل الضحية نفسها مرةً وتستأصل أشلاءها
نظرة في أزمة الأخلاق العربية

بلى، عندما تقتل الضحية نفسها مرتين وثلاث مرات، وتعيد قتلها كذلك مرات كثيرة، ينبغي حينها على الضحية أن تعيد تعريف ذاتها والتعرُّف على ذاتها في التاريخ وفي العقل وفي الوجود الحاضري.

بلى، عندما تقتل الضحية جنازتها مرة أخرى، وكأنها تُشكك في موتها الأول، ينبغي أن تعيد هذه الضحية التعرُّف على ذاتها.

بلى، عندما لا تحرك ضمائرنا صور قتلانا المقطَّعة على الشاشات، ينبغي حينها على ذات الضحية أن تعيد مراجعة هويتها ومحاكمة ثقافتها ودرسها من جديد.

في دراسات نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، حمل بعض المستشرقين على لغتنا العربية خلوّها من مصطلح أو كلمة «الضمير»، وذلك وفق مفهوم تداوله المركزي الغربي عموماً، أي بمعنى «الضمير الأخلاقي»، أي المنبع الأول لكل أخلاق، وهذا صحيح، ولكن هذا لا يجب أن يعني أن غياب المصطلح يعني

بالضرورة غياب المفهوم، وهذا هو رأي كثيرين من المستشرقين أنفسهم كحال إغناز غولدتسيهر وغيره[1]

بلى، عندما يتحوَّل الجهاد من جهاد النفس كما أعرفه إلى جهاد لقتل النفس، ينبغي على هذه الضحية أن تعيد تعريف الجهاد.

ثم بلى، عندما تفرز ثقافتنا المعاصرة ظاهرة التطرُّف والانتحار واليأس على نطاق واسع، وعندما نجد ثلَّة من الأقلام والأعلام ممّن يتنطحون، إمّا بالسكوت أو بغضِّ الطرف، وصولاً إلى اجتراح التبريرات لثقافة النحر وقطع الرؤوس وتطاير الأشلاء، ينبغي أن نسأل عن مآل الأخلاق في ثقافتنا، ولماذا غابت المباحث والإسهامات في هذا المضمار؟ ولكن، لا شك أن ثقافتنا المعاصرة زخرت ببعض الإسهامات الجديرة بالتوقف عندها.

من هذه المساهمات الجادة، نتوقف عند كتاب الدكتور محمد عابد الجابري «العقل الأخلاقي العربي» الذي يحاول الكاتب فيه القول بوجود خيوط ومحاولات مرّت في تراثنا بهذا الصدد يمكن التأسيس والبناء عليها في سبيل بلورة فكر أخلاقي عربي يكون خالصاً من التداخلات والتأثيرات التي ترتَّبت على انتشار الإسلام في دول وثقافات غير عربية مجاورة، فتراه ينحو باتجاه استئصال أو إقصاء

([1]) أورده الجابري، العقل الأخلاقي العربي، ط1، 2001، ص 120.

أسماء وأعلام كبار كان لهم دور كبير في إعلاء شأن العربية وثقافتها، وذلك على رغم أصولهم الأعجمية.

ينطلق الجابري في كتابه من دحض مقولة غياب علم أخلاق عربي، أو مباحث منهجية على طريقة أهل الفلسفة والعلوم، وليس على طريقة الفقهاء ورجال الدين، وبأن التسويق لمقولة عدم قيام علم للأخلاق في الثقافة العربية على غرار العلوم الأخرى، قد ترتب عن الإذعان والانسياق وراء طُرق التفكير ومنهجية البحث التي فرضها السياق اليوناني الأوروبي[1] على ثقافتنا، وذلك دون إجراء أية أبحاث تؤكد هذا الحكم.

فلذلك ينبري الجابري لكشف زيف هذا الحكم عبر استقصاء مراحل فكرية ومحطات فكرية في ثقافتنا ليخلص إلى وجود مثل هذه المباحث المؤسسة لقيام مثل هكذا علمٍ للأخلاق. على غرار تلك المباحث والفروع المعرفية التي تزخر بها الفلسفة في المجتمعات الغربية.

ويعتمد الجابري في مشروعه الأخلاقي العربي الجديد على مشرط حاد وقاسم، وتأصيلي، يزيح أو يسعى لاستئصال كل داخل أو متداخل «غريب»، بمشهدٍ يُذكرنا بتلك الكتابات التي حفل بها تراثنا

([1]) الجابري المصدر السابق نفسه، ص 123.

وكانت تتطرق إلى ظاهرة الشعوبية، والعجم والعرب، كحال الجاحظ وغيره..

وهكذا تغدو أسماء لامعة في ثقافتنا مطروحة على مشرط الإقصاء والإبعاد، أمثال مسكويه وابن المقفع وغيرهم.

أزمة القيم:

يؤسس الجابري مشروعه الأخلاقي العربي على نقطتين مركزيتين، الفتنة الكبرى في عهد عثمان وما نتج عنها من انقسام سياسي سيفتح الباب أمام الأمويين الذين لم يكونوا ليجدوا في حل واصل بن عطاء بـ «المنزلة بين المنزلتين» حلاً أو مخرجاً سياسياً يناسبهم، لهذا كان لا بدَّ من سبيل آخر، وهو ما يسميه الجابري بـ «قيم الطاعة». والمقصود بذلك أن طاعة الحاكم من طاعة الله (أي الربط بين الدين والمُلك)، وهذا ما كان يوفره الموروث الفارسي[1] وما كان يتوجب سوى إلباس هذه القيم ثوب الإسلام وهذا ما قام به الأمويون.

ولا شك أيضاً، أن ثمة تضخيمٌ عظيمٌ للذات تعاني منه ثقافتنا المأزومة، فهي تُصوّر الواقع على أنها محط أنظار الدول الغربية، وأنها مستهدفة بحد ذاتها، وذلك لأنها تُشكِّل خطراً حضارياً واقتصادياً وما شابه على الحضارة الغربية. وفي هذا شطط ما بعده شطط. ولربما تكفي نظرة واحدة بهذا الصدد، إلى الوقائع الاقتصادية العالمية

(1) م.ن. ص 126.

لتؤكد زيف هذه المزاعم، فالخطر الذي تستشعر به أوروبا وأميركا، ليس من العرب ولا حتى من الدول الإسلامية، وإنما الخطر يتأتى من دول آسيا الصاعدة كالصين والهند، فبماذا يُهدد العرب والمسلمون الحضارات الأخرى؟ أبالعلوم والنهضات الاقتصادية والصناعات؟! نعم ثمة تهديد تستشعره تلك الدول؛ منشؤه التطرُّف الإسلامي، وهذا لا يشكل تهديداً حضارياً بالمعنى الكامل للكلمة، وإن كان يحلو لبعض الدوائر في الغرب أن تهوّل من هذا الخطر، وذلك خدمة لمصالحها ولأجندتها في زيادة التسلُّح أو لغايات سياسية متطرفة أيضاً تجاه الإسلام، خاصة في الشق الذي يتعلق بموضوع «إسرائيل». لكن في واقع الحال هذا الخطر الإسلامي المتطرّف إضافة إلى أنه يصبّ في خدمة هؤلاء الذين أشرنا إليهم فإنه يسيء أيضاً إلى صورة الإسلام والمسلمين عموماً، وإلى أولئك الذين يقيمون في الغرب بشكل خاص.

أمّا حقيقة هذا التهويل ومدى فاعلية أو مردودية مثل هذا التطرُّف الإسلامي في أوروبا والغرب عموماً، وكذلك في مناطق أخرى من العالم، فهذه لا يمكن لها أن تشكِّل بأي حال تهديداً جدِّياً أو حضاريا، وإنما في أقصى الحالات، زيادة من إجراءات الأمن وتعديل القوانين، وذلك على حساب الحريات الشخصية والحقوق، وتضييق الخناق على تواجد المسلمين والعرب في الدول الغربية، هذا التواجد الذي بات يشتمل على عدة ملايين من الأشخاص الذين يعيشون هنا، وما تشكِّلها هذه الجاليات الإسلامية من قيمة وأهمية اقتصادية واجتماعية.

وأقل ما يُذكر في هذا السياق هو حجم المساعدات التي يقدمها هؤلاء لأهلهم وأوطانهم الأصلية، إضافة إلى تنامي وتطور أدوارهم في المجتمعات الغربية التي يعيشون بها.

خطر الإرهاب والتطرف الإسلامي بات يُضاف هنا (في الغرب) إلى جملة المخاوف واحتمالات الكوارث الطبيعية الناجمة عن تقلّبات المناخ أو الأمراض الحديثة التي تنتشر كإنفلونزا الطيور وما شابه.. وهذا يعني أن هذه المجتمعات باتت تتكيّف مع هذه الأخطار وتتأقلم مع متطلباتها الأمنية والقانونية وما شابه.

وباتت تالياً تتعايش مع هذه الأخطار والتهديدات على أنها أحد مظاهر العولمة والعصر الحديثة.

فكارثة تسونامي وإعصار كاترينا أو كيريل الذي ضرب مؤخراً دولاً أوروبية عديدة، هذه أيضاً تُعد نوعاً من أنواع «إرهاب الطبيعة» المباغت، والذي تتهيأ المجتمعات الغربية له، كما تفعل في حالات الإرهاب السياسي وغيره..

يبقى أن ما يلفت في هذا السياق هو تبلّد وبرودة ردات الفعل العربية والإسلامية حيال هذه الكوارث، وكذلك حيال صور القتل اليومية. تطرح أسئلة جدِّية وجذرية على آليات الوعي وبُنى الأخلاق في ثقافتنا، وتضع بالتالي مشروع ومنطلقات الجابري وغيره في

التنامي الفعلي لسلَّم القيم في مجتمعاتنا وفي خارج سياق حراكها وأشكال تبلورها..

التبرير الذي يسوقه بعض الكتاب والمبررين لهذه الأعمال، وتسويقها على أنها ردَّات فعل على القهر والفقر والاضطهاد، إنما لا تؤيدها أصول ومنابت نسب عالية من المنتحرين الذي تدلُّ على أوضاع اجتماعية وتعليمية عالية.

لعلّ أحداث لندن التي جرت مؤخراً خير دليل هذا الأمر، إذ أن جميع المنفذين هم من الأطباء أو العاملين في المجال الطبي في مستشفيات لندن..

أمّا التعليل لهذه الظاهرة بأنها من نتاج الاستعمار والعولمة، فهذا القول أيضاً لا يصمد أمام التحليل. فهناك دول مثل الصين وكوريا والهند عانت من الاستعمار، ولكنها تنجح في تحديات العولمة وتدخل في عالم المناسبة، وقد انتزعت الصين مؤخراً المرتبة الاقتصادية الثالثة عالمياً من ألمانيا...

هل فعلاً شعار: (الإسلام هو الحل)، هو الحل؟!

في خضم ما عُرف بثورات «الربيع العربي» وانتشار شعارات «ارحل»، و«الشعب يريد إسقاط النظام!»، فيما الجماهير تتسيّد الساحات في ميدان التحرير في القاهرة، سألني أحد الأصدقاء الذي يكبرني سناً ممّن كان لهم في شبابهم النشاط السياسي في سياق ما كان يُعرف بـ «القوميين العرب»، سألني رأيي فيما يدور في مصر، وقد كانت الأمور تتجه نحو الانتخابات، وكان مرسي مرشحاً للرئاسة، وقال: «انظر هذا الإسلام السياسي المتواطئ مع أمريكا يريد أن يأخذ مصر ومن بعدها العالم العربي والإسلامي كله!» وتحدّث بشيء من النبض المقهور الذي يشي بضرورة مواجهة هذا الأمر المستطير. أذكر أنني قلت له حينها ما بدا أنه زاد في اضطرابه وحنقه: «لماذا لا نترك الإسلام السياسي يجرب حظه في الحكم! هذا التيار الذي ينتشر في كل المنطقة الإسلامية منذ أكثر من قرن! فليعطَ الفرصة، ولنرَ كيف سيُبلي في السياسة! فالجميع جرَّب حظه في حكمنا؛ القوميون، والليبراليون، والاشتراكيون، والوطنيون.. وهذه هي النتيجة، ولم يبقَ إلاّ هذا التيار الذي لا ينفك يملأ الدنيا بحديث المظلومية والتضييق والإعدامات والسجون، فليأخذ فرصته لنرى ماذا يكون!».

لا تزال نظرته لا تفارق ذاكرتي، كيف فتح عينيه على وسعهما، وقال: «تريد أن يحكم الإسلاميون!! ألا تعرف إلى ماذا سيحولون هذه الواحات الحضرية، إنهم سيحولونها إلى صحراء خاوية وجدباء كما رأينا في أفغانستان والسودان والصومال!» فقلت له: «لدينا النموذج التركي، وهو على الأرجح ما يتم التسويق له في هذه الأيام، بالتنسيق مع إدارة أوباما، والتي باتت هي الأخرى «إخوانية»، فيما يبدو بالمقابل أن الجمهوريين صاروا «سلفيين»!».

وهكذا؛ لأيامنا هذه يمكن فهم وإدراج انسحاب الأمريكيين من أفغانستان وفق مقتضيات اتفاق الدوحة فيما بينهم وبين طالبان، وتسليمهم بالتالي وفق هذا الاتفاق الحكم في أفغانستان لها، إلاّ الدليل على هذا التعاون الوثيق، والذي سوف يضم إليه دولاً جارة كثيرة، ومن غير المستبعد أن تكون إيران واحدةً منها، وذلك في سياق المشروع الأمريكي للتضييق والتخفيف من وطأة زحف «التنين الصيني».

أمّا مشهد الطائرة وهي تقلع ويفلت من بين عجلاتها أحد المتعاونين مع المحتلين الراحلين الذي كان يتشبث بعجلاتها، أو بعض مشاهد إطلاق الصواريخ على بعض العتاد الأمريكي الذي تركه «العم سام»، وكذلك عملية تصفية زعيم «القاعدة» أيمن الظواهري التي جرت مؤخراً وفي قلب المنطقة الخضراء، فإنّ كل هذه المظاهر و«الأحداث، ما هي إلاّ تبادل خدمات وأدوار. وكأنها

«زوابع رملية» في فنجان. هدفها ذر الرماد في عيون البسطاء والساذجين من شعب وجمهور الطرفين بأنهما على عداوة مستطيرة!!

وفكرت فيما بعد في هذه الجرأة لدى هذا التيار الذي تتّطح ليطرح نفسه خياراً حضارياً كونياً لفراغٍ يفترض وجوده أو ما أُشيع في الغرب وأدبياته المتنوعة حول الفراغ أو الخواء الروحي الذي بات الغرب يعاني منه، خاصةً بعد الغربة التي فرضتها حالة القطيعة مع الموروث القديم، وخاصة مع الدين بشكل عام والذي تمثل بالكنيسة، وسيادة الدول العلمانية والنظرة العلمية للمعرفة والعلوم والفنون، والقول بإن الإنسان صار يعيش غربة عن نفسه، وعن العالم، وظهرت النظريات الوجودية التي تبحث في معنى وغاية هذا الوجود الفردي، وانتشرت النظريات الوجودية الملحدة وغيرها.

وفيما ظهرت النظريات السياسية والاقتصادية في الغرب وتوزعت ما بين شرق «اشتراكي»، وغربٍ «رأسمالي» ظهر هذا الفكر الإسلامي ليقدم نفسه بديلاً عن كل هؤلاء بعد أن قدم نعياً أو فشلاً لمسيرة الرجل الغربي وحضارته التي يصفها بالجاهلية، أمّا صفة «الحضارة»، فلا يمكن إطلاقها ولا تتضمن مفهوم ومعنى ومضمون الحضارة الفعلي إلاّ على الإسلام..

وقد شكل مفهوم «الإسلام السياسي»، ممثلاً بالإخوان المسلمين والسلفيين، في شتى المذاهب، سنةً وشيعة، وهم فروع لذات الأصل، إطاراً جامعاً لكل التيارات والحركات الإسلامية المعاصرة. وقد بدأ هذا

التيار بالتمظهر والظهور منذ ما بعد نهاية الخلافة ونهاية السلطنة العثمانية. وحمل لواء الإسلام كدين ودولة، في مواجهة الأفكار التي راحت تنتشر في بلادنا غداة صدمة احتكاكنا بالغرب -(على الرغم من أن التفاعل بين الحضارات والأفكار منذ اليونان فالفلاسفة العرب، والفلسفة الشرقية وصولاً لعصر النهضة الأوروبية، كان موجوداً على الدوام)- فظهرت النظريات والأفكار السياسية والاقتصادية والاجتماعية الحديثة، كالاشتراكية والقومية والليبرالية. فيما برزت في منطقتنا أحزاب وتيارات سياسية تستلهم وترفد من تلك الأفكار التي نهضت في أوروبا القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين. غير أنّ هذا التيار الإسلامي، قد اتخذ من الإسلام السياسي أيديولوجيةً مبسَّطة، واعتبر أنّ الإسلام هو الحل. وهكذا ظهرت معالم طريق هذا الخيار.

ولنأخذ على سبيل المثال سيد قطب، الذي يُعدُ خير معبِّرٍ عن أدبيات وفكر الإسلام السياسي، ويعد من أبرز مفكريه. فها هو يفتتح كتابه «معالم في الطريق»، بهذه العبارات:

«إن قيادة الرجل الغربي للبشرية قد أوشكت على الزوال.. لا لأن الحضارة الغربية قد أفلست مادياً أو ضعفت من ناحية القوة

الاقتصادية والعسكرية.. ولكن لأن النظام الغربي قد انتهى دوره، لأنه لم يعد يملك رصيداً من «القيم» يسمح له بالقيادة.» [1]

وقد انتشرت هذه الأفكار في بلادٍ كثيرة، لكنها عجزت عن أن تشكل وعياً وحركة تغيير اجتماعية ورافعة لحراك سياسي واجتماعي حقيقي، لأنها لا تملك في بنيتها وفي خطابها هذا المشروع الحديث والجديد الذي يمكن له أن يشفي هذه «الأمة» من وهنها وأمراضها الكسولة. ويرَشّد الحكم والحاكم والرعية، لكنه عوضاً عن ذلك كان حالة ارتكاسيةّ وسلبيةً في هذه المجتمعات وعامل انقسام وتوتر أكثر منه عامل استقرار ودفع نحو الأمام في عجلة التنمية الاقتصادية والسياسية والاجتماعية. فكان في خصام شبه دائم مع المجتمع الذي كفَّره واعتبره عاصياً وضالاً لانغماسه في الحياة المعاصرة، والتي مصدرها الغرب الكافر.. وذلك على الرغم من مكوث أغلب رموز هذا التيار في هذا «الغرب الكافر» نفسه!!

وهكذا لا يوفر قطب أبرز سمات المجتمعات الأوروبي أي «الديمقراطية»، ويرى بأنها أفلست وصارت تقتبس من أنظمة المعسكر الاشتراكي الذي يرى كذلك تراجع حال المعسكر الشرقي نفسه وتحولها إلى شكل للحكم في الدولة بعد أن كانت فكرة. وفي

([1]) سيد قطب، معالم في الطريق، دار دمشق للطباعة والنشر والتوزيع، دون تاريخ، ص 4.

مقدمها الماركسية التي جذبت في أول عهدها الكثيرين في الشرق والغرب على حد سواء، باعتبارها «مذهباً يحمل طابع العقيدة»[1]

ولكن في الواقع لم نجد أن هذه التيارات الإسلامية السياسية قد وقفت من كل الوعاء الأوروبي على مسافة واحدة، فهي اعتبرت نفسها وريثة شرعية للعبقرية الغربية التي أنتجت كل هذا التقدم التقني، والذي على الإسلام السياسي المنشود أن يحافظ عليه ولكن دون أن يحمل الأفكار العلمانية التي ترافقت معه، وبالتالي ليس عليه سوى إلباس هذا «الجسد الأوروبي الخاوي من الروح»، الطقم «القيمي» الروحي الإسلامي الذي سيشكل الخلاص للبشرية من «شقوة الجاهلية». فها هو يقول، مدللاً على هذه الفكرة:

«لابد من قيادة تملك إبقاء وتنمية الحضارة المادية التي وصلت إليها البشرية، عن طريق العبقرية الأوروبية في الإبداع المادي، وتزود البشرية بقيم جديدة جدة كاملة – بالقياس إلى ما عرفته البشرية– وبمنهج أصيل وإيجابي وواقعي في الوقت ذاته. والإسلام – وحده – هو الذي يملك تلك القيم وهذا المنهج...» [2]

---

(1) م . ن. ص3.

(2) المصدر السابق نفسه، ص4

ففي حين نراه يعترف ويسلم بهذه «العبقرية» الغربية، إلاّ إنه يدعو لنوع من العبقرية الإسلامية المشابهة لها والقادرة على وراثتها وإكمال ما انتهت إليه. ولكن وفق منهج أصيل ومزود بقيم جديدة.

«لقد أدت النهضة العلمية دورها.. كذلك أدت «الوطنية» و«القومية» التي برزت في تلك الفترة، والتجمعات الإقليمية عامة دورها خلال هذه القرون.. ولم تعد تملك هي الأخرى رصيداً جديداً.

ثم فشلت الأنظمة الفردية والأنظمة الجماعية في نهاية المطاف.

ولقد جاء دور «الإسلام»[1]

وفيما يرى أنّ النهضة العلمية قد أدت دورها وانتهت كما فشلت كل الأنظمة الغربية من فردية وجماعية وقد جاء دور الإسلام، الذي عليه لكي ينجح في المهمة الملقاة على عاتقه أن يتشكل في أمّة. وهذا ما يعبر عنه بقوله:

«ولكن الإسلام لا يملك أن يؤدي دوره إلاّ أن يتمثل في مجتمع، أي أن يتمثل في أمة.. فالبشرية لا تستمع – وبخاصة في هذا الزمان– إلى عقيدة مجردة، لا ترى مصداقها الواقعي في حياة مشهودة ووجود الأمة المسلمة يعتبر قد انقطع منذ قرون كثيرة..»[2]

---

(1) م. ن. ص 5.

(2) م. ن. ص 6.

أمّا ما يحتاجه هذا الدين وعجزتم أن تقدموه له ولهذه الأمة، هو التجديد والإصلاح والتنوير المطلوب، فيما شاب هذا التراث الديني عبر هذه القرون الطويلة من شوائب وأفكار قديمة بالية وممارسات مسيئة وسجالات ونزاعات وقتل وحروب ومراحل ازدهار وانحطاط، عوضاً عن ذلك كله، استعدتم القديم كما هو ولم تُعملوا مبرد النقد والتحديث فيه ولا في مناهجكم ولا في أفكاركم، فكيف ستكونون من مشاريع مستقبل هذه الأمة المستقبلية ما لم تكونوا منفتحين على التجديد والتغيير والإصلاح والانفتاح على الآخر! هذا إن كنتم تريدون أن تكونوا جزءاً من الحل وليس المشكلة!؟

وفيما يضيف سيد قطب، «ولا بد من «إعادة وجود» هذه «الأمة» لكي يؤدي الإسلام دوره المرتقب في قيادة البشرية مرة أخرى... لابد من «بعث» لتلك الأمة التي واراها ركام الأجيال، وركام التصورات، وركام الأوضاع، وركام الأنظمة، التي لا صلة لها بالإسلام ولا بالمنهج الإسلامي..»[1]

نجد أنّ هذه التمنيات قد تحققت بالفعل، فقد تسنى لهم الوصول للحكم في عدة بلدان إسلامية؛ كتركيا، وإيران، وأفغانستان، وغيرها..

(1) م. ن. ص 6.

وكانت تجاربهم متفاوتة، لكن في أغلب دول المشرق والمغرب العربي، كانت فاشلة.

وأبرز مثال على هذا الفشل الذريع ما جرى في مصر بعد أن تأكد للشعب المصري عته أفكارهم وغلاظة طرائقهم، فنزل الشعب المصري بملايينه يطالب برحيلهم، بعد أن اتضح له عقم وقصور هذا التيار عن الحكم.

كثيرة هي الأسئلة المشروعة التي يتوجب طرحها على حَمَلَة هذا الفكر الإسلامي بشقيه السني والشيعي، الإخواني والسلفي مثال: ما هو مشروعكم الحضاري للمنطقة؟ وما هي إنجازاتكم العظيمة التي قدمتموها لهذه الشعوب؟! وهل يكفي أن ترفع شعاراً يرمز لدين ما لكي يكون لديك مشروعاً فكرياً وحضارياً تقدمه للعالم؟!

حضارة القلق

في مطلع القرن المنصرم أصدر (سيغموند فرويد) كتابه الشهير «قلق في الحضارة»[1]، وقد ألَّفه على خلفية المآسي الكبيرة التي خلفتها الحرب العالمية الأولى في أوروبا.. وحاول فيه أن يفسر ظاهرة العدوانية لدى البشر.. وكان القلق يلف مصير الحضارة ويتربص بها، إذ تقاتلت كبريات الأمم الأوروبية فيما بينها. وبدا أنَّ العالم ما إن ينتهي من نزاع إلا ويحضِّر ويبني أو يؤسس لآخر قادم لا محالة..

القلق كمفهوم نفسي قد يطلق على الأفراد عندما تتحكم بالفرد عوامل الاضطراب وعدم الاستقرار وانعدام الشعور بالأمان، لكن عندما يطلق هذا الوصف على الحضارة عامة، فهذا يعني أنَّ حالة من الاضطراب والتوتر تسود البشر جميعهم أو جزءاً كبيراً منهم.

لا أحد يعرف أو يمكن أن يعطي تاريخاً دقيقاً لميلاد القلق لدى الأفراد، فكيف بالمجموع؟ ولو نظرنا إلى تاريخ البشر أو الحياة والكواكب والنجوم والأرض والأزمان المعطاة لعمر الإنسان على الأرض، لوقع العاقل بلا شك في ريبة من أمره...

([1]) سيغموند فرويد، قلق في الحضارة، ترجمة جورج طرابيشي، دار الطليعة، ط1، 1977، بيروت–لبنان.

ملايين وآلاف السنين سبقت تاريخ العصور الحديثة التي نعرف الكثير عنها ونجهل الكثير الكثير، فيما لا نفقه من حياة أو طرائق تفكير أسلافنا القدماء إلا النُّزُرَ القليل. وكلما أوغلنا في القِدم؛ كلما تعمَّق جهلنا بحياة تلك الأقوام والمجموعات البشرية، وأطبق، فلا تسعفنا على تحديد أعمارها وأشكالها سوى بعض الهياكل المنثورة هنا أو هناك، فينحو بنا العلم تارة شطر تأكيد نظرية أسلافنا القرود والكائنات الغريبة والمهولة كالديناصورات والطيور الضخمة، وتارة تشدنا الأديان السماوية إلى روايتها وثوابتها عن الوجود والعالم؛ فتجعل القرود أسلافاً لنا مسخهم الله عبرة للبشر.

أقل من أربعة آلاف سنة هي عمر حضارتنا المعاصرة كلها، أما حياتنا العصرية الحديثة بكل هواتفها وطائراتها وصواريخها وسياراتها وعلومها، فهي وليدة القرون الخمسة الأخيرة منها فقط...

لا شك أنها برهة وجيزة في حسابات الزمن وأعمار الكواكب والنجوم والعالم، تراءى للإنسان فيها أنَّه سيطر على الطبيعة وقبض على قوانينها، وأنَّه سيد نفسه وربما العالم، وأنَّه فكَّك ألغاز الوجود وبعض أسرار الحياة..

لا شك أنَّ نظريات كثيرة قيلت بصدد تفتح العقل وانبلاج عصور العلم في هذه المرحلة من عمر الإنسان وحضارته. فيرى التطوريون

أنها خلاصة التطور المطَّرد والمتواصل. فيما لا يرى آخرون فيها شيئاً سوى دلالة على غطرسة الإنسان وطغيانه.

القلق اليوم يغزو الكثير من مجتمعات الأرض، قلق اقتصادي، اجتماعي، سياسي، صحي، بيئي وفكري، وجودي، وإنساني.. بعض المجتمعات تقلق بشأن وجودها، والبعض الآخر من أجل حدودها، ومنها أيضاً ما يقلق أو يعجز عن تشكيل حكومته، كحالنا. وإن كان تشكيل الحكومات أمراً بالغ الأهمية والضغط بالنسبة لتسيير أمور العباد والبلاد. وإن كان بالنسبة للفلاسفة أو أولئك الذين يهزؤون بانشغالات الناس التافهة بنظرهم حيال أمورهم اليومية ومشاكلهم العاطفية والأسرية من غيرة، وحسد، وتبديل سيارات وملابس أنيقة وأثاث، ويضعون ذلك كله في منزلة السوق والعامة التي تغفل عن الأسئلة ذات العيار الثقيل؛ كتلك التي تطال أصل الكون والأسباب الخلفية لتنزيل الإنسان إلى الأرض، وبلائه بهذا الشقاء أو الهناء الآدمي وفق اختلافات وجهات النظر.

ما معنى هذه الحياة المنفردة على هذا الكويكب الصخري والصاخب بكل هذه المشاكل والانبعاثات الفكرية والحرارية، في مقابل هذا الاتساع الهائل من المدى الكوني اللانهائي؟

لقد شغلت هذه الأسئلة الدماغ البشري منذ آلاف السنين، وأنتجت أطناناً من الورق الذي نقل هذه الإجابات والمعارف المكتسبة بالجهد

البشري خارج إطار العقل؛ لتحفظه من الفناء والزوال مع زوال مبدعيها من المصريين واليونانيين والعرب في عصرهم الذهبي، إلى أوروبا الحديثة مروراً بالصين والهند.. إجابات ونظريات غدا أكثرها مواداً دراسية في المعرفة وتاريخ العلوم. غير أنَّ أسئلة شعبية باتت داهمة ومباغتة أوقعتني في حيرة من أمري، كحال سؤال صديقي: كيف تزاوج وأنجب أبناء آدم وحواء وهم أخوة من أم وأب واحد، وهذا ما تنهى عنه الأديان؟ حقيقة لم أفكر بهذا الأمر أبداً، وجدلتُ شفتيَّ دلالة عدم معرفتي وجهلي المطبق بالأمر.. ثم دعوته إلى الكفّ عن طرح هذه الأسئلة المربكة وخاصة على هذه الأوتوسترادات السريعة هنا في ألمانيا...

وعادة ما تنتاب صديقي هذه النوبات الفلسفية مع ساعات الصباح الأولى، فغالباً ما يستعيد فيها ذكرياته مع ابن أخيه الذي توفّيَ قبل سنوات.. إنَّه الموت إذاً الذي يستدعي هذه الأسئلة الوجودية. أما عن علاقات هذا النوع من التفكير بأوقات الصباح فلا بد أن يكون تفسير الأمر مرتبطاً بمسألة الاستيقاظ واستقبال الحياة من جديد، فيسعى العقل إلى إعادة مركزة نفسه في محيطه وإدراك نفسه، وما ينتظره من أدوار، وأفعال، ومواعيد، والتزامات.

تُرى ألهذا يفكر في جدوى ما يقوم به، ويعيد تقييم حاله على هذا المنوال! العمل، الإنجاز، الرضا، السعادة، الإحساس بالوجود والفعالية والقيمة.. تراها أهم ما تثير اضطرابات الإنسان عامة، هذا ما أحدِّث

به كلما تذكرت (بأول) زميلنا في العمل في تلك الشركة منذ سنوات، وقد كان يلف على العمال محيياً هذا ومازحاً مع تلك، ولا ينسى أن يذكرهم بالأيام والساعات وحتى الدقائق المتبقية له لبلوغ سن التقاعد.. ثماني سنوات وسبعة أشهر وثلاثة وعشرون يوماً وبقية هذا النهار هذا ما قاله لي يوماً.. ضحكنا معاً وابتسم القريبون منا، غير أنَّني لم أدرك الوجه المضحك في الأمر أو وجه الدعابة فيه. بأي حال – ولدرامية أو سخرية الأقدار– توفّيَ (بأول) قبل بلوغه سن التقاعد...

لقد كان (بأول) سعيداً في عمله، ومرة سألته: لماذا لا يقرّب وقت تقاعده؟ فقال: وماذا تراني سوف أفعل في البيت؟ سوف أملّ وأمرض... لا أعرف علاقة ذلك كلّه بالقلق، ولكن لا شك أنَّ خيطاً خفياً يشد هذه المشاهد والصور المتفرقة إلى وتر القلق من كل جانب، ولا يبدو القلق في كل حالة مفتعلاً أو مقحماً أو دخيلاً، لكنَّه يبدو أكثر التصاقاً وأصالة.

ويبدو أنَّه من دون القلق لا يمكن فهم وإدراك كثير من الأمور.. والتفكير بحضارة سالمة معافاة من القلق والاضطراب، لهوَ ضرب من الخيال، وأقرب إلى صور جنات الخلد الخالية من كل صراع أو نزاع أو تطلّب... هي حالة استاتيكية ساكنة يقبلها العقل الشعبي على غموضها وتناقضاتها –أي على عماها– وذلك لأمر بسيط، هو أنَّه لا يعرف سوى هذه النفس المتطلبة والقلقة والطموحة والجامحة التي ما إن ترضى هنيهة عن ذاتها حتى تنبت من صورتها الجديدة

مشروعها المضاد النافي لما سبق والرافض له، طارحة قضيتها الجديدة: أريد المزيد!... ولا يعقل أن يكون هذا الذي وصلت إليه هو نهاية المطاف!...

من هنا يمكن أن نفهم لماذا لا يدوم شيء في الوجود على حاله: الآلهة والطبيعة، والأمم والشعوب والدول، والأحزاب والأفكار... ويمكن أن نفهم كذلك فشل نقاء الفكرة، وإصلاح الأشياء، وفساد كل ترميم، أو ترقيع لقديم، أو بائد، أو تليد. فلا حق أو شرعية في الوجود والحياة والبقاء، إلا للمتجدد الخلاق الذي من أبرز سماته.. القلق!

"رجال الرعب"
كتاب ألماني يحلل ظاهرة العمليات الانتحارية أو نفسية "الخاسرين المثاليين"

صدر منذ عدة أشهر في ألمانيا كتاب ملفت للنظر، يحاول مؤلفه أن يجري تحليلاً في نفسية الخاسرين المتطرفين المعاصرين: «المسلمون الأصوليون يقتلون أنفسهم لكي يقتلوا الآخرين، وهم يظنون بذلك أنهم في الجهة الرابحة، لكنهم في الواقع هم الخاسرون المثاليون.»، هذا ما يزعمه هانس ماغنوس اينتسنبيرغر مؤلف كتاب «رجال الرعب»[1] محاولة حول الخاسرين المثاليين، الصادر في العام 2006 عن دار زوركامب الألمانية.

«أنها محاولة ليس فقط في فهم وتحليل نفسية الانتحاريين الإسلاميين، ولكنها أيضاً محاولة في فهم الطبيعة أو العقلية العربيتين». يقول الكاتب في مستهل كتابه.. ويضيف: «إننا أمام حالة مثيرة للاستغراب فعلاً، فلقد كانت الحضارة العربية في القرنين الثاني والثالث عشر متقدمة جداً على الحضارة الغربية، لكننا اليوم أمام حضارة غير منتجة أو غير فاعلة».

([1]) «رجال الرعب، محاولة حول الخاسرين المثاليين»، الصادر في العام 2006 عن دار زوركامب الألمانية.

المؤلف اينتسنبيرغر مفكر وشاعر ألماني شهير على الساحة الثقافية بمؤلفاته الكثيرة، وقد لقي كتابه آنف الذكر العديد من الردود والنقاشات، غير أن أغلب هؤلاء المنتقدين والمناقشين أجمعوا على لغة وموضوعية أو احترام الكاتب للموضوع الذي يتناوله، «فهو كتاب يتعامل باحترام مع هذه الظواهر»، يقول أحد النُّقاد:

أمّا الانتقادات التي وُجهت للكاتب فهي تركيزه على ظاهرة التطرف الإسلامي أو «الخاسرين المثاليين» وفق منظوره، وعدم تركيزه بالتالي على التطرف المقابل، أي «الرابحين المثاليين» أي بوش وبلير، وما تدفعه سياستهما إلى تأجيج ظاهرة التطرف الإسلامي الأصولي. يقول اينتسنبيرغر في مقابلة مع صحيفة دي تسايت: «هؤلاء لم يقوموا بما من شأنه أن يخفف هذه الظاهرة..»..

أو لماذا لا يكون كحال غونتر غراس؟

يقول: «لماذا لم تؤدِّ العولمات السابقة إلى ظهور أصوليات مشابهة؟

هتلر كان آخر من يموت، يجب أولاً أن يموت الآخرون.. هذه هي استراتيجية المدّبر.

كل خاسر يجد العقيدة (الأيديولوجيا) والحركة التي تناسبه».

وكما يبين لاحقاً، يحاول المؤلف أن يجيب على سؤال مركزي، هو: «لماذا يسعى شبان في ريعان الشباب أن يحولوا أجسادهم إلى

قنبلة تأخذ في طريقها أكبر عدد ممكن من الضحايا الآخرين؟». سؤال ما انفكَّ يشكّل مادة للباحثين الاجتماعيين والمحلّلين النفسيين دون أن يتوصلوا إلى إجابات وافية في هذا الموضوع.

انستسبرغ يلج هذا المضمار، وهو لا ينتمي عملياً إلى تلك الفئة من الباحثين، ولكنه بدون شك أحد أبرز المفكرين والأدباء على الساحة الفكرية الألمانية، حيث نشر مؤلفات عديدة منذ منتصف القرن المنصرم..

«من الصعب الحديث عن الخاسرين، كما أنه من الغباء السكوت عنهم»؛ يقول المؤلف؛ «وعوضاً عن أن يمعن علماء الاجتماع النظر في وجوه الخاسرين، فإنهم يستغرقون في إحصاءاتهم وتحليلاتهم النظرية والفوقية الباردة...».

أميركا احتلَّت ألمانيا، وخسر الألمان واليابانيون الحرب العالمية الثانية، وانكفأت شعوبهم إلى التنمية وليس إلى الثأر على الطريقة «البدوية» العربية، ربما هذا ما كان يرمي إليه الكاتب!!

لست أدري لماذا مثل هكذا كتابات لا تحظى باهتمامات الكتَّاب العرب، ولا نجد جهوداً حقيقية وجادة تُبذل في سياق درس وفحص أسباب هذه الظاهرة التي تعاني أكثر ما تعاني منها مجتمعاتنا في هذا العصر الدامي والمتلاطم الأمواج!

المجال الحيوي عند الشعوب

عندما كانت معلمة اللغة الألمانية تقرأ نصَّ ذاك اليوم، كان الجميع يصغي بانتباه شديد وتمعّن. كان موضوع النّص جديداً وشيّقاً. ويدور حول المسافة التي يرسمها البشر حولهم، والتي تكاد تكون بمثابة الحدود أو السياج اللامرئي حولهم. حيث لا يُسمح لأي شخص غريب أن يخترقها ليقترب إلى مسافة تُشعرنا بالنّفور والارتباك جراء هذا التهديد، أو الهجوم من الآخر على الحيّز الخاص بنا. فقالت وفق الكاتب: إننا نلجأ إلى اتباع سلوكيات دفاعية بشكل لا واعٍ. حيث نعامل هؤلاء الأشخاص الغرباء، إذا ما حشرتنا معهم صدفة داهمة، كالحال الذي يحصل في وسائل النقل العامة، أو في المصاعد. فإننا نتجه للتصرف وكأن هؤلاء الأشخاص الغرباء غير موجودين البتة بقربنا، كأن نشيحُ بنظرنا عنهم إلى السقف أو إلى ناحية أخرى. ونعمد كذلك إلى تقليص حركات أجسادنا إلى أدنى حدّ ممكن. كَمَنْ يريد أن يقول: إننا نتكوّر على أنفسنا، ونضغط أجسامنا لكي نُبقي مسافة هذا الحيّز أو الغلاف الشخصي الخاص المُفترض حولنا محفوظاً.

فجأةً؛ ازداد فضولي واهتمامي عند سماعي المعلمة تقرأ المسافات التي قاسها الكاتب: «الأوروبيون الشماليون لا يشعرون بالرّضى والارتياح إلاّ إذا ما فصلت بين المتحادثين منهم مسافة 75سم

بالمقابل في بلدان البحر المتوسط وجنوب أميركا، يجد المرء مسافة 30 سم مريحة وكافية». كدت حينها أن أضحك.

تابعت المعلمة القراءة من دون أن تشير إلى الطريقة التي استخدمها الباحث لقياس هذه المسافات.

بيد أني أكاد لا أذكر أنني شعرت بمتعة في سماع نصّ ما، كمثل ما كنت أسمعه في هذا النص الذي أعدّه أحد الكتاب الألمان ويستند فيه على نتائج دراسة ميدانية قام بها باحث السلوكيات الإنكليزي د. موريس، كما عرفنا لاحقاً بعد أن اطلعنا على الدراسة بشكل وافٍ. غير أن كل هذا الفرح سرعان ما سيتبدد مع هذه الكلمات القادمة، والقاطعة بأرقامها وقياساتها المدموغة بالرتب العلمية والأكاديمية، المشوبة برهبة الأماكن الجامعية الألمانية العريقة. أمّا العرب فإنهم يقتربون من محدثِّهم إلى حدٍ يُمكّنهم من شّم رائحته.

الأوروبيون من وسط أوروبا والأمريكيون الشماليون يفضّلون مسافة ذراع يد واحدة». بالطبع ضحك الطلاب الحاضرون عند سماع هذه الكلمات، كما أن المعلمة الموضوعية لم تجد غضاضة في التبسم. غير أني نظرت إلى الأرض التي تمنيت لو أنها تنشقّ الآن لتبتلع هذا الجسد، وهذه اللعنة، غير أني سرعان ما استعدت رباطة جأشي، ورفعت رأسي، كمن يهمّ أن يشن هجوماً أزلياً لا خيار فيه ولا نقاش، ولا بين بين، ولكني قبل أن أتوجه إلى

المعلمة، وكأني أريد شحن عزيمتي أو طلباً للمؤازرة، فقد التفتُّ إلى زميلتي العربية الوحيدة معنا في الصف. كانت شريفة ممتعضة كذلك، وقالت دون أن أسألها بعد حتى «إنهم عنصريون، ويهود». لقد كان هذا الوصف من قبل الباحث للعرب مستغرباً وفيه شيء من المهانة ومدعاة للسخرية، وهذا ما حصل فعلا في الصف، إذ سمعنا بعض الهمسات واللمزات الساخرة من قبل بعض الطلاب، فكان لا بدَّ من ردّ!، لكن المعلمة تابعت القراءة بموضوعية بالغة، ليذهب معها انفعالي ويتبدد بعد أن استغرقت في التفكير في أبعاد هذه المسألة وأهميتها وتداعياتها على نمط تفكير البشر والدول. فالانطلاق من الحيّز أو المجال الحيوي للفرد الذي يشعر معه بالراحة والأمان، سوف تتحوَّل في حالة الدول والحكام إلى شكل من التوسُّع والتوجُّس من الآخر.

وقد يمكننا بهذا السياق تفسير العديد من الحروب التي قامت بسبب أنّ قادتها شعروا بحلول الخطر من جيرانهم، أو لأنهم اعتبروا أنّ مداهم الحيوي الآمن يمتدّ إلى ما أبعد بكثير من حدودهم الطبيعية المتعارف عليها، هكذا لم يرَ هتلر كل الدول المجاورة له سوى امتدادٍ طبيعيٍّ للرايخ..

كذلك يمكن ملامسة هذه المسألة في تقسيم البيوت والمكاتب بين الشعوب، وميل بعضهم إلى الإكثار من الغرف والأبواب الفاصلة بين المكاتب، وهذا ما يتميَّز به الألمان عن الأمريكان الذين ينحون إلى

المكاتب المفتوحة أكثر وقلة الحواجز بين الموظفين، أو في التقسيم الداخلي للبيت.

أمّا مسألة العربي وميله نحو الاقتراب من محدثه، فلعلها مسألة متعلقة بالأصول البدوية والصحراوية لأغلب العرب، وعلاقتهم بالمكان والزمان. حيث إن جلَّ حياتهم كان قائماً على الترحال والتنقّل، ما جعلهم يستحوذون على هذه النظرة الفضفاضة للمكان والحيِّز الخاص وربما خلطه بالحيز العام، أو تشوّش فكرة الفصل بينهما. ولكن ثمة فكرة خطرت على بالي في هذا السياق، وهي تحتاج ربما لمزيدٍ من البحث والتمحيص، وهي أن العربي البدوي الذي كان يعيش في الصحراء المتمادية الأطراف قد كان مدفوعاً لاستعمال حاسة الشم لديه أكثر من غيره، لأنه لم يكن يهتم لكثير من الآثار العمرانية والحضرية التي كانت تعينه على تكوين فكرة عن الشخص الذي يلتقيه، فلعل مسألة الاقتراب من الشخص كانت تساعده في تحصيل هذه المعرفة الأولية الضرورية التي بناءً عليها سوف يكون بمقدوره تكوين صورته لهذا الشخص أو ذاك!

فالإقامة في خيمة واحدة في الصحراء كانت تدفع باتجاه كسر هذه الحدود بين الأفراد من الجنس الواحد على ما أعتقد.

وكما ذكرت، يبقى هذا افتراض مني يستدعي البحث عن عناصر علمية وموثوقة تدعمه!

ولعل هذا الأمر قد يجرّنا إلى علاقة مريبة وغريبة هي علاقة الإنسان بالكلب.

الإنسان والكلب:

هي علاقة قديمة مثيرة لكثير من الجدل والألغاز منذ القدم عندما استأنس الإنسان الكلب فيما استأنس من حيواناتٍ باتت في حظيرته وحياته!

ولكن إلى ماذا يقودنا ويدفعنا هذا الأمر!؟ ماذا في هذا الحيّز الحيوي مما يقلق ويثير الاضطراب والشعور بالنفور وعدم الراحة؟! على الأرجح، أنها الرائحة، وإذا ما أخذنا الموضوع من هذا الباب، فسوف ندخل في عالم العطور، والشم، والسؤال إذا ما كانت العرب تسعى لشمِّ رائحة الشريك، أو الجليس، ومن ثم تولد هذا العداء للكلب كونه الشمّام الأكبر، الأثّار الأخطر، فتجنَّبتَهُ، لا بل نجَّسته في سعي منها لإبعاده قدر الإمكان عن حيِّزها ومسافاتها الآمنة، والحدّ بالتالي من قدرته على الشم، واقتفاء الأثر! هذا إلى أبعاد أخرى في هذه العلاقة جعلت من الكلب الحيوان الأقرب إلى الإنسان على الإطلاق، ويبقى مع هذا التحليل الفرضي الخاص، موضوع الكلب والإنسان من أعقد العلاقات وأكثرها ألغازاً.

لعلّ هذه هي الأسباب التي جعلت من العرب –في حال صدق ودقة هذه الدراسة– هم أكثر شعوب الأرض اقتراباً من الآخر أثناء الحديث أو الجلوس على المقعد العمومي، بينما الأوروبيون

الشماليون، هم أبعدهم وأكثرهم احتياطاً وتحوّطاً!! وقد يكون مرد هذا الأمر لديهم هو ما كان عليه الحال لدى الأوروبيين الشماليين الذين نزعوا مبكراً ومنذ قرون بعيدة إلى نمط من الحياة المستقلة القائمة على الانفراد، وإقامة البيوت الثابتة للأفراد بمعزل عن الآخرين، وتطور فكرة الحدود، والسياج، والملكية الخاصة، والعامة. الأمر الذي أدّى إلى تطور مفهومي الحيّز العام والخاص لديهم.

بيروت، كمدينة ساحلية وعلاقتها بالبحر، وانعكاس ذلك في الفن والثقافة؛ عمر الزعنّي نموذجا

كأن المدينة تدير أو تعطي ليس ظهرها للبحر وحسب، وإنما مؤخرتها أيضاً. وذلك في حالة من الاستعداء أو الغربة الظاهرين.. لا شكَّ أن علاقة أهل هذه المدينة البحرية، (أو المفترض ذلك)، بالبحر علاقة غريبة. كما أنه لا شك أيضاً أنني لست أول من يلاحظ التباس هذه العلاقة، وبأن ثمة ما هو غامض وخفي في هذه العلاقة!

لطالما استوقفتني أسئلة مماثلة عن سر هذه العلاقة.. لربما تكون تلك الأسئلة قد أخذت أبعادها وراحت تتكوَّن بعد زياراتي ومشاهدتي لمدن بحرية أو نهرية أخرى، حيث تكثر مشاهد السفن والمراكب القديمة، والمقاهي والمطاعم البحرية، وكذلك يلاحظ المرء مدى تجذُّر تلك الصلة بالإبحار والسفن في ثقافة وتقاليد تلك الشعوب، غير أن هذا الأمر لا نلاحظه في مدننا الساحلية وبيروت تحديداً.. لا أزال أذكر مشهد كورنيش البحر في المنارة وعين المريسة، حيث «مقهى الديك» الشهير، عندما كان يكتظ الكورنيش بالرواد من مختلف الطبقات والمشارب، الرياضيون والمشاة والمتنزهين والمتسكِّعين وباعة الكعك والعائلات تفترش بعض المواقع حيث تفوح رائحة النارجيل والطعام وعجقة الأطفال..

كل خليط المدينة وضواحيها كان يجتمع هنا.. وكان بإمكان الرائي تمييز أصول ومشارب هؤلاء الوافدين. حملة الأراجيل أو الذين يكونون عادة شللاً يتسامرون، هؤلاء بأكثرهم من أبناء الضواحي ذوي الأصول الريفية ممّن نزح أهاليهم إلى أطراف المدينة وعاشوا وتكاثروا هناك، وشكَّلوا أحزمة تحيط بالمدينة من كل جانب، وقد كانوا وقود هذه المدينة إبّان فترة ازدهارها، وباتوا ربما عبئاً ثقيلاً عليها، بعدما فشلت هي في استيعابهم، وبعد أن بات عمق الخلل في البنية العامة لهذا الاجتماع العام الذي يُنظِّم هذه المجموعات من البشر، يطرح أسئلة حول الجماعات المدينية وأفق تشكّلها، وبين حالات الهجرة والانسحاب كظاهرة باتت تخصّ هذا البلد منذ عقودٍ طويلة!

هذا فيما أخفقوا هم في عملية تأقلمهم ومواءمتهم ما بين أصولهم، وما كان يجب أن يحافظوا عليه فيها، وما بين علاقتهم بهذه المدينة الملتبسة!

كان يبدو أن هذا الكورنيش هو المتنفس الوحيد لهؤلاء جميعاً، أهل المدينة، وزوّارها، وأبناء ضواحيها، وغيرهم.

وقد كان مشهد الرؤوس المتراصفة عن بعد يُعطي انطباعاً بأن تظاهرة ضخمة هجرت دواخل المدينة وجاءت لطلب الهواء وراحة النفس وإطلاق النظر البعيد نحو الأفق المفتوح على ما بعد هذا الأزرق القديم...!

الجالسون على السياج الحديدي، كانوا كأنهم يرسمون الحدود النهائية بين عمران المدينة وهيجان البحر، كانوا يعطون ظهورهم للبحر، ويسلِّطون وجوههم نحو المارة من المشاة والأبنية المدينة المترامية التي كانت تنسحب أمامهم، كأنهم أمام عرض في سباق رياضي...!

مراكب الصيادين القليلة والهزيلة حُشرت في أماكن ضيقة من الكورنيش، وكأنها تفسح المجال أمام المشاريع العمرانية والسكنية والشوارع.

يدخل البحر في مشهد حياتنا كأنه خلفية أو لوحة زيتية جدارية، وتبقى أكلة السمك، أكلة موسمية في معظم مطابخنا. وعلى عكس ما يحلو لكتاب الجغرافيا وكتبته أن يفسروا هذه الظاهرة بضعف الثروة السمكية، وما شابه. فإنني أعتقد أنّ للمسألة جذوراً أبعد من ذلك بكثير، لعلّها تكون في جذورنا الداخلية وربما في أصولنا الصحراوية هي التي يمكنها وحدها أن تفسِّر هذا الجفاء الثقافي بيننا وبين البحر، لا بل هذه الريبة وهذا التوجّس، من كل ما يمكن أن يأتي منه أو عبره، من أفكارٍ أو غزاةٍ غرباء!!

البحر في الأغاني:

حتى أغانينا، ونحن شعوب مغنية وصادحة بامتياز على ما أعلم وأظن غير جازم، فإن البحر لم يدخل إلاّ في القليل القليل من الأغاني التي اشتهرت، وعلى الأغلب أنّ سبب انتشارها يعود لكونها

كانت تحمل أبعاداً سياسية ووطنية، كحال أغنية مرسيل خليفة، «يا بحرية هيلا هيلا». تضمَّنت هذه الأغنية ذكر الجنوب ومعروف سعد وارتبطت بفترة بداية الحرب الأهلية وانتشار التيارات والنظريات اليسارية والصراع الطبقي، وإن لم أستطع أن أجد الرابط أو التوصيف الموضوعي لموقع الصيادين في هذا الصراع، فلا هم عمالٌ في شركة صيد «رأسمالية» ضخمة وهذا ما كانوا يتظاهرون ضدَّه، ولا هم طبقة قائمة بذاتها ومكتملة التعريف والتوصيف وفق القاموس الاشتراكي. لربما يقول أحد اليساريين المحللين إنهم من شريحة الحرفيين أو صغار البرجوازيين الذين يملكون أدوات إنتاجهم..

وبعض أغاني الرحابنة، مثال «هيلا يا واسع» و«مراكبنا ع المينا»، وأغنية «عندك بحرية يا ريس» التي سنتوقف عندها مليّاً لِما في قصة هذه الأغنية المعروفة جداً من غرائب وأبعاد عميقة، أعتقد أنها جديرة بالبحث والتمحيص.

عندك بحرية يا ريس أو "بدنا" بحرية يا ريس؟

لا تخلو قصة هذه الأغنية من الغرابة والتساؤل، خاصةً عندما يكتشف المرء أنّ هذه الأغنية التي اشتهرت بصوت الفنان الكبير وديع الصافي، ومن ألحان الموسيقار الكبير «محمد عبد الوهاب» تعود لشخص آخر هو الفنان الشعبي اللبناني عمر الزعنّي. ولا يتفاجئ المرء وحسب بهذا الخبر العجيب، ولكن ما يثير الاستغراب أكثر هو عدم ذكر هذا الأمر، وقد تحرَّينا عن هذه القصة وهذه الأغنية، التي

كشفت لنا عن فنان كبير هو عمر الزعنّي، الذي لم يأخذ حقه برأيي على كل الصعد، لا من الدولة التي هاجمته وحبسته عندما انتقد ساستها ورؤسائها، ولا من المعارضة ولا من قبل اليسار بشكل خاص الذي لم يُدخل عمر الزعني في أدبياته على ما نعلم كأحد المؤسسِّين البارزين لفن الانتقاد والمعارضة السياسية والاجتماعية!

لنبقَ في جوّ هذه الأغنية وقصتها، بدايةً؛ سوف نقارن كلماتها بالكلمات التي اشتهرت بصوت الصافي وهي من تأليف ميشال طعمة، فلنقارن بين الأغنيتين:

كلمات أغنية الزعني:

بدنا بحرية يا ريس

صافين النية يا ريس

بزنود قوية يا ريس

أبداً ما نْحَلِّسْ يا ريس

***

الريح تعاكسْ يا ريس

والخشب مْسَوِّسْ يا ريس

فرحان ومْسَرْبِسْ يا ريس

بأنك ريس، يا ريس

***

الموج جبال يا ريس

قَطَّعْ حْبَال يا ريس

ما كان ع البال يا ريس

تتوصى بْلَيِّسْ يا ريس

الريح سْنِيَّا يا ريس

***

فِدْ رايح فيَّا يا ريس

بقلك جُرِّيَّة يا ريس؟

ما خرجك ريس يا ريس

العنبر فاضي يا ريس

والعمر ماضي يا ريس

والقاضي راضي يا ريس

لأنك ريس. يا ريس

***

أمّا كلمات ميشال طعمة التي غنَّاها وديع الصافي فهي:

عندك بحرية يا ريس

سُمر وشرقية يا ريس

والبحر كويس يا ريس

وصّلني حبيبي يا ريس

عالرمل الدايب كتبنا

شوق الحبايب دوَّبنا

وانشالله توصل مراكبنا

اللي فيها أهالينا وحبايبنا

والفرحة تكمل يا ريس

ريحة أراضينا يا ريس

عم بتنادينا يا ريس

إمشي وطير بينا يا ريس

من مينا لمينا يا ريس

ودّينا بلدنا يا ريس

تنشم ترابها يا ريس

مقاربة كلمات الأغنيتين لناحية المعاني والدلالات:

ليس من الصعوبة بمكان أن يلاحظ المرء أنّ كلمات الأغنية بحلَّتها الجديدة التي عرفناها مع وديع الصافي لم تختلف فقط في المعاني أو تكتفي بتبديلها، وإنما جاءت معاكسة ونافية لمعاني الأغنية الأصلية، ولنبدأ من المطلع والعنوان؛

ففيما كان اسم الأولى ومطلعها:

«بدنا بحرية يا ريسّ»، وهو ما يكتنف معنى المطالبة، (بدنا = نريد)، بضرورة الحصول على شيء مطلوب وغير موجود. جاءت الأغنية الثانية لتنطلق من العكس تماماً أي: «عندك بحرية يا ريس»، فهذه تفيد بوجود هؤلاء البحَّارة، وكل الأمور تمام وعال العال.

وتواصل أغنية الزعني الجميلة وعميقة المعاني والملتزمة بقضايا وهموم الناس، لتصف طبيعة ما يطالب به من صفات منشودة لهؤلاء «البحرية»، الذين قد يكون المقصود بهم، ليس فقط البحَّارة والصيادين، ليتسع فيشمل جملة من المسؤولين والمعنيين في الإدارات، و«الريّس»، المستهدف هنا في ذكاء من الزعني هو في اللعب على استعارة هذه التسمية من البحارة، والتي يطلقونها على صاحب المركب أو الصياد الكبير الذي يدير عملية الصيد البحري، والغمز من خلالها إلى «رئيس» البلاد الذي يُقال له أيضاً «ريّس» باللغة المصرية الدارجة، وفي بعض العاميات الشامية. أيضاً فهنا نلاحظ تجلّي عبقرية الزعني في حسِّه النقدي والساخر وقدرته على نحت الكلمات واللعب على معانيها المتشاركة، حيث يقول:

«صافيين النيّة»،

فيما تذهب الأغنية الثانية للقول:

«سُمُر وشرقية». وهذا وصف حيادي لا بل إيجابي ينحو باتجاه عام يسود نمط الأغاني الوطنية والغزلية السائدة، التي تتماشى بلا شك مع شخصيات كل من عبد الوهاب ووديع الصافي والشاعر ميشال طعمة، في أنهم يقدمون فناً عاماً يُرضي الذائقة الشعبية ولا يُغضب أحداً من الجهات الحكومية أو النافذة في كل البلدان. إذن هي أغنية تعبر الحدود، ولا تشكّل أي مشكلة لأحد، على عكس أغنية الزعنّي التي تضعه في مواجهة الحكومة.

وتواصل الأغنية على هذا المنوال، إذ تقول:

«الريح تعاكس.. والموج جبال»، نجد أن أغنية الصافي تقول:

«والبحر كويّس يا ريس..».

فنحن هنا أمام أغنية تصف استقرار الأحوال والحياة وتنشد الاشتياق والشوق للبلد والحنين إليه، ولهناء العيش فيه.

يُذكر أنّ الزعني كان ينتقد في هذه الأغنية أول رئيس للبنان الكبير شارل دبّاس. وقد أدّت إلى حنق السلطات عليه ومن ثمّ أُجبر الزعني على ترك وظيفته الرسمية جراء هذه الأغنية وتفرغ بعدها للفن الملتزم.

لكن يبقى السؤال الغامض حول الدافع الذي حدا بفنانين كبيرين من الوزن الثقيل، أن يقتنصا أو يقتبسا هذه الأغنية؟!

فهما لا ينقصهما لا الأغاني الجميلة ولا الإبداع ولا الشهرة! إذاً ما القضية؟!

لم أجد سوى جوابا واحداً أحسب أنه الدافع الوحيد الذي دفع بموسيقار الأجيال لخوض هذه المغامرة؛ أو مخاطرة تعريض سمعته للإساءة وإثارة الشبهات. إذ أن «الاقتباس الفني» يكون من باب الاستئناس بجملة موسيقية أو نفس موسيقي ما، ولكننا أمام اقتباس للحن كامل بعد تغيير كلماته، وإضافة بعض الروانق واللمسات الوهابية الساحرة عليه. فلم يتبقَّ من سبيل سوى الجزم بأن جمال

وروعة هذا اللحن هو ما جعل الموسيقار الكبير يخوض غمار هذه المخاطرة الكبيرة. وبالفعل فإن إعجاب عبد الوهاب بهذا اللحن يعود إلى نهاية الخمسينات. وقد تحوَّل إلى ما يشبه الهاجس الذي يسكن الملحن. وحينها طلب لقاء أو زيارة الزعني في بيته، ولكن تعذر التواصل مع الزعني لمرضه حينذاك، فتوقف المضي بالفكرة. وكان في صلب الرغبة من زيارة عبد الوهاب إلى عمر الزعني هو سؤاله عمّا إذا ما كان لحن «بدنا بحرية» من تأليفه أم أنه مُقتبس. وقد تأجّل الأمر إلى العام 1974، لكنه ظل يجول في خاطر الموسيقار الكبير، إلى أن اقترح المنتج روبير خياط على عبد الوهاب أن يلحن لوديع الصافي، فرحب الموسيقار بالفكرة وطلب منه التواصل مع الشاعر ميشال طعمة وطلب منه اقتباس مقطع من أغنية «بدنا بحرية يا ريِّس» والتعديل فيها بعيداً عن المعاني السياسية وهكذا ولدت أغنية «عندك بحرية يا ريس» التي نعرفها اليوم بصوت وديع الصافي[1]

وأعتقد أن الفنانين الكبيرين، عبد الوهاب ووديع الصافي، قد وجدا حرجاً كبيراً بذكر اسم صاحب الأغنية الأصلي، وهكذا ذاع صيت الأغنية بحلَّتها الجديدة حتى إذا ما وصلنا إلى أيامنا هذه، فبتنا عند قولنا حقيقة قصة هذه الأغنية ما صدقنا أحد!

([1]) نقلاً بتصرف عن نوستالجيا: هل تعلم أنّ أغنية «عندك بحرية» للراحل وديع الصافي مقتبسة من شاعر كتبها لانتقاد السياسيّين؟، أميرة عباس، مقال منشور على الانترنت بتاريخ 2019/4/7.

وهكذا لو أننا تعمقنا في دلالة كلمات أغاني الزعني لوجدنا أنها تنتمي إلى فئة الفن الانتقادي المطلبي السياسي الجاد والجريء الذي لم تكن ترحب به السلطات بأي حال من الأحوال، ولقد قادته حدَّة كلماته اللاذعة إلى السجن في القصيدة التي تناول فيها عائلة فرعون، وتلك التي تعرَّض فيها بالسخرية للفرنك الفرنسي، (حاسب يا فرنك!)، الذي كانت قيمته تتهاوى في فترة الحرب، ممّا أثار حفيظة قوى الانتداب الفرنسي عليه.

من هو عمر الزعني؟

عُرف عمر الزعني بعدة ألقاب أو أسماء أطلقت عليه، لعل أبرزها موليير الشرق، وفولتير العرب حيناً آخر، وعُرف أيضاً بلقب ابن الشعب وابن البلد..

(كانت ولادة عمر محمّد الزعنّي في بيروت عام 1898 في عائلةٍ محافظة من الطبقة الوسطى. درس في الكلّيّة العثمانيّة التي عُرف من طلابها نهضويّون كبار أمثال عمر فاخوري، وعبد الله اليافي، وعبد الله المشنوق، ومحمّد ومحمود المحمصاني والشهيدين عمر حمد وعبد الغني العريّسي اللذين أعدمهما جمال باشا. خدم في الجيش العثمانيّ برتبة ضابط إداريّ خلال الحرب العالميّة الأولى وانتقل

بعدها للعمل في التعليم ومن ثمّ في محكمة البداية في بيروت قبل الحصول على منحةٍ لدراسة الحقوق في الكليّة اليسوعيّة)[1]

ولعل إلقاء نظرة عامة إلى الحالة الثقافية والاجتماعية التي كانت عليها مدينة بيروت حينذاك سوف تساعدنا في فهم الدوافع والظروف التي شكَّلت ذائقة هذا الفنان الكبير!

فقد كانت بيروت «آنذاك تحمل إرثها العثمانيّ وتنمو تدريجيّاً من مدينةٍ صغيرة ذات طابع شبه ريفيّ إلى حاضرةٍ إقليميّة، ولم تصبح بعدُ مركز استقطاب فنّيّ على غرار القاهرة أو حلب».

ويشير الكاتب إلى موجات الهجرة التي توجَّهت إلى القاهرة لما عُرف فيها من ازدهار للفن ولهامش الحرية الكبير الذي تمتعت به، فبرز فيها أعلام كجرجي زيدان في (الهلال)، وآسيا داغر وبديعة مصابني.. «وازدهرت المرابع الليليّة ودُور المسارح على النمط الأوروبيّ خلال مرحلة الانتداب حين ساد التهافت على تقليد كلّ ما هو إفرنجيّ في الحياة اليوميّة بما فيها أنماط اللهو والتسلية والأعمال

([1]) ملاحظة: لقد استقيت هذا المقطع مع بعض التصرف من مقال الأستاذ أكرم الريس، موزيكا عمر الزعني، فنان الشعب. المنشور في مجلة بدايات الإلكترونية الفصلية العدد 22 – 2019.

المسرحيّة الوافدة من فرنسا ومصر.. ولكن رغم هذه التطورات كلها إلاّ أن النظرة إلى الفن ظلت سلبية في المجتمع»[1]

عمر الزعني؛ بين سيد درويش والشيخ إمام:

ما يعنينا من كل هذا السرد السابق هو محاولة الإجابة على بعض الأسئلة التي تكوَّنت لديّ لحظة استماعي إلى أغاني هذا الفنان؛ عندما صرت أسأل نفسي: لماذا لم نكتشفه من قبل في ذروة تأثرنا بأجواء اليسار، والثورة، والأغاني الحماسية، والثورية؟! وكان أبرز سؤال تبادر إلى ذهني غداة سماعي لأغنية «بدنا بحرية يا ريس»، هو ذلك الصوت الشجي وهذا اللحن العبقري الجاذب، والطريقة في الأداء التي جعلتني بالفعل أصاب بالدهشة.

لماذا تمَّ تجهيل وتغييب هذا الإرث الجميل عنّا؟! وتبادر إلى ذهني مباشرة الشيخ إمام وسيّد درويش خاصةً عندما انتبهت إلى قدم

([1]) المصدر السابق نفسه مع بعض التصرف. والكاتب يستند في ذلك على:

1. ديانا عبّاني، الموسيقى في بلاد الشام في القرن التاسع عشر، روّاد الطرب في بلاد الشام: سورية، لبنان، فلسطين، مؤسّسة التوثيق والبحث في الموسيقى العربيّة، 2014.
2. محمد كرّيم، المسرح اللبناني في نصف قرن: 1900 – 1950، بيروت: دار المقاصد، 2000 (ص 312، 319)
3. جريدة الأحرار، عدد 120، 7 تموز / يوليو 1924، في: محمّد كرّيم، المسرح اللبناني في نصف قرن: 1900 – 1950، بيروت: دار المقاصد، 2000 (ص 316)
4. ألبير داغر، لبنان المعاصر: النخبة والخارج وفشل التنمية، بيروت: المركز الاستشاري للدراسات والتوثيق، 2017

هذه الأغاني وجِدَّتها وجماليتها، وراح عتبي أو عجبي من اليسار الذي لم يكتشفه ويقدمه لنا على غرار ما فعل مع الشيخ إمام (1918 – 1995)، وسيد درويش وغيرهما!

ورحت أبحث عن صلة مفترضة بين الرجلين فلم أجد ما يفيد بذلك. خاصة بعدما لمست أوجه شبه كبيرة في الطريقة والأسلوب بينهما وخاصة في أغنية «بيروت» للزعني، وأغنية «غيفارا مات» للشيخ إمام، وذلك في المقاطع التي تلي الكوبليه. وقد يكون هذا مجرد اشتباه في غير محله من قبلي، ولكن إمكانية أن يكون الفنان الكبير الشيخ إمام قد اطلع على بعض أعمال الزعني، وربما تأثر به وبأسلوبه، فهذا أمر وارد ومعقول منطقياً، خاصةً بعد أن رأينا إعجاب موسيقار الأجيال بألحان هذا الفنان اللبناني المتميز.

ومضيت في طريق تفسيري سبب خفوت نجم الزعني إلى اعتبار أن الرجل كان ظاهرة فنية في زمانه، ولكن وفاته في العام 1961، وعوامل التجهيل والإغفال التي تعرَّض لها نتيجة أغانيه –من قبل الجهات الرسمية– جعلت إرثه لا يصلنا بطريقة مناسبة تساعد على إعادة انتشاره وربما إلى تحوّله إلى «شيخ إمام لبنان» تيمناً بظاهرة أو أيقونة الغناء السياسي الملتزم الشيخ إمام.

ولكن بعد استماعي إلى المزيد من أغانيه وخاصةً أغنية بيروت بصوته، شعرت أننا أمام حالة مختلفة جداً في النوعية وفي سبقه لعصره، ويلاحظ تأثره الواضح بنمط الغناء الفرنسي الباريسي.

دُهشت لجمالية هذه الألحان وتعبيرها عن الوجدان الشعبي الذي كان يرهص بهذه المدينة، وكان عن حق وجدارة بمثابة الراصد للتحوّلات التي عصفت في هذا البلد وهذه المدينة من نهاية السلطنة العثمانية وولادة لبنان الكبير، والشعور الذي كان يسيطر على غالبية السكان المسلمين الذين كانوا يتطلَّعون نحو امتدادهم العربي، وتأملوا بولادة مملكة فيصل، لكنها أيضاً ذوت كحال السلطنة العثمانية، فكان يعتصر في وجدان وأفئدة هذه المدينة مزيج من الشعور بالإحباط والهزيمة. ودخلت المدينة في عصر الانتداب والغلبة «المسيحية» المتأثرة بالعلاقات مع فرنسا، ومن ثمّ بسيادة نمط وأغاني ثقافة الضيعة والجبل، التي عبّرت الظاهرة الرحبانية وفيروز وصباح وغيرهم عنها بجلاء. هذا فيما عبّرت أغاني الزعني خير تعبيرٍ عن هذا الانتقال الذي أصاب أهل هذه المدينة وتحوّلها من حواضر ذات طابع ريفي إلى مدينة ومركز تجاري وثقافي، ومثّلت أغنياته أشدّ التمثيل والتعبير عن هذه الحالة، وخاصة في أغنية بيروت وأغنية «لبسنا البرنيطة».. وغيرهما. وبدا أننا بإزاء حالة لبنانية خالصة تشبه حالة «سيد درويش» في مصر عن كل استحقاقٍ وجدارة! الذي يبدو أنّه قد ترك أثراً في أعماله.

كما يبدو أنه تأثر بفن المونولوج المصري والشانسونيه الفرنسي، ووصفت ألحانُه (التي خلت بأغلبها، من المقامات الشرقية) بأنها كانت تصل بسرعة إلى العامة والنُخَب الاجتماعية في الآن نفسه.

عمر الزعني واليسار وأحمد قعبور:

لكن أحد وجوه اليسار الفنية الكبيرة سوف يجيب بعد مرور عدة سنوات على هذا التساؤل، وأعني بذلك الفنان أحمد قعبور، الذي أعاد إصدار بعض أعمال الزعني بصوته وأعاد توزيعها موسيقياً، ومنها أغنية «بدنا بحرية يا ريس»، وأخرى بصوت الزعني نفسه في العام 2011.

لنكتشف أن قعبور الذي تأخَّر برأيي في اكتشاف وإعادة الاعتبار للزعنّي، وهذا بالطبع أفضل من عدم حصول هذا الأمر بالمرة، علماً أنه كان على صلة مع بيئة الزعني، وأنه في نشأته ووسطه العائلي كان على تماس ومعرفة بإرث وأغاني الزعني، إذ أنّ والده كان عازف الكمان في فرقة الزعنّي..

كذلك نجد أحمد قعبور، البيروتي، يحاول إدراج تراث الزعنّي وما تعَّرض له من ظلمٍ وإجحافٍ وتجاهل ضمن سردية «بيروتية» لنشأة المدينة وتاريخها وعلاقتها بالجوار وبالوطن الناشئ عام 1920 مع الجنرال غورو، بقوله: «هذه المدينة التي لم تكن بطلة في ظل الجمهورية الأولى، فالبطل في هذه الجمهورية كان (ثقافة الجبل) والعرزال والعين وساحة الضيعة، وبيروت لم تكن أكثر من عاصمة بالمعنى الفلكلوري»، معتبراً أن «الرحبانية وفيروز» كما «تلفزيون لبنان» و«مهرجانات بعلبك» و«فرقة الأنوار» عندما كان روَّاد هذه المؤسسات ينتقدون الرؤساء في الجمهورية الأولى، كان الرؤساء

يصفقون للنقد لأسباب فلكلورية. «أما عمر الزعني فكان في رأيه حقيقياً وصادقاً». ليتهم زياد الرحباني أنه «لطش» من أغنية للزعنّي بعض كلمات «قلتيلي تاركتك ماشي الحال»..

وترى قعبور يرمي من هذا إلى القول: إنهم كانوا يتراخون حيال النقد القادم من الآخرين فيما كانوا يقسون ويسجنون الزعني وقد طردوه من وظيفته، ولعل خير تعبير عن هذه الحالة القاسية التي عايشها الزعني كما عبّر هو بنفسه، في إحدى مقابلاته عندما تحدَّث عن تغيّر الذّائقة العامّة في منتصف الخمسينيّات، بعدما انحسرتْ حفلاته في مواسم الاصطياف وأغلقتْ بعض منصّاتها البيروتيّة أبوابها مثل الكريستال والأوبرا: «لمين بدّي غنّي ولمين أعرض فنّي؟ يلّلي بيفهموني من أهل بلادي كتار، بس للأسف ما في معهم فلوس (...) ويللي معهم فلوس مقسومين إلى قسمين، قسم بيحبّ الغناء الفرنجيّ وهم أكابر بلدنا، وقسم بيحبّ الرقص الشرقي، والاثنين ما بيفهموني. إذا غنّيت مع الحكومة، ما حدا بيرضى عنّي، إذا غنّيت ضدّ الحكومة، الحكومة بتحبسني وما لقيت حدا يدافع عنّي»[1]

خاتمة:

لعلّ هذا العرض يُسهم في إضاءة المشهد الثقافي والاجتماعي الذي كانت عليه بيروت، مذ كانت حاضرة شبه ريفية وعلى سرعة

([1]) عمر الزعنّي يتحدّث عن المادّة وعن غزل البنات، مجلّة الإذاعة، آب / أغسطس 1956.

تحول العلاقات الاجتماعية فيها إلى الشكل المدني الحديث. وقد كان لوجود الميناء البحري فيها، التأثير الجلي، إذ راح يستتبع ذلك أدواراً اجتماعية واقتصادية جديدة مستجدة وناشئة مع تطور وتوسع المدينة وأوجه نشاطاتها التي ترسخت مع نهاية السلطنة العثمانية ومجيء دولتي الانتداب والظروف التي ترتبت عن ذلك، الأمر الذي دفع بهذه المدينة لأن تتهيأ لهذه الأدوار التي بدأت تتخذها وتقوم بها. لكن العلاقة مع البحر ظلت علاقة ملتبسة وغير مترسخة، ورأينا بعض دلالات هذا الادعاء أو الفرض، الذي صار بمثابة السمة المميزة لهذه المدينة الساحلية والبحرية، ولكن بثقافة أهل الداخل والجبل، وقيم العرزال والضيعة، التي راحت تندمج وتتفاعل مع قيم المدينة الناشئة على المتوسط والمتواصلة مع الغرب ومراكز الثقافة العربية، حتى صارت بيروت نجمةً في العالم الأدبي والسياسي والاقتصادي، وصارت ملجأً وقبلة لأحرار وثوار العالم، قبل أن تستبد بها السياسة والعصبيات الطائفية وهوس القبائل وربما غلّ الأرياف فدمرتها عن بكرة أبيها.

ولا يبدو أنه سيقوم لها قائمة من جديد في المدى المنظور، بيروت هذه التي كانت مهد الشرائع وموطن الحضارات الغابرة.

كما أنه لم ينجح لبنان في أن يعود إلى ما كان عليه على الأقل غداة اندلاع الحرب الأهلية، أي منذ ما يقرب من نصف قرن من الزمن. أي أن يكون وجهة سياحية على المتوسط على غرار جيراننا الأتراك، واليونانيين الإسبانيين، والإيطاليين، وغيرهم. وقد بدا أن

بحرنا هذا هو أقرب إلى واجهة أو منظر نُطل عليه. حيث يضيفه المقاولون كميزة في عقاراتهم، فيقولون: «لها منظر مُطل على البحر»، فتزيد أسعار شققهم أضعافاً.

أما البحر بحد ذاته فإنه لم يكن يوماً على ما يبدو محط أنظار اللبنانيين ولا حتى المستثمرين وأصحاب المشاريع السياحية والرحلات السياحية.

وبدا كأنما اللبنانيون ينشدون فقط الطبقة العليا الثرية من السائحين، وليس الناس العاديين أو حتى الطبقة المتوسطة منهم، بما تعني إدخال لبنان في منتدى الدول السياحية المتوسطية والمعتدلة الكلفة التي تمكنه من المنافسة على الخريطة السياحية العالمية، بحيث تصير وجهةً وخياراً سياحياً مقصوداً!

كذلك بقيت حركة الصيد والملاحة والرياضة البحرية ضعيفة بأي حال، ولا يمكن مقارنتها مع الدول المجاورة.

هذا إذا ما أردنا أن نتحدث عن تحويل شواطئه لمكبٍ للنفايات!! وكيف صار بعض اللبنانيين «الشاطرين» يتبارون ويستميتون ويزايدون على بعضهم في الدفع بالدولار لتلك المراكب التي راحت تنقل هذه النفايات إلى أبعد نقطة في هذا البحر علّ جوفه يبتلعها، فلا ترجع لهذه المدينة القلقة المتطلبة إلى حد الفجور! لكنه البحر العظيم الجبّار الذي لا تأخذه سنة ولا نوم، يُمهل ولا يُهمل، فها هو لا ينفك يلفظ كل نفايات المدينة وأهلها ويعيدها إليها أضعافاً مضاعفة ومن حيث لا يحتسبون، أو ينتظرون!!

أين كان الله؟

عندما دخلوا إلى مخيم جنين كأنني سمعت ما هَمَسَتْ به تلك المرأة المفجوعة بهول ما جرى.. كأنني سمعت ما هَمَسَتْ به أمام الكاميرا وتلعثمت الشاشات في إظهاره ومرّ دون كثير انتباه أو تعليق.. أين كان الله؟ أو لربما لماذا تخلّى حتى هو عنّا في ذاك النهار؟ أو شيء من هذا القبيل، لكنه بدا كافياً لقول كل «الحدوتة» أو لصوغ أسطورة السبي الفلسطيني الجديدة..

كذلك يفعل الكتاب الذي صدر مؤخراً في ألمانيا، تحت عنوان «العدم المقدّس، الله بعد الهولوكوست»[1]. الكتاب عبارة عن آراء أو بالأحرى إجابات مجموعة من المفكرين والشخصيات عن أسئلة، مثال: أين كان الله؟ وكيف سمح بحدوث الهولوكوست؟ من بين المساهمين في تأليف هذا الكتاب البابا الحالي بينديكتوس السادس عشر، حيث يسأل السؤال السابق «أين كان الله؟» ولا يجد إجابة عليه، سوى قوله: «إننا لا نستطيع أن نعبر إلى عمق الذات الإلهية،

([1]) «العدم المقدس، الله بعد الهولوكوست»، عن دار باتموس، دوسيلدورف، في 292 صفحة، للناشر 2005، باللغة الألمانية.

Tobias Daniel Wabbel, Das Heilige Nichts: Gott nach dem Holocaust, Patmos Verlag, Düsseldorf, 2005

فنحن نرى الشذرات والأجزاء فقط ونجانب الصواب تالياً، إذا ما أردنا أن نحوّل أنفسنا إلى قضاة الله أو التاريخ».

فيما يرى فابل: «لم يعد السؤال: هل بات بمقدور الإنسان أن يؤمن بالله، وإنما، هل بمقدور الله بعد أن يؤمن بالإنسان؟». هذا فيما يرفض غيوردانو –الذي كان مطارداً من قبل النازيين– أن يعطي أي تفسير فوق طبيعي لما حدث، ويقول: «إن الإيمان والدين ليس بمقدورهما أن يقدما أي تفسير لما جرى من دون أن يجعلوا من هتلر أداة بيد الله».

لكن ما يدعو إلى الاستغراب هو طريقة تعاطي كل من «اليهود» عبر التاريخ مع الله، وطريقة النظر والتعاطي معه من قبل الفلسطينيين.. فلطالما كان اليهود لا ينفكّون يتبرَّمون ويمتعضون حيال أي مصاعب أو مشقَّة تعترض طريق مسيرتهم التوراتية إلى أرض «إسرائيل»، بغض النظر عمّا يمكن أن يُقال في الشواهد التاريخية الثابتة حول هذه المرويات وما شابهها، فإن أكثر ما يعنينا في هذه العجالة هو طريقة التعاطي التشكيكية والمفرطة في المنطق الموضوعي الخاص بإزاء كل ما كان يعترض طريق هذه الجماعة، حيث كانوا يلجؤون إلى التشكيك والتذمُّر والطلب إلى موسى أن يدعو ربه لفكِّ هذه العقدة أو لحلِّ هذه المسألة أو تلك..

ولربما كانت هذه الرحلة الأسطورية وما شابها من أحداث، هي من وراء تلك الصورة النمطية التي التصقت باليهود كشعب كثير الشكوى

والتطلب والتظلّم، وقد أجاد لعب دور الضحية عبر التاريخ خير إجادة.. حتى أنّ غولدامائير أبدت أشد الأسى بعدما بدا أن الفلسطيني ينتزع من اليهود صفة الضحية ويحوّلهم إلى جلادين...

لكن على ما يبدو أن اليهود وهم في موقع أو دور الضحية لا يقبلون أن يكونوا ضحية من الطراز العادي، أو أنهم يسقطون لصراعات مع أقوام أخرى وما شابه، وإنما يرفعون مرتبة صراعهم ونزاعهم إلى أعلى حد، إلى الله نفسه ويحملونه تبعة كل ما يجري لهم.. وحريٌ بالقول أنّ من كانت بلوته من الله بشكل مخصوص ودائم، فهذا لأنهم شعب مختار، وإنما الله يريد امتحانهم إلى الأبد..

في المقابل، نرى أن الفلسطيني وهو في واقع الحال في موقع الضحية منذ مطلع القرن المنصرم، إلاّ أنه لا يجيد على ما يبدو لعب هذا الدور كما يفعل «اليهود».. فلا هو نجح في تدبير أو بلورة أسطورته على حال الأساطير، وإن كان يفعل ففي بطء شديد، بطء يبدو أن اكتمال ظهور وتشكّل الأساطير يتطلبه... الأسطورة التي نرمي إليها هي كحال أساطير العود الأبدي والسبي إلى بابل.

يحلو لي في هذا السياق أن أرى ملمح الأسطورة الفلسطيني المقبل وهو ما يُسمى إلى الآن بـ «حق العودة».

لا يزال امتحان الغرب قائماً؛
العائلة أم الكلب!

بعد تنامي ظاهرة قتل الأطفال من قبل بعض الأمهات في ألمانيا، وقصور التفسير الاقتصادي الأحادي، هل بات إنسان الحضارة الغربية ذو البعد الواحد، أمام الفصل الأخير من امتحان العائلة والكلب؟

7,4كيلوغرام كان هذا هو وزن ليا – صوفي يوم الخميس 2007/11/22، أي في اليوم الذي عثرت الشرطة عليها في شقة والديها (نيكول ج. 23 عاماً وستيفن ت، 26 عاماً) في مدينة شفارين الألمانية. لم تنجح كل محاولات الأطباء في إسعافها. ليا – صوفي كانت قد بلغت الخمس سنوات من عمرها، فيما معدل وزن الأطفال الطبيعي في هذا العمر يتراوح بين 15 – 20 كيلوغراماً. وذلك بعد أن توقف والديها عن إطعامها لعدة أسابيع وربما شهور، في حين كانا يواظبان على إطعام كلبيهما الكبيرين اللذين يعيشان معهما[1]

لكنها ليست المرة التي يُصاب فيها المجتمع الألماني بصدمة قتل الأطفال جوعاً أو إهمالاً أو بطرق أخرى من قبل والديهم أو أمهاتهم في أغلب الأحيان. فقبل حادثة صوفي صُعق الألمان أيضاً بخبر

([1]) ديرشبيغل 2007/11/26.

جيسكا (من هامبورغ)، التي عثر الأطباء في معدتها على قطع موكيت صغيرة، كانت قد أكلتها قبل أن تفارق الحياة جوعاً. وقبل ذلك أيضاً، اهتزت الساحة الألمانية بقصة كيفن (من برمن) الذي عثرت الشرطة على جثته في ثلاجة والده (غير الأصيل) المدمن على المخدرات. واليوم يُصعق المجتمع الألماني مجدداً بخبر العثور على جثث خمسة أطفال تتراوح أعمارهم بين الثلاث والتسع سنوات في أحد المنازل في ولاية شليزفيغ هولشتاين، وكان قد سبق هذا الإعلان عن العثور على جثث ثلاثة أطفال رضّع في مدينة كيمننس، وفي جميع هذه الحالات يسود اعتقاد كبير بوقوف أمهات الضحايا وراء هذه الجرائم.

في محاولتهم لتبيان الأسباب والدوافع التي قد تكون كامنة خلف هذه الأحداث، يذهب الكثير من المحللين والكتاب في وسائل الإعلام، إلى إلقاء اللوم في ذلك على سياسة الدولة التقشفية في العديد من المجالات وخاصة في المجال التربوي والرعاية بالأطفال، وانخفاض مستوى التقديمات الاجتماعية التي كانت تُمنح للأهل والعاطلين عن العمل وسواهم..

أي باختصار؛ يدور الحديث في الأغلب حول البعد الاقتصادي وحده، وإن كانت بعض الصحف والتحليلات لم تُغفل الأبعاد الأخرى، كحال ديرشبيغل في حالة ليا – صوفي حيث كتبت: «.. ليست صوفي فقط ضحية أهلها، وإنما أيضاً هي ضحية البيروقراطية التي

تسود في المجتمع والدوائر المختصة بهذا السياق..» [1] فبعد حادثة الطفل كيفن في بريمن، صرحت وزيرة الدولة لشؤون العائلة أورسولا فون دير لاين (من الحزب الديمقراطي المسيحي) بوجوب التشديد على إلزامية الفحص الطبي الدوري للأطفال، وعلى ضرورة تحسين التقديمات الاجتماعية للعائلات، وتحديداً تلك التي تستفيد من قانون الهارتس 4، وذلك لكي يحصل الأطفال على العناية والرعاية الكافية وليس الكلاب».

الألمان عموماً كحال كثير من الشعوب الأوروبية والغربية، شعوب تحب الأطفال، ويمكن للمرء ملاحظة ذلك من حجم التخصيصات والتقديمات الاجتماعية التي تقدمها دول تلك الشعوب للأطفال. إن لناحية توفر الحدائق الخاصة بالأطفال والملاعب والبرامج التربوية وغيرها، كذلك ما تخصصه الدولة الألمانية للأطفال من مخصص شهري يحصل عليه الأهل، وذلك حتى سن الثامنة عشرة، كذلك يُمنح المولدون الجدد مخصصاً مضاعفاً عن هذا البدل وذلك طوال السنة الأولى من ولادتهم. يُذكر أنه قد جرى تخفيض مدة هذا المخصص المضاعف إلى مدة سنة واحدة مع مطلع العام الحالي، بعد أن كان لمدة عامين.

---

(1) ديرشبيغل 2007/11/26، مصدر سابق.

يُضاف إلى هذا، الانطباع الفرح الذي تبادل به الأكثرية هنا الأطفال، فكثيراً ما ترى الابتسامة ترتسم على وجوه ليس كبار السن فحسب، وإنما الفئات العمرية الأخرى، عندما يشاهدون طفلاً صغيراً أو امرأة أجنبية تسوق صفاً من الأطفال.. فكيف يمكن تفسير هذه الظاهرة؟ وهل يستطيع البعد الاقتصادي وحده إجلاء كوامن هذه الظاهرة؟ أم أن ثمة أبعاداً قيمية وثقافية عامة تنعقد من خلف هذه الحوادث وتتحكّم في سلوكيات الأفراد بطريقة واعية أحياناً ولاواعية في أحيان أخرى؟ فهل هذه النظرات الحنونة هي فقط حيال أطفال الآخرين، بينما هم ينأون بأنفسهم عن إنجاب الأطفال وتحمّل مشقَّة تربيتهم، وبما يعنيه ذلك من اقتطاع وقت ثمين من حساب أعمارهم، ومن فرص التنعّم بميزات فرديتهم الذاتية، هذه التي لطالما وسمت وطبعت الحضارة الغربية برمتها بطابعها وسماتها!

لا ترانا نُفشي سراً إذا ما ذكرنا أن المجتمعات الأوروبية والغربية عموماً هي مجتمعات هرمة وغير فتية، وأن الغلبة في أهرامها السكانية هي للفئات العمرية الكبيرة. إذا العزوف عن الإنجاب هو سمة عامة وغالبة على الحضارة الغربية عموماً، وهذا الأمر يمكن وصفه بأنه سلوك سلبي وحتى إخلال حيال ما كان يُعرف في المجتمعات القديمة بواجب أو فريضة حفظ النسل؛ أي التناسل.

هذا السلوك السلبي الذي يتنامى ويتغذى مع ارتفاع مستويات التعليم والتحضرُّ في المجتمعات وغلبة القيم والروح الفردية على

المجتمعات الحديثة. فإذا كانت هذه هي السمة الغالبة على الحضارة الغربية، فثمة سمة أخرى ربما تكون متأتية عن الأولى، وهي الإجهاض وتشريعاته التي تصل إلى حدود الثمانية أشهر من فترة الحمل. يمكننا تجاوزاً وصف هاتين السمتين بأنهما شكل من أشكال «القتل» الجماعي الممنهج والمشَرْعَن اجتماعياً وقانونياً.

ففي الحالة الأولى يقوم المجتمع بعملية القتل عبر امتناعه عن الإنجاب من أصله، وفي الحالة الثانية يتمّ التخلص من الجنين قبل ولادته بقليل.

يعيش في مدينة نيويورك وحدها تسعة ملايين نسمة وخمسة ملايين حيوان بيتي.

صور ومشاهد مُفارقة

المشهد الأول: الجمل

أذكر أنه في طفولتي عندما كنت أزور القرية كنت أشاهد جملاً، جملاً بعينه في الحقل المنبطح الأحمر خلف بيتنا، وأنني كنت أنظر في عينيه، وكان صاحبه يمشي به شمالاً ويميناً، وكان يصدر له أصواتاً غريبة خاصة تجعله ينحني إلى الأمام فأخاله سوف يهوي بحدبة ظهره المقوسة على الأرض، غير أنه كان يتماسك بطريقة عجيبة وينجح في كل مرة في طي قوائمه الطويلة ويجمعها على بعضها ويجلس عليها كأنه رقّاص كبير.

كنت أحب الجمال وأهابها لسبب غامض، ربما لكثرة ما حدثتني أمي عن ذلك الجمل الذي قهره وأذله صاحبه كثيراً وكان يقسو عليه فحقد الجمل عليه وكمى له وانتقم منه في إحدى المرات شر انتقام، إذ عضه برقبته وظل يرفسه حتى فارق الحياة. ولكن سرعان ما غابت الجمال من قريتنا، لا أعرف أين اختفت دفعة واحدة، ولم نعد نراها ابداً!

المشهد الثاني: حمار جارنا

كان لجارنا حمار غريب الطباع، كان كأنه يفهم لغتنا وتطيب له عشرتنا، ويحب أن يهرش من محصول حقلنا. فكنا لطالما نراه يتسلل إلى حقلنا ويأكل من المزروعات فيه، فتنادي أمي لأخي أن يقول لجارنا العزيز أن يكف حماره عن الحقل. فيفعل إذ ينادي جارنا

باسمه، فيرد هذا متباطئا كأنه في منجم فحم عميق، ويقول: «آه يا له من حمار غبي، مع أنني وثقت رباطه جيداً لكنه يسحبه في كل مرة»، ويستعجل في سحب الحمار مَن حقلنا، ويصير يجمع الحبل على يديه كأنه يلف جديلة من الشعر، أو بكرة من الحبال.

في الحقيقة كان جارنا يربط حماره بحجر مشرومٍ خفيف يكاد الحمار عندما يسحبه وهو يسير إلى حقلنا لا يشعر بأي شيءٍ يمنعه. وكانت هذه حالتنا مع الحمار الذي بات رفيق عطلتنا الصيفية في القرية. حتى أنني أذكر أن أخي ملّ وخجل من تكرار مناداة جارنا العزيز، وصار يربط الحمار بنفسه في حقلنا، لكيلا يضيع هذا الطريق فينزل إلى الشارع العام حيث تسير السيارات مسرعة، فيحصل ما لا يُحمد عقباه! كذلك كانت أمي تجمع ما يبقى عندنا من قشور البطيخ الخضراء وتنزلهم له!

المشهد الثالث: جيل النكسة

كنا عندما نصعد إلى القرية في العطلة الصيفية يقول لنا أصدقاؤنا من أولاد جيراننا هناك: «لقد أتى البيارتة»، وكانوا ينظرون إلينا نظرةً غريبة ومستهجنة، كأننا قادمون من السفر أو هابطون من المريخ، وكنا نحضر بالفعل معنا ألعاباً نلعب بها معاً. وأذكر أنني عندما خرجت لأول مرة بالدراجة الهوائية حصل هرج كبير قرب بيتنا وتجمع الأولاد من حولي، ومن ثم صارت شبه عادية.. خاصةً بعد أن دهستني إحدى السيارات المسرعة فيما كنت أيضاً أنزل بها مسرعاً

من ناحية حقلنا، انقضت الحادثة بكسر في اليد، وانقطاع عن الدراجة ريثما يجبر الكسر..

وابتكرنا بعدها سيارة خشبية بمقود خشبي، كنا نركّزها على ثلاثة دواليب حديدية صغيرة بداخلها كرات حديدية، اسمها «رولمان» أو شيء من هذا القبيل. كنا نجلس عليها في النزلة، وندير المقود بقدمنا..

بالمقابل وإن كنا قد ولدنا في بيروت وعشنا وترعرعنا فيها، بالأحرى في ضواحي بؤسها وصفيحها، ومن ثم في ركامها، وكنّا حطام أبنائها وعظام أحزابها وتظاهراتها، وعشاق بحرها وليلها ونهارها، لكننا ظللنا رغم هذا كله ريفيين على أبوابها.

لم نفلح أن نلج إلى بواباتها وبروجها التي ظلت عالية ومستعصية بشكل ما، ولكننا وإن هاجرنا منها وهجرناها، إلاّ أنها لا تبرح تظل ساكنة فينا، تسير في عروقنا ولا تنجح ذاكرتنا إلاّ في استعادة زواريبها ومتاهاتها وأحاديثها..

هل من طريقة لإخراج معشوقة وإن كانت مدينة من دمك؟! هل من سبيل لذلك؟ وكيف تراه يكون ذلك؟!

جيلنا هو «أخرى» جيل بكل ما لهذه الكلمة من سفاهة ومعنى، فماذا يعني أن تكون قد ولدت في عام النكسة!؟، أو قبلها أو بعدها

بعامٍ أو عامين أو دستة أعوام! لن يغير هذا في الأمر شيئاً، أنك من جيل النكسة. وعليه، فإنك ستظل منتكسا أو منكوساً طوال عمرك.

فهذا يعني أنك ورثت وزر النكسة والهزيمة كلها تلك التي مُنيت بها الأمة، وإن كنت لم تزل بعد مضغة أو حتى مجرد لقمة سائغة!

وهكذا فأنت لم تلحق مرحلةً بعينها، لا مرحلة الجمال ولا الحمير والبغال، وإنما لحقنا آخر صورها فلم نعشها بعمق وتجذر لكي ترسخ في وجداننا ونستطيع بالتالي الحديث عنها!

وأنك كذلك لن تكتفي بتحرير فلسطين، لو تحررت!! أو تهزم الامبريالية مرةً واحدة، لو انهزمت!!، لا ولكنك سوف تظل تحررها مرات ومرات كثيرة، ولن تكتفي بذلك أو تشبع حتى تحرر نفسك ذاتها من احتلال فلسطين، وفيتنام وكوبا؛ لها ولذاكرتك، لاسمك ليومك أو لأمسِ ميلادك!

ولكنك رغم هذا سوف تظل ابن النكسة والهزيمة والنكسات والشعارات الطنانة! وسوف تصير أحجية ذاتك وحديث العابرين؛ «دويكٌ» أبدي كبير في مدينة لا تنجح إلاّ في الهروب من أبنائها؛ هكذا ستظل أبداً؛ بيروتياً على عتبة القرية التي باعت جمالها، وانقرض حميرها، واستبدلناها بالدواب الحديثة، وبار شعيرها، وصاروا صوراً في الماضي، وصارت تشتري وتستورد كل ما كانت تزرعه في حقولها، واستعاضوا عنها بالمعلبات المحفوظة!

كذلك أنت سوف تظل عابر سبيل على أرصفة المدينة، مهما أطلقت في أفيائها ونثرت في عبق أحشاءها من أشعارٍ ومواويل وآهاتٍ وكلمات عابرة!!

7/شباط/2022م

الجزء الخامس:

مقالات منشورة

يضم هذا الجزء مقالاتٍ ونصوصاً مختارة،

نُشرت في جرائد «السفير» ، «القدس العربي» ، و «الحياة» ، وموقع «زوايا»، ما بين الأعوام 2007 و2020.

نفرتيتي الجميلة التي أتت إلى برلين
هل تذهب لزيارة مصر؟

على ما يبدو لم يجُلْ في خاطر السيد بورشاردت عندما خَّبأ رأس نفرتيتي في سلة من القش والأغراض البالية، أن هذا الرأس الخطير لزوجة الفرعون أمنحوتب الرابع المعروف بأخناتون، صاحب التوحيد، سوف يثير زوبعة عاصفة بين دولتين، وذلك بعد أكثر من تسعين عاماً على فعلته تلك. سنة 1912 عثر عالم المصريات الألماني لودفيغ بورشاردت في تل العمارنة على التمثال النصفي للملكة نفرتيتي، وكان في حالة جيدة، فنقله إلى بيته في حي الزمالك ومن ثم هرّبه إلى ألمانيا بعدما لفَّه بقطعة قماش وطلاه بطبقة من الطمي، وأخفاه بين قطع فخار غير ذات قيمة كانت مرسلة إلى برلين للترميم. هذه رواية حول طريقة وصول جدة أو ملكة المصريين السابقة إلى برلين .

بالمقابل، يروي الألمان قصة أخرى، مفادها أن عالم الآثار الألماني جيمس سايمون الذي كان مشرفاً على عملية التنقيب حصل على التمثال، وأخذه من ضمن حصته. حيث كانت تقسَّم الموجودات مناصفة بين المنقِّبين والإدارة العثمانية آنذاك، وقد أهداه هذا لاحقاً إلى المتحف البروسي . بهذا، يكون رأس الملكة الشهيرة، نفرتيتي،

أو «الجميلة التي أتت» وفق اللغة المصرية القديمة قد وصل إلى ألمانيا بطريقة شرعية[1]

اللافت هنا هو أن المرء لا يعدم روايات أخرى لهذه القضية يتشابه بعضها، ويتناقض ويتضارب بعضها الآخر .

بأي حال، يدور الكلام الآن عن استعارة التمثال وليس عن استرداده، وإن بدأ كثيرون هنا يشكِّكون في صدق نوايا المصريين بهذا الصدد.

وقد ذهب البعض إلى القول إن زاهي حواس، الأمين العام لمجلس الآثار المصري، يسعى لاسترداد آثار مهمة إلى بلاده مصر .هذا فيما يرى آخرون أن مثل هذا الزعم لا يمكن أن يكون واقعياً، وأن دون ذلك مشاكل كبيرة قد تعكِّر صفو العلاقات بين البلدين .يُذكر أيضاً أن الرئيس المصري حسني مبارك كان قد سبق وذكر في مناسبات مختلفة أن نفرتيتي هي بمثابة "سفيرة فوق العادة" لبلاده في العالم .وقد نُسب كلامٌ لحواس[2] يُشكك فيه بصحة الرواية الألمانية حول شرعية وجود التمثال في ألمانيا قائلاً: إن خداعاً وتمويهاً للتمثال اكتنفا عملية نقله إلى ألمانيا .لكن ثمة مواقع كثيرة

(1) «دير شبيغل»، في/13 نيسان/2007.

(2) «دير شبيغل»، عدد/15 نيسان/2007.

منها"دوتشيه فيله" ترجح رواية المصريين، وخاصة أن شواهد عليها وردت في مذكرات بورشاردت نفسه الذي عثر على هذا التمثال في أثناء وجوده ضمن بعثة سايمون .وقد كان بورشاردت شديد التعلّق بهذا التمثال، وقد برّر لجوئه إلى الحيلة بأنها كانت الطريقة الوحيدة لإبقاء التمثال إلى جانبه» :ألوانه زاهية كأنه مرسوم اليوم ...الوصف لا يفيد...

يجب النظر إليه بأم العين"، نقل موقع "جيو دي أي" عن مذكرات بورشاردت .

في الواقع، لا يعدم الزائر لمتاحف ألمانيا وبرلين تحديداً، حيث الأقسام الشرقية الشهيرة بمقتنياتها من بلاد الشرق، من بابل ومصر الفراعنة ومملكة بترا إلى فينيقيي لبنان والساحل السوري عموماً، أن يلاحظ تلك الحفاوة الكبيرة التي تحظى بها هذه الآثار هنا، وخاصة تمثال نفرتيتي أو أقدم مواطنة برلينية كما يحلو للكثيرين هنا أن يصفوها. وممّا لا شك فيه أن ثمة تنافسٌ بائنٌ وجليٌ بين برلين وباريس يدور في هذا السياق .فتسعى برلين ومنذ الوحدة بين الألمانيتين وبزوغ مشروع الوحدة الأوروبية إلى أن تكون عاصمة مميزة في أوروبا الحديثة، على غرار ما تحظى به باريس من سمعة سياحية وأثرية تؤمنها لها متاحفها، واللوفر بشكل خاص .

رأس نفرتيتي كان ولا يزال أحد المعالم الرئيسية التي يسعى زائر برلين إلى زيارتها .فهي بمقام موناليزا اللوفر، تعدُّ من أبرز المعالم

الأثرية المعروضة في المتحف الوطني في برلين .وقد تم عرضها على الملأ عام 1923 في المتحف المصري في برلين، إلى أن اختفت خلال الحرب العالمية الثانية1943 ، ليتبيّن بعدها وبعد أن تبين أنها كانت عام 1945 لدى الحلفاء في فيسبادن بغرض الحفاظ عليها، عادت بعد ذاك إلى برلين مرة أخرى عام1956 ، لتُعرض في قصر شارلوتنبورغ .وفي عام 1967 انتقلت الملكة إلى المتحف الذي سُمي باسمها ويضم العديد من الآثار المصرية القديمة .يعتزم الألمان نقل هذا التمثال عام2009 ، ليستقر بشكل نهائي في المتحف الوطني الجديد داخل ما بات يُعرف هنا في برلين بجزيرة المتاحف .

بدأت معالم هذه الأزمة تتوضح وتأخذ مداها في وسائل الإعلام بعد إخطار وزارة السياحة المصرية عبر ممثلها هنا برغبة مصر استعارة رأس الفرعونة المصرية، ليكون أحد أبرز المشاركين في احتفال افتتاح المتحف المصري الجديد المقرر عقده عام 2011 في القاهرة .في البداية، كان رد الألمان مبهماً وغير واضح .بعدها، بدأت الأصوات تتعالى مبدية الخشية على الرأس من أن يتعرض للتلف في أثناء عملية النقل .وبدا أن خلف موقف الألمان مخاوف وهواجس أخرى غير تلك المعلنة .وسرعان ما راحت هذه الهواجس تتبدَّى أكثر: "نحن نخشى ألا تعيد مصر الرأس إلى ألمانيا".

إزاء هذا، انقسم الرأي العام الألماني على نفسه حيال هذه القضية، وقد تمّ تشكيل تجمع في هامبورغ للمطالبة بإعارة رأس نفرتيتي إلى مصر .وأطلقوا على تجمعهم هذا اسم"نفرتيتي في رحلة".

وعلّقت ممثلة هذا التجمع آنيا كور قائلة: "من غير المعقول ألا تتاح الفرصة أمام شباب مصر بأن يلقوا نظرة على رمز من تاريخهم، فهل يجب أن يأتوا إلى برلين ليفعلوا ذلك؟" لكنها لم تنسَ في الوقت نفسه أن تطلب من المصريين وجميع المعنيين بهذا الأمر تقديم الضمانات اللازمة لناحية عودة التمثال سالماً معافى إلى ألمانيا .

وقد راحت أصوات أخرى تتحدث عن شرعية حصول ألمانيا على رأس الملكة وتخوّف البعض من بداية ظهور حالات شبيهة أو ظاهرة شاملة تطالب بإعادة الآثار إلى البلدان التي كانت فيها .

وقد توسَّع السجال في ألمانيا ليطال الصحف ومواقع"التشات" الحر، بعدما رفض وزير الثقافة بنرد نيومان من" الحزب الديمقراطي المسيحي" إعارة هذا التمثال لمصر بحجة إمكانية تعرضه للضرر .

المصريون، بالمقابل، يرون أن لهم الحق الكامل فيما يطالبون به، وقد هددوا بوقف كل معارض الآثار المصرية في ألمانيا في حال عدم الموافقة على عرض نفرتيتي في مصر لمدة ثلاثة أشهر .فرفض ديتريش فيلدونغ، مدير المتحف المصري في العاصمة برلين،

التهديدات المصرية بإيقاف التعاون مع المتاحف الألمانية .وأضاف إن التهديدات المصرية بمنع إعارة ألمانيا القطع الأثرية لن تؤدي إلى"تغيير كبير" في الوقت الحالي، وأشار إلى أن الأمور تسير حالياً بشكل طبيعي ومريح .وذكر أن عرض رأس الملكة في المتحف المصري بالقاهرة لن يضيف جديداً إلى الكنوز الأثرية الأخرى المعروضة هناك وأنها لن تُعطي في القاهرة عنصر الانبهار نفسه الذي تشعّه في برلين .

ورأى رئيس مؤسسة "الإرث الثقافي البروسي في برلين" في أكثر من مناسبة أن نفرتيتي تعدّ جزءاً لا يتجزأ من الهوية الثقافية لبرلين، وأشار إلى "العقود الرسمية المعترف بها من جميع الأطراف" في ما يتعلق بملكية الجانب الألماني للتمثال ذي الألوان الزاهية .وقد علّق قائلاً :„إن السيدة ليست قادرة على السفر بعد ثلاثة آلاف عام".

تعود جذور هذه القضية إلى سنوات بعيدة، عندما راح المصريون يسعون لاسترداد بعض هذه الآثار .وقد سبق لهم أن طالبوا باستعادة رأس نفرتيتي عدة مرات وكادوا ينجحون في مسعاهم ذاك سنة 1933 لكن الفوهرر أدولف هتلر رفض ذلك في اللحظة الأخيرة، معلناً عن رغبته في أن تبقى الملكة إلى جواره في عاصمته الجديدة "غرمانيا" التي كان ينوي إنشاءها.

إلى هذا، أشار بعض الألمان إلى الاتفاقية الموقعة في الأونيسكو عام 1972 والتي تحظر على الدول الموقعة عليها المطالبة بإعادة الآثار إليها بعد هذا التاريخ .

تردّنا هذه الحفاوة مباشرة إلى علم المصريات، هذا الفرع المعرفي الذي يُدرس في أغلب الجامعات الألمانية، ويحظى بالميزانيات العالية .وما لا شك فيه هو أن هذا العلم غربي وكولونيالي بإمتياز، وقد نشأ مع حملة نابليون على مصر سنة 1798 مع ما عُرف حينها بمشروع "وصف مصر".

وفي تلك الحملة، تم العثور على حجر رشيد[1] الذي تمكن العالم الفرنسي شامبليون بواسطته من فك حروف اللغة الهيروغليفية .الأمر الذي مهد إلى سبر أغوار هذه الحضارة العريقة .كما أن هذا الفرع المعرفي الجديد يدين بكثير من منجزاته إلى علماء غربيين آخرين أمثال أوغست ماريت الذي أسس المتحف المصري في القاهرة والذي كان يواجه تصرفات الخديوي اسماعيل المستهترة بقيمة هذه الآثار، حيث كان يهديها لعشيقاته .وكذلك، إلى الألماني لبسيوس الذي عمد إلى تسجيل الآثار بدقة بروسية خالصة . ولكن، على الرغم من ذلك، لم تعدم هذه الآثار أن جذبت أيضاً اللصوص إليها من كل الأطياف والدول ولعل أشهرهم على الإطلاق الإيطالي بلزوني الذي تملأ المشتريات منه متاحف شهيرة في لندن وباريس وبرلين ونيويورك[2].

---

(1) حجر بازلتي عليه نقوش هيروغليفية وجد في مدينة رشيد بدلتا مصر.

(2) نُشر في ملحق شباب السفير في /16 أيار.2007 /

نظرة إلى وجوه العائدين
من موسم العطلة

العائدون من أوطانهم –من بين الذين أعرفهم– أتوا من لبنان والمغرب وتركيا وجوههم ازدادت سماراً وكأنما خفّت تجاعيدها .يبدأون هنا من جديد بلا حماسة وبشيء من الكسل وبكثير من النّق، مع أنهم ذهبوا للاصطياف في بلدانهم عن طيب خاطر لم يُكرههم أحد . وعندما تفتح السيرة أمامهم يسترسلون في سرد الروايات والأحاديث وكأنهم يفتتحون غربتهم هنا للمرة الأولى، أو كأنهم مكثوا هناك لعدة سنوات .

يجمعون على حديث واحد: كم أنفقوا في أوطانهم، وكأنهم تبرعوا بهذه الأموال لدور الرعاية أو لمؤسسات الدولة العامة .

أنفقت هناك ما وفّرته هنا خلال عام من الكدّ والعمل، يقول بدر العائد لتوِّه من المغرب، ومثله فعل عماد العائد من لبنان: «غلاء وتشبيح في كل شيء» يقولها ولا تعرف إن كان مستاءً أم راضياً عن رحلته .أنفقت عدة آلاف من العملة الأوروبية .وبعد أن يستفسره أحد المغتاظين–على ما يبدو– يتبيَّن أنه أضاف طابقاً جديداً إلى بيته في القرية، ولكنه لم "يشطّبه".

«ليست الأوضاع مثلما يهوّل الناس ووسائل الإعلام، لكن البلد من أساسه خربان» ، يقول أبو أسعد، فيما ملامح وجهه تحمل حياداً

بارزاً عن مجريات الأحداث .فأمورٌ مثل الرئاسة، أو الحكومة الثانية، أو المعززة، أو المناصفة، مهما بدت داهمة أو حاسمة ورنّانة يبدو أنها لا تشكّل أيّ هاجسٍ يُذكر بالنسبة إليه، وأنها على الأرجح لا تدخل في حساباته البتة .

ياسمين بقيت هناك، تقول إحدى الفتيات: «لا تريد العودة إلى هنا »، وتسكت .فيفهم كل من يعرف ياسمين أنها محقة في بقائها هناك، ولربما تقول إحدى الخبيثات: «بقيت هناك، علّها تحظى بنسبة أعلى من العرسان، أكثر من تلك المتوفرة هنا» فالبلد وفق هذه الرؤية هو مجموعة من العرسان الجاهزين لاحتمال أو إمكانية السفر .

لكن ما يلفت أكثر هو اندهاش أو استغراب بعض العائدين من شدَّة النظام واحترام القوانين ونظافة الشوارع وحسن تنظيمها هنا، مقارنة بما عايشوه «تحت » في رحلتهم من فوضى ورشى وفساد في كثير من المرافق العامة، ومن تعقيد بعض المعاملات في المرفأ وغيره .هذا الشعور الذي يتكون عادة في بداية سنيّ الهجرة .لكنه، على يبدو، يعاود الظهور بعد كل زيارة إلى الوطن كي يترسَّخ لدى البعض الشعور بطول مدة غربتهم «السبب بسيط، وهو يكمن في المحسوبيات وقانون الواسطة»، يقول حسين بشيء من الحسم فينهي الموضوع .

بالنسبة إلى كثير من الألمان والأوروبيين عموماً تكاد العطلة السنوية في أحد البلدان السياحية أن تكون الهدف الأسمى الذي يجهد

الواحد منهم لتوفير ما يلزمه من المال من أجل قضاء هذه العطلة على أفضل وجه .كذلك، يبدو أن المهاجرين العرب والأتراك يفعلون الشيء نفسه، مع فارق أنهم يقومون بزيارة بلدانهم الأصلية عوضاً عن زيارة بلدان الآخرين .أي أنهم يتعبون طوال العام من أجل أن يتمكنُّوا من زيارة بلدهم الأصلي في شهر العطلة .

يعود الألمان بمجموعة من الصور تؤكد سعادتهم في المكان الذي زاروه .بالإضافة طبعاً إلى اللون الأسمر الذي يحرصون على أن تناله بشرتهم، كدليل دامغ على نجاح رحلتهم .يرى الكثير من الألمان أن هذه الأسابيع القليلة التي يقضونها في رحلاتهم السياحية كافية لتعديل المزاج السيئ الذي قد يتسبب به اضطراب وتجهُّم المناخ هنا .

في المقابل، يستولي على اللبنانيين والعرب عموماً شعور غريب بعدم الرضا وربما بالندم من جرّاء الرحلة «لم نسعد كثيراً في زيارتنا نسبة لما انفقناه، والناس لا يكلّون من التجهم والنّق حولك»، يعلّق أبو أحمد وهو أحد العائدين برّاً .

برّاً، تعني أنه قطع البلدان التي تفصلنا عن لبنان في السيارة، وهو يحسب أنه يوفر الكثير، أقلّه السيارة التي تكون بحوزته عوضاً عن تلك التي سوف يضطر لاستئجارها هناك: «بلا سيارة، لا تستطيع أن تفعل شيئاً في لبنان ».

إزاء شريحة الألمان المهاجرين الذين يسافرون في وجهات مختلفة، ثمة شريحة أخرى تبقى هنا، ويجترح بعض هؤلاء الأفكار والرحلات الداخلية من أجل تمضية عطلة أقل كلفة من تلك التي تنقلهم إلى خارج البلاد، وإن بدت هذه الداخلية أقل متعة وإثارة من غيرها، لكنها تبقى رحلات تمنِّي النفس بمتعة الابتعاد المؤقت والمقصود عن مكان الإقامة والعيش المعتاد، وسعياً وراء تكوين شعور بالاشتياق إلى العودة من أجل بدء عام مهنيّ جديد[1].

---

(1) نُشر في ملحق شباب السفير في /5 أيلول2007 /

التنين الأصفر "يسرق" من أوروبا برامجها
ماذا يفعل "طلاّب"
ورجال أعمال صينيون في ألمانيا؟

«أنت أمام بلد غريب، إنهم يقلّدون لك أيّ شيء تطلبه، يكفي أن تعرض لهم نسخة عن الأصل أو حتى صورة له »

عادت إليَّ الكلمات التي قالها مرةً صديق يقوم بزيارات عمل متواصلة إلى الصين .يبدو أنها لم تمر في ذهني كمرور عشرات، بل مئات الجمل التي نستهلكها يومياً .ويبدو أيضاً أن حضارة النسخ أو التقليد باتت تبلي بلاءً حسناً في حسابات الأمم، والاقتصاد، والنمو، والنقصان .حتى أن الدول الصناعية الغربية الكبرى التي كانت لعقود طويلة تعتبر نفسها بمنأى عن الخطر والمنافسة، باتت تدقّ ناقوس الخطر من تنامي التنين الصيني المطّرد .

آليات النسخ والتقليد الصينية تَستند على ما يبدو على مقوّمات ثقافية مترسخة في التقاليد الصينية الكونفوشيوسية، حيث إن النسخ يُولى أهمية تجعله في مصاف الفن الأصيل .

يبدو أن هذه الآليات باتت عاجزة عن مواكبة تعقيد الصناعات الحديثة، فباتت بحاجة إلى الحصول على نسخة عن برامج التصنيع والأشكال والتصاميم الأصلية، فراحت تتوسَّل أساليب أخرى أقل

أخلاقية، ولكن أجدى نفعاً وأكثر فاعلية :التجسّس وقرصنة التصاميم والنسخ البرمجية لكثير من المنتوجات والسلع .ويبدو أن سهام هذه العمليات تستهدف الألمان أكثر من غيرهم .

يُذكر في هذا السياق أن تقارير اقتصادية قد أشارت إلى أن الصين سوف تصبح القوة الاقتصادية الثالثة في العالم، بدلاً من ألمانيا .

في المقابل، بدأ كيل الألمان يطفح من عمليات النسخ الصينية، فهي تكبد الاقتصاد الألماني خسائر مادية ومعنوية فادحة .فدرجت منذ فترة صحف ألمانية كثيرة على تسليط الضوء على كثير من حالات التجسسُّ الصناعي وسرقة التصاميم وتقليدها في الصين .

منذ فترة قريبة، خصصت مجلة « دير شبيغل »في عددها الصادر في 27 آب 2007 ملفّاً لنقاش الجاسوسية الصفراء: كيف تتجسَّ الصين على التكنولوجيا الألمانية .نشرت مقابلات مع أصحاب شركات ألمانية تعرَّضوا من قبل زبائن (عملاء)صينيين لسرقة تصاميم منتجاتهم، كالباصات ومحركات السيارات وما شابه . وعرضت صوراً لسيارة «سمارت» الألمانية الصغيرة الحجم، ولنسختها الصينية المقابلة لها، وهي تكاد لا تتميَّز عن الأصلية بشيء يُذكر، سوى الاسم الصيني .وتوالت الأمثلة لتطال القطار ذا السكة المغناطيسية، والجرافات، وآلات الحفر ...

أنها حرب باردة بكل ما للكلمة من معنى، ولعل مسرحها الأكثر إثارة وتأثيراً هو المجال المعلوماتي، أي تلك الهجمات الرقمية وعمليات القرصنة الكمبيوترية، وهجمات الفيروسات .ففي أقل من شهرين، تعرّضت مؤسسات ومصالح رسمية ألمانية لهجمات تجسُّس عبر الإنترنت، ولم تتوانَ ألمانيا عن توجيه أصابع الاتهام مباشرة إلى «المصالح الصينية»، و«مجموعات مرتبطة بالجيش الصيني»جاء ذلك على لسان هانز المار ريمبيرغ، رئيس المكتب الألماني لحماية الدستور، وتُعدُّ هذه المؤسسة بمثابة المخابرات المحلية .وقد علّل المسؤول الألماني هذه العمليات بأن الصين تسعى من خلال جمع المعلومات والأسرار الصناعية والعسكرية إلى سدِّ الفجوات التكنولوجية بأقصى سرعة ممكنة، وذلك من أجل تحقيق هدفها في التحوّل إلى قوة صناعية كبرى في العالم(1).

ليست ألمانيا الدولة الغربية الوحيدة التي تتعرّض للهجمات التجسّسية الصينية، وإنما سبق للولايات المتحدة الأميركية وفرنسا وبريطانيا أن تعرضت لعمليات مشابهة، حيث طالت الهجمات الرقمية مواقع استراتيجية حسّاسة كأجهزة كومبيوتر البنتاغون، ومؤسسات

(1) ديرشبيغل. 2007 /10 /22

صناعية ورسمية فرنسية وبريطانية ورجّح خبراء في المعلوماتية وأنظمة الحـواسيب آنـذاك أن تكون الصـين مصـدر هذه الهجمات .

لم يعد الصراع بين الصين من جهة وألمانيا والدول الغربية الأخرى من جهة متوارياً، وهو آخذ في التنامي ويأخذ أبعاده في المسارات السياسية والاقتصادية والبيئية، ومن خلال التنافس الحامي على قارات التسويق وأسواقه .وما زيارة المستشارة أنجيلا ميركل إلى أفريقيا مؤخراً إلاّ لتوطيد العلاقات التجارية مع القارة السوداء ولمواجهة التمدد الصيني .

وذكر متابعون ألمان أن عمليات التجسس الصناعية الصينية لا تقتصر على عمليات الإنترنت، والتقنيات والوسائل التقليدية التي تعتمدها دول أخرى كروسيا، وإنما تتعدى ذلك إلى اعتماد الصين على خبراء في مجال الكمبيوتر وعلى الطلبة ورجال الأعمال الصينيين الذين يأتون إلى ألمانيا بهدف الدراسة أو العمل .فلوحظ ارتفاع عدد هؤلاء المقيمين في ألمانيا27 ألف طالب، مقابل ستة آلاف طالب عام2000.

في محاولة للتخفيف من وطأة الحملة الألمانية على كل ما هو أصفر، ذكرت «دير شبيغل»« :بالطبع، ليس كل طالب أو صاحب مطعم أو رجل أعمال صيني جاسوساً أو جامع معلومات صناعية، وعلى الأرجح أن هؤلاء يشكّلون قلّة من الجالية الصينية المقيمة في ألمانيا».

في إحدى المداهمات التي نفّذتها الشرطة الألمانية ضد مشتبه بهم في هذا السياق، تم العثور في شقّة أحد الصينيين على170 « ديسك»، تحتوي على معلومات صناعية .وقد رأى محللون أن هذه العمليات تؤشر إلى ضعف أجهزة الحماية والأمن في الشركات الصناعية، حيث إن عمليات نسخ برامجها الإلكترونية تكون سهلة في كثير من الأحيان .

إلى ذلك، انتقد مراقبون ألمان الخفّة التي تتعامل بها السلطات الصينية، وخاصة دائرة الجمارك، حيال هذا الموضوع، إذ لا يتم التدقيق ولا التشديد على ملاحقة القراصنة الصينيين الذين يجلبون غنيمتهم من ألمانيا وأوروبا لنسخها في بلادهم، بل أنها تكتفي من حين إلى آخر بإجراء عملية تفتيش محدودة[1].

([1]) نُشر في ملحق شباب السفير في.2007 /11 /7

هكذا غيّرت قوانين الهجرة
حياة المهاجرين وشروط زواجهم

في الثمانينات، عندما وطأت أقدام أغلب المهاجرين العرب أرض هذه البلاد، كانت قوانين اللجوء تختلف كثيراً عمّا هي عليه الآن .فكان الناس يُسكنون في «هايمات» خاصة بهم، أبنية كبيرة تضم لاجئين من بلدان مختلفة من أفريقيا وآسيا .ومن بعد الإسكان، كان يتم البت في حالة كل عائلة أو فرد على حدة، ليتم الفرز بعدها إما إلى برلين أو إلى الغرب .وبالطبع، كانت الأوضاع في الغرب مثالية وقد وصفها أحد اللاجئين اللبنانيين بالقول: «أنها الجنة على الأرض». فقد كان الأجانب في المدن أو القرى الغربية بمثابة «الفرجة» ومحط اهتمام السكان ويحظون برعاية مميزة . وما كان على هؤلاء المهاجرين سوى العيش والأكل، والنوم، والتمتع بالرخاء، والهدوء . حتى أنهم كانوا يُمنعون من العمل .

وقد أصبح هذا المنع يُدمغ رسمياً على جواز مرورهم :«يُمنع صاحب هذا الجواز من ممارسة أي عمل على الأراضي الألمانية». وقد أُمعن في منع مزاولة العمل حتى نسي بعضهم، بعد عدة سنوات، كيف يكون العمل .

فيقول أبو هشام :«عندما سمحوا لنا بالعمل كنا قد تخشبنا، ونسينا كيف نعمل وبان الكبر على بعضنا، وباتت أغلب الشركات والمعامل

ترفض تشغيلنا». أما من نجح في إيجاد عمل فشكَّلوا بأغلبيتهم فيما بعد جيل العاطلين عن العمل، أي هؤلاء الذين يتقاضون من مكتب العمل بدل العطالة .ولاحقاً، بات هذا المنع يُحصر بمهن محددة لكي لا يؤثر عمل اللاجئين على فرص العمال الألمان .

وكانت الحال حتى أوائل الثمانينيات تقضي بأن يمر على وجود الشخص أو العائلة سنة أو أكثر قبل أن يُمنح أفرادها حق الإقامة والعمل .

لكن الأمور– فيما بعد– راحت تصعب وضاقت أبواب هذه الجنة أكثر فأكثر .وكان كثيرون من اللاجئين ينظرون إلى إقامتهم هذه هنا على أنها مؤقتة وطارئة، على اعتبار أنهم سوف يعودون في وقت قريب إلى بلادهم .وكانت الإشاعات اليومية تنتشر كالنار في الهشيم بين قاطني «الهايمات»، وتدور بمعظمها حول قرارات «تسفير» أو إعادة اللاجئين إلى بلدانهم التي توقفت الحروب فيها، وكان اللبنانيون معنيين بعد عام 1990 بهذه الأخبار أكثر من غيرهم .

تُروى في هذا الإطار حكايات طريفة كثيرة حول بعض اللبنانيين وغيرهم ممّن كانوا يجمعون المقتنيات والأثاث بغرض ترحيلها معهم إلى بلدانهم .كحال أبو قيصر الذي عندما اشترى أول تلفزيون ملون كان نظام التلفزيونات المعمول به هنا« بال»، أمّا في لبنان فقد كان «سيكام » ولذلك عمد إلى إضافة النظامين إلى جهازه متكلفاً ما بين 250و 300مارك .

هكذا كان يتصرف اللاجئون في ظرف متوتر وخال من الاستقرار .لا يعرفون مآل مصيرهم، فيما الأولاد يكبرون .في المقابل، كانت مسألة دراستهم هنا لا تؤخذ بعين الجدية ولم تلقَ هذه المسألة اهتمام العائلات الكافي، هذه العائلات التي لا يمكن القول عنها أنها كانت بأي حال من نُخب أوطانها التي نزحت عنه مُكرهةً .

سُيشكِّل الأبناء في ما بعد ما بات يُعرف اليوم بالجيل الأول من الأبناء، أي الجيل الذي لم يولد هنا وإنما أتى البلاد عن سن صغير أو متوسط .ويواجه هؤلاء مشاكل معقدة وأخطر ربما من تلك التي واجهتها الأجيال التي تلتهم من الذين ولدوا هنا .فهم يعيشون التشوّه في الرؤى والتصورات حول شخصيتهم وهويتهم، وإن كانوا يبدون نسباً أعلى من التكيف مع المجتمع من تلك التي يبديها آباؤهم .لكن أغلبيتهم لم تحظَ بفرص تعليم عالية، إمّا في جامعة وفي معاهد التعليم العالية، أو في احتراف مهنة تخوّلهم شغل وظائف .فمضى أكثر هؤلاء إلى أشغال هامشية، أو إلى تجارة السيارات، حيث يشهد هذا القطاع التجاري استقطاباً كبيراً لشريحة كبرى من أبناء الجالية اللبنانية هنا .

مع نهاية الثمانينيات ومطلع التسعينيات، أرادت ألمانيا تسوية أوضاع اللاجئين، فأصدرت قانوناً منحت بموجبه أغلب هؤلاء حق الإقامة في ألمانيا .وفي بعض تحليلات ذاك القانون، يرى ألمان أن الهيئات المختصّة في ألمانيا رأت في منح الإقامات والجنسيات لهؤلاء

مصدر فائدة على مستوى تطور المجتمع الألماني واقتصاده، وأبقت الرهان على الأجيال الثانية والثالثة التي سوف تنجح المدارس الألمانية في دمج أبنائهم وتأهليهم ليصبحوا يداً عاملة فنية مختصة تساعد في سدِّ حاجات السوق الألمانية المتصاعدة .

فلا تنفك دوائر الهجرة تستدعي أبناء الجيل المهاجر الأول وقد باتوا فوق الثلاثين إلى دورات تعليم اللغة الألمانية حتى أيامنا هذه، لكن من دون أن تنجح هذه الدورات كثيراً في ردم الهوّة بينهم وبين المجتمع الألماني .وقد يكون هؤلاء المهاجرون قد أدركوا النوايا المبيتة لهم ولأولادهم، فراحوا ينمّون عداء لافتاً لهذه المدارس، والكثيرون منهم ينظرون إليها بعين الريبة ويبرزون حيالها لامبالاة واضحة، لا بل كراهية معلنة في بعض الأحيان .وذلك على اعتبار أن هذه المدارس تسلخ أولادهم عنهم، وتنزع منهم هويتهم ولغتهم وثقافتهم ودينهم: «عم ينزعوا ولادنا، وعم يربوهم على عدم احترام الأهل»، يقول أبو محمد مستاءً بعد جولة تربية ضارية أو مناوشة حامية مع ابنه، حيال بعض رغبات الابن المستجدة وهي –على ما بدا– رغبات يقتضي تنفيذها ما يفوق طاقة هذا الأب المهاجر .

بانت آثار هذا القانون، الذي مُنح الآلاف بموجبه حق الإقامة والعمل، وحتى الجنسيات، على حياة وسلوك المهاجرين بشكل جلي، بل يمكن القول إنه قلب مستقبلهم ونظرتهم إلى أنفسهم وإلى البلد الذي يقيمون فيه رأساً على عقب .وبدأ يغلب الشعور بالاستقرار والتأسيس

على ذاك الشعور السابق بعدم الثبات، أو مرحلية الإقامة هنا .وانتقل العديد منهم إلى العيش في بيوت خاصة يختارونها بأنفسهم .لقد دخلوا باختصار في عالم أو دينامية المجتمع وقوانينه الضرائبية وغيرها .ونجح الألمان بدفع هؤلاء إلى الدخول إلى سوق العمل والاستهلاك، عوضاً عن الركون إلى فلسفة الادخار وتصدير هذه المدخرات إلى بلدانهم التي نزحوا عنها .

في تعديل جديد على قانون الهجرة أقر مؤخراً (أذار2007) في برلين بعد مناقشات حامية بين حزب المستشارة أنجيلا ميركل والحزب الاشتراكي (اللذين يشكلان حكومة ائتلافية)، قضى بتسوية أوضاع حوالي مئتي ألف مهاجر ممّن توصف حالتهم بـ«إقامة مؤقتة» في مهلة تنتهي عام2009 ، على شرط أن يتقدم طالب حق الإقامة بمستندات تُثبت حصوله على عمل مناسب يؤمن من خلاله معيشته .

هكذا حصل « منير»وغيره ممّن يعملون على حق الإقامة في قانون لاقى معارضة الأجانب وبعض الألمان أيضاً، لتشدُّده في كثير من المسائل التي تتعلق بحياة المهاجرين، ولغة ارتباطاتهم الأسرية، وشروط زواجهم من أقاربهم في أوطانهم .وقد بات شرط الزواج وفق هذا التعديل الجديد قاسياً وعالي الكلفة، إذ يقضي بأن يلمّ القرين باللغة الألمانية، وأن يتقدم بوثائق تثبت قدرته على ممارسة مهنة معينة، وسواها .يهدف القانون الجديد من وراء هذه التشديدات إلى الحد من ظاهرة زواج أبناء المهاجرين هنا من أقاربهم في أوطانهم

الأصلية، والإتيان بهم للعيش في ألمانيا .فزواج المهاجرين، حسبما ترى دوائر يمينية محافظة هنا، يزيد من أزمة البطالة[1].

(1) نشر في « ملحق شباب»جريدة السفير، في 26 أيلول .2007 وأعيد نشره في نفس الملحق بتاريخ، 22 أيلول.2015

دعوة ألمانية لمناقشة "آيات شيطانية" في جامع في مدينة كولن حيث اختبأ رشدي

منذ عامين تقريباً، كنت أُقلّب القنوات التلفزيونية، فإذ بي أقع على مقابلة مع الكاتب سلمان رشدي .في الحقيقة، لم يسبق أن رأيت هذا الرجل يتحرك ويتكلم من قبل، كنت أرى صوره التي يتنازعها المتظاهرون تمزيقاً وحرقاً، وكنت أسمع أخباره تتناقلها وسائل الإعلام .

رحت أتأمل في هذا الوجه الهادئ وقد بدا هرماً وشارد الذهن على نحو ما .تركت نظراته عندي انطباعاً غريباً، ربما يكون ناجماً عن ذاك المكر الذي يتسرب من لمعان عينيه .كان برنامجاً عادياً، لا بل مملّاً، لم أتابعه إلى نهايته .

وقد بدا أن الكاتب الذي ذاع صيته بطريقة عجائبية نتيجة بعض الفتاوى الإلهية، بدا وكأنه كاتب مغمور يعاني من تجاهل الإعلام والمعجبين والنقَّاد .

ما لا شك فيه أن الضجة المُثارة حول روايته الشهيرة «آيات شيطانية» (صدرت عام1988)، قد ساهمت إلى حدٍ بعيد في إطلاق شهرة هذا الكاتب، وربما أتاحت له أن يرتبط بعدد من النساء الحسناوات اللواتي يصغرنه بعدة عقود، كزوجته الأخيرة وهي عارضة أزياء شهيرة تصغره بثلاثة عقود .

لم تستعر هذه الضجة في ألمانيا وإنما في دولة أوروبية أخرى مجاورة هي بريطانيا، عندما ارتأت ملكة الإمبراطورية التي كانت لا تغيب الشمس عن أطرافها، أن من واجبها الملكي أيضاً أن تدلي بدلوها هي الأخرى، في هذه البئر التي ظننا لفترة من الزمن أنها ركدت أو أن ماءها ندرت .فقلَّدته وساماً من رتبة فارس، ليعود بعدها اسم رشدي ويتصدر وسائل الإعلام من جديد .وكذلك، عادت صوره لتكون مادة للحرق والتعبير عن الغضب والسخط على ملكة يُفترض بها أن تنتهي إلى الاهتمام بشؤون الحدائق العامة وبعض المنتجعات وغيرها من الأعمال الهامشية ...

فبدا أن مسلسل سلمان رشدي وآياته لا يريد أن يجد لنفسه نهاية ما .أو بالأحرى، لا ينفك يجد بعض المتحمسين له من بين الذين ينطلقون من غايات وأهداف معينة .وهذا حال بعض الألمان الذين على ما يبدو لم ييأسوا من أن يقدِّموا مساهمتهم في هذا السياق، فها هم يشعلون موضوعاً آخر جديداً عن الرجل الذي تبينَّ أنه كان يقيم هنا بين جنباتهم لفترة من الزمن .وهذا ما كشف عنه الكاتب غونتر والراف. فرشدي، وهو صديق قديم له، كان يقيم في بيته في مدينة كولونيا، في أثناء فترة تواريه عن الأنظار ...وقد فجّر هذا الصديق القديم قنبلته الجديدة ربما وفاء وإخلاصاً لصديقه القديم وربما لأسباب أخرى، عبر إطلاق دعوة إلى المسلمين المشرفين على بناء أكبر جامع في ألمانيا وربما في أوروبا، هنا في مدينة كولون، وفي مكان

غير بعيد جداً عن بيت والراف، معلناً عن رغبته بقراءة رواية رشدي ومناقشتها ...في هذا الجامع :

«أعتقد أن أحداً من المسلمين الذين يتظاهرون ضد سلمان رشدي، لم يقرأ كلمة من روايته «آيات شيطانية»، فهل أن دعوتي لقراءة هذه الرواية في الجامع ومناقشتها مع المسلمين تشكل استفزازاً أو تهجّماً على الدين الإسلامي؟ لا أعتقد ذلك، مثلما لا أمانع أن يقيموا جامعهم هنا قرب بيتي .فلماذا هم يمانعون أن أمارس قناعاتي من خلال ثقافة المجتمع الذي أنتمي إليه ويعيشون هم في كنفه، حيث حرية التعبير عن الرأي مصونة ومحترمة من الجميع؟»

قال بكير البوغا هو أحد المسؤولين عن« اتحاد المسلمين التركي في كولونيا إنه سيعرض فكرة والراف على هيئة الاتحاد لدرسها: «من حيث المبدأ، نحن منفتحون لمناقشة القضايا الخلافية»، قال بكير لجريدة« فرانكفورتر الغيماينه»، كما نقل موقع الجريدة المذكورة في 12تموز .2007

وحول الأسباب التي حدت بوالراف لطرق هذا الموضوع: «أنا أقيم منذ ستينات القرن الماضي في المنطقة المقرر فيها إنشاء الجامع الكبير في مدينة كولن، وأنا مبدئياً لا أمانع ذلك، والقيمِّون على بناء الجامع يقولون إنهم يريدون لهذا الجامع أن يكون مكاناً للتلاقي والانفتاح والحوار .فاقترحت هذه الفكرة من باب الاختبار لمدى جدية

هذا الحوار والانفتاح وحدودهما»، نقلاً عن مقابلة أجرتها معه «ديرشبيغل» على موقعها في 11 تموز 2007.

تجدر الإشارة إلى أن هذه القضية لم تأخذ بعد أبعاداً واسعة وكبيرة في المجتمع الألماني، وهي لا تزال حتى الساعة محور تركيز بعض الصحف اليمينية أو تلك التي تدأب على طرح مواضيع تهوّل من خطر الإسلام المتصاعد .لكن، يبدو أن هذه المسألة مرشحة للتفاقم، كون هذه الصحف لا تنفك تسلط الضوء عليها: «جاءت في الوقت المناسب، أنها دعوة جريئة ومهمة»، علّق أحد الكتاب في جريدة «دي فيلت»، يُذكر أن هذه الصحيفة كانت قد أعادت نشر بعض الرسوم الكاريكاتورية الشهيرة إياها، وذلك في أثناء الضجة الكبيرة التي أثارتها تلك الرسوم .

وقد تتقاطع هذه القضية مع معارضة بعض ممثلي الجالية المسلمة من الأتراك هنا لمقررات لقاء الاندماج الذي جرى في برلين بحضور المستشارة أنجيلا ميركل، إذ صدرت توصيات ومقررات قالوا؛ إنها ضرورية للاندماج، فيما رأى كثيرون من المسلمين هنا أنها مُجحفة و«عنصرية».

في كل الأحوال، وبغضِّ النظر عن كثير من الآراء العربية والغربية التي تناولت رواية رشدي، الرافضة منها والداعمة لها، أو المدافعة عن حق الكاتب في الحياة والتعبير، وبغضِّ النظر أيضاً عن قيمة هذه الكتابات الأدبية وموقعها الاِجتماعي، بات من شبه

المؤكد أن دوائر كثيرة هنا تستغل هذه الكتابات والكتاب المنشقِّين عن ثقافاتهم، لتسلّط الأضواء عليهم ولتبيِّن بالتالي ديكتاتورية تلك الثقافات التي نزح هؤلاء الكتاب عنها، لضيق صدرها بالأدب والنقد والرأي الحر .وقد يؤكد هذا الأمر موقف «الانتلجنسيا» الغربية من قضية رشدي على سبيل المثال، إذ تعاملت معها ببرودة ولم تتبنَّاها بحرارة تشبه تلك التي كانت تُقابل بها حالات منشقّين سوفيات أو لاجئين من الدول الشرقية سابقاً إلى الغرب .وهذا، بأي حال، ما أشار إليه **صادق جلال العظم** في كتابه «**ذهنية التحريم**» (ص 183)، عن أن هذه النُخب الأدبية الغربية كانت تدافع عن نفسها وقضاياها أكثر ممّا كانت حماستها تلك دفاعاً عن قضية هذا الكاتب أو ذاك .

لمحة عن حياته:

ولد سلمان رشدي في بومباي سنة 1947 وتخرَّج من جامعة كامبردج عام1981 ، نشر أولى رواياته «غريموس» ولم تلق إعجاب القراء والنقَّاد على حد سواء .لكن روايته الثانية «طفل منتصف الليل» جلبت له الشهرة واعتبرها نقاد كثر من أهم نتاجه الأدبي .

عام 1989 أصدر **الإمام الخميني** فتوى بإهدار دم رشدي .وفي نهاية 1990 قدم رشدي اعتذاراً من المسلمين .وفي عهد الرئيس **محمد خاتمي** عام 1998 تم تعليق هذه الفتوى، لكن **الإمام الخامنئي** أعادها سنة 2005 وأكد أنها لا تزال قائمة .وقد أدّت هذه الفتوى إلى قطع العلاقات الدبلوماسية مع بريطانيا التي يحمل رشدي جنسيتها، وإلى

مقاطعة إيران للعديد من منتجات الدول التي طبعت الرواية .وقدرت الخسائر الإيرانية الاقتصادية من جراء هذه القضية بعدة مليارات من الدولارات .في المقابل، أقيمت محارق لكتب رشدي في دول إسلامية كثيرة، بالإضافة إلى العديد من التظاهرات .وعلى الرغم من ذلك، كتب رشدي 13 رواية كانت آخرها «شاليمار المهرج» عام 2005[1].

([1]) نُشر في ملحق شباب السفير في.2007 /09 /12

18عاماً على زوال جدار برلين
هل بلغت الوحدة الألمانية سن الرشد؟

يستعيد الألمان في هذه الأيام ذكرى إزالة جدار برلين وإعادة توحيد الألمانيتين .فالأطفال الذين ولدوا في التاسع من تشرين الثاني 1989 أي في اليوم الذي أزيل فيه جدار برلين من الوجود، قد بلغوا سن الرشد اليوم .فهل بلغته كذلك الوحدة بين الشرق والغرب؟

10تشرين الأول 1989 كان يوماً مجيداً في تاريخ ألمانيا، يوم وقف المستشار الغربي السابق فيلي براندت يحيي الجماهير المحتشدة في باحة «البوندستاغ » حيث كان الجدار يتعرَّج بين الشوارع والأبنية راسماً حدود ما كان يُعرف ببرلين الشرقية وبرلين الغربية .

كيف يبدو حال الوحدة بعد 18 عاماً؟ وكيف ينظر الألمان إليها على طرفي البلاد؟ هذا ما حاولت صحف كثيرة هنا أن ترصده خاصة بعدما كثر الحديث في وسائل الإعلام عن الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية في الولايات الشرقية .

أجرت صحيفة «ديرشبيغل» الأسبوعية استطلاعاً لافتاً بين 22 و 24تشرين الأول 2007 حول موضوع الوحدة، طال فئتي الشباب والرجال في ألمانيا الشرقية وألمانيا الغربية سابقاً، وذلك تبعاً لمكان إقامة الأهل حتى سنة 1989 بيّنت نتائج الاستطلاع أن نسبة 62 %من الألمان الشرقيين يرون أن الألمان الغربيين لا يبذلون الجهد

اللازم والكافي لتفهم وضعية الألمان الشرقيين .وتدنت النسبة إلى 55 %في نتيجة إجابات الغربيين على هذا السؤال .

في المقابل، ارتفعت نسبة الذين يجدون قلّة تقدير من الألمان الشرقيين لما يبذلونه هم في مجال إعادة البناء وتطوير البنية الشرقية إلى % 64 في الغرب، مقارنة بنسبة % 50 في الشرق .كما أن 61 %من المستطلعين الشرقيين يرون أنه لم يبقَ في ألمانيا الشرقية ما يمكن للمرء أن يتفاخر أو يعتز به (% 43 في الغرب).

أمّا السؤال الذي حصد الإجابات الأكثر إثارة فهو: هل الاشتراكية نظرية جيدة لكنها طُبقت حتى الآن على نحو رديء؟

% 73في الشرق من الفئة العمرية 50 – 35 سنة أجابوا بنعم، فيما تدنَّت النسبة بين الشباب الشرقيين (24 – 14) سنة إلى % 47 . وكانت نسبة الإجابة بنعم في الغرب % 44 بين الرجال، و % 36 بين الشباب .

وفي سؤال آخر أكثر مباشرة وملامسة لموضوع الوحدة، سألت «ديرشبيغل»»: يُجرى الحديث عن خاسرين ورابحين بنتيجة الوحدة، في أية فئة تجد نفسك؟ من المنطقي أن تكون نسبة الرابحين من الوحدة أعلى في الشرق، وفي الواقع جاءت النتيجة كذلك، لكنها سجّلت نسبة بدت ضعيفة مقارنة بما يتوقعه المرء هنا، إذ لم تتجاوز نسبة % 57 ، وتدنَّت نسبة الرابحين في الغرب إلى % 41 بين

الرجال وإلى % 29 بين الشباب . ووجد % 40 من الغربيين أنفسهم لا رابحين ولا خاسرين، في مقابل % 22 من الرجال الشرقيين وجدوا أنفسهم في الوضعية ذاتها .وكان من المعبّر أن يتعادل الشباب في عدم الربح أو الخسارة في الضفتين عند نسبة 37 %.

في أسئلة تشير إلى مواطن القوة والأفضلية بين كل من ألمانيا الشرقية وألمانيا الغربية في النواحي السياسية والاجتماعية، اتحد الشرقيون والغربيون على أن حال الحرية الشخصية (% 85) ومستوى المعيشة (74 – 66 تباعاً) والوضع الاقتصادي – 62) (82أفضل في الغرب .

أمّا الأمور التي يجدون أنها كانت أفضل حالاً في ألمانيا الشرقية منها في ألمانيا المتحدة اليوم، فهي: التأمين الاجتماعي (% 92 بين الرجال في الشرق) و % 47 بين الشباب الشرقيين .ورأى % 79 من الشرقيين و % 46 من الغربيين أن نظام التعليم المدرسي كان في ألمانيا الشرقية أقوى ممّا هي عليه الحال في ألمانيا المتحدة راهناً . أضف إلى ذلك موضوع الحماية من الجريمة الذي سجّل نسب 78 %بين الشرقيين و % 57 بين الغربيين تقول بأنه كان أفضل حالاً في ألمانيا الشرقية ممّا هو عليه اليوم .

كان ذلك كلام الأرقام .لكن، كيف هي الحال بين الألمانيتين على مستوى «القفشات» والتعليقات الصحفية وسيادة الصور النمطية والأحكام المسبقة؟

لا يخلو أي بلد من تمايز بين شماله وجنوبه وشرقه وغربه، حيث لا يعدم المرء سماع تعليقات هذه المنطقة على المنطقة الأخرى .لكن الحال بين الشرقيين والغربيين في ألمانيا تبدو أكثر عمقاً من هذه الفروقات« الطبيعية»، خاصة إذا ما أضفنا إليها نصف قرن من الاختلاف في النظم السياسية والاجتماعية والمفاهيم والقيم التي كانت سائدة في ظل النظام الاشتراكي هناك والليبرالي الحر هنا، وهذا بأي حال ما يبيّنه الاستفتاء المذكور أعلاه وسواه .

ويبدو أن ترسُّبات هذه الاختلافات لا تزال ترخي بظلالها على العلاقات الاجتماعية بين الشرقيين والغربيين، فقد بيّنت دراسة سبقت هذه زمنياً أن ارتفاعاً في نسبة حالات الطلاق بين الشرقيين المتزوجين من غربيين، والغربيين المتزوجين من شرقيين على حد سواء .وعزت الدراسة أسباب ارتفاع هذه النسبة إلى الاختلاف في العقلية وطريقة التفكير واللباس وما شابه .يُشار إلى أن أكثر ما يوسم به الشرقيون هو أنهم قليلو المراعاة للموضة، أو عديمو الاهتمام بمظهرهم الخارجي .في المقابل، يقول الشرقيون عن الغربيين إنهم متعجرفون ومتكبِّرون، ولا يُخفي كثير من الألمان الشرقيين أن النظرة الغربية إلى كل ما كان قائماً في ألمانيا الشرقية لا يعدو كونه نظرة سلبية واستعلائية، لا ترى جيداً أو صالحاً يستحق الاحتفاظ به أو الإبقاء عليه من تلك الحقبة .

لكن، لا يطفو أكثر هذه المناوشات إلى السطح، ويتعامل معها الألمان بشيء من خفة الدم والصراحة والموضوعية، وهي بأي حال لا تشكّل أي خطر على الوحدة الألمانية التي قطعت أشواطاً بعيدة في التغيير والبناء .وعلى الرغم من أنه لا يزال يُسمع بين الحين والآخر في الولايات الشرقية الكثير من الشكوى عن تقصير هنا أو تجاهل هناك، يبدو أنه لا يمكن تشبيه حال وحدتهم مع حال وحدتنا اللبنانية رغم وجود أوجه شبه كثيرة. حيث إن لناحية عمر الوحدة، أو لناحية تقسيم العاصمة بجدار إسمنتي أو بسواتر ترابية ورصاص، لا يهم .

بناء عليه، وأمّا أن الوحدة الألمانية قد بلغت سن الرشد، فإننا في لبنان، بعد مرور ما يقارب 18 عاماً أيضاً على «إعادة الوحدة» وإزالة خطوط التماس بين شرق بيروت وغربها، لا نزال نحبو على باب الأسئلة الوجودية الأولى، أو الأسئلة الاتحادية الأولى، ومطلعها : هل يمكننا أن نعيش معاً؟[1].

([1]) نُشر في ملحق شباب السفير في.2007/11/14

بنـــج عــام

متعة الانتظار :

لم يعد همُّ المنتظرةِ أن تراك مع قوافلِ الواصلين، بل أن تظلَّ صورتك باباً مشرعاً على المستقبل ..

(0)

نقد ذاتي :

منذ البدء وأنت تجرُّ أولاد الخيبة والخوف خلفك ..أمثالك لا يستحقون الحياة ..كلما لفظتك هزيمة تمسكت بأخرى ..وأطلت بأمد المهزلة ..من أين تجمَّع كل هذا الجبن فيك؟ !

الروائيون الكبار هم أولئك الذين دونوا عن كثب حياة الآخرين، أمّا أنت فلست حتى مجرد متوحد تافه وحقير ..

متى ستكف عن مراقبة الناس بعين الجواسيس؟ !متى ستأذن لك روحك المريضة أن تحتفي بكأس المواجهة أو الانصراف النبيل؟ ! الحياة سفينة القوة والفعل، الظفر وليس النجاة بمعية المقتدرين، أنها خبط المغامرين والثائرين.

(1)

بنج موضعي :

في الطريق إلى برلين، زاره أخوه ..لم يكن أحدٌ بينهما ..مضى يفاتحه ببعض تلك الرسائل والمواقف التي كان يقوم بها نكاية وربما كرهاً بهم ..وكيف أنه كان يعصر النقود التي يرسلونها له على

ماكينات القمار ..حتى إذا ما استقرَّت كلها في الجيوب المعدنية لصندوق الكرز والبطيخ الخادعة، شعر براحة ما بعدها راحة . شعور غريب بالسعادة والرضا كان يساوره عندما كان اللعب بمال لا يكون هو مصدره .

(2)

ما هذا «العيب». أليس هو نفسه داء الأخلاق الذي تحدث نيتشه عنه؟ !

- لماذا لم أحدثه قبل أن يموت؟ !

كم يشبه هذا رجال «كنفاني» الذين لم يطرقوا على جدران الخزان .

هؤلاء تراهم حمقى التاريخ، عديمو الفائدة، عقيمو الوجود .. هؤلاء هم الساديون الأبديون ..نُسّاك اللامعنى الذين يحسبون أنهم يرسلون رسالات كونية وحاسمة إلى صور الأب المختلفة، عبر نفيهم لذواتهم وسحقها ..هؤلاء هم حمقى إيمان الفناء الصوفي ..

(3)

هل كان رجال «كنفاني» تحت الشمس أم تحت الأرض؟ !

(4)

وعاد يقول :

«لكنه كان يحدق بي بتعجب غريب واستغراب، وبدا أنّ أياً من تلك الرسائل المجازية والعميقة وفق رأيي آنذاك، لم تصله كما لم تصل مقصودين مفترضين آخرين ..وأن اعتقاده الراسخ ورأيه التقليدي حيالي، ظلّا على حالهما .الآن أعرف أن تلك الرسائل التي لم أكتبها بعد لم ولن تصلهم قط ..تلك الرسائل اللعينة التي كلفتني الكثير من القرارات الخاطئة والسنين الضائعة ..أكتشف الآن أنها كانت سراباً وأوهاماً ..وأنه كان يتوجب عليّ منذ البدء قتلهم جميعاً ونسيان أماكن قبورهم ..وأن أمضي في حياتي كما أشاء ..لكن بماذا تراه يفيد بعد هذا الاكتشاف العظيم، المتأخر عن موعده عقوداً من الزمن، بماذا تراه يفيد الآن !!كنت أعاقب نفسي ربما لكي أحرق قلوبهم أسىً عليّ ..فكانت النتيجة أنني أحرقت وأهدرت الكثير من الأيام واللحظات الجميلة ..ما يكفي لإشعال روما من جديد».

(5)

ضمير مستتر :

«لماذا لم يكلِّمه قبل أن يموت؟». سؤال متأخر آخر– متأخر عدة قرون على الأقل– عن موعده ..إذا ما أردنا أن نقيس ما يمكن للمرء أن يفعله في هذا العصر وفقاً لسرعة هذه الأيام مقارنة بالقرون السابقة ..

سؤال يتضمن كل العتاب وجوهر الخيار بفناء الذات مرضاة لآخر ..هذا الآخر الذي لا يكون عادة إلاّ أباً أو أمّاً أو أخاً ..ولا يكون أبداً من خارج دائرة حلقة البيت الصغيرة ..

لا، لن يفيد بشيء سوى أنه يقوّم الأيام المقبلة ويُضفي عليها شعوراً لذيذاً آخر بالتحلُّل والهزيمة ..لأن المنفي أو المتحلِّل، لا يروم الخروج من عالم الفناء إلى حيزّ الوجود ولا حتى إلى العدم، فهو دائماً أضعف من هذا ومن ذاك، لكنه يرمي إلى الدخول في دوّامة فناء أخرى ..ويُصبح يمنّن ذريته التي أنجبها بلا وعيه، كامتداد لاحتمال فناء جديد ممكن وقادم ..يمننها بأنه سيبقى ها هنا بقربها، فقط من أجل اكتمال مشهد الاجتماع الأصلي للأسرة .. تكميلاً لحضور الصورة وظهورها ..فهكذا يبرر لنفسه عدم قتل نفسه، أو صورته كأب جديد، وأنه يهيئهم ويؤهلهم، وفق تربية العبيد، كيف يتوجب عليهم أن يقتلوه ..لكي يتمكنوا من إرادة القوة التي عجز هو في تاريخه أن يستحوذ عليها ..

لكنه لا يعرف أن العبد لا يربي سيِّداً. وأنّ هذه العلاقة التي التبست على كل السابقين، بين العبد والسيِّد، فأُوّلت على أنها متلازمة وأنّ أحدهما ضرورة الآخر، لهو تأويل خاطئ مئة في المئة ..

فالسيّد أولاً وقبل أن تنشأ وتظهر هذه العلاقة بين الداخل والخارج، بين الذات وموضوعها، هو السيِّد على نفسه وذاته أولاً ..وهذه تقتضي بعد تحققها في الواقع، تقتضي عبداً خارجياً يتمثل ويعي وجودها .

(6)

يا هذا !قال معلم التحليل فرويد الحبيب، عقدة الأخ هذه التي تسوّغ لها لا تنتمي لسيستم التحليل كما تصورته وشخَّصته في الغرب، فهذه على الأرجح عقدة الأخ العربية فلا تُسقط أمراضك الغريبة على كواهلنا الباردة .

(7)

صديق الدولة والثورة .

عندما أهديته كتاب إنجلز، الملكية والعائلة المقدسة والدولة، كنت أرمي حينها أن يدرك صديقي السلطوي أن أيام سلطته معدودة، وأننا حتماً قادمون ..فتراه أدرك بحدس متوارث من أصول الريف مصير ومآل دولته الآيل للاندثار، فراح يحمله في جعبته أينما حل وأنّى أقام، حسبه في ذلك أنه يخطب ودّ طبقات المستقبل المعدومة، بروليتاريا الغرب وعبيد الشرق، في حين أنه في قرارة نفسه كان يحسب حساباً لخط الرجعة ..

(8)

«أن تحب إنساناً تعني، القبول طوعاً بأن تشيخ معه» قال ألبير كامو يوماً .لا أعرف على وجه الدقة ماذا كان يجول في خاطر أو ناظر كامو لحظة سطّر هذه الكلمات، أكان يحدق إلى وجه يتجعّد أمامه ..أم تراه كان ينسخ تجاعيد وجهه عن المرآة.

بينما الذي يقتني حيواناً في بيته تراه يراهن أيضاً على نوع آخر من الحب .نوع يقبل الشريك الآخر فيه مكرهاً أن يبقى معك إلى أن يموت .

الحب العميق على ما يبدو، هو أن تتعلم كيف تصغي لصوت الوحدة .

أنا أرى ذلك البائع في شوارع روما القديمة، يتفقد غلّته، يحزم أمتعته ويمضي في المساء إلى زوجة تساوره حيالها آلاف الظنون .

إذا كان الله فكرة أراحت الفكر البشري منذ آلاف السنين، فلماذا إذا كل هذا التعب الذي تعيشه البشرية اليوم؟[1]

عن الحرب التي لم تبدأ.. ولم تنتهِ

عندما سقط محمد معتوق في انفجار«الفينيسيا » بعد اجتياح بيروت 82بفترة وجيزة، بكى كمال أخاه وأدمعنا معه .كان يقف إلى درابزين حديد البحر قرب عين المريسة، فقذف عزم الانفجار به إلى صخور الشاطئ الناتئة .فيما تكسّر زجاج البيوت التي كانت تبعد مئات الأمتار عن مكان الانفجار .لم نرَ جثثاً أو مصابين، لكن الحدث كان دامغاً ومطبوعاً في أعيننا، كأن كلُّنا كان هناك.

([1]) نُشر في ملحق شباب السفير في.2010/09/8

كان محمد يكبرنا بعدة سنوات لكنه كان أبرزنا في السباحة وخاصة القفز عن الحافة المقابلة لفندق «السان جورج»، حيث أطلق الشبان عليها اسم «شكة طرزان» لكثرة ما كانوا يستمتعون بالقفز عنها على رغم الأشرطة الشائكة التي كان رجال الإسعاف ينصبونها هناك في مسعى منهم لمنع القفز المتهورِّ بعد عدة حوادث وقعت لبعض الشبان . «إنها سخرية القدر أن يموت هنا عند نفس الحافة التي كان شديد التعلق بها» قال كامل ابن خالته.

أطلقت نظري إلى الأزرق المترامي من أمامنا، وأذكر أنني لشدة تأثري قررت أن أكتب قصة هذه الحرب المجنونة من هناك .كان موت أحد الأقارب أو الأصدقاء، يترك أثراً بالغاً، ويتفاقم الغضب والحنق مترافقاً مع شعور بالاستغراب أو عدم التصديق .كان الموت يُعدُّ حدثاً فظيعاً جداً، حدثاً جللاً، خبراً أول ينتشر كالبرق بين السكان .لكنه غدا دورة تفترضها أو تؤججها حلقات العنف والقتل المتبادل، حيث تسود مشاعر الانتقام والرد .يعززها انتشار صور الفقيد على الجدران في الأيام اللاحقة، وتسارع التنظيمات المختلفة إلى تبني الشهداء .شيئاً فشيئاً راحت هذه المشاعر تتبلَّد، وتبهت لكثرة القتلى والمفقودين في الاشتباكات الأخوية أو بين المنطقتين أو من جراء السيارات المفخخة أو القذائف العشوائية أو القنص . تعددت السُبلُ والموت واحد.

رغبة الكتابة، لم تكن تراودني وحدي كما كنت أحسب ساذجاً، لكنها كانت تراود الكثيرين من أصدقائي، وربما الجيل بأكمله .غير أن أحداً منّا أو ممّن أعرفه، لم يفعل ذلك .ترى كثرة الغرائب تُفقد الدهشة أو تزيل عنصر الانبهار !وقد تحوّل الاستثنائي إلى واقع عادي لم نرَ أو لم يعرف كثير منّا غيره .تلاشت رغبة التدوين تلك بعدما بدت أنها ستكون بمثابة تسجيل وثائقي للحالة أو الخبر .على الرغم أن المنطقة كانت تعج بالمشاهد المثيرة والمغرية للروي أو التدوين أو التصوير . مشاهد السلاح والقتل .خطوط التماس، الأبنية المدمرة أو المهشَّمة التي حوَّلها المهجرون إلى أماكن للإقامة والسكن والتعليم .الشعارات الحزبية والثورية أبوات الليل والأسماء الحركية .قوافل أو كواكب الشهداء التي تملأ الجدران.

في أحد النقاشات حول هذا الموضوع مع أحد الأصدقاء، خلصنا إلى نتيجة مفادها، أن الأشياء الرهيبة أو الفظائع لا تكتب من الداخل أو في أثناء سريانها، لأنك لا تستطيع الانفصال عنها نظرياً أو التجرد عنها كما يقال، لكي تتيح لعين القارئ، أي الكاتب، أن يصيغ المشهد بأبعاده الجمالية المنشودة على الورق .إذاً –قلت له– نحن لا يمكننا الكتابة عن الحرب إلاّ من خارجها أو بعد انتهائها وتحوِّلها إلى ذكرى، إلى تذكُّر ..وما كنا نخطّه من خواطر آنذاك، لم يكن تدويناً آلياً أو مباشراً للحدث أو لواقع الألم اليومي، بل كان نوعاً من الصراخ على الورق، نوعاً من النزيف المبتذل، الذي يحاول تغيير العالم

بقصيدة .أو التعبير عن السخط على العالم بسقوط قذيفة .كنا ننشد واقعاً آخر وأحلاماً أخرى .واقعنا ذاك كان مادة لمللنا وموتنا وبؤسنا، لهذا لم نجد الوقت اللازم فيه لنحياه كما يجب فكيف بتدوينه .لكنه كان مادة ثرية للكتابة والتصوير للآخرين.

الغرباء الكثر الذين كانوا يأتون إلى مناطقنا ليصورونا ويحصوا قتلانا .كنا نحن الخبر، والممثلين الطبيعيين، وصورة الانفجار .نحن الذين استبدلنا الأب بالحزب، والأم بالعقيدة، والوطن بالثورة، والحبيبة بالبندقية ..والحياة بالشهادة.

نحن الذين خربنا المدينة التي ضاقت بريفيتنا، سكنّا الفنادق الشهيرة، بعدما كانت مرتعاً للأثرياء .كشفنا عن كل غرائزنا وعوراتنا . ولم نخجل أو نخاف من أحد، لا من الله أو الضمير أو الأخلاق الحميدة .فعلنا كل شيء .ولم نخف أو نستح من أحد إلاّ من الدولة .

بلى، بقيت الدولة قائمة في مخيلتنا، من أمامنا ومن ورائنا وفي خبايا نفوسنا، ممثلة بالمخفر الهزيل والدركي الأعزل .بقيت الدولة رغم كل شيء موجودة .بقي الموظفون يتقاضون أجورهم دون أن يحضروا إلى وظائفهم .بقيت الدولة قائمة في النفوس كما في النصوص، رغم غيابها العلني الظاهر .وبقي الخوف منها كالخوف من الموت، أو الله، أو الأشباح، أو الوهم، الدولة هي الخوف دائماً من شيء مجهول، من سلطة غير مرئية، فوق الطوائف والملل، والنحل، والعائلات، والأحزاب .وإلاّ كيف تفسر خوف محمود

المستطير من كلمة «بلدية بيروت» المنقوشة على غطاء مياه الصرف الصحي، وقد أبى أن يحمله إلى بائع الخردة إلاّ بعدما انهال ضرباً بمطرقته على عبارة« بلدية بيروت » التي تبين ملكية هذه الغنيمة الحربية، معللاً الأمر بقوله: «أعلق مع الشيطان ولا تعلق مع الدولة، فحق الدولة لا يموت أبداً».

الحرب التي بدأت رسمياً في 13 نيسان1975 ، لا يبدو أنها انتهت نهائياً لتصبح خارجة عنّا أو موضوعاً لنا، تراها توقفت أو هدأت لحين، وما التوجُّس أو التطيرُّ الذي يصيب اللبنانيين عند ذكرها إلاّ دليل على عدم رسوخ تجاوزها، فيما اضطراب الأجواء وتجهمّها وسوداوية القادمين من البلد، كلها علامات تدل على استمرارها وإن بأشكال وأسلحة مختلفة .لهذا ترى اللبنانيين يتعوَّذون منها بالقول: «تنذكر وما تنعاد»، فيما لا أحد يريد أن يتذكرها بتفاصيلها ولا الغوص فيها أو بأسبابها .ولا حتى من باب التعلُّم والدرس من العِبَر .وكأنها لم تكن ولم تبدأ ومع هذا لا ..تنتهي[1]

([1]) نُشر في ملحق السفير في /13 نيسان.2009

القراصنة الألمان في البرلمان

في الطريق إلى مكان الاقتراع، لم يكن يوجد ما يلفت النظر .إنه هدوء الأحد الألماني المعتاد، ولولا بعض الصور التي تعرّف بالمرشحين والأحزاب التي ينتمون إليها لما انتبه أحد إلى أنه يوم انتخاب .هكذا، بكل هدوء وبساطة، ولكن بصرامة قاطعة لا ترحم، كان الألمان يقومون بدرسهم الانتخابي ومن ثم يكملون نهار العطلة كما كان مرسوماً له.

في ورقة الاقتراع، ثمة عمودان من الخانات، الأول للصوت الأول مع الأحزاب الرئيسية المعروفة : «الاشتراكي»، « المسيحي الديمقراطي» ، «الخضر»، «الليبرالي الحر» ، «اليسار الجديد» لكن الاسم الأخير فيها كان غريباً «القراصنة» هذا الحزب الجديد بات اسمه اليوم يَرِدُ مع الأحزاب الرئيسية .هؤلاء الذين لم ينجحوا في انتخابات العام 2010 في الحصول على نسبة خمسة في المئة التي تخوّلهم دخول البرلمان، صعقوا الجميع هذا العام ونجحوا في الدخول إلى برلمانات العديد من الولايات .في العمود الثاني المخصَّص للصوت الثاني، كانت الأحزاب الرئيسية نفسها موجودة إضافة إلى المستقلين وأحزاب أخرى صغيرة.

ردَّ الناس على انكفاء اليسار الجديد عن الاهتمام بقضاياهم جاء كالسيف القاطع، في الصندوق: فليأت القراصنة .هؤلاء الذين على قلّة

خبرتهم السياسية، يبشّرون بحيوية جدية وضرورية .شعاراتهم قليلة، ولكنها مهمة وداهمة .مزيد من الديمقراطية والمشاركة، الشفافية، حرية التعليم والمعرفة وحرية الوصول للمعلومات ..المكاشفة والصراحة والديمقراطية الحقيقية، هي من جملة شعارات بسيطة يطرحها حزب «القراصنة » الألمان، حول حماية المعلومات الشخصية من الشركات الرقمية العابرة، وحماية الحياة الخاصة من المراقبة .ومع أن البلد ديموقراطي من الطراز الأول، لكن لا ضير في المزيد، هكذا يقول القراصنة الجدد، وهم بمعظمهم وجوه شابة جاءت من بين الناس؛ واحد ممن فازوا في إحدى الولايات لا يتجاوز عمره 24 عاماً، وآخر مسؤول شبه عاطل عن العمل، أي يتلقى مساعدة اجتماعية من الدولة.

ظاهرة القراصنة الألمان هذه لا تزال تشغل الساحة السياسية الألمانية بعد أن نجح هذا الحزب الصغير في حصد نتائج باهرة في الانتخابات النيابية في برلين .كما بيَّنت استطلاعات حديثة أن الحزب الجديد سوف ينجح في أغلب الولايات الألمانية، فيما عنونت «ديرشبيغل» أن كل ثالث ألماني سوف ينتخب القراصنة.

من هم القراصنة؟ وكيف نجحوا في الاستحواذ على مزاج الناخبين وشرائح كبيرة من الألمان، لا سيما الشباب منهم؟ ما هي أفكارهم وما هو الجديد الذي يقدِّمونه؟ أين يمكن وضعهم وفق التقسيمات السياسية التقليدية؟

صحف ودوريات كبرى أفردت للقراصنة أعداداً كاملة .صحيفة « شترن» راحت ترصد مشارب هؤلاء وأصولهم للوقوف على الطبيعة السياسية التي يتكوَّن منها الحزب الجديد . «بيَّنت شترن» أن 42 في المئة من أعضاء حزب القراصنة هم يساريون، و 49 في المئة منهم من الوسط، و 9 في المئة يمين .أما النسبة بين الجنسين فهي 68في المئة للذكور و 32 في المئة للنساء.

بداية القراصنة كحزب سياسي كانت في السويد في العام2006 ، ثم في شهر أيلول من العام نفسه تأسَّس هذا الحزب في برلين، لينتشر بعدها في أكثر من عشرين بلداً أوروبياً «البراءة السياسية »ربما تكون أحد أبرز العوامل في نجاحهم .فهم لا يصنِّفون أنفسهم لا في اليسار ولا في اليمين، بل حزب «قضايا» معينة يشتغلون عليها . لهذا وصفهم الكثيرون بأنهم عبارة عن تجمع عشوائي أو خليط من الناس القادمة من مشارب مختلفة، حيث لا توجد لديهم إجابات واضحة عن العديد من القضايا الأساسية أو السياسية المطروحة.

هذه البراءة، أو عدم الحنكة السياسية أوقعت القراصنة في«مطبَّات »داخلية أحياناً .فكما هو معروف، لموضوع اليهود وإسرائيل هنا حساسية خاصة وحضور طاغ .وقد وقع الحزب الجديد في مطب المحرقة الشهيرة، إذ صرح أحد مسؤوليه، وهو من أصول يمينية، بما كان يراه، وما يزال، بالنسبة لمحرقة اليهود، التي يعتقد أنها حدث مبالغ فيه. «قامت القيامة» على القراصنة الجدد، وانهالت الأسئلة

عليهم من كل صوب، بعد هذا التصريح، عقدوا على الفور ما يشبه المؤتمر العام، وانتخبوا مسؤولاً آخر يقول غير ذلك .وهذا الأخير من فلول اليسار المنسحبة من الحزب اليساري، وهو ما أسفر عن غلبة ما لليساريين على الحزب الجديد، وتحجيم لدور اليمينيين فيه، وهم قلة أساساً .كما صار الموقف من المحرقة، متماشياً مع السياق السياسي العام، باعتبارها حدثاً تاريخياً غير قابل للتشكيك!

نجاح القراصنة لم يأت على قدر التوقُّعات التي أعطتهم سابقاً نسبة قد تصل إلى 15 في المئة، وهذه النسبة تعني أنهم سيكونون حزباً مرشحاً للمشاركة في الائتلاف القادم للحكومة، وليس حزباً معارضاً فقط .وبرغم ذلك، لم يتردد كثر في إعطائهم الفرصة للحكم عليهم، لا سيما من كانوا يحسبون على اليسار الجديد في الانتخابات السابقة .وعلى أية حال، الصندوق في مكانه ينتظر، والجميع هنا يعرف القاعدة :إن من يتأهل هذه الدورة سوف يسقط في المرة المقبلة ..إذا لم يكن على قدر المسؤولية[1]

([1]) نُشر في ملحق شباب السفير في.2012/5/29

موسم الثورات وشروط الحالة اللبنانية

يُقال إنه لو شئنا أم أبينا، لن يكون بمقدور أيٍّ منا أن ينكر ظلاله أو شبح أفكاره على ما نشهده من ثورات وانتفاضات وأنصاف ثورات في عالمنا العربي .هو الأكاديمي الأمريكي جين شارب[1] الثمانيني الذي يذهب البعض إلى حدّ تسميته بأب الثورة المصرية الحديثة الخفي، وما سبقها وتلاها أو ما سيليها من ثورات ..هو صاحب نظرية الثورات السلمية أو أحد أهم الخبراء في العالم في علم الثورات السلمية الحديثة، كما يحب أن يصفه الكثيرون .تقوم نظريته على مبدأ بسيط، لطالما سمعنا ما يشبه مضمونه على ألسنة العامة من شعوب الدول المقهورة والمقموعة:

إن قوة الديكتاتوريات إنما تأتي من الخضوع الإرادي للمحكومين، وإنه بالتالي سوف يكون بمقدور الشعب في ما لو نجح في تطوير تقنية لسحب أو تقويض هذا الخضوع الطوعي، أن يسقط نظامه الفاسد هذا.

لكن هذا الأمر لا يطعن في وطنية وأصالة هذه الثورات والاحتجاجات التي أعادت الأمل في مستقبل هذه الأمة وقدرتها على

([1]) جين شارب، (21 كانون الثاني، 28 – 1928 يناير2018)، أستاذ جامعي أمريكي في العلوم السياسية، رُشح لنيل جائزة نوبل لمؤلفاته التي تدعو إلى التغيير السلمي .عُرف بكتابيه «من الدكتاتورية الى الديمقراطية» ، و«البدائل الحقيقية.»

دخول العصر والتاريخ من بواباته العريضة، بغضِّ النظر عمّن قد يكون مؤثراً في انطلاقة شرارة هذه الثورات الأولى من أوساط شباب الجامعات والفيسبوك، الذين هم على تماس أو اطلاع على أفكار هذا الكاتب وغيره ..فقد طفح كيل الشعوب وفاض، وبعيداً عن الغوص في نظرية المؤامرة والبحث عن المستفيدين والخاسرين من عمليات التغيير هذه التي قيل فيها الكثير من هنا وهناك؛ القول بأن الأمريكيين يريدون تجديد شرعية الأنظمة التابعة، عبر إضفاء نكهة شعبية وثورية عليها، فإن الشعوب التي كسرت حاجز الخوف وتنشَّقت هواء الحرية النظيف سوف تقول كلمتها الحق في نهاية المطاف ..

وقد بات من شبه الثابت والأكيد أن خروج الجماهير المليونية فاجأ الجميع، وأربك جميع الحسابات، وراح الجميع وعلى رأسهم الأمريكيون أنفسهم، يهرولون لضمان مصالحهم ويحاولون التكيُّف مع التغيّرات وكسب ود الجماهير .فالتونسيون والمصريون والليبيون ليسوا بحاجة إلى جين شارب أو غيره ليخبرهم عن قمعية أنظمتهم وفظاعة فسادها وطغيانها، وهو لم يفعل هذا بأي حال، لكنه قدّم وصفات عامة لحالات التغيير اللاعنفي، مستنداً إلى تجارب سابقة حدثت، خاصة في بولندا وثورات أوروبا الشرقية الملونة .الأمر الذي حدا بالبعض إلى الربط بينه وبين جهاز «سي أي إيه» ومراكز التخطيط ورسم السياسات المستقبلية في أمريكا..

لكن بعيداً عن كل ما يمكن أن يُقال في هذا الصدد، يبقى أنه لا ضير من الاستفادة من الأفكار أو التجارب لشعوب مختلفة قامت بعمليات تغيير ناجحة ضد أنظمة قمعية وشمولية فاسدة، كما أنه ليس بمقدور أحد الادعاء بقدرته على التحكُّم بتطور الأحداث وتفاعلاتها المتسارعة ولا على رسم خواتيمها، أمام حركة الجماهير الهادرة ومدى صلابة إرادتها ووعيها بأي محاولة لسرقة إنجازاتها عبر تغيير الوجوه والأسماء..

هل تتطابق الحالة اللبنانية مع وصفات شارب؟ وهل نجح شباب تظاهرات إسقاط النظام الطائفي في تحديد إستراتيجية حركتهم وأهدافها؟

في كتابه «**البدائل الحقيقية**» الذي تُرجم لأكثر من ثلاثين لغة ويعتبر العدو الرئيسي لأجهزة المخابرات، خاصة في الدول غير الديمقراطية، يقدِّم جين شارب خطوطاً ومبادئ عامة وعريضة لنجاح الثورات الاحتجاجية السلمية، تبدأ من التوصيف العام لحركات اللاعنف وجدواها وفعاليتها، بعكس ما يراه أنصار طريق العنف الذي يعتبرونه سريع النتائج وحاسماً .مشدداً على أهمية وجود خطة إستراتيجية حكيمة، إذ أن غياب خطة كهذه دقيقة وذكية وطويلة الأمد سوف يؤدي إلى انحراف الطاقة إلى قضايا ثانوية وعدم استغلال الفرص التي تخدم القضية الأساسية، وبالتالي عدم النجاح في تحقيق الأهداف المطلوبة.

كذلك يشرح شارب عناصر تقويض قوة الخصم، المتمثلة بالسلطة والشرعية، والناس المطيعين من أجهزة قمع ومصادر مادية واقتصادية.

أمّا متطلبات النجاح فهي :

- **القدرة على مواجهة القمع:**

(وهذه للأسف غير متوافرة في الحالة اللبنانية لغياب مظاهر القمع بصورته المعروفة في الأنظمة الديكتاتورية، وهذه ميزة تُضاف لمناعة النظام اللبناني الطائفي، المتلون بصبغة من التصفيح المطاطي الطائفي وليس الديمقراطي، حيث ينص الدستور على انتخاب رئيس جديد للجمهورية كل ست سنوات، فيما في واقع الحال، إننا نعيش حالة من الانفجار الفعلي أو البارد عند حلول كل موعد لهذا الاستحقاق منذ مسرحية الاستقلال).

- **القدرة على تقويض مصادر قوة الخصم :**

في الحالة اللبنانية يبدو أنه من الضروري الاتفاق على تحديد هذا الخصم، فهو لا يتمثَّل برأس واحد للنظام وإنما برؤوس متعددة، وبالتالي تتوضح مصادر قوته المستمدَّة من الطوائف، وعليه فلا يوجد في الحالة اللبنانية ديكتاتور واحد، وإنما «ديكتاتوريون»، وبالتالي يصير الهدف ليس إسقاط النظام الطائفي في الهواء الطلق وفي الساحات العامة، والتظاهرات الموجَّهة ضد مجهول غير معروف

محل الإقامة أو الهوية، بل يكون المطلوب إسقاط ديكتاتور كل طائفة من قبل جماهير طائفته ذاتها، وذلك منعاً لإثارة أي نعرات طائفية.

هؤلاء الذين تحكَّموا بمصائرنا منذ الاستقلال والحرب الأهلية وما بعدها، فلا يمكن لأمراء الحرب والفساد أن يكونوا هم أنفسهم رُسل السلام والتغيير .يكون هذا التمرين الطائفي أولاً على تغيير النظام الديكتاتوري لكل طائفة، بآخر ديمقراطي يتداول السلطة بشكل ديمقراطي .على أن تتم حفلات الثورة والتغيير هذه في جميع الطوائف في آن واحد، لكي لا تشمت أية طائفة من الأخرى .

وفي حال نجاح هذه الثورات على طوائفها، تقوم المجالس الانتقالية لكل طائفة بخط دستور جديد للبلاد لا يقوم على أساس طائفي، على اعتبار أن مَن ستنتخبه هذه الطوائف يُرجى أو يتوجب، حسب الظروف والتطورات، أن يكون غير طائفي.

- **أشكال اللاعنف لا تحتاج إلى قائد يسحر الجماهير :**

ويحدد الكاتب أربع طرق للنجاح :

طبيعة النزاع، التركيبة الاجتماعية لجماهير المحتجِّين، وطبيعة الخصم، الاستراتيجية الرئيسية وآلية التغيير والأساليب والمهارات والانضباط وتماسك المحتجّين.

هذا فيما يتضمن الكتاب 198 طريقة أو أسلوباً لاعنفياً استخدمت عبر التاريخ ولا تزال صالحة في أيامنا هذه .كذلك نحن في لبنان لسنا

بحاجة «لشارب» أو غيره، لنعرف مدى بشاعة نظامنا الطائفي، عندما تحول كلمة على إخراج قيدك من أن تكون في وظيفة ما، أو تحمي هذه الكلمة فاسداً في موقع آخر ..

وعندما تدفع الطائفية بالبلد إلى حرب كل فترة، مرغمة آلاف اللبنانيين من كل الطوائف على الهجرة وطلب جنسية أوطان أخرى . فالنظام في اللبناني لا يستمدّ شرعيته من الشعب، وإنما من زعماء وأمراء الطوائف الذين يشكّلون هذا الشعب، هؤلاء الذين يورثون القيادة والزعامة من جيل لجيل، عائلات إقطاعية وسياسية تحترف السياسة، كما يحترف أصحاب المهن السرية مهنهم ..

هذا فيما الأحزاب يتوارثها الأبناء من الآباء، فيما الجمهور الذي يدعي التنوُّر والثقافة والتمدن والتحدّث بعدة لغات، خانع مطيع ومتبلِّد ومتجمِّد .فمن هو الطائفي، الذي خَرَجْتَ لإسقاطه؟ أليس هو أنت نفسه؟ ابن المحامي والناطور وسائق التاكسي، الذي تشتدُّ الأرض «وما حدا قدَّك» عندما يقترب أحدهم ولو بمجرد إشارة من سياج طائفتك، أو مذهبك، أو قبيلتك، أو عائلتك، أو منطقتك؟

حسناً لا أفهم علام يحسدنا بعض الأشقاء العرب على أننا نعيش في رغيد الديمقراطية، فيما نحن في واقع الحال لا نختلف عنهم بالشيء الكثير ...فهذه هي ديمقراطيتنا العظيمة التي نتباهى بها ويحسدنا الناس عليها، جالبة الويلات والحروب والتوتر الأبدي .نحن طائفيون حتى العظم ولا نعرف أن ننتج إلاّ أحزاباً على قياس طائفيتنا

ونرجسيتنا، وعندما تفاءلنا ببزوغ فجر التيار الحر، أن يكون إرهاصاً لحركة أو تيار عابر لقارات الطوائف، سرعان ما كشف عن عورته الذاتية وتحوَّل إلى حصنٍ للموارنة، وعندما استبشرنا أن تؤول حركة 14اذار لبداية تشكُّل مجتمع مدني قائم على حركة الشباب ويؤسس لقيام أحزاب ديمقراطية صحية، تمخض عن حزب جديد للسُنَّة .أمّا حزب الله، فعوضاً عن أن يتحوَّل لحزب المقاومة اللبنانية الجامعة، آثر أن يظل حصناً منيعاً للشيعة، فيما انتهت اشتراكية جنبلاط عند حدود جبل الدروز ..

وعندما كنّا نؤمن باليسار أن يواصل تمدده داخل أقفاص الطوائف، انكمش على نفسه وغرق في شرنقة مشاكله وعوراته الأيديولوجية والفكرية واستغرق في بحثه السرمدي عن الطبقات لكي يثبت أنها في صراع .وعندما أملنا في أن يشكِّل الفكر القومي إضافة على النسيج الطائفي والسياسي انغلق هو الآخر في بحثه عن مقومات القومية العربية أو السورية، فما كان من الطوائف إلاّ أن استردَّت أولادها الضالين من كنف هذه الأحزاب العلمانية.

أمّا الغلبة الباقية من الأحزاب فهي معروفة بترسانتها من الجماهير المؤطرة والمكتفية بقناعاتها وصوابها المطلق. وعليه قد لا تبدو الحالة اللبنانية قابلة للنجاح وفق الشروط التي قدمها «شارب» في كتابه، وهي بلا شك لم تكن لتخطر لا على بال شارب ولا غيره، لكننا لسنا بمنأى عن التغيير الذي يحصل من حوالينا الذي يبدو أنه ينتقل

كالعدوى في الهشيم، ريثما يتوفر فراعنة نظامنا العربي على لقاح ناجع ضدّه .وإلاَّ فالخيار الليبي بالمرصاد، شبر شبر وزنقة زنقة[1].

لبنان في مئويته الأولى...
قلق الهوية والوطن النهائي!

من غرائب الأمور وعجائب الدهور، أننا نستقبل في لبنان المئوية الثانية لميلاد هذا «الوطن» المؤجل أو المعلّق، ما بين الوجود والعدم.

فيما حكام طبقته السياسية الفاسدة تتلهَّى بالكذب على ذاتها وعلى الناس .وها هم يحتفلون اليوم بكل وقاحة بعيد استقلال موهوم ومزعوم، وقد دُمر البلد آلاف المرات، في كل هذه الحروب التي لا تنتهي، وصولاً إلى انفجار المرفأ« النووي»، بفعل نيزك سماوي مجهول، لكنه على الأرجح المؤكد أنه المسؤول الأوحد عن تدمير ربع العاصمة!!

لبنان هذا، يعود بعد قرن من الزمن تقريباً للمربع الأول، لكن مع فارق أن حلم أو جلَّ طموح أكثر أهله الباقين فيه بات أن يرحلوا عنه.

وسقوط نغمات « العيش المشترك» وحفلات التكاذب الاجتماعي والمناسبات الوطنية الشكلية والدجل اللبناني حول الصيغة الفريدة ولبنان «قطعة السما» .

([1]) 10مارس 2011 القدس العربي.

كل ذلك يهوي دفعة واحدة ويُطرح «الكيان» الوطن ومصيره على طاولة البحث عن مصيره ومستقبله من جديد كلّ عقدين من الزمن أو أكثر بقليل هكذا كانت الأمور غداة أي استحقاق سياسي أو مصيري.

فترانا نعود في كل فينة أو أزمة متجددة إلى الأسئلة المصيرية، التكوينية الأولى إياها؛ نكون أو لا نكون؟ !أو نكون كلُّنا كما نحن عليه اليوم، أم يكون كلٌّ منَّا لوحده؟ !وهل ذلك ممكن؟ وكيف؟ أو أقلها أسئلة كيانية، أو ميثاقية من قبيل هل مات الطائف؟ هل نحن بحاجة أو بصدد طائف جديد؟ !وهل ذلك ممكن دون حرب أهلية صغيرة أو كبيرة، تسبقه وتمهد له؟ !أو على الأقل بروفة لما قد تكون عليه إذا ما حصلت، تكون كافية لتُحدث التغيير المطلوب؟ !أليست هذه الهزات المتتالية والتي يتم لجمها هي عبارة عن حرب أهلية مدروسة ومحسوبة الحدود والأحجام؟

ما هو هذا الوطن الذي وصلنا إليه بعد مئة عام من هذا الاجتماع؟ !ونحن لا نزال غير متفقين على شرعية ولادته أو نشأته، فهو وفق البعض وطن صنعه الاستعمار، ووفق البعض الآخر وطن أصيل عميق في التاريخ والجذور والثقافة، وما فعله الانتداب ليس سوى المساعدة في الإعلان عنه .حيث حال وجود العثماني زهاء أربعة قرون في بلادنا دون تبلور ونشوء هذا الوطن على الرغم من الأوضاع الخاصة التي كانت تمتاز بها بعض الإمارات أو الولايات (متصرفية وقائمقامية جبل لبنان وغيرهما)..

- **ولادة لبنان الحديث.**

وربّ عودةٍ سريعة إلى التاريخ الذي تشكَّل فيه هذا الكيان تفيد في إنعاش الذاكرة وترشيد أو جعل طريقة النظر إلى واقع الحال الذي انتهينا إليه بعد مرور كل هذا الوقت أكثر منطقية وعقلانية.

بدايةً كان مسيحيو جبل لبنان بغالبيتهم يتطلَّعون ناحية الغرب وأوروبا عموماً وفرنسا بشكلٍ خاص، فيما كان أهل الساحل من الغالبية المسلمة تنحو بوجهتها ووجدانها القومي والإسلامي ناحية الشرق، معبَّراً عنه بالشام والمحيط العربي عموماً .على الأقل هذه هي الصيغة المتداولة لكل فريق عن نفسه وصورته في أدبياته.

كذلك كان أهل الأقضية الأربعة (بعلبك، البقاع، حاصبيا، راشيا)، يتطلَّعون إلى الداخل إلى الامتداد العربي، والدولة العربية الموعودة في مهدها، (الشريف حسين ومن ثم دولة ابنه فيصل في الشام والعراق). هذه الأقضية التي ألحقها الجنرال غورو بلبنان الكبير بعد معركة ميسلون في (24 تموز 1920)، بعد أن كانت في نطاق سوريا.

وقد كان جبل لبنان عبارةً عن سنجق يتمتع باستقلال خاص وذلك حتى عام 1918 وكان يضم آنذاك كل من الأقضية التالية: الكورة، البترون، كسروان، المتن، جبيل، زحلة بالإضافة لمديرتي دير القمر والهرمل .أمّا مدينة بيروت فقد ضمَّها المفوض السامي إلى جبل لبنان، بعد احتلال سورية من قبل الفرنسيين.

ويبدو أنّ معطيات مطلع القرن العشرين وما ترافق معها من تغييرات كبيرة على الصعيدين الدولي والإقليمي والمحلي، انعكس ذلك كله، على الوضع الذي لطالما كان قائماً في جبل لبنان ما بين الدروز والمسيحيين وتحديدًا الموارنة، فتجلّى هذا التغيُّر بتراجع وانحسار دور الدروز في الكيان العتيد، وذلك لحساب الموارنة والأكثرية المسلمة الجديدة المنضوية في الكيان الجديد من سنةٍ وشيعة، الأمر الذي على ما يبدو سوف نلمس آثاره في ذاك الشعور "الدرزي" المضمر لهذا الكيان الذي هضم حضورهم السياسي وجعله موازيًا ربما لحضورهم الديمغرافي. وقد نتلمس تجليات هذا الأمر مع صعود نجم الزعيم الراحل ، كمال جنبلاط (تعرّض للاغتيال في 16/آذار 1977)، الذي ترأس ما عرف بالحركة الوطنية إبّان مطلع الحرب الأهلية، وكان في صلب مشروعها تغيير النظام وخاصةً ما كان يُعرف ب "الامتيازات المارونية"، وربما هذا ما يفسر مسارعة "الحزب الاشتراكي "، كما سنلاحظ ذلك لاحقًا عند الحديث عن فترة الحرب الأهلية (1975-1990)، إلى إعلان ما عُرف ب "الإدارة المدنية"، كمحاولة للتمايز والإستقلال!

في حين راح أهل جبل عامل يؤسِّسون دخولهم وطريقة انضوائهم في الكيان الوليد بمؤتمر وادي الحجير (24 نيسان1920)، بقيادة الإمام عبد الحسين شرف الدين الذي استحثَّ الهمم ودعا إلى مقارعة

الانتداب والسعي نحو الوحدة العربية والإخاء مع النصارى الشركاء في التاريخ والجغرافيا..

- **وعد كليمنصو والمفصل الأول من ولادة المأساة.**

في الواقع تعود نشأة لبنان على ما هو عليه اليوم إلى رغبة لدى ما يمكن إطلاق اسم « الآباء المؤسِّسون» عليهم، وتحديداً البطريرك الماروني حويك الذي سعى إلى توسعة أراضي لبنان وضم مناطق وأقضية أخرى إليه، وتجلّى ذلك في رحلته إلى باريس أثناء انعقاد مؤتمر الصلح، وقد حصل بالفعل على وعد من كليمنصو رئيس الحكومة الفرنسية آنذاك في (10تشرين الثاني 1919) يبدو أن المنطقة تشكَّلت من جملة وعود(بلفور، كليمنصو)..

وبالفعل في (31آب1920)، أعلن الجنرال غورو قيام دولة لبنان الكبير .وأبرق حينها الجنرال غورو إلى حكومة دمشق يبلغها بحدود دولة لبنان الكبير أي الحدود التي نعرفها حالياً .

بالطبع احتدَّت الحكومة السورية بداية على ما أسمته سلخ الأقضية الأربعة عن أراضيها . كما أن الدولة العتيدة قد ضمَّت إليها مرفأي بيروت وطرابلس، اللذين كانا المنفذين اللذين تمر منهما جميع تجارة سوريا البحرية . وقد أضحت الدولة الوليدة ضعفي مساحة سنجق جبل لبنان، كما دخل في حدودها عدد كبير من السكان المسلمين، الأمر

الذي حوّل غالبية العنصر المسيحي إلى أغلبية طفيفة، وقد اختلَّ هذا الفارق أيضاً مع الوقت .

وتُشكِّك مصادر معنية بتاريخ سوريا، بصحة العرائض التي حملها البطريرك حويك معه إلى مؤتمر الصلح، وهي موقعة من سكان من الأقضية الأربعة التي طالب الحويك بإلحاقها بالدولة العتيدة، وذلك لحاجة الدولة الوليدة للأراضي الزراعية وللمنافذ البحرية، ويقوم اعتراضهم على أنّ هذه العرائض لا تمثل حقيقةً رأي أغلبية السكان الفعلية، وأن هذه العرائض أم أنه تمَّ التلاعب بتواقيعها حيث يتكرر الاسم الواحد عدة مرات، أو أنها جمعت من بعض القرى المسيحية القليلة الموجودة في هذه الأقضية. ولم تشتمل على رأي السكان الآخرين الذين يشكِّلون أكثرية في تلك المناطق، ويدلّلون على ذلك الأمر بالرجوع لوثائق الخارجية الفرنسية وغيرها .

ما يهمنا الآن من إثارة هذه النقطة كونها إضافة إلى قضية المنافذ البحرية قد جعلت الداخل السوري خاضعاً بشكل ما لإرادة أو رغبة الإدارة الناشئة في الدولة العتيدة، الأمر الذي أضعف الداخل السوري وخلق قلقاً وتوجُّساً وجودياً سوف يستمر إلى أيامنا هذه، وسوف يشكل الهاجس الأساسي لكلِّ حاكم في سوريا من أن كل المؤامرات المحتملة أو حتى تلك المتخيلة لا بدَّ أو أنها حتماً تُحاك في بيروت التي باتت تُعرف بالخاصرة الرخوة لدمشق ..إذن، نحن أمام المفصل الأول من

ولادة المأساة أو المعضلة السورية/اللبنانية التي تولّدت من قيامة لبنان وسلخ الأقضية الأربعة عن سوريا..

- **المفصل الثاني من المأساة، ولادة السقيفة اللبنانية.**

أمّا المفصل الثاني أو التناقض الثاني فهو في بنية هذا الكيان الناشئ نفسه، وقد تكون من رغبة المارونية السياسية آنذاك لتوسعة الكيان من جهة، وحاجة هذا الكيان الموضوعية والطبيعية لأراضٍ صالحة للزراعة ولمنافذ بحرية .

لكن هذه التوسعة لن تكون دون ثمن، أي أن هذه الأراضي ليست خالية من السكان .الأمر الذي سوف يخل بالحلم أو الطموح بالمحافظة على الغلبة المسيحية في الكيان العتيد، وهكذا ولدت المأساة المارونية أو الشعور برهاب الأقليات المتمثل بالخوف من الانغماس أو الذوبان والتحلُّل في المحيط الأوسع المختلف.

ويبدو أنّ هذه المعضلة تجلّت وبرزت بعد اتضاح الصورة في تعبير لقوى الممثلة لغالبية سكان الأقضية الملحقة بامتدادها ورغبتها في؛ إمّا الوحدة والعودة إلى الحضن السوري الذي لم يكن أيضاً هو بدوره مبلوراً بالصورة التي نعرفها اليوم، أو في الحالة التي سيكونون فيها في الكيان الجديد، فإنهم لن يقبلوا أن يكون هذا الوطن الجديد معادياً أو مصدر تهديد لسوريا .ولهذا يتوجب بالمقابل على المسيحيين ألا يكونوا كذلك موالين لفرنسا موالاة كاملة، وبرأيي كانت

هذه هي البذرة الأولى لمقولة خصوصية لبنان التي غالباً ما نسمعها من هنا وهناك.

وقد كانت هذه رؤية البطريرك الحويك على الأغلب، والتي نجحت في الترويج لحكاية لبنان ورسالته وأصالته كمنارة في الشرق، وكونه صلة وصل أو جسر بين الشرق والغرب .وبالتالي نشوء فكرة الحياد اللبناني التي تعود إلى السطح هذه الأيام كما في كل مرة كلما «دق الكوز بالجرة » كما يقول المثل الشعبي.

فكانت «السقيفة» اللبنانية أي الصيغة الفريدة المؤلفة من سالبتين، لا شرق ولا غرب، والتي أنتجت هذا الوطن الهجين الذي اهتزَّ عدة مرات منذ العام 1958 عندما نزل المارينز على شواطئ بيروت .من ثمّ في نهاية الستينات عند دخول فصائل «المقاومة» الفلسطينية وبداية الانقسام الوطني حولها، إلى أن انفجر الوضع في العام 1975، حرباً أهليةً ضروس استمرَّت إلى العام 1990 حرباً أحرقت الأخضر واليابس وقضت على ازدهار وانتعاش اقتصادي، كنا نُحسد عليه .

دُمرت بيروت، عروسة المدن وانقسمت إلى شطرين متحاربين . ولفَّ الدمار والآلام الكثير من القرى والمدن ولم يبقَ جيش أو قوة في العالم إلاّ وكان له رأي ودور وتدخل فيها.

- **انفلات العقد الأهلي، طوفان الطوائف.**

جرّت هذه «السقيفة» العرجاء لبنان وطوائفه إلى حرب خَلَّفت عشرات آلاف الضحايا والمفقودين والجرحى .ولم تنتهِ عملياً إلاّ بعد أن تقاتلت كل ميليشيات الطوائف المسلحة مع بعضها البعض .فكان اتفاق الطائف وحل الميليشيات. يتجاوزها اللبنانيون هذه الحرب ببضعة كلمات كالقول: «تنذكر وما تنعاد»، ويتجنَّبون الحديث عنها، كأنها تابو محرَّم، أو كأنهما بالقفز عنها وعن مآسيها يتجاوزون مطبّات أو إمكانيات الوقوع فيها أو العودة إليها مجدداً .وهذا خطأ تاريخي كبير، وهي عادةً ما توجز في كتب التاريخ المدرسية، بجملة واحدة، مفادها: أنّ لبنان عرف من سنة كذا ولغاية سنة حرباً أهلية أليمة، أجمع اللبنانيون على تجاوزها وعدم العودة إليها .هكذا كأنها صفحة في كتاب وطويناها، عوضاً عن تبيان أسبابها وأهوالها ونتائجها، لكي تتعرَّف الأجيال الناشئة على الويلات والمآسي التي عايشها أهلهم وأجدادهم، ولكي يدرسوها بمنهج عصري نقدي وديمقراطي .وهذا ما يجري التشديد عليه في ألمانيا على سبيل المثال كبلد شهد حربين عالميتين .لكن يبقى الخوف على الأرجح لدى القيمين على الكتب المدرسية والتربوية هو أن تؤدي إثارة هذه الأمور إلى انبعاث الخلافات والأحقاد مجدداً بين الطلاب وما يفترض ذلك من توترات وإثارةً للأشجان .خاصة على ضوء عدم اتفاق أهل التاريخ وكتبَتُه في لبنان على صياغة صيغة موحَّدة لتاريخ لبنان .وهذه النقطة بالذات كانت في صلب الحرب الأهلية، وجرت الأمور بعد الطائف أن تبقى لكل طائفة أو فريق سياسي الرواية التاريخية التي

تناسبه أو التي يتبناها ويراها، هي الرواية الحقة والصحيحة لنشأة وتاريخ هذا البلد .وتُدرس تالياً في مدارس كل فريقٍ الطائفية، وهذا أيضاً من معيقات قيامة لبنان وانصهار أهله في بوتقة مجتمعية واحدة .وثمة في هذا السياق دراسات وأُطروحات كثيرة.

حتى أنّ المرء بات – لكثرة التشعبُّات والتغييرات والاحتلالات والتدخلات الخارجية التي شهدها هذا البلد– يجرؤ على طرح السؤال المؤلم التالي: هل لا يزال لبنان بعد مئة عامٍ من تأسيسه وقرابة السبعين عاماً من إعلان استقلاله رسمياً، أي:

هل لا يزال هذا الكيان موجوداً بالفعل!؟

وهذا بعد احتلال «إسرائيل» لقسمٍ من الجنوب (1978 – 2000، ووجود الجيش السوري، (2005 – 1975) كذلك في مناطق كثيرة من لبنان، والانتشار المسلح للميليشيات الطائفية وسيطرتها على مناطق واسعة وانقسام هذه المناطق طوال فترة الحرب الأهلية(1990 – 1975) ، واستمرار بعضها إلى أيامنا هذه .مثال الإدارة المدنية في الجبل (الحزب الاشتراكي/الدروز استغلال المنفذ البحري في الجية)، (حركة أمل/الشيعة، المنافذ البحرية خلدة وصور). كذلك المناطق المسيحية (القوات/الكتائب مرافئ بيروت، جونية). وعدم بسط الدولة ليدها على كثير من الأراضي اللبنانية .. وانتشار السلاح المتفلِّت والقوى المسلحة في أوقاتنا الراهنة.

- **من جديد؛ الحياد، السلاح، طائف جديد.**

وإذا ما كان هذا هو الحال إبّان الحرب الأهلية، فإنّ روّاد هذه الحرب لا ينفكون اليوم يلوِّحون بالعودة إلى الانعزال وأحلام القوقعة والتقسيم، والقول بأننا في وضع يشبه ما كان عليه الحال في العام 1975. أمّا كلام البطريرك الماروني الراعي من أنّ مقولة الحياد حمت لبنان وجلبت له الازدهار وأنه كلما ابتعد عن هذه القاعدة اختلّ التوازن وأُصيبت البلاد بالنكسات والانقسامات .فهو لخير تذكير بالشروط أو الصيغة التي قام على أساسها لبنان .وهو كلام يمثل صمَّام أمان للبنان يصونه ويمنعه من الانجرار وراء الأحلاف والمطامع الإقليمية ويدخله في أتون الصراع الملتهب في المحيط من حولنا.

هذا فيما يتمسك حَمَلَةُ السلاح (من غير القوى الشرعية المسلحة)، به كحامٍ للبنان من أخطار متنوعة، إسرائيلية وإرهابية متطرفة، أي ما يتعدّى أصل ومدى وجوده واستعماله الأصلي، ليصل خارج الكيان والحدود .مستفيداً بشكل متبادل من غطاء شريكه المسيحي الذي لم يُفصح عن حقيقة التفاهم الذي وقعّه في مارمخايل، هل نجح فعلاً في "لبننة" القناعات العابرة للأقاليم والولاءات العابرة للمناطق والهوية الوطنية .أسئلة لم نرَ أجوبة واضحة عليها من جميع الأحزاب السياسية التي شاركت في الحرب وقادت حفلة النهب الفساد المالي والاجتماعي فيما بعد الحرب وأوصلت البلاد إلى الإفلاس والانهيار.

لكن اليوم الصورة تبدو مختلفة بدرجة كبيرة عن تلك الأحوال التي كانت سائدة قبيل اندلاع الحرب الأهلية، إذ كانت المارونية السياسية هي المسيطرة على البلد آنذاك، يقابلها المقاومة الفلسطينية المسلحة، وهي من خارج النسيج الوطني اللبناني .وكانت الشعارات المرفوعة آنذاك؛ الغرباء وحرب الآخرين، التي كانت تشي بأن مجرد إبعاد هؤلاء الغرباء سوف نعود للصفاء والنقاء الطائفي أو المناطقي، وهي أمراض ساعدت في ظهور نعرات مقابلة ولعبت دوراً سلبياً في تأجيج الحرب وأسسَّت للتفرقة الأهلية.

- **نهاية سايكس – بيكو.**

أمّا اليوم فالوضع القائم هو سيطرة الشيعية السياسية المتحالفة مع تيار كبير من المسيحيين (تحالف أقليات، في مقابل الطائفة الثالثة، التي تشكِّل امتداداً للمحيط الأكثري المتجانس)، والتي تشكِّل حالة المقاومة المسلحة، هي الرافعة لأي تغيير جذري أو بنيوي في طبيعة الكيان ومستقبله، إذا ما شعروا بأي تهديدٍ وجودي حقيقي .وهذا ما نستشفُّه من تسريبات خافتة وغير مباشرة من قبل هذا الفريق حول إمكانية الذهاب في هذا الاتجاه الجذري أو القيصري، والذي قد يكون من سياقات ما يدور في المنطقة والإقليم، من تشكيلات ما بعد سايكس – بيكو .وعليه يكون التلميح المبطن من أنّ التغييرات التي نشأت عن الحرب السورية وتدخل أطراف لبنانية فيها، وما نتج عنها من تغييرات جيواستراتيجية وديمغرافية على أرض الواقع، تدفع بهذه

القوى للترويـج لبعض الفرضيات حول لبنان مفادها؛ عدم إمكانية بقاء ووجود هذا الوطن في الجغرافيا الحالية بدون وجود كيان مماثل أو مشابه في الإقليم يردفه ويتناغم معه .فإن لم تتحقق الأولى فإنّ شرط وجود وبقاء هذا الكيان كوطن غير ممكنة من دون صيغة حكم جديدة تعبر عن البنية والتغييرات والمستجدَّات الاجتماعية والسياسية التي شهدها المجتمع اللبناني وتتناغم بالتالي مع صيغ أو أشكال الحكم القائمة في الإقليم، أي في كلٍّ من سوريا والعراق .أي بلغة مبسطة؛ طائف جديد، يُفضي إلى المثالثة، بعد أن تآكل حلم البطريك الحويك إلى حافة الثلث وربما أقل وليس المعطّل .وهذا على ما يبدو ما يُراد له أن ينتقل إلى حِيز النقاشات العامة ووسائل التواصل الاجتماعي، وذلك لتهيئة الأرضية المناسبة لتقبل مثل هكذا أفكار، سوف تأتي بمثابة جائزة ترضية للأدوار، التي أُديت بهذا السلاح في المساهمة في تحرير الأرض، وفي ما يسمونه الدفاع عن الحدود بوجه الإرهابيين، وربما يأتي كل ذلك من بوابة ترسيم الحدود، لأن هكذا تغيير أو تعديل للدستور القائم أي الطائف، كلّف حرباً أهلية استمرت خمسة عشر عاماً، غير ممكن بمجهودٍ محلي خالص، ودونه ربما حرب جديدة !فإذن، مثل هكذا تغيير لن يكون ممكناً إلاّ من خلال تسوية دولية/إقليمية تفرض نتيجتها على لبنان، وعنوان صيغتها المقبلة؛ المثالثة .التي لن تكون كذلك حلاًّ مستديماً وإنما تخميراً ووقوداً لأزمة كيانية /وجودية مقبلة، ما لم يُصار إلى تطبيق اتفاق الطائف الذي شكَّل أعلى سقف ممكن من التغيير المقبول من

الجميع، بعد حرب طاحنة، وقد شكَّل المخرج الحقيقي لأزمات لبنان المستعصية.

- **ملامح ولادة الهوية الوطنية؛ مخاض طويل وعسير!**

لا شك أنّ التجارب ومسارات السياسة حتى في الأوقات العصيبة أثبتت أنّ عملية إنشاء هذا الكيان/الوطن لم تكن بشكل تعسفي بالكامل، وأنّ بعض التداخلات الحدودية الطفيفة موجودة في كثير من البلدان ذات التداخل الجغرافي .وقد تجلّى ذلك في أوج الحرب الأهلية والانقسامات المناطقية والطائفية، فإننا لم نشهد حالات انفصال جذري وفعلي أو نزوع سكاني أو سياسي للوحدة مع سوريا حتى في الأقضية الأربعة السابقة الذكر، والتي كان الجيش السوري من غريب المصادفات ينتشر فيها بقوة منذ اندلاع الحرب الأهلية ولغاية خروجها من لبنان رسمياً .فإننا نلاحظ أن النزوع العام والشعور الوجداني لدى غالبية السكان في شتى المناطق خاصة في تلك التي كانت واقعة في مناطق وجود أو نفوذ الجيش السوري كان نحو «الدولة اللبنانية»، وجُلَّ العتب من قبل الأهالي كان ينصبُّ على غيابها وأكبر المطالب هو بانتشارها وحضورها، ما يؤكد أن مفهوم الدولة والشعور به كان موجوداً وراسخاً وقائماً حتى في أوج الحرب الأهلية .وأن سبب بعض مظاهر الاعتداء على مظاهر الدولة عائد بدرجة كبيرة لإهمال الدولة في الإنماء، واقتصاره على المدن الرئيسية وإهماله للأطراف.

كما أن التاريخ يعطينا أمثلة وافية عن نشوء الدول الحديثة في اوروبا، وآسيا الوسطى والبلقان، فأغلب تلك الدول لم تلد هكذا دفعة واحدة وإنما مرّت في مخاض عسير وطويل قبل أن تتشكَّل هويتها الوطنية والعامة وحدودها، وإن كانت قد مضت فيما بعد لتجاوز هذه الحدود نحو الانفتاح والتكامل والتعاون، كالاتحاد الأوروبي مثالاً، الذي على الرغم من تصاعد الأحزاب الشعبوية القومية يبقى النموذج الأوروبي مثالاً ناجحاً في شتى الصعد الإنسانية، والاقتصادية، وأحوال المعيشة ، والتنمية.

ولا يبدو أنّ ثمة مخرجاً أمام لبنان سوى قيام دولة مدنية وإلغاء الطائفية من النصوص والنفوس نحو بلورة هوية وطنية جامعة وعابرة للطوائف تعلي من شأن الوطن الذي أخذ مخاضاً طويلاً ودفع الأثمان الذكية من أجل تشكيل هذه الهوية التي اعتقد أنّ هذا الشعب قد استحقَّها، وقد تمثّل ذلك في الحراك المطلبي أو ما عرف بثورة 17تشرين، حيث تجلَّت ملامح وطنية جامعة لدى هذه الأجيال الناشئة يمكن أن تؤسس لبلورة وعي جمعي وطني يؤسس لولادة وطن يليق بها، وتحدث التغيير المنشود[1].

([1]) نُشر في موقع زوايا الإلكتروني 28 /تشرين الثاني.2020

اللادينيون والملحدون الجدد يدقّون ناقوس الخطر حان الوقت من أجل تفكير إنساني جديد!

في أواسط شهر آب (أغسطس) سنة2005 ، وغداة زيارة البابا بيندوكتس السادس عشر إلى مدينة كولونيا، وزّع اتحاد الإنسانيين الألمان بياناً على الصحف يستغربون فيه تجاهل البابا للملايين من اللادينيين والملحدين والعلمانيين في ألمانيا عندما التقى مع ممثلين عن البروتستانت والكاثوليك من المسيحيين، وكذلك مع ممثلين عن اليهود والمسلمين ..هذا، وقد تزامنت زيارة البابا بشكل ملفت، مع مناسبة انعقاد اليوم العالمي للشبيبة، الذي استضافته هذه المدينة الألمانية المشهورة بكنيستها التاريخية.

لا ريب أن ظاهرة عودة الدين أو الحنين إلى الأصول إضافة إلى العولمة هما أبرز ظواهر أو سمات هذا العصر . كما أن المتابع العادي لمجريات الأحداث عبر العالم أو في أوروبا وألمانيا سرعان ما يلاحظ طغيان الأخبار أو الأحداث التي يغلب عليها طابع الصراعات الطائفية أو المذهبية، حيث تبرز فيها صور لرجال الدين .في المقابل نشاهد انحساراً للغة العلمية والموضوعية لدى المواقع التي تعالج أكثر هذه المواضيع .وكذلك تزايد معدلات حضور وهيمنة الأصوات الدينية المتطرفة أيضاً هنا (في الغرب) التي تكتسح الساحة الإعلامية متوسِّلة روح العصر لناحية الأزياء واللغة الحديثة. بإزاء هذا بدأت أصوات شريحة واسعة من الألمان

كانت صامتة- أو بلغة أخرى- كانت تجد نفسها غير معنية بما يدور من حولها في العالم من أحداث وتحوّلات، فبدأت بإزاء هذا ترفع الصوت مطالبة بحقوقها، ومعلنة عن وجودها وضرورة أخذ الجميع لهذا الوجود في عين الحسبان:

إنهم الملحدون الجدد أو الإنسانيون.

تتعدّد أسماؤهم كما لا تنعدم الاختلافات بينهم .لا يجمعهم إطار واحد ولا ينضوون في حزب واحد أو أحزاب بعينها .وهذا بعد أن كانوا يعيشون في حالة من الاسترخاء والطمأنينة وعدم الشعور بأي تهديد قد يطال مكتسباتهم في حرية التعبير عن آرائهم وممارسة كل ما يريدونه سوى ما يخالف حدود القانون ..وربما لهذا السبب تراهم ضعيفي التنظيم في المجتمع الألماني، وذلك ربما لأنهم لا يشعرون بدافع أيديولوجي قوي يدفعهم إلى التأطّر في تنظيمات موجهة تهدف إلى تعميم فكرهم .وقد يكون خير مثال على هذا، العدد الهزيل نسبياً لأعضاء اتحاد الإنسانيين الألمان أحد أكبر تجمعات الملحدين هنا ويضم حوالي عشرة الآف عضو.

ميخائيل شميت سالومون: هو بلا شك أبرز الأسماء لديهم . كتابه **بيان الإنسانية التطورية** تربَّع على رأس قائمة أفضل المبيعات وكذلك شغل المركز الثاني في أفضل مبيعات دار أمازون . وهو يفسرِّ ضعف دورهم وقلّةِ فعاليتهم في المجتمع لأن الدين لا

يشكِّل بالنسبة للناس هنا أية أهمية ولا يلعب أي دور في حياتهم اليومية ..فنحن بالتالي لا نشعر بوجود أي تهديد أو أي خصم .

هربرت ستيفن: (72) سنة رجل غني، ولكن لا يحصل مغنو النجوم(جماعة الكنيسة) منه على سنت واحد .ممنوع الصلاة، كُتب على لافتة عُلّقت على باب قاعة قرب بيته حيث يتجمَّع الملحدون الألمان، يسمّونها جمعية غيدارانو برونو، الذي أحرقته الكنيسة عام 1600جراء آرائه العلمية، التي كانت مخالفة لتعاليم الكنيسة.

إنهم ثلث الألمان تماماً كالبروتستانت والكاثوليك .والمجلس المركزي للهيئات سوف يتعامل معهم تماماً كما يتعامل مع الكنيسة[1].

وتشير إحصاءات سابقة أُجريت في تسعينات القرن الماضي إلى أن % 47 من الألمان يعتبرون أنفسهم لادينيين و % 9 يعتبرون أنفسهم ملحدين وترتفع النسبة في ألمانيا الشرقية إلى% 18 . ولا شك أن شيئاً من التماهي بين حدود المصطلحين يؤشر لوجود تداخل بينهما، ولكنهما يؤشران بشكل واضح إلى أن حالة من قلَّة الاكتراث بالدين متفشَّية في المجتمع، تتبدّى وتعبر عن نفسها بمصطلحات وتسميات متقاربة.

([1]) ديرشبيغل.2007 /5 /26

والملفت أن من يعتبرون أنفسهم مؤمنين يذهب % 9 منهم فقط قداس الأحد، كما أن % 31 ممن اعتبروا أنفسهم بروتستانت يؤمنون بـ قوة عليا وليس بالإله الذي تدعو الكنيسة إليه .وقد بيّن استطلاع عالمي للإيمان والإلحاد، قامت به وول ستريت جورنال العام2004 ، أن % 12,5 من سكان العالم غير مؤمنين(لادينين) و % 2,4 ملحدين .

هذا في مقابل % 32,9 مسيحيين، و % 19,8مسلمين[1]. ومن بين النتائج التي كشف عنها أن % 25 من مواطني أوروبا الغربية يعلنون أنهم لا يؤمنون بالله ويصفون أنفسهم بأنهم ملحدون، وهي النسبة الأعلى في العالم مقارنة مع % 8 في الولايات المتحدة و 1 % في تركيا. فيما حلّت الجمهورية التشيكية في طليعة البلدان الملحدة (% 49) ومن ثمّ هولندا (% 41) فالدنمارك ..(% 37) ربما تقارب هذه الأرقام الصورة المنطبعة في الأذهان عن أوروبا العلمانية أو أوروبا الكافرة كما وصفها مرةً أحد دعاة اليمين المحافظ الأمريكي.

ولكن على ما يبدو أن شبحاً آخر يهيم ويجتاح أوروبا، لكنه ليس شبح الشيوعية كما سطَّر ماركس بيانه الشيوعي الشهير سنة 1848، وإنما شبح الدين هذه المرة ..الدين العائد من جديد بكل

([1]) دير شبيغل العدد الآنف الذكر، نقلاً عن الموسوعة البريطانية.

قوته وأساطيره ولغته المفارقة ..بإزاء هذا، وتحديداً إثر أحداث 11 أيلول (سبتمبر)2001 ، بدأت الشريحة الصامتة هنا، أي ورثة عصور التنوير والثورة الفرنسية والعلوم الحديثة ونظرية التطور، بدأوا يستشعرون خطر سحب البساط من تحتهم وتسلّل الدينيين إلى شتى أروقة المجتمع والحياة، بدءاً من السياسة وامتداداً إلى الساحات العلمية، والأكاديمية، والاجتماعية، وغيرها..

لهذا تداعت شخصيات علمية إلى دق ناقوس الخطر لدى العلمانيين والملحدين والإنسانيين عموماً، داعية إلى ضرورة تحديث الفكر الإنساني وتطويره بغية عدِّ العُدّة للمواجهة التي باتت على الأبواب .الله، هو سبب كل هذا!، الحملة الصليبية للملحدين الجدد، هكذا عنونت ديرشبيغل[1].

وقد أفردت على صفحاتها مقابلات مع ثلاثة من أبرز منظري ومتصدّري هذا التيار الجديد، **ريتشارد دافكينز، وأونفراي،**

([1]) ديرشبيغل مصدر سابق نفسه .

• ملاحظة هامة حول مجلة دير شبيغل، فهي مجلة أسبوعية مرموقة، أسسها الصحافي المعروف رودولف أوغستين سنة1947 ، وقد اشتهرت دير شبيغل بموضوع غلافها الأسبوعي، الذي قد يتألف من عشرات الصفحات، ويشارك فيه علماء ونقاد وغيرهم، وغالباً ما تتصف هذه المواضيع بالموضوعية والحرفية العالية، غير أنه في الآونة الأخيرة طغت على ديرشبيغل الاتجاهات السياسية ما جعل هذه الموضوعية موضع شك لدى الكثيرين !لكن ما لا شك فيه أنّ ديرشبيغل تكاد تكون بمثابة إمبراطورية إعلامية متكاملة، إذ أن لديها قناة تلفزيونية ثقافية خاصة كما أنها تنشر الكتب والأقراص المدمجة ... وهذا ما يفسر ربما، استنادي المتكرر على أعداد ديرشبيغل في سياق هذا الكتاب.

وأوديفريدي. وعرضت لما يُسمى بالوصايا العشر الإلحادية الجديدة، إضافة إلى تحقيق عن أعداد وواقع الملحدين في ألمانيا والعالم دورهم وما يتطلعون إليه ..ريتشارد دافكينز، هو بابا الملحدين الجدد عبر العالم بلا منازع، بابا كل من يرى بضرورة تحرير العالم من الإيمان والملالي ..ومن الحروب الدينية كتبت ديرشبيغل.

دافكينز (66) عاماً ؛ عالم أحياء تطوري من جامعة أوكسفورد، اختير من قبل قراء كل من بروسبكت البريطانية، و يو أس ماغازين و فورين بولسي كأحد ثلاثة عباقرة يقودون العالم. وهو صاحب الكتاب الشهير حول داروين، **الجينة الأنانية** وصاحب كتاب **الوهم الإلهي**، الذي بقي لمدة 30 أسبوعاً على رأس قائمة أفضل المبيعات في أمريكا وبريطانيا وقد صدر له في ألمانيا مؤخراً كتاباً أكبر من بعض الأناجيل، عن دار خدمة الصحافة الإنسانية. في السنوات العشرين المنصرمة، أصبح الدين سهلاً جداً، مَن يؤمن يحصل على امتيازات شتى .الأساقفة أصبحوا يُعاملون باحترام مبالغ فيه ويُدعون إلى مؤتمرات علم الأخلاق .الجديد في الأمر، أن الكيل قد طفح!، وأصبحنا أمام وضع لا يُحتمل ..وهذا الأمر ينطبق بالطبع على الإسلام المتنامي بقوة، يقول دافكينز: نحن نُجر إلى ميدان المواجهة والجملة القديمة التي كان كل واحد منا يتسلَّح بها، أي، أنا لا أؤمن وهذا أيضاً جيد، هكذا يبدو أنها لم تعد تفيد بشيء، أو بالأحرى لم تؤدِ على الأرجح إلاّ إلى إقصائنا عن ميادين الحياة الفاعلة ..

فيما نلاحظ عودة الدين إلى أشكال ومواقع كثيرة في حياتنا .. وتحكمهم في السلطة والإعلام وفي مواطن كثيرة من المجتمع .. وبالتالي بات علينا المواجهة والاستعداد والمجاهرة بأعلى صوت للذود عن وجودنا ومكاسب الحضارة البشرية، وبالطبع سلاحنا في معركتنا هذه هما العلم والعقل.

بهذه المقدمة تستهل ديرشبيغل ومعها دافكينز الدخول في هذا الموضوع، قبل أن يبدأ هذا الأخير الكيل أو الانتقاد لمواقف الفاتيكان المنددة بالرسوم الكاريكاتورية ..وصولاً إلى حديث الرئيس الإيراني أحمدي نجاد، عن نور الإمام الغائب، وذلك أثناء إلقاء كلمته في الأمم المتحدة حول ملف بلاده النووي .

وعلى الرغم من نسبة الـ % 44 من الأمريكيين الذين يؤمنون أن المسيح سوف يظهر في الخمسين سنة القادمة، يبقى دافكينز متفائلاً بحدوث تغيُّر في الوعي، وأن الناس سوف تفهم في نهاية المطاف . ويتابع دافكينز كلامه :تخّيلوا لو أن العالم كان بلا دين!، لما كان لدينا 11 أيلول (سبتمبر)، ولما وُجد الانتحاريون ولا محاكم التفتيش ولا الصراع بين «إسرائيل» وفلسطين ولا المجازر في البوسنة ولا ملاحقة لليهود على أنهم صالبوا المسيح. ولا القلاقل في إيرلندا الشمالية .ولكان لدينا عالم بلا طالبان أو بلا الختان بالإكراه ولا جرائم الشرف في برلين كرويتسبرغ (منطقة في برلين وقعت فيها جريمة شرف بحق فتاة من الجالية الإسلامية، أحدثت هذه القضية

ضجّة كبيرة ولاقت انتقادات واسعة في المجتمع الألماني)، ولا كان لدينا جورج بوش الذي يتحدث عن أرض الأنبياء قبل 2000 عام قبل أن يرمي قنابله ..لولا كل هذا لكان لدينا الجنة على الأرض ..

ولكن إذا كانت جنة دافكينز التي يحلم بها قد فُقدت بفعل الدين، فكيف تراه يفسر الحروب العالمية الثلاث الأخيرة، الأولى والثانية والباردة، التي لم تكن حروباً دينية؟ !هذا، وإن كانت الحرب الباردة لم تقع مباشرة بين ما كان يُعرف بالجبارين حينها (أمريكا والإتحاد السوفياتي)، غير أن حروباً تابعة لها كثيرة وقعت بالوكالة عن أصحابها . وقد سقط جراء هذه الحروب ملايين الضحايا عبر العالم.

ميشيل أونفراي :هو نبي الملحدين الجدد في فرنسا، وصاحب مبدأ المزاج، 48 سنة، أصدر 32 كتاباً، طالما الناس يموتون، طالما الله موجود ..إنه الملاذ الأخير لهم من فكرة الموت ...البابا الجديد فيلسوف كبير..، كانت هذه عيّنة عن أفكاره .أمّا عن القول بضرورة مواجهة التطرّف الإسلامي خاصة بعد أحداث 11 أيلول إنطلاقاً من القيم اليهودية – المسيحية يقول أونفراي :أنا لست مجبراً على الاختيار بين شرَّين، كما كان عليه الحال أثناء الحرب الباردة، اليوم لدينا تماماً نفس المثال، إذ يُفرض علينا وفق ما يسمى بحرب الثقافات، أن نختار بين بوش أو بين بن لادن، الأول مدمن كحول

سابق، وهو يتحدث مع الله باستمرار ويخبره بما يتوجب عليه فعله، وعلى الجهة الثانية يقف بن لادن الذي يقول: يجب إبادة الكفّار.

ويقترح أونفراي لمواجهة التطرف والأصولية العودة إلى فلسفة الأنوار والعقل .ولكن ماذا بشأن مقولة التسامح أيضاً؟ تسأله ديرشبيغل، نعم، ولكن يوجد حدود للتسامح أيضاً وحرية التعبير، ولكن هذه يجب أن لا تعني تعميم الكذب والخداع ..ولكن بكل الأحوال لا يتوجب علينا أن ننجرَّ إلى الحرب التي يريدها المسلمون بحجَّة الذود عن سيادة الطابع اليهودي المسيحي لمجتمعاتنا. وحول مقولة :الدين الينبوع الأول للأخلاق، يقول :

الأخلاق عند الإغريق أو الرومان لم تكن على صلة بالدين.

أمّا حول القول:

أن من دون الله ووصاياه ونواهيه سوف يكون كل شيء مُباحاً .

يقول أونفراي، نعم، هذه قالها **دوستويفسكي**، وأنا أزعم العكس، فلأن الله موجود، كل شيء مُباح .أَلَم تقع باسمه المجازر والإبادات الجماعية والملاحقات؟ أنا لا أعتقد أنّ وجود الله قد دفع الإنسان إلى وقف الشرور.

سام هاريس :هو مرشد وزعيم آخر للملحدين الجدد في أمريكا، وهو صاحب القول:

باسم الأب بيتاغوراس والإبن أرخميدس والروح القدس نيوتن.

وإنه لولا 11 أيلول (سبتمبر) لما وُجد ملحدون جدد . تماماً بعد يوم واحد من ذلك الحدث، بدأ سام هاريس كتابة كتابه .كثيرون من مواطنيه راحوا حينها يتساءلون :أليس لأنه يوجد في أمريكا هذا الكم من المثليين والمدمنين، أَلاَ يكون الله لأجل هذه الخطايا يعاقبنا؟ وهذا، بأي حال، ما قاله أيضاً القس جيري فالويل على التلفزيون الأمريكي .هاريس (دكتور في علم الأعصاب) كان في الرابعة والثلاثين من عمره وقت 11 أيلول، وقد تفكّر في الأمر بطريقة أُخرى :

ليس غضب الله هو المشكلة، وإنما الله نفسه ..

من دون الإيمان بالله لما وُجد الكثير من الفظائع! وبعد مئات من السنين من البحث العلمي وما توصَّلت إليه هذه العلوم حول عمر الحياة وعمر أرضنا الذي يعود إلى ملايين من السنين، فإن أكثر من نصف جيراني لا يزالون يؤمنون بأن عمر هذا الكون كله 6000عام .هذا ولا يستطيع هاريس أن يصدّق، كيف أن بوش والكونغرس قد أُنتخبوا من قبل هؤلاء الذين لا يوجد أدنى شك لديهم بأن الديناصورات قد سبق لها أن عاشت على سفينة نوح .كتابه **نهاية الإيمان** بيع منه 270 ألف نسخة، فيما رفض عرضاً لترجمة هذا الكتاب إلى العربية، قائلاً: لأنه سيكون بالنسبة لأي مترجم،

بمثابة حكم بالقتل .كتابه الثاني **رسالة إلى الأمة المسيحية**، صدر في أيلول (سبتمبر)2006 إلى هذا، نشرت ديرشبيغل **وصايا الملحدين الجدد العشر**، نتوقف عند بعض البنود منها:

1 – لا يوجد بكل ثقة خالصة من أية احتمالية، أية قوة خارج أو فوق الطبيعة .الظواهر غير المفسَّرة ليست دليلاً على العجائب، وإنما على عدم اكتفاء البحث العلمي بصددها ...الإلحاد ليس علاجاً ضد الايمان، ولكنه استرجاع للصحة النفسية التي كانت مفقودة.

2 – الله منتج من قبل البشرية وليس العكس ...بعض الأفكار الشائعة مثال:

يوجد حياة بعد الموت هي بمثابة الفيروس...

3– التعايش السلمي مع المؤمنين انتهى .الملحدون الجدد ليسوا لا أدريين حيال المفسّرين المؤمنين .منذ اللحظة التي صدرت بها الفتوى ضد الكاتب سلمان رشدي، وإعلان الجهاد الجديد ضد الحداثة، لقد انتهى عهد المزيج الديني للثقافات .أنا لا أستطيع أن أقول، حسناً أنت تستمر بالحلم بإمامك الشيعي الغائب، وأنا أتابع دراستي لتوماس بايني وجورج أورويل، لأن العالم فسيح جداً ويتسع لنا نحن الإثنين .فالمؤمن الحقيقي لا يستطيع التوقف قبل أن يركع كل هذا العالم .(هيتشينز).

6- بدون وجود الله، كل شيء مُباح؟ جملة بلا معنى، إذ أنه توجد أخلاق بدون الإيمان ..لا يوجد معايير عامة صالحة ما وراء الثقافات والأزمان .فقط التجارب القاسية التي منها تستخرج الأحكام . الإنسان هو الخالق وهو سّيد كل معيار.

7- العلم والإيمان هما كالماء والنار، لا يوجد ما هو مشترك بينهما...

9- لا يسمح إعطاء أية حقوق خاصة للأديان .المشاعر الدينية ليست حقوقاً أو قيماً محفوظة أو يجب ان تُصان كحرية الفن والسياسة والأخلاق.. الوحشية والغباوة لا يجب أن تمر بلا مساءلة، فقط لأنها ممهورة بختم الدين .المسيحية كدين ليست أفضل من الإسلام أو اليهودية، إذا ما قبلنا بهذا المبدأ، يتوجب علينا أن نحترم المؤمن الذي يوافق على هذا المبدأ، لهذا نحن لا يفترض بنا أن نقدم أي احترام لإيمان بن لادن (دافكينز).

ولكن اللافت في كل هذا أن ثمة محاولة حثيثة من قبل دعاة حرب الحضارات والثقافات، لجرِّ واستدراج تلك الشريحة النائمة أو اللامبالية بالدين وبالصراعات التي تنشب باسمه، وذلك عبر تصوير الخطر الإسلامي على أنه خطر خارجي وداهم يواجه بنيان الحضارة الغربية برمتها، وهو لا يفرِّق بذلك بين يمين هذه الحضارة أو يسارها، ولا بين ملحديها ومؤمنيها ..وهؤلاء يؤشرون إلى قرون التصالح التاريخية الأخيرة، التي جرت بين الكنيسة والعلمانيين في

الغرب، وبأن الحركات الإلحادية في الغرب لم تكن حالات انشقاقية تماماً عن الجذور اليهودية المسيحية التأسيسية لتلك الحضارة.

وهذا بأي حال ما قد يُستشفُّ من كلام دافكينز نفسه، بأن كلمة ملحد في أمريكا، تلقى صدىً غير مشرفٍ، ويتم النظر إلى الملحدين تماماً كالنظر إلى المثليين جنسياً .وأن الملحدين الجدد هناك يتستِّرون تحت أسماء مختلفة .وهم في أغلبهم من المشتغلين بالفلسفة والعلوم الطبيعية، الذين يطلُّون برؤوسهم على الكثير من منابر النقاش التلفزيوني الحر، أمثال، كريستوفر هيتشينز، التروتسكي السابق في إنكلترا، والذي تلقى طروحاته اليوم، إعجاب المحافظين الجدد في أمريكا .كتابه الله ليس (أكبر كبيراً)، يلقى رواجاً كبيراً في تلك الأوساط .الدين يسمّم كل شيء وهو عدو العلم، يقول هيتشينز.

- **حرب الحضارات المزعومة.**

ويتضح من ذلك كله، أن ثمة محاولة جليِّة لتوجيه الموضوع نحو غاية بعينها، وهي الإصرار على تأصيل الصراع وفرز مكوِّناته ومركباته بشكل حاد وعامودي، لا يترك أي مجال لتقاطع أفكار إنسانية كبرى وجامعة يلتقي عليها بشر من كل الأطياف والقارات والأمم .وكذلك إلى ترسيخ الجذور والأصول اليهودية المسيحية على الحضارة الغربية القديمة منها والمعاصرة، وأنه بالتالي على الملحدين الجدد الإنضواء في هذا الركب، كون الإلحادية الغربية تبقى تنويعاً

من النسيج الداخلي الغربي، بينما الأصولية الإسلامية مشروع غريب ومعاد .واللافت بهذا السياق، هو دأب كثيرين من المفكرين في الغرب، على دمج التسميتين (اليهودية والمسيحية) مع بعضهما البعض، بشكل يكاد يرسخ في الأذهان على أنهما شيء أو مركب واحد أو أن أحدهما مكمِّل للآخر .

- **اتجاهات الجمع ما بين التنوير والدين والاشتراكية.**

يُذكر كذلك في هذا الإطار أن ثمة اتجاهات فلسفية إلحادية يهودية مسيحية في المجال الغربي سعت إلى تعميق الصلة بين أفكار التنوير والاشتراكية وتلك الأصول الدينية، كحال الفيلسوف **ارنست بلوخ**(1885 – 1977) ، اليهودي القريب من الماركسية وأحد ملهمي ثورة شباب1968 ، فهو يجد روابط وثيقة بين الاشتراكية والأصول اليهودية المسيحية، وذلك في كتابه الشهير مبدأ الأمل .كذلك في كتابه الإلحاد في المسيحية والعنوان الثاني لهذا الكتاب، وحده الملحد يمكن أن يكون مسيحياً جيداً، ولكن بلا شك أيضاً، إنه فقط المسيحي يقدر أن يكون ملحداً جيداً .أو كحال والتر بنيامين الذي حاول الجمع بين اللاهوت والماركسية، وبين المسيحية اليهودية والمادية التاريخية، وبين الصراع الطبقي والخلاص المسيحي.

ولربما يكون **يورغن هابرماس**، فيلسوف الدولة الألمانية الرسمي والأخير من رعيل الفلاسفة الكبار الذي ما يزال على قيد الحياة، أحد

أبرز الأمثلة على ظاهرة عودة الدين، والتي انعكست تحوّلاً في اتجاهات هذا الفيلسوف نفسه الذي كان ينأى في فلسفته السابقة عن التطرق لموضوع الدين إلاّ بشكل عابر، ولكن غير بعيد عمّا سبق وأشرنا إليه، فها هو في كتابه الشهير نظرية الفعل التواصلي يذهب إلى أن أفكار المساواة والعدل الحديثة وحتى نظرية العقد، كلها مشتقَّة من عهود ومواثيق العهد القديم .إلاّ أنه درج في الآونة الأخيرة على إصدار عدة كتب تصبُّ كلها في سياق ظاهرة عودة الدين، ولعل أبرزها مقالات في العقل والله والحداثة .وحديثه عن ظهور مجتمعات ما بعد علمانية، وربما يشير بذلك إلى أمريكا .وصولاً إلى دعوته إلى ضرورة تحديث أو توسيع مفهوم التسامح بحيث يتوجب ايضاً على العلمانيين أن يحترموا أيضاً قناعات الآخرين..

ومن نافل القول، أن هذا التأصيل الحضاري يكاد يتقاطع ويتشابه مع ذاك الذي يعقده مفكرون إسلاميون كثر في عالمنا العربي والإسلامي إضافة لكثير من مقولات الفكر الإسلامي المعاصر (الليبرالي والأصولي)، التي تجمع كل مكوِّنات الغرب في سلَّة واحدة، وهي ترى إلى تلك الظواهر السياسية والفكرية التي ظهرت في الغرب كالعلمانية والاشتراكية والإنسانية، مجرد تعبيرات نشأت في إطار حراك الحضارة الغربية وتصبّ كلها بالتالي في خدمة مشروعها الحضاري الذي قام في أساسه علي التمركز على الذات الغربية وعمد إلى استعمار وحتى إبادة الآخر ..أو إنتاجه وفق

أكثر تقدير متساهل، على الصورة التي تناسبه كذات متفوقة باستحواذها على العقل وسيطرتها على الطبيعة فيما الآخر الشرقي يقبع في مرتبة دنيا من سلَّم التطور ..ومستغرق أبداً خارج العقل، وحتى خارج الدين ..

في مقابل هذا، نجد أن التأصيل من الطرف الغربي يمتد ليصل إلى حدِّ القول باختلاف الإله الواحد الذي يعبده أتباع الديانات التوحيدية الثلاث ..أو تفكيك مقولة وحدانية إله الأديان السماوية الثلاث، أي ذلك القول الشعبي الذي ما ينفك المرء يسمعه عندما يتلاقى أبناء هذه الديانات، بأن الهنا واحد، وإنما تختلف طرق كل واحد منا في الوصول إليه، يبدو أن هذه المقولة التعايشية الشعبية البسيطة لم تعد تروق أيضاً، للتأصيليين الجدد، فكثيراً ما بتنا نسمع بما يفيد بعكس هذه المسلَّمة، وهذا بأي حال ما كتبه **فيرنر جيت** في كتابه و «**الأديان الأخرى**»؟[1]

«في عيد ميلادي قال لي أحد المسلمين :إننا نصلي لذات الإله . فقلت له :نحن نستطيع بسرعة التحقق من ذلك .وسألته :هل ربكم هو أبو المسيح؟ لا أبداً، الله ليس لديه أولاد، فهذا انتقاص للذات

(1) والأديان الأخرى، الطبعة التاسعة، عن دار نشر الأدب المسيحي، المانيا2006 ، ص 57.باللغة الألمانية.

Und die anderen, Religionen, Werner Gitt, 9 Auflage 2006, Seite 57.

الإلهية .أجابني .فقلت له :أرأيت، ربي هو أب يسوع، لهذا لا يمكن أن يكون إلهكم هو نفسه إلهنا!».

كيف لا طالما أن رأس الكنيسة الكاثوليكية الحالي، أي **البابا بينديكت السادس عشر** يذهب إلى أبعد من ذلك، إذ يقول: أن اليهود والمسيحيين يعرفون الله كلوغوس (عقل) وكنور ومنبع كل القوانين والمعارف، وهذا فارق جوهري عن الإسلام، حيث الإرادة الإلهية تصادر العقل والطبيعة .كل ما يشاؤه الله يحدث، بمعزل عن الأسباب والمبادئ الطبيعية[1].

- **هل نحن أمام المخاض الأخير للأديان التوحيدية؟!**

يبقى للمرء على ضوء ما سبق أن يتساءل :هل نحن أمام قرون وسطى من نوع آخر؟ وهل أن الأديان التوحيدية تخوض مخاض مشروعها الأخير؟ كون مصادرها المؤسسة تكاد تكون هي نفسها لناحية قصة الخلق والقيامة .وهل نحن تالياً نعيش ونشهد الإرهاصات الأخيرة لمشروع التوحيد برمته، هذا الذي مضى على بزوغه ما يربو على الثلاثة آلاف عام؟ وهل أن العقود القادمة إضافة

([1]) ديرشبيغل العدد 22 صفحة.68

لما قد تحمله من حروب دامية، ستكون على الأغلب ذات طابع ديني، ستكون المحك أو الاختبار العملي، لتنبؤات هذه الأديان التوحيدية الثلاث بقرب نهاية العالم؟ !

وكيف سيكون تالياً، موقف العلمانيين واللادينيين وغيرهم بإزاء هذا التحدي أو هذه القسمة العالمية الجديدة للبشر إلى فسطاطي الأخيار والأشرار؟

تعريف اللادينية والإلحاد :

اللادينية :هي اتجاه فكري يرفض مرجعية الدين في حياة الإنسان ويؤمن بحق الإنسان في رسم حاضره ومستقبله واختيار مصيره بنفسه دون وصاية دين أو تحكم شريعة، فاللادينية ترى أن النص الديني أياً كان اسمه هو مجرد نص بشري محض لا ينطوي على قداسة خاصة ولا يعبرِّ عن الحقيقة المطلقة التي تسمو على الشك .واللادينية ضمن هذا الفهم تختلف عن المفهوم التقليدي للإلحاد الذي يتخذ من قضية إنكار وجود الخالق منطلقاً وركيزة أساسية، بينما تقدم اللادينية تصوراً أكثر شمولاً واتساعاً للدين .. وبناءً على هذا، فإن **كل ملحد هو لاديني، ولكن ليس كل لاديني ملحداً بالضرورة.**

الإلحاد : يقسم أغلب الملحدين مفهوم الإلحاد إلى قسمين أساسيين هما :

الإلحاد البسيط، وهو عدم الإيمان بوجود الآلهة. و**الإلحاد القوي**، وهو الإيمان بعدم وجود الآلهة.

- **الإلحاد البسيط أو السلبي:** أنا لست مقتنعاً بوجود آلهة، أي أنَّه ينفي وجود أية دلائل موضوعية على قوة إلهية يؤمن بها، ولكنه لا ينفي مباشرة وجود الآلهة .
- **الالحاد القوي أو الإيجابي:** أنا مقتنع أنه لا يوجد آلهة . وهذا ينفي مباشرة وجود الآلهة .

هذان التعريفان كانا نتاج سنين طويلة من الجدل بين الملحدين أنفسهم .

فحسب **جورج سمث**، الملحد القوي هو شخص يعتبر فكرة الإله فكرة غير منطقية وغير موضوعية، ويعتبر النقاش في هذا الموضوع نقاشاً غير ذكي .وأوضح أن هناك فرقاً بين رجل الشارع البسيط الذي ينكر فكرة الإله لأسباب شخصية، أو نفسية، أو اجتماعية، أو سياسية، والملحد الحقيقي، الذي وفق رأيه، يجب أن يكون غرضه الرئيسي هو الموضوعية والبحث العلمي، وليس التشكيك أو مهاجمة أو إظهار عدم الاحترام للدين. وبالطبع ثمة أنواع أُخرى كثيرة من الإلحاد منها على سبيل المثال:

الملحد اليهودي المسيحي :هو، وفق التعريف الكلاسيكي، ذلك الشخص الذي يأخذ من النقد الديني للإنجيل (بعهديه القديم

والجديد)، كنقطة انطلاق في عمله ومنهجيته .وهكذا يمكن القول، **ملحد مسلم** وغيره.

- **اللاأدرية:** لا يمكن معرفة الآلهة من خلال العقل البشري[1].

---

(1) جريدة القدس العربي بتاريخ 4 /يوليو/2007.

القانون أو الشريعة..
وحدود الديمقراطية والتسامح
في مداليل تنحية قاضية ألمانية استدلت بالقرآن

شبح يجتاح ألمانيا، إنه شبح الإسلام الذي يجري من تحت بساط الألمان بينما هم عنه ساهون أو نائمون ..إنه في عقر الدار في فرانكفورت .هكذا اتشح غلاف ديرشبيغل بالسواد وقد عنونت في صدر غلافها، ألمانيا مكة الجديدة، الأسلمة الهادئة، وذلك تحت هلال ونجمة تربعاً في أعلى سواد الصفحة فوق قبة البوندستاغ ..هل أصبحت الشريعة مطبَّقة في ألمانيا؟ تساءلت صحيفة أخرى ..فيما كتبت صحيفة "فولكس شتيمه" متهكمةً :قاضية بررت العنف في الحياة الزوجية بالاستناد إلى اقتباس من القرآن.

الغريب في الأمر أن ذلك لم يحدث في السعودية وإنما في مدينة فرانكورت الألمانية .ولو تعلق الأمر بقضية سرقة، لما كان من المستبعد أن تصدر هذه القاضية حكماً بقطع يد السارق، حسب الشريعة الإسلامية .هكذا هو الإعلام هنا، يفقد كل صواب عقلانيته وموضوعيته وعراقته عندما يتعلَّق الأمر بالمسلمين.

وما لا شك فيه أن قضية القاضية الألمانية هذه، قد أعادت إلى الواجهة من جديد، مسألة المسلمين في ألمانيا والخصوصيات الثقافية وقضية الاندماج في المجتمع الألماني .فقد أحدث موقف هذه

القاضية، ضجَّة إعلامية صاخبة في ألمانيا وتصدَّرت التعليقات والانتقادات على موقفها أغلب الصحف الألمانية ..وعادت الأسئلة المستعصية لتُطرح من جديد، الحرية والقوانين والتشريعات الوضعية المعمول بها في المجتمع هل يُضحي بها أمام نصوص دينية؟! وقد عبرت صحيفة هامبورغر آبندبلات عن فحوى هذه القضية وسبب الاستياء الكبير الذي أثارته بقولها :الأمر غير المفهوم على الإطلاق، هو لماذا امتنعت القاضية عن إصدار حكم سريع بالطلاق قد ينقذ حياة السيدة المضطهدة؟ ولماذا لم تراعِ القاضية القوانين السارية في ألمانيا؟ لقد استندت القاضية في حكمها إلى بعض التفسيرات القرآنية وفي هذا خلط بين الدين والدولة.

وفي حين تدعو الحكومة الألمانية في لقاءات ومؤتمرات إلى دعم الاندماج وإلى الاعتراف بالقانون بوصفه الأساس للعيش المشترك في ألمانيا، تأتي قاضية لتناقض هذا كله .وكانت هذه القاضية تتولى النظر في طلب استئناف تقدمت به هذه المرأة للحصول على طلاق فوري، وهو إجراء لا يسمح به في ألمانيا إلاّ تحت ظروف استثنائية، من زوجها بسبب إساءته المتكررة لها في المنزل.

وقد بررت هذه القاضية عدم قبولها للدعوى بالاستناد إلى أحكام قالت، إنها وردت في القرآن وتبيح للزوج حق تأديب زوجته بالضرب . وتضمَّن خطاب رفض الدعوى الذي أرسلته القاضية إلى محامية المدعية، ونشرت مجلة دير شبيغل الألمانية في موقعها على شبكة

الإنترنت مقتطفات منه بأن ممارسة حق الضرب التأديبي ليست من الشدّة التي تستدعي الطلاق الفوري .هذا وقد استندت القاضية أيضاً، في قرارها هذا، على الفقرة 1565 من القانون المدني الألماني التي ترى أن ممارسة حق التأديب لا تبرِّر الشدَّة غير المعقولة.

يُذكر أن القاضية كانت قد علَّلت رفضها قبول دعوى الطلاق المستعجل، بأن الزوجين يتحدران من المغرب وينتميان إلى الثقافة المغربية التي يمارس فيها حق التأديب بالضرب على الزوجة، وبالتالي كان على صاحبة الدعوى المولودة في ألمانيا (26سنة) أن تتصور ذلك عندما قبلت بالزواج من رجل نشأ في المغرب (28 سنة).

وقد نقلت المجلة الألمانية هذا الكلام وفقاً لنص الخطاب الذي أرسلته القاضية إلى محامية الزوجة .وبهذا السياق علّق أود دي فابيو(قاضٍ في المحكمة الدستورية) لـ ديرشبيغل بأن القاضي ليس إنساناً كاملاً، وبالتالي الخطأ وارد .وحدد خطأ القاضية أنها استندت في قرارها على آراء أو أحكام غير منصوص عليها في القانون الألماني..

وفي اليوم الثالث من هذا العصف الإعلامي والسخط المحموم تمَّت تنحية هذه القاضية على خلفية هذه القضية التي لا تزال تداعياتها تتفاعل على الساحة الألمانية .وعيَّنت المحكمة قاضياً آخر

للفصل في القضية، وذكرت أن استناد القاضية إلى الشرع الإسلامي في ألمانيا ليس له ما يبرره ..

إلى هذا، فقد قدَّمت هذه القاضية، اعتذاراً عن قرارها ذاك، قائلةً : أنها لم تعرف، ولم تقصد إلاّ الخير، لكن يبدو أنه كان قراراً خاطئاً .. فيما يبدو أن هذه القاضية التي تُحجم الصحافة عن ذكر اسم عائلتها قد خسرت كل شيء جراء قرارها ذاك ..بعد أن انطلقت حملة شعواء في الصحف تشنِّع بها وتصفها بشتى الأوصاف :حكمها هذا أسوأ من حكم شيخ مسلم رجعي قال غونتر بيكشتاين (اتحاد المسيحيين الاشتراكيين).

هذا، وقد تخطى السخط حدود ألمانيا ليصل إلى النمسا، فهذه وزيرة هناك تستنكر تصرف هذه القاضية الأرعن وتشدد على رفض أي خلط بين ثقافة مجموعات معينة والقانون ..وربما يتوسَّع هذا الأمر بعد أكثر ليشمل دولاً أخرى وربما القارة بأسرها، من يدري !

كذلك عدمت هذه القاضية أيضاً أي صوت من المسلمين الذين أحرجتهم هذه القضية على ما يبدو، كون الإعلام لا ينفك يركز على مسألة العنف ضد المرأة ووضع المرأة في الإسلام .كما أبدى بعض ممثلي الجاليات الإسلامية استغرابهم واستنكارهم لتصرُّف هذه القاضية، حيث اعتبر المجلس المركزي لمسلمي ألمانيا أنه كان على القاضية أن تستند إلى الدستور الألماني وليس إلى القرآن مؤكداً أنه

في الإسلام تعتبر أعمال العنف وسوء المعاملة أيضاً مهما كان الجنس الذي يتعرَّض لها من أسباب الطلاق.

إلى ذلك يُستغرب إثارة الصحافة لهذا الموضوع في هذا التوقيت بالذات، علماً ان القضية تدور في المحاكم منذ شهر تشرين الماضي . وبناءً عليه، يبدو أنه ليس أمام المراقب المحايد نسبياً، إن كان مَثَلُ هذا الحياد موجوداً أصلاً، سوى طريقين للنظر إلى هذا الموضوع، فإمّا أن هذه القاضية قد فبركت موقفها ذاك بنية مغرضة إذا ما أردنا أن نربط كل هذا مع القرار بخصوص ملفات الإرهاب الذي أصدره وزير الداخلية ولفغانغ شويبلة مباشرة إثر هذه الضجة التي أثارتها هذه القضية !وإمّا أن نفترض حسن نوايا هذه القاضية، وفق ما ذهبت إليه في حديثها إلى ديرشبيغل، أي أنها ارتأت بعد أن كانت تعلم أن المسلمين يتزوجون في المحاكم الشرعية، ومن ثم يتم تثبيت وتسجيل هذا الزواج في الدوائر الألمانية المختصة هنا ..وأنها بالتالي اجتهدت أو رأت أنه من باب أولى أن يُنظر في هذه القضية وفق أحكام ذاك الشرع (الإسلامي) ومن نافل القول أن القاضية قد طرقت باباً شائكاً ولربما لن يطول الأمد قبل أن تتكرر فيه مثل هكذا مواقف وحالات يتلاقى فيها أو يتصادم شرعان أو شريعة سماوية وقانون أرضي، شريعة يتزوج، ويطلق ..وفقه هؤلاء الملايين من المسلمين الذين يعيشون هنا، فيما يحكم ويسود في المجتمع الذي يعيشون فيه قانون وضعي مدني آخر...

يُشار في هذا السياق إلى أن دوائر الهجرة ودوائر الأحوال الشخصية هنا تشترط على الراغبين من الألمان (من أصول إسلامية) بالزواج بأشخاص من بلدانهم الأصلية، أن يتم الزواج في بلدانهم الأصلية، ومن ثمة تقبل السلطات هنا بهذا الزواج وتقر به .وعليه فالقاضية قضت بما تعرف أن هذين الزوجين مرتبطان وفق عقد ديني، وسلطته لدى أصحابه أقوى وأمضى من الحكم المدني الذي ستقضي به، وإن كان تنفيذ حكمها هذا، ملزماً هنا وفق القانون..

لكن اللافت أكثر في هذه القضية، إضافة إلى السرعة التي تلقَّف بها الإعلام لهذه القضية، هو تسليط الضوء أكثر على مسألة العنف ضد المرأة وبعض الأحكام التي قد تجيزها ثقافة بعينها، هذا مع العلم أن العنف الأسري تصرُّف مرفوض ولا تقرُّه كل الشرائع والأديان..

إلى ذلك انتقد البعض هذه الحملة، فيما رأوا في سلوك الزوجة ولجوئها إلى القضاء ومن ثم إلى الإعلام، خير دليل على تماهي سلوكها هذا مع مثيلاتها من نساء الألمان، خاصة أنها قد استطاعت أن تستحصل على قرار بمنع زوجها من الدخول إلى المنزل الذي أصبح في حماية الشرطة، الأمر الذي يفقد المبرر لهذه الحملة الألمانية الشعواء بذريعة الدفاع عن حقوق النساء ودرءاً للعنف اللاحق بهن ..وعليه يُستغرب هنا سرعة استغلال الإعلام لهذه القضية، وأخذه لها كمسوّغ أو مبرر لإلصاق صورة نمطية عن دين

ما أو ثقافة بعينها ينتمي إليها عدة ملايين من الألمان من أصول إسلامية..

يُذكر أن عدد المسلمين في ألمانيا بلغ 3.3 مليون في عام 2005 (أي ما نسبته % 4 من مجموع سكان ألمانيا). ويُتوقع أن يصبح هذا العدد 7 ملايين مع حلول عام 2030 (أي% 10).

المثير في الأمر هو أن هذه الحملة الشعواء التي شنَّت في الصحف ووسائل الإعلام لم تدفع هذه القاضية إلى التراجع عن رأيها وتقديم الاعتذار عن فعلها ذاك فقط، إنما أثَّرت كذلك على ما يسمى باستقلالية القضاء وسلطة القاضي وحريته في استئناس الحكم ومجريات عمله ..وقد بدا ذلك جلياً، في قرار تنحية هذه القاضية عن هذه القضية واستبدالها بآخر..

هذا فيما رد مرجع قضائي هذا الأمر ليس إلى قرار القاضية بحد ذاته وإنما إلى التداعيات التي أثارها قرارها ذاك في المجتمع .وقد بدا أن الهدف من وراء هكذا حملات صحافية، بات شبه معلوم، وهو الوصول إلى القول بفشل عملية اندماج المسلمين في المجتمع !وهذا بأي حال هو رأي المتطرِّفين هنا ..كما أن الجهات التي تقف وراء أغلب هذه الصحف الكبيرة والمرموقة هنا تكاد تكون معروفة الاتجاهات، ولكنها ونتيجة هذه الزوبعات الإعلامية المضخمة للأحداث والموجهة للرأي العام، تكاد تنجح أو أنها تنجح فعلاً في كثير من المواطن في إحداث إرباك وتأثير جلي على التصورات

والآراء والأحكام المسبقة والنمطية التي تُلصق بفئات معينة، وفي حالتنا هنا المقصود بالطبع الجاليات ذات الأصول الإسلامية..

ودليل ذلك دراسة نُشرت مؤخراً بيَّنت أن 80 % من البرامج المتعلِّقة بالإسلام، التي تبثُّها قناتا التلفزيون الألماني الأولى والثانية، تقدِّم صورة سلبية عن الإسلام والقضايا المتعلّقة بالمسلمين..

بهذا السياق يُشار أيضاً إلى ما كانت قد توصلت إليه أيضاً زابينا شيفر في أطروحتها في جامعة ايرلانغن، صورة الإسلام في الإعلام الألماني فكتبت بهذا الصدد : إننا نجد صوراً محددة ومتكررة عن الإسلام، سواء كان ذلك في الراديو أو في قنوات التلفزيون أو في الكتب أو حتى في المعاجم والصحف اليومية، هذه الصور التي تمتّ بلورتها عبر السنين وخاصة بعد الثورة الإيرانية في عام 1979. وتضيف شيفر أنه، حتى لو لم يتم استخدامها، فهي مزروعة في عقول ومخيلة المواطن الألماني.

في المقابل تغيب عن هذا الإعلام كل الحالات الإيجابية التي تثبت أنه على رغم وجود تجمعات خاصة بالمهاجرين المسلمين، ووجود مشاكل اجتماعية وتعليمية وغيرها لدى هؤلاء، إلاّ أن هذا لا يجب أن يغفل النظر عن أن فئات وأفراداً كُثراً من أبناء هذه الجاليات يبرزون علامات نجاح في الانخراط في المجتمع، وأنهم يلعبون أدواراً إيجابية كثيرة على مختلف الصعد، وأن هذه النجاحات جديرة بالذكر والأخذ بعين الاعتبار أيضاً وليس الاكتفاء بتسليط الأضواء الإعلامية

على بعض الأمور السلبية، الأمر الذي من شأنه أن يعقد ويزيد في صعوبة عملية اندماج وتفاعل أبناء هذه الجاليات مع المجتمع الألماني.

وقد فتحت هذه القضية الباب واسعاً أمام شهية بعض الأوساط المتطرفة لتطرح قضية الوجود الإسلامي برمته ومدى نجاح هذا التواجد في الاندماج والتفاعل مع المحيط المجتمعي الألماني، وقد مضت بعض الصحف إلى حد القول بفشل هذه التجربة وساقت تحليلاتها بناءً على بعض الأمثلة المنتقاة بطريقة تعسفية واستنسابية، كحالة قتل المخرج فان غوخ في هولندا، وجرائم الشرف التي تحصل في ألمانيا ودول أوروبية أخرى بحق فتيات مسلمات .وبأن مثل هكذا إشكاليات لا تظهر في حالات مهاجرين من دول أوروبا الشرقية وغيرها، وأن حدَّة الاختلافات الثقافية بين المسلمين والألمان والأوروبيين عموماً تنذر بتحوّلِها إلى تصادم بين الثقافات..

إلى هذا، تتمحور **الاختلافات الثقافية** بين المسلمين في ألمانيا والألمان وفق المنظور الألماني في **ثلاثة عناوين رئيسية هي:**

1- الشعائر والعبادات الدينية وبناء المساجد وما تلقاه هذه المسألة من معارضة بعض البلديات أو السكان بذرائع ضيق المساحة وانعدام مواقف السيارات أو الضجيج أو التأثير على طابع البلدة أو المدينة المعماري . يُشار في هذا السياق إلى أنه يوجد في ألمانيا قرابة 2500 مسجد ومركز إسلامي . ويعود بناء

أول جامع في ألمانيا إلى عام 1915 أثناء الحرب العالمية الأولى، حيث قام أسرى مسلمون (من دول إسلامية كانت خاضعة للإنكليز) يعملون مع قوات المحور، فقام هؤلاء الأسرى، ببناء هذا الجامع وذلك في منطقة فونسدورف في برلين . كما تتصدر هذا المحور أيضاً مسألة ارتداء الحجاب وما تتناقله وسائل الإعلام عن أخبار القضايا المرفوعة بهذا السياق، كحالة بعض المعلّمِات اللواتي رفعن قضية ضد بعض المدارس التي منعتهن من ارتداء الحجاب أثناء أداء مهنتهن، كون ذلك يدخل في باب إشهار أزياء دينية خاصة في مدارس عامة ومختلطة، حيث يحظر القانون هذا الأمر ..أو حالات الحجاب بالإكراه التي تواجه بعض الأولاد..

2- **التعليم** : وما يكتنف هذا الموضوع من إشكالات تواجه بعض المدارس مع بعض التلاميذ المسلمين أو مع أوليائهم الذين يحجمون عن المشاركة في دروس السباحة أو يرفضون أن يشارك أولادهم في بعض الدروس الأخرى.

3- **موضوع المرأة**: الذي يأخذ حِّيزاً واسعاً من الاهتمام والكتابات التي تتناول وضع المرأة في الإسلام، ولعل أكثر ما يُثار في هذا الإطار هو الزواج بالإكراه وحالة المرأة في بعض الأسر المسلمة، أو العنف ضد المرأة حيث تجد بعض الأوساط الألمانية أن هذه الأمور لا تتناسب مع نمط حياة المرأة في المجتمعات العصرية .. هذا إضافة إلى مسألة جرائم الشرف، حيث يُفردُ الإعلام لها

الصفحات والتقارير المطوَّلة على صفحاته . إضافةً إلى هذا تبقى مسألة ارتداء الحجاب، القضية الأبرز ربما حيث لا تنفك وسائل الإعلام تتناقل أخبار القضايا المرفوعة بهذا السياق، كحالة بعض المعلمات اللواتي رفعن قضية ضد بعض المدارس التي منعتهن من ارتداء الحجاب أثناء أداء مهنتهن كون ذلك يدخل في باب إشهار أزياء دينية خاصة في مدارس عامة ومختلطة، حيث يحظر القانون هذا الأمر ..أو حالات الحجاب بالإكراه التي تواجه بعض الأولاد..

يُذكر أن المحكمة الدستورية الاتحادية قد رفضت عام 2003 فرض حظر شامل على ارتداء الحجاب بالمدارس الحكومية، وتركت للولايات حرية صياغة الوضع القانوني بما يتواءم مع ظروفها، وقد سارعت بعض الولايات إلى فرض حظر شامل على ارتداء الحجاب بالمدارس والهيئات الحكومية، بينما قصَّرت ولايات أخرى الحظر على عضوات هيئات التدريس.

بهذا السياق تمضي أوساط متطرفة إلى القول بأن ظاهرة أسلمة المجتمع تسير من تحت بساط الألمان ولا تنفك هذه الأوساط تركِّز على بناء الجوامع وعلى أعداد المصلِّين المتزايد باطراد، والتي تنوء بعض المساجد الصغيرة بهم فيفترشون الرصيف أيام الجمعة..

كما تذهب هذه الآراء إلى القول بأن هذه الجاليات تنكمش على نفسها وعلى عاداتها وتقاليدها ودينها، وتعيش في تجمعات خاصة

منعزلة وكأنها مجموعات منفصلة عن المجتمع الذي تعيش وتعمل في كنفه .. وتتجنَّب الاختلاط الاجتماعي مع الآخرين وتتشدَّد في تعليم الأولاد لغتهم الأصلية على حساب اللغة الألمانية .. وعليه تنشأ هذه الأجيال هجينة غريبة عن واقعها التي تعيش فيه، وذات بنية مزعزعة الشخصية، وبهذا تكون تربة هؤلاء مهيأة للإرهاب والانقلاب على المجتمع الذي ولدوا ونشأوا فيه، ويستدلون بذلك على حوادث لندن وباريس..

هذا فيما تساعد في ترسيخ هذه الصورة النمطية –إضافة إلى الإعلام– بعض الممارسات والظواهر التي تعتري الجاليات المسلمة هنا ..كظاهرة التطرف والعزوف عن المشاركة بفاعلية في المجتمع عبر إيلاء موضوع اللغة الألمانية والتعليم العناية الكافية ..إلى ذلك تبرز هنا كذلك ظاهرة اعتماد كثير من الشباب وأبناء هذه الجاليات على آراء تعود لأشخاص يقيمون خارج ألمانيا، وهذا يطرح مشاكل مختلفة قد تنشأ نتيجة عدم إلمام أولئك الأشخاص بصورة كافية بطبيعة هذا المجتمع وقوانينه..

أمّا المعتدلون والمتنوِّرون من الألمان فينظرون إلى المشكلة ببعديها أو من طرفيها وهما المجتمع الألماني والمهاجرون، وهم لا يلقون اللوم على المهاجرين وحدهم في هذا الإطار، وإنما يحمِّلون المجتمع نفسه أيضاً مسؤولية القصور أو الخطأ في النظر والتعاطي

مع هذه المسألة، ويتساءلون في هذا الإطار : لماذا لا تنقل وسائل الإعلام النماذج الإيجابية لاندماج المسلمين في المجتمع الألماني؟ ..

ويلفت النظر بهذا السياق اضطراب مفهوم الاندماج لدى الألمان، وربما يعود ذلك إلى تجربتهم المتواضعة نسبياً في المستعمرات مقارنة مع بريطانيا وفرنسا، وما يفترضه هذا الأمر من احتكاك مباشر كبير مع ثقافات وعادات شعوب أخرى، الأمر الذي يجعل مفهوم الاندماج يتماهى أحياناً لدى البعض منهم مع مفهوم أو مسألة أخرى هي الذوبان، وهذا ما بدأ كثيرون هنا يشيرون إليه، بأن المطلوب من وسائل الإعلام أن تؤكد وتشير إلى أن المهاجرين هم جزء لا يتجزأ من المجتمع الألماني، وهذا لا يجب أن يعني أنهم مطالبون بالتالي أن يتخلوا عن جذورهم ودينهم ولغتهم وعاداتهم ..وأنه لا يجب أن يُنظر إلى هذه الجذور على أنها مصدر تصادم أو تنافر مع المجتمع الألماني، لأن المرء يمكنه أن يكون مواطناً ألمانيا صالحاً وأن تكون لغته الأصلية التركية أو العربية وديانته، اليهودية أو المسيحية أو الإسلام..

بإزاء هذا، نجد أن الجاليات المسلمة ترزح تحت عبء شبهة الإرهاب والتطرُّف، وهجمات الإعلام المتكررة التي تنجح في ترسيخ صور نمطية إرساء أحكام مسبقة عن المسلمين، الأمر الذي يزيد في تعقيد عملية اندماج هذه الجاليات في المجتمع، وتدفع –على العكس من ذلك– الكثير من أبناء هذه الجاليات إلى التطرف والعزلة واتخاذ

المواقف اليائسة حيال مشاعر الرفض أو عدم التفهم لبعض الخصوصيات الثقافية . مشهرين بالمقابل حالات دفاعية متشدِّدة بإزاء مشاعر التهديد التي تراودهم حيال هويتهم الخاصة، فيتجهون إلى الانكفاء على ذاتهم وإبداء حساسية بالغة حيال كل ما يتعلق بشؤون ثقافتهم ودينهم.. هذا إضافة إلى العوامل الذاتية التي تعاني منها هذه الجاليات، إن كان لجهة التشتت وتنوع مشارب أبناء هذه الجاليات (تركية عربية، إيرانية، باكستانية). وقلَّة التنظيم الاجتماعي والسياسي والإعلامي، إضافة إلى انخفاض مستويات التعليم لدى الشريحة الواسعة منها، إذ أن غالبية هذه الجاليات، عمال أو لاجئون من الحروب والفقر والبطالة ..

ولا شكَّ أن أحداث 11 أيلول (سبتمبر) وما تلاها من تدابير وقوانين جديدة متشددة بخصوص المسلمين قد زادت في حدّة هذه التناقضات، خاصة بإزاء غلبة النظرة الأمنية على ما عداها في ما يتعلق بشؤون هذه الجاليات ..

وهذا ما يفسرِّ ربما مغزى امتعاض بعض المسؤولين الحكوميين من تشتّت الهيئات أو الجمعيات الممثلة للمسلمين في ألمانيا حيث يصعب إيجاد الممثل الفعلي لهم الذي يمكن للحكومة محاورته أو مناقشته في قضايا تهم الجالية والدولة في مجالات الاندماج وتطبيق القوانين والأمور كافة التي تطال حياة أبناء الجالية بشكل عام .وهذا

ما أدّى لعقد مؤتمر الإسلام الذي جرى مؤخراً في برلين بحضور وزير الداخلية ولفغانغ شويبله ..

وبهذا السياق يزمع العديد من الاتحادات والجمعيات المسـلمة في ألمانيا الانضواء تحت لواء تجمع تعاون إسلامي يتولى الحوار مع الحكومة . إلى هذا، تساعد في ترسيخ هذه الصورة النمطية، إضافة إلى ما سبق، بعض الممارسات والظواهر التي تعتري الجاليات المسلمة هنا كظاهرة التطرف لدي بعض أبنائها وحالات العزوف عن المشاركة بفعالية في المجتمع عبر إيلاء موضوع اللغة الألمانية والتعليم العناية الكافية، والحدِّ من حالات التسرُّب المدرسي الكثيرة، إذ أن نسبة ضئيلة جداً من أبناء هذه الجاليات، ينجحون في الدخول إلى الجامعات أو معاهد التعليم العالي ..كذلك تبرز هنا ظاهرة اعتماد كثير من الشباب وأبناء هذه الجاليات على آراء تعود لأشخاص يقيمون خارج ألمانيا وهذا يطرح مشاكل مختلفة قد تنشأ نتيجة عدم إلمام أولئك الأشخاص بصورة كافية بطبـيعة هذا المجتمع وقوانينه[1].

([1]) 27مايو2007 ، القدس العربي.

الوحدة الألمانية وسؤال الاندماج..
زارتسين وجينات المسلمين

في يوم الوحدة الألمانية، حثنا الرئيس الألماني كريستيان ولف- نحن المهاجرين من أصول إسلامية- أكثر من غيرنا على مزيد من الاندماج والتأقلم ونبذ الانطواء والسلبية، فيما حثّ في المقابل الألمان على إبداء مزيد من التسامح والانفتاح .وممّا قاله في عيد وحدة الألمان العشرين:«نعم أنا رئيس المسلمين أيضاً، والإسلام ديانة موجودة في ألمانيا كالمسيحية واليهودية» .داعي هذه الكلمات من قبل رئيس الألمان القليل الظهور والتأثير ما عدا في بعض المناسبات البروتوكولية، إذ أن الدستور ينيط السلطات التنفيذية بالمستشار، ومن الطريف أن اختيار الرؤساء طالما يقع على أشخاص قليلي الخبرة في السياسة أو لا يتمتعون بأيِّ طموحات سياسية خاصة، وعادة ما يكونون من الشخصيات العامة المسالمة، هكذا أدتَّ قلةَّ خبرة الرئيس الألماني الأسبق **هورست كولير**، إلى ذلة أثناء زيارته إلى أفغانستان ومقابلة قوات بلاده العاملة هناك، أدّت كلماته تلك إلى إثارة ردود فعل صاخبة، حدت به إلى تقديم استقالته، وقد صرَّح حينها أن مهام قوات بلاده هناك تتمثَّل بحماية مصالح ألمانيا الاقتصادية، كذلك يبدو أن كلمات الرئيس الألماني الحالي الآنفة الذكر، سوف تؤدي به إلى مصير مشابهٍ لخلفه، بعد أن ثارت زوبعة على تصريحاته هذه، من

قبل نواب حزب المستشارة ميركل وغيرهم، الذين وجدوا أن هذه التصريحات كانت غير واضحة وغير متوازنة أو مناسبة، إن لناحية المناسبة التي أُطلقت فيها– أي الوحدة الألمانية –أو لما يمكن أن يُستشف منها، أنها تضع الإسلام والمسيحية واليهودية في مرتبة واحدة في تاريخ وثقافة ألمانيا، فيما أن حقيقة الأمر هو أن الإسلام بات جزءاً من الواقع الراهن في ألمانيا وليس أكثر. أمّا داعي هذه التطمينات الموجَّهة للمسلمين هنا .فهي على الأرجح، تلك الضجّة التي أثارها تيلو زارتسين بكتابه المثير للجدل «ألمانيا تلغي نفسها»، كذلك تنامي مشاعر النفور والتذمر وربما الكراهية حيال المسلمين المقيمين هنا، وآخرها تلك التي أطلقها السياسي اليميني الهولندي المتطرف فيلدرز في برلين، بعد أن نجح حزب الحرية الذي يتزعمه في المشاركة في تشكيل الحكومة الحالية في هولندا، وفي مقابل المئات من أنصار حزب الحرية الألماني الذين تجمَّعوا لاستقبال فيلدرز في برلين؛ خرجت مظاهرة تندِّد به ضمَّت عشرات اليساريين.

لا شيء جديد نظرياً يعيد **زارتسين** إحياءه، إنما ذات المضامين العنصرية القديمة المعروفة، التي عفا عليها الزمن. لكن يبدو أنها اليوم باتت تجد بريقاً جديداً، «المجموعات الإثنية مختلفة جينياً»، وهذا ينعكس على مستويات أو معدلات الذكاء بينهم، والمهاجرون من الأتراك والشرق الأوسط، يبدون معدلات تعليم متدنية وينجبون أكثر بكثير من الألمان.

وفي سياق هذا المسار الطبيعي سوف يغدو الألمان بالمعدل أكثر غباءً .هذه هي أبرز خطوط كتابه الجديد، يُذكر أنه يعيش في ألمانيا قرابة الأربعة ملايين مهاجر يشكل الأتراك % 63 ويشكِّل مهاجرون من شمال أفريقيا والشرق الأوسط % 15 منهم .يعتمد زارتسين الذي كان عضواً في إدارة البنك الاتحادي الألماني في برلين، على آراء كل من دارون ماندل بأن ما بين 50 إلى % 80 من نسب الذكاء لدى الإنسان يكتسبها من خلال الوراثة، وهكذا فالمسلمون حسب رأيه يبدون صعوبة بالغة في الاندماج، فيما لا يقيم الاشتراكي المثير للجدل أي فرق بين العربي والتركي، فهو يجمع الجميع في سلَّة واحدة راداً عصيانهم على الاندماج والتأقلم إلى أسباب وراثية متأصلة في الجينات، وليس إلى عوامل ثقافية ...

لقيت هذه الآراء اعتراض الكثيرين من الساسة الألمان، وخاصة رفاقه في الحزب الاشتراكي، الذي كان يُعد تاريخياً من الأحزاب القريبة من الجاليات المسلمة في ألمانيا، حيث طالبه أحد مسؤولي الحزب المذكور في برلين في توضيح آرائه هذه، أو الخروج من الحزب. هذه الأفكار نفسها أدّت في أمريكا إلى ما بعد منتصف القرن الفائت إلى فرز التلاميذ وفقاً للون البشرة، فكانت هناك مدارس للبيض وأخرى للسود، ناهيك عن الكثير من الممارسات السوداء التي دمغت تاريخ العبودية والفصل العنصري في أمريكا وأماكن أخرى من العالم.

لكن يبقى السؤال –والحالة هذه– لماذا تستعر كل هذه الضجَّة حيال المسلمين ووجودهم وجوامعهم أكثر من غيرهم من الجاليات الأخرى؟

ما المطلوب من المسلم الذي يعيش في ألمانيا لكي يكفّ هذا الضجيج الذي يتفاقم كل يوم حول وجوده وأصله وفصله، ولغته وجوامعه وحجابه وطعامه الحلال وزواجه من ذوي القربى وجرائم شرفه الذي لا يُصان إلاّ إذا أريقت على جوانبه الدماء الكثيرة؟ ما المطلوب منه أن يفعل؟ أن يأكل ما حرمته عليه السماء؟ وما كَّرسته التقاليد ورجال الجامع عبر دهور خلت؟، فهو هو نفسه كما ولدته أمه حراً وعبداً وسيداً متسلطاً في البيت على زوجته، أصيلاً في وفائه لشرقه العنيد، ماذا يريد السيد زارتسين وأمثاله منّا؟ يكاد يقول لسان كل مسلم ملتحٍ أو حليق، متزمت أو ملتزم أو طليق، ماذا يريد هذا المسكين؟ هل يريدنا أن نصير ألماناً تافهين وفارغين، لا همّ لنا إلاّ الرقص واللهو وشرب البيرة ومشاهدة مباريات كرة القدم، أين هو من مشاريعنا الأبدية، من بيوتنا وهمومنا التي نشيدها في أوطاننا هناك؟

هل يريد هذا العنصري المتعجرف أن نظل خداماً وعمالاً في مصانعه التي لولانا لما حققت ما يتبجح الألمان بتسميتها المعجزة الاقتصادية؛ تلك التي نهضنا نحن بها بعد الحرب العالمية الثانية؟ كما يذهب أبو محمد المغربي الذي جاء إلى ألمانيا سنة1953 ، كانوا سعداء بنا وقد أتوا بالكثيرين منّا من المغرب وتركيا، لكنهم على

الأرجح ما كانوا يحسبوننا بشراً، يمكن أن نتزاوج ونبني العائلات، لكننا فعلنا ذلك، أولادي كلهم ولدوا هنا .

في الواقع ما يختصره أبو محمد المتقاعد بعد قرابة أربعين عاماً في المصانع الألمانية، يمثل لبَّ ما بات يُعرف هنا بمشكلة الأجانب والاندماج، هذه التي راحت دوائر الدولة والأكاديميات العلمية تعترف بها على الملأ :«نعم نحن لم نقيّم حقيقة التوابع التي سوف تترتب على استدعاء ألمانيا لآلاف العمال في فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية لتعويض سوق العمل لديها عن النقص الذي لحق بها جراء تلك الحرب، وكأننا كنا ننام على حرير، إن هؤلاء العمال سوف يؤدون خدماتهم لنا وسوف يعودون كما جاءوا أفراداً من دون أن يترك وجودهم أي أثر بالغ على النسيج الاجتماعي الألماني، لقد كنا أنانيين وحتى لا أخلاقيين في هذا التفكير..».

والواقع أثبت عقم هذه النظرة بعد أن تضخَّم هذا الوجود الأجنبي وتعاظم في الثمانينات والتسعينات، ومع انهيار الاتحاد السوفييتي، وطرح السؤال العظيم على أدمغة الألمان المجردة :هل ألمانيا مجتمع هجرة، أو مجتمع متعدد الثقافات كحال أمريكا وغيرها من الدول؟

أم أن ما تشهده ألمانيا هو مجرد حالات هجرة محصورة وقليلة العدد، سوف تظل ضعيفة الأثر والتأثير على المجتمع الكبير والمتماسك والقوي! في الواقع يبدو المجتمع على هذه الصورة لناحية قدرته على الاستيعاب وحتى لأعداد أكثر بكثير ممّا هو عليه الحال

الآن، وذلك رغم تزايد أعداد العطالة بين العمال الألمان، إلاّ أن دراسات جادة في هذا السياق تبيّن حاجة سوق العمل الألماني للأيدي العاملة الوافدة الرخيصة نسبياً، ولكن الكلام يدور في هذا السياق على الأيدي العاملة المتخصِّصة، كحال الهنود في مجال الكمبيوتر وغيره من القطاعات[1].

---

(1) 5نوفمبر 2010 ، القدس العربي.

من بغداد إلى.. غزة

بدا هذا النهار المشمس دافئاً، على غير العادة في مثل أوقات كهذه من السنة.. وقف شابان وصبية يوزعون جريدة «بيلد» الشهيرة على المارة مجاناً، فتلقفوها على عجل. دعاية غريبة لجريدة لا تحتاج إلى دعاية. فهي رخيصة الثمن (نصف يورو)، وواسعة الانتشار، (4 ملايين نسخة يومياً). وهي مشهورة بمواضيعها المختصرة وكثرة صورها الملونة.

في قراءتي، بدأت كالعادة من الخلف. فنظر إلى صديقي الألماني ينس وابتسم وقلب الصحيفة مثلي وهو يهز رأسه ساخراً: «ضربة إرهابية الجزائر...دماء في العراق»..

كتبت الصحيفة بالأحمر العريض فوق صورة رجال الإنقاذ الذين يحملون أحد الضحايا فيما توزع الحطام وأشلاء السيارات والدخان من خلفيهما. نظرت إلى ينس فإذا بوجهه يحمل كلاماً كثيراً وبدا أنه لن يتأخر عن البوح به بمجرد أن ينتهي من قراءة السطور القليلة التي تعالج الخبر. من أين نبدأ بقراءة الجريدة؟ من الآخر أم من الصفحة الأولى؟ هذا ما جنيته على نفسي عندما أقنعت صديقي بضرورة النظر إلى الأمور وإلى الصحف تحديداً في هذه الأيام، من الخلف. فالمرء يبدأ من العالم الخارجي ومن الأمور التي يرى الناشرون أنها

أقل أهمية بالنسبة للقراء، وذلك كوجبة مقبلات عولمية تمهيدية تسبق الشروع في الخوض في هموم اليوم الطاغية.

«ماذا تراك تقول الآن؟ هل ستقول لي من جديد أنها وسائلكم القتالية إزاء انعدام المدافع والصواريخ! وكأن هذه الأساليب باتت سلاحكم الأوحد أو طريقكم الوحيد إلى ...الحرب؟»، سألني ينس. يعطف ينس قوله هذا على نقاش سابق دار بيننا، حيث كدت أقنعه حينها بأن العمليات التي تحصل في فلسطين هي شكل من أشكال الحرب والقتال. لكنني اليوم لم أجد الكلام يطفو من قريحتي العربية، فمطيت شفتي السفلى (كحال المثقفين!)، هذه التي كنت أظن أنها تعينني في الأوقات الصعبة والمواقف الحرجة وهمهمت بلا شيءٍ واضح.

فأردف: «إنها الجنة في ذاتها أيها الصديق ولا شيء غيرها. من بغداد إلى الجزائر والمغرب.. إلى غزة!». شعرت حينها بأنني أنا في مأزق حقيقي وليس أميركا، تلك التي لا تنفك أبواق إعلامنا تصدح بعمق مأزقها في العرق طالما يسقط كل يوم ثلاثة جنود من جنودها قتلى هناك، في مقابل مئات العراقيين الذين يسقطون كل يوم على جميع الشاشات. لكنه بات من المعروف أن لقتيل الأجانب قصة. هو ابن عائلة، وصاحب وجه وألبوم ذكريات، وصديقة تنتظره دائماً. (...)

(قبل عدة أيام كنا أنا وينس قد تناقشنا في المقهى بموضوع غلاف ديرشبيغل «الإيمان بخلود النفس، هو ما بقي من الإنسان». وقد استوقفني في هذا الموضوع المسهب، أمران أو بالأحرى صورتان، الأولى، صورة لأحد منفذي هجمات 11 أيلول (أحمد الغامدي، مأخوذة من الشريط الدعائي الذي بُث بعد العملية من قبل القاعدة، حسبما ذيلت المجلة هذه الصورة)، وذلك على مقربة من لوحة تمثل قيامة المسيح أو عيد الفصح لدى المسيحيين إضافة لصور فلاسفة عالجوا موضوع النفس وخلودها: من أفلاطون إلى توما الأكويني وشوبنهاور... أما الصورة الثانية فقد كانت لوحة لـ «جون بابتستي (أشيلي تسو 1870)، تمثل جنة المسلم، وقد تمدد في اللوحة جسد رجل مسلم باللباس العربي، ودخان النرجيلة يتصاعد من فوقه فيما تجسدت «جنة هذا الرجل» فيما بين الدخان؛ حور عين ونساء عاريات وأنهار لبن وعسل وخمر ... بدت لي «جنة لوحة بابتستي» هذه، المشغولة بعناية وجمالية بادية، كأنها تشتمل على كل ما هو ممنوع أو محرم في حياة الرجل الممددّ!) [1].

«ولكن قبل الشروع في هذا، ألا توافقني الرأي على أن المرء بات في حيرة من أمره حيال هذه الصحف، التي تحظى عادة بإعجاب

([1]) المقاطع بين الهلالين لم تُنشر يومذاك مع المقال، ربما لتجاوز المقال حجم المساحة المتاحة له من قبل الصحيفة، فارتأيت أن أدرجهم ها هنا، كما كانوا في النص الأصلي، فاقتضى التنويه.

«النخب» المثقفة وتقديرها، وتوصف عادة بالصحافة المرموقة والموضوعية، أو اليسارية، كحال «ديرشبيغل» مثلاً، فترانا بتنا نفقد ذاك الخيط الرفيع الذي يميز اليمين عن اليسار التقليدي، بإزاء انجرارها إلى حمى «فوبيا الإسلام». وقد درجت هذه منذ فترة غير بعيدة على التركيز على مظاهر فردية وتصويرها كأنها تهديد لروح ألمانيا ولعلمنة أو مسيحية أوروبا.

(ينس صديقي هذا، ينتمي إلى تلك النسبة التي جاوزت الثمانين بالمئة منذ فترة، الذين لا يؤمنون بالإله. لكننا لو ابتغينا الدقة أكثر، فإنه ينتمي إلى نسبة الـ 52 % الذين يؤمنون بأن للإنسان ثمة نفس خالدة أو تبقى بعد موته الجسدي، وقد وردت هذه النسبة في تحقيق «ديرشبيغل» هذا نفسه. إذ أن كثيراً من الألمان يؤمنون بحركات أو آراء هندية وبوذية وغيرها، والتي راجت في المجتمعات الأوروبية بعد انتشار العلمانية والإلحاد. وجل هذه الأفكار والفرق تدمج بين الإنسان والطبيعة بما وراءهما. ينس في مرحلة الطريق النهائية من مراحل البوذية، وقد انتمى إليها منذ سبع أو ثماني سنوات وقد زار جبال التيبت والهند وكوريا. وهو لا ينفك يردد رأي شوبنهاور (1788 – 1860)، الذي يقدّر البوذية ويضعها في مرتبة أعلى وأعمق بكثير من المسيحية)[1].

([1]) هذا المقطع أيضاً لم يُنشر كذلك مع النص الأصلي.

«بلى، ولكن تراها قسوة الصور الوافدة من هناك واتساع التهديد ليشمل الجميع، هو ما حدا بهذه الصحف لاتخاذ هذه المواقف!».

قال صديقي ينس فيما سرحت في نفسي أحدّثها، «إنه انسداد الأفق، والأجواء القاتمة ... مستقبل البشرية القاتم والحياة عموماً، تغييرات المناخ، تزايد البشر، الحروب، القهر والفقر، انتشار الأمراض، يبدو أن البيولوجيا أو الحياة تأكل نفسها بنفسها». فكّرت أن أنقل هذه الصورة الغائمة إلى صديق هذا النهار المحايد، لكنني أحجمت على اعتبار أنني من غير الجائز أن أرسم صورة سوداء لواقع البشرية من أجل أن أجترح تفسيراً يرفع شبح الهمجية والعدمية عن حضارتي. ووجدتني أستعيض عن ذلك بالقول:

«أنها محاولة فلسفة السياسة وإخراج ثقافة معينة أو منطقة صراع مشروع من دائرة الحضارة وقيمها، وهذا ما يؤكده إقحام اسم«غزة» في المقال، الذي بمجرد قراءته، فقد هذا الموضوع كثيراً من بريقه وموضوعيته عندي. فالعمليات «الانتحارية» باتت مشهداً يومياً في العراق ومؤخراً في الجزائر والمغرب فلماذا الحديث عنها في غزة الآن إن لم تكن محاولة لتمرير رسالة خبيثة إلى ذهن القارئ بأن هذه العمليات هي من ذات المنهجية والمنطلقات والجذور من بغداد إلى.. غزة».

قال: «قد أوافقك الرأي حول سوق هذا المثل من «ديرشبيغل» ... لكن هذا لا يمنع أن الإشكال لا يزال قائماً، أو بلغة أخرى، يبدو أننا

لا نزال عند سؤال شوبنهاور: «كيف يمكن لسلب الإرادة أن يكون؟ وكيف يمكن للقديس أن يكون؟»[1].

أجبت: «تراها نوبات التوبة العامة التي تجتاح أمماً وشعوباً، بل قارات بأسرها».

قال: «توبة دموية على ما يبدو من هذا الكم من الدم الذي يُراق في بلادكم كل يوم على الطرقات. والخطير في هذا الأمر أن الذي يفجّر نفسه بالمدنيين الأبرياء يعتقد أنه يخدمهم ويأخذهم بطريقه إلى الجنة. ترى آثار هذه الأعمال وأصداءها تمتد إلينا نحن الذين كنا نعتقد بأننا أقمنا جنتنا ها هنا على هذه الأرض، وأننا بمنأى تالياً عن جحيم الآخرين... لكن العولمة جعلتنا موحدين في هذه الأرض وقد تبخرت أوهامنا بتلك العزلة والنقاء والتجاوز أو التعالي عن الأرضي بالآلة وليس بالميتافيزيقا. التهديد اليوم يطال الجميع. نحن مخطوفون مثلكم في العراق ومتورطون معكم أو بينكم وبين جيرانكم، وقطاراتنا مهددة. إنها حضارة الخوف والرعب المستطير».

بدا واضحاً أن صديقي يغمز من قناة قواتهم التي تحرس بحرنا العزيز أو من ناحية محاكمة اللبنانيين الذين حاولوا تفجير قطار هنا

(1) فريدريش نيتشه، ما وراء الخير والشّر، ترجمة جيزيلا فالور حجّار، بإشراف موسى وهبة، غروب في، ط.1، بيروت- لبنان 1995. ص 83.

في ألمانيا، والذين تحدثت الصحف مؤخراً عن تأجيل محاكمتهم في بيروت.

ليس فيما نحن فيه أية قيمة لعلاقات قرابة أو هوية مشتركة أو لغة، فالأمر تراه يتعلق بهاجس شبح عام أو روح هذه الحضارة برمتها.

يبدو أن الفلسفة بعد أن استقالت من الظواهر في الطبيعة سلمت كل أوراقها للتجريب، وغرقت في فضاءات الأخلاق واللغة. قلق الحضارة هذا الذي تحدث عنه فرويد منذ ما يقرب من قرن مضى، تراه لا يزال يتفاقم ويتأزم ويتطور. وما سيل التنبؤات «القيامية» التي سبقت حلول العام 2000 سوى دليل خير على مآل هذه الحضارة.

(«أرأيت أنها الأديان التقليدية التوحيدية، هذه التي تعاني من أزمة تكوينية ووجودية منذ البدء، وترى كل الحروب التي شهدها العالم منذ ظهور هذه الديانات، قام بها أتباع هذه الأديان أنفسهم! وكل منهم يعتقد أنه يدافع عن دينه الحق. وأنه يصل طريق الأرض بالسماء، لكنها طريق مضرجة بالدماء ومعبّدة بالجماجم. وهذا ما لم تقم البوذية أبداً. فهي لم تخض أي حرب، لأنها بكل بساطة ليست ديناً»)[1].

بدا أنه لا بد أن نفترق إذ لاحت الساعة من بعيد، عليّ أن أعود إلى جهة بيتي، جهة الجنوب. فيما مضى هو في طريق البحث عن

([1]) هذا المقطع أيضاً لم يُنشر كذلك مع النص الأصلي.

ذاته في الطبيعة. وذلك في طريق مراحل البوذية النهائية نحو الشرق أيضاً. هناك من جهة الهند وجبال التيبت[1].

(1) نشر في جريدة الحياة في 26 آب 2007.

الملك وحيداً: مايكل جاكسون وحدود الحرية والإبداع

لم أكن يوماً من البارعين بالرقص، أو من المولعين بملك البوب والصرعات. فقد كنت واحداً ممّن كانوا مشغولين في صباهم بقضايا اعتبروها كبرى، وأهم من أي حالات أو هوايات خاصة لطالما وُسمت بأنها رأسمالية وامبريالية وحتى رخيصة وموّجهة لتؤدي وظيفة سياسية، تتمثَّل في هبل الجماهير أو استهبالهم، وحرفهم بالتالي عن تيار الوعي الطبقي الأصيل وعن جوهر الصراع الأساسي. هذا الصراع الذي يحكم كل الأمور، ليس في واقع بلدنا وحسب، بل في الوجود برمته.

إنه صراع الأضداد ونفي النفي.. غريب، لماذا انقرضت هذه المفردات، دفعة واحدة من حياتنا ومن لغتنا المتداولة! لكن الشباب – المراهقين منهم والبالغين– في الحي المقابل لحيِّنا تقريباً، كانوا مولعين بمايكل الملك، جاكسون الأعجوبة. وكانوا مأسورين بحركاته، رقصاته الغريبة. كان يتربَّع على صدور كنزاتهم كالنسر المحلق أو كالوسام الذهبي، وكانوا لا يملّون من تكرار وتقليد حركاته في جميع حفلاتهم وفي ملابسهم. لكنني كنت أميناً لمبادئي ووفياً لطبقة أفكاري، فلم أسمح لأي أثر أو شبهة من هذا الملك الأسود أن تتسلَّل إلى داخلي. أم تراه أناي الأعلى الذي كان صارماً بما يكفي ليقمع تلك الرغبات الرأسمالية الطابع. وأناي الأعلى هذا، ليس كأي «أنا أعلى» آخر، كما يذهب المعلم فرويد،

أي ذلك الرف السميك من قيم الأهل وضوابطهم وموانعهم وأخلاقهم على ما أحسب، وإنما «أنا أعلى» اشتراكي السمات والملامح. إنه «أخلاقنا» الحميدة والجديدة التي هي بالضرورة والطبع غير «أخلاقهم»، كما عنون الرفيق تروتسكي كتابه الميمون قبل أن ينشقَّ وتنزل لعنة الوالي أو الرفيق جوزيف عليه وعلى كل نسله من بعده.. وأخلاقنا الجديدة هذه، تقوم على قسمة لا رماد بينها، بين مستغِلين ومستغَلين، بهذا التحريك أو التوالي البسيط أو الجدل المركب بين الفتح والكسر يكمن كل الفرق الطبقي بين الناس وكل البلا.

ويمتدُّ التأصيل والتفصيل: عمال وفلاحون طيبون، ورأسماليون وإقطاعيون جشعون. أسياد وعبيد ومن ثمّ أحرار وعبيد. ولكلٍّ من هؤلاء أخلاقه الخاصة. وإن كنت أجد مصطلحات من قبيل: الاستغلال وسوء توزيع الثروة والاحتكار والظلم الاجتماعي، قريبة لفهمي المتواضع، غير أن مسائل كالحرية والعبودية والسلطة بدت شديدة الالتباس. وفهمت أن إزالة الفوارق الطبقية يجب أن تبدأ أولاً في اللغة والمفاهيم، حيث ينشأ هذا الفصل والتفريق أساساً.

هكذا تمَّ إلغاء كلمة «سيّد» من اللغة المكتوبة ومن التداول في الاتحاد السوفياتي السابق، لتحلَّ محلها كلمة «رفيق». إضافة إلى كثير من الألقاب المكتسبة، التي كانت تضفي تمييزاً أو تعطي مكانة اجتماعية لفرد على حساب آخر، كحال بارون ودوق وغيرهما، أو كباشا أو بيك في بلداننا..

وراح مايكل جاكسون والثقافة الوافد منها يدخل وعينا بلا وعي منّا. صوره وحركاته وأغانيه نجحت في التسربُّ إلى دواخل الكثيرين من أبناء جيلنا. وإن كان كثير منّا لا يفهمها، لكننا كنا نتمايل مع موجات العصر، أو نتدافع في ما كان سبيلاً أو ممرّا إلزامياً لدى بعض شباب الأحياء الفقيرة، إلى أفئدة فتيات المدن من الأحياء الغنية أو البورجوازية، الكبيرة منها أو الصغيرة. لكني لا أستطيع الجزم إن كان جاكسون قد مثل إحدى الوسائط الخفيفة التي تسلَّلت إلى نفسي وساعدتني لاحقاً مع جملة عوارض أخرى، أن أعلن تمردي الخجول والمحدود على رفيق الرقابة الأعلى بوجهيه، المكتسب من الأيديولوجيات أو المطعّم والمتوارث من جينات الأهل والمحيط. شيئاً فشيئاً رحت أتحرر من قيود الأفكار وعبوديتها.

وبدأت أجد في مايكل جاكسون بعض مواطن الإعجاب، وأن أمرّر صيغ الإعجاب هذه من بين أسيجة أناي الأعلى السابق الذكر تحت معطيات أو مسميّات ثورية أو تسويات أيديولوجية كأن أحسب ظاهرة جاكسون بأنها تمثل روح التمرد والرفض إن لم يكن ما يشبه الثورة أو الاعتراض الوجودي لشخص خرج من شرنقة الفقر والعبودية ليتحوَّل إلى أيقونة في عيون الملايين. هكذا حلا لي أن أفسر استماتته في تغيير جلدته:

أوليست هذه «جلدة العبيد التاريخية»؟

أوليس هذا اعتراض على مرسوم غير أرضي عدَّه مجحفاً وظالماً؟

وإذ أثارت فعلته تلك سخط أبناء جلدته، على ما اعتبروه إهانة وتحقيراً لكرامتهم، ذهب هو ليغني في مواطن السواد الأبدي، ويهب ريع بعض أغانيه لمستنقعات الفقر في أفريقيا. مسيرته تظهر كائناً مسكوناً بالرغبة المطلقة نحو الإبداع وحتى محاولات الخلق، بعيداً عن الضوابط والنواهي. رغبة في التحرر والتحليق بعيداً في اكتشاف المجهول والممكن والمستحيل في تلمُّس أقصى مدى لحرية الفرد بإزاء ضرورات الجسد الطبيعية وحدود الآخرين.

رغبة في نفض كل قديم وقائم أو دائم ونهائي أو لا جدال فيه، أكان لوناً، أو لحناً، أو زيّاً، أو سروالاً أو حتى.. وجهاً. لكن تراه أصيب بمرارة الحقيقة، أن لا حرية في ظل السلطة، بأسمائها وصورها ووجوهها المختلفة: الله، الدولة، الأب، الولد.. وأن لا حرية لكائن محتاج ومرتهن في وجوده، لكل شيء، للماء والهواء، وعلبة السجائر، وفاتورة الهاتف، وقوانين الدولة وجندها المتمترسين في الثكنات والمنتشرين على الطرقات، هذا على الأرض المجنونة هذه بفرادتها الكونية، أمّا على صعيد السماء، فوعود الخلود في الجحيم أو النعيم.

لا أعرف في أي درجة أو مستوى لاقت وسائل إعلامنا خبر موته. لكنه هنا تربَّع على صدر الصفحات الأولى لكبريات الصحف والمجلات. عشرات الصفحات خصَّصت لأيقونة العصر، كما وصفته إحدى الصحف و«الملك وحيداً» عنونت أخرى، فيما خُصَّصت ثلاث وعشرون صفحة لمسيرة الفنان الأكثر شهرة على الإطلاق. في كل مكان تنتشر

صوره مرفقة بالشموع والورود، من برلين إلى موسكو قبالة السفارة الأميركية، إلى تشيلي وكاتدرائية نوتردام في باريس، إلى دول العالم الأخرى، الدموع تنهمر غزيرة على رحيل ملك البوب. لا شكَّ أن مايكل جاكسون كان إحدى أبرز العلامات الفارقة في ثقافة أجيال النصف الثاني من القرن العشرين ومطلع القرن الحالي في الغرب عموماً وأماكن واسعة من العالم. ماركة مسجَّلة من ماركات وعلامات العصر الحديث وسماته الثقافية الأميركية الطابع، من الجينز وأنواع موسيقى الجاز والزنوج، إلى الكوكاكولا والهامبرغر والجينز والعلاقات السريعة والمتبدّلة والأفيون والسيارات الفارهة[1].

القمر بخير.. فأطيلوا السهر

لا يبدو تطيُّرنا وريبتنا من كل ما هو قادم من الغرب أو من أميركا تحديداً ناتجاً عن «كرهنا» السياسي المستجد نسبياً له، وإنما أغلب الظن عملاً بقول العرب قديماً: «كل قادم من الغرب لا يُسرُّ القلب». هكذا لم يكن تشكيكنا البديهي وربما الفطري بكل فاتحة علمية أو سبر عظيم يتحفنا هذا الغرب بها مدعاة لإثارة الشكوك أو حتى العجائب عندنا، فكل هذه الاكتشافات لا تعدو كونها بدعاً جديدة لا تعنينا لا من بعيد ولا من قريب.

([1]) نُشر في ملحق شباب السفير في.2009/7/1

لكنّنا، مع هذا، كنّا نأخذ هذه الفتوحات العلمية وندرجها في كتب التاريخ والعلوم في مدارسنا. هكذا أدرجنا أهم خطوط حداثة الغرب ونهضته، من اكتشاف أميركا إلى الآلة البخارية والمطبعة والأحزاب السياسية، والانتخابات، والديمقراطية، والماركسية.. مروراً بالرقص على سطح القمر وإطلاق الرحلات السياحية إلى الفضاء الخارجي. وكنَّا في الغالب في هذا كله متلقّين منفعلين وغير فعالين أو فاعلين، فمتى قالوا قلنا وصدَّقنا وردّدنا ما يقولون، ومتى تراجعوا أو كذبوا أو شككوا فيما قالوه، تردّدنا كذلك وارتبكنا في تكذيب ما صدقناه من قبل.

لكن قصة القمر بدت كثيرة الحساسية عندنا، نظراً لأدواره الجمالية والبلاغية الكثيرة في لغتنا وشعرنا (فكيف دنَّسوه!). لهذا ترى ذائقتنا الشعبية، لم تقبل منذ البدء أن تصدق رواية «الهبوط على القمر». وبقيت المخيّلة الشعبية عندنا غير مستأنسة لها. فقد بدا مع الرواية أن هذا القمر سقط –أو يكاد– من مكانته في حياتنا وعالمنا من التعابير والاستعارات الشعرية التي كانت تتغنَّى بجماله. إذ أخبرتنا صور رحلة الهبوط عن كوكب جاف وقاحل لا حياة ولا جمال فيه ولا من يحزنون. فما العمل إذاً وقد راح الغرب نفسه في أعلى دوائره العلمية والإعلامية المرموقة يشكّك في قصة صعوده إلى القمر!؟

قصة التشكيك ليست حديثة العهد، لكن بذورها ولدت منذ لحظة إعلان وصول الإنسان إلى القمر. إذ قوبل هذا الخبر بعين الريبة وعدم التصديق من عدة جهات: رجال الدين لم يعطوا للعلم حق اختراق الكون

وكشف أسراره.. وتهديد ملكوت السماء. وبعض السياسيين تضرَّروا لاحتساب إنجاز كهذا في صالح فريق حزبي هنا أو هناك. وبالطبع لا ننسى الامتعاض الروسي من إنجاز «الأمريكان» الفضائي. ومن بين كل هؤلاء تبرز فئة غير مبالية البتة حيال هذا الإنجازات أو الإخفاقات، هي تلك الشريحة الشعبية التي لا تستكين راضية إلا لمعتقداتها وتقاليدها المتوارثة جيلاً بعد جيل. وهذه الفئة أدرجت قصة الصعود إلى القمر في إطار التلفيقات الخيالية والخدع السينمائية لإبهار الجمهور واستدراجه إلى غايات مطلقيها ومراميهم الخاصة.

في هذه الأيام، تصادف الذكرى الأربعون (20 تموز 1969)، لرحلة الهبوط الشهيرة على القمر. شاهد آنذاك ملايين البشر صور ذلك الحدث التي وزعتها وكالة الفضاء الأميركية «ناسا». لكن يبدو أن أعداداً لا بأس بها من العلماء باتوا في صف المشكّكين في صحة الرواية الأميركية، مع تصاعد الشكوك والانتقادات، وخاصة تلك التي يسوقها الباحث في أمور الفضاء ماركوس ألين. لم تجد «ناسا» مفراً من تقديم تفسيرات وإجابات جديدة حيال هذه الأسئلة. فأعلنت، الخميس 16 تموز الجاري، أن النسخة الأصلية لصور الهبوط لا تزال مفقودة، وتقدَّر مدة هذا الشريط بأربع ساعات. واكتفت بتقديم بعض الصور المأخوذة من المكوك «أبولو 8» للمركبة التي نزلت على سطح القمر. ونشرت مواقع إعلامية كثيرة هذه الصور، أبرزها موقع «شبيغل أونلاين». وتداولت هذا الموضوع كبريات الصحف الألمانية على صفحاتها الأولى. وجاء هذا

الإعلان ليزيد في حجة المشككَّين، الذين رأوا أن الصور المقدمة حديثاً من «الناسا» لرحلة الهبوط، وإن كانت أوضح من سابقاتها، كونها خضعت للتنقيح من قبل أكبر شركات الإنتاج والتصوير في هوليوود، إلاّ أنها تبقى بدورها غير واضحة تماماً وغير كافية لحسم الجدل في هذا الموضوع، ولا تستطيع بالتالي سدّ الثغرات والتناقضات الكثيرة التي شابت تلك الرحلة. وأبرز الأمور التي يثيرها المشككون أو أصحاب نظرية المؤامرة كما باتوا يُعرفون في الأوساط المتابعة لهذا الشأن، هي:

- العلم الأميركي وهو يرفرف على سطح القمر، فيما من المعروف علمياً أن لا وجود للهواء على هذا السطح.
- آثار أقدام رائدي الفضاء السميكة والنافرة، بشكل لافت، وهذه الآثار لا يمكن أن تحصل إلاّ في تربة رطبة، فيما تربة القمر جافة، وسطحه خال من أي أثر للماء.
- غياب النجوم عن الصور الموزعة والمأخوذة للرائدين على سطح القمر.
- ظهور حرف «س» اللاتيني على أحد الأحجار في مكان نزول الطَّيارين.
- مسألة الظلال غير المتوازية للأجسام الظاهرة في الصور، ممّا يبين وجود أكثر من مصدر للضوء، فيما أنّ مصدر الضوء الطبيعي الوحيد الذي يشعُّ على القمر هو الشمس.

كذلك يتساءل هؤلاء، مَن أخذ الصور الأولى لارمسترونغ لحظة هبوطه من المركبة وملامسة قدميه سطح القمر، طالما أنه أول بشري تطأ قدماه سطح هذا الكوكب. أمّا العالم ماركوس ألين فكشف أن البدلات التي ارتداها رائدا الفضاء لم تكن مجهزة لحمايتهم من الإشعاعات القاتلة التي تطلقها الشمس والنجوم الأخرى. ولم يبقَ الأمر محصوراً في حدود بعض المشكِّكين العلميين أو العاديين، فقد أخذ مناهضو السياسة الأميركية في مناطق مختلفة من العالم ومنها العالم الإسلامي، هذا الأمر كدليل على «لا أخلاقية السياسة الأميركية، التي لم تتوانَ في الكذب على جميع الشعوب، بما فيها شعبها الأميركي». وقد طاب للبعض التذكير بأكاذيب غزو العراق وأسلحة الدمار الشامل المزعومة فيه، وأحداث 11 أيلول التي تتزايد أعداد المشكّكين فيها.

وفيما تبرر «الناسا» إحجامها عن تكرار الرحلة بارتفاع التكاليف وغياب المردودية، يبدو الأمر بمثابة الدعوة لقريحة الشعراء في سواحلنا الشرقية للعودة إلى الاستثمار في صحراء القمر الشاعرية، ولسان حالهم يقول: «القمر بخير يا شباب، فانظموا وانثروا واصدحوا وطبّلوا.. وأطيلوا السهر!؟!» [1].

([1]) نُشر في ملحق شباب السفير في 2009/7/11.

الفايسبوك.. وازعاجات الماضي

«أوكي كل شيء جميل.. ونحن مشتاقون».. وبضع كلمات أخرى، «يذيِّل صديق انبثق من غياهب الماضي على شاشتك الكونية..». «أهلاً بأصدقاء الماضي الحبيب»، تريد أن تقول في رأسك على مضض، وأنت تضغط على وصلة الضم للائحة الأصدقاء المفضَّلين. مَن يا ترى صورة وجهه وقد هشَّمته السنون؟ تتأمل الصورة ملياً: إنك تعرف هذا الوجه وصاحبه، كنتما معاً في حارة، أو مدرسة، أو حزب، أو زاروب.. تفرك عينيك جرياً وراء حادثة أو صدفة جمعتكما.. تستحضر مواقفه الداعمة والمساندة، ولكن على الأرجح سوف تنحو إلى نبش الثغرات في تلك العلاقة، وتراك سوف تتوقف في نهاية المطاف عند المشاهد المحرجة أو المزعجة.. ما سينفّرك من تلك الأماكن والأسماء والوجوه.. سوف تتغافل عن الصورة والزمن المرتجع الذي تقترحه هذه الآلة على راهنك المختلف.. وسوف يضج في رأسك صوت داهم وصارم: «دعك من الماضي وانْظر إلى الأمام!». شيئاً فشيئاً ترى نفسك تستكين وتركن لنداء الغد القادم فيما تتشوّش صور الماضي في رأسك وتختلط.. لتنجلي حقيقة زمنك الخاص، زمنك البيولوجي بآثاره المشينة وتقلُّبات، وجهك، وعباراتك، ولغتك.. وكلامك اليومي.. رغبتك في معاقرة اليوم وفي خوض مقتضياته ودفع فواتيره..

الأشجار الكثيفة في الخارج، جعلتك تحسد تصحُّر بلادك وتضحك ساخراً في سرِّك من سذاجة بعض اللبنانيين الذين يتغنُّون بمقولة «لبنان الأخضر»: الشهيرة.. ولا شك سوف تبحث في «تبعثرات» وطنك عمّا يمكنك أن تتباهى به أمام ضيف أجنبي محتمل..

هل تأخذه إلى «جبل لبنان»!! وتحاول أن تشرح له الهناء الذي ينعم به مَن منّت الطبيعة والسماء عليه بمرقد عنزة فيه.. أو تقوده إلى الشاطئ؛ تتباهى بطوله وصخوره الجرداء، والمدينة المتهالكة على أطرافه.. لا شك أنك سوف تعدل عن الفكرة بعد أن تستعيد بعض المشاهد والحالات.. بعض المطلّين على شاشتك الرقمية يضع صورته بحالته الراهنة. غير أن البعض الآخر تراه يدفع بوجهه القديم عندما كان فتياً، كأنه يحاول التحايل عليك وعلى الزمن، أو كأنه يذكرك بنفسه أنه هو نفسه ذلك المقيم في الصورة.. خداع بصري مبتذل، كما في حفلات تنكّر الممثلين الطاعنين في السن، حين يجهد معدّ المكياج أن يبقيك على معرفتك بصورة الممثل القديمة، تلك التي عرفتها في الإعلانات في أيام نجوميته.... وتمضي في حفلة المجاملات المرتبكة. تحاول اختلاق سياق جديد يتصل بذاك الذي قطعته الأزمنة والأماكن واللغات الجديدة. عليك أن تكون مقتصداً ومقتّراً في البوح والإفصاح! وعلى كلماتك أن تكون منمّقة ومقتضبة، ويفضّل أن تكون بأحرف لاتينية، إذ من غير المعقول أن تكون متخلّفاً إلى هذه الدرجة وأنت تقيم في بلاد أجنبية، غير أنك تصرُّ

على استعمال مفاتيح غيبك العربية، كأنك تخشى أن تنتزع الآلة الحديثة سمة القداسة عنها.. الاقتضاب والاختصار الشديد في العبارات والرسائل القصيرة جداً، دليلٌ على انسجامك مع روح العصر والآلة، فهنا لا مكان للتفاصيل، بل اقتصاد مريع للوقت وانحياز صارخ لصالح الرموز على اللغة.. الوجوه أو صورها المستجدة والخارجة من كفن التاريخ، تراها لم تعد قائمة بذاتها، بل بالإضافة إلى كائنات أخرى غيرها. هكذا ترى الكثيرين منّا من متسوِّلي التواصل مع الماضي، أو متوسِّلي عدم القطيعة المعرفية معه يستنجدون بأولادهم وزوجاتهم أو صديقاتهم، فيعرضون صورهم على مواقع «الفايسبوك» الخاصة بهم، عوضاً عن ذواتهم المتهالكة والمنسحبة.. فهذا أحدهم لا يوارب في هذا الأمر كغيره، فتراه يختبئ أو يحتمي من الزمن خلسة خلف قافلة نسله المتمدد في المكان وفي الزمان.

غالباً ما نسمع عن فلان عثر على صديقه الضائع أو المفقود أو المنقطع عن صداقته عبر موقع «الفايسبوك»، هذا الموقع الذي بات بمثابة المنتدى الإلكتروني للصداقة العالمية وجمع الأحباء والمعارف، وبناء العلاقات والتعارف الخ.. شكل حديث آخر من علاقات البشر في عصر «الديجيتال» والكمبيوتر.. لكنه على الرغم من كل هذه المزايا المدهشة تراه يتحوَّل شيئاً فشيئاً إلى موقع عادي كعشرات من مواقع «الشات» والتعارف المنتشرة على الشبكة العنكبية.. وبالتالي بدأت تظهر حالات التململ وربما النفور أو التباعد بين المشتركين،

أو العزوف عن الظهور والمشاركة، كما جرى الأمر مع «الماسنجر» في بداية انطلاقه واتساع دائرة انتشاره.. لكن على الرغم من كل هذه المزايا الترفيهية والتواصلية، وبعض النجاح في تكوين علاقات صداقة جديدة، يبدو أن موقع «الفايسبوك» أو غيره من المواقع المشابهة لا تنجح في ردم الهوّة التي تزداد عمقاً في ما بين الحاضر والماضي وإن كان يصلني كل يوم تقريباً رسائل من خمسة أشخاص مختلفين لا أعرفهم يودُّون التعرُّف بي أو ما شابه.. لا شكَّ أن الأمر غير واضح تماماً لدي.. فكيف يتسنى لشخص لا يعرفك البتة أن يتعرَّف عليك؟! ولماذا؟ ثم ماذا لديك لتقوله لهم؟ قد أكون رجعياً، غير أني لطالما أفكر بأن على المرءِ أن يُتمّ معرفة مَن يعرفهم حتى الآن، عوضاً عن التوسُّع في دائرة المعرفة المغفلة هذه.. دونما مبرر[1].

---

(1) نُشر في ملحق شباب السفير في.2009/6/17

عندما تدفع نقداً
ثمن التأخير عن الموعد

كان كلُّ شيء يسير بشكل مقبول مع هذا الدكتور الألماني إلى أن ظهرت تلك الورقة التي دفعتها الممرضة السمينة بوجهي طالبةً مني أن أوقِّع عليها. «اقرأها قبل أن توقّع!»، قالت وهي ترمقني بنظرة غريبة، كانت أقرب إلى شذرة التأنيب التي يوجهها المعلمون الصارمون إلى التلامذة. في القراءة الأولى لم أفهم فحوى المكتوب. نظرت إليها مجدّداً، فسألتني إذا ما كان النص واضحاً أم تقوم هي بشرحه. رفضت خجلاً، ثم أعدت القراءة ثانية. فتأكَّد لي ما كدت أحسبه مزاحاً ثقيلاً. كنت ألهث لكي أكون على الموعد غير أن الساعة كانت تجاوزت الخامسة بـ 17 دقيقة، وذلك حسب هاتفي المحمول معي. لكن الدكتور غادر العيادة بعدما انتظرني عشرين دقيقة، كما قالت الممرضة. لا شكَّ إذاً أن ساعتي ليست «مضبوطة» على ساعة الألمان الدقيقة. عندما استغربت أمر مغادرته بهذه السرعة أجابت أنه لم يكن يوجد مرضى آخرون، فذهب.

لم أصدق ما حصل. فعيادة هذا الدكتور لطالما كانت تعجُّ بالمرضى، وكنت أنتظر أحياناً قرابة نصف ساعة أو أكثر. مرة برّر الدكتور هيلمش لي أمر هذا التأخير بأن الدقةَّ في المواعيد في عيادات الأطباء غير ممكنة عموماً، لأن تحديد موعد كل شخص

يعتمد على تقدير الطبيب للمدّة التي سوف يستغرقها العلاج، غير أن بعض الحالات قد لا تسير وفق التقدير المرسوم. غير أن العجيب في أمر الدكتور هيلمش هو لجوؤه إلى هذه الطريقة الغريبة أو المنفِّرة بعض الشيء في التعامل مع مرضاه..

في الورقة التي وقعت عليها ورد أن إلغاء موعد ما يجب أن يتم إخطار العيادة به قبل 24 ساعة من تاريخه، وأن أي تخلُّف أو تأخُّر عن الموعد من قبل المريض سوف يترتب عليه إلحاق ضرر أو تعطيل لسير عمل الطبيب، الأمر الذي يوجب على الموقع دفع سبعين يورو كتعويض عن ذلك. «إسأل مجرّب ولا تسأل طبيب!»، يقول المثل العربي.

هكذا تراني فعلت. إذ شكوت وجع ضرسي لكثير من المجرِّبين العرب الذين أعرفهم. هؤلاء أجمعوا على ضرورة استبدال هذا الطبيب المتزمِّت والألماني جداً بآخر عربي يكون التعامل معه مريحاً في موضوع المواعيد. راحوا يشيرون عليّ بهذا الدكتور العربي الممتاز، أو ذاك المتساهل جداً، تذهب إليه متى تشاء، وبلا موعد. وإذا ما أخذت عنده موعداً فأنت لست مضطراً للالتزام به، ولن يتوقف كثيراً عند أي تبرير تقدمه.

قبل أن أغادر عيادة الدكتور هيلمش، كررت اعتذاري للممرضة عن التأخير محيلاً السبب لأصولي العربية التي بات كثير من الألمان يضربون المثل بها: «موعد عربي أم ألماني؟». صار العرب

مشهورين كذلك بقدرتهم البارعة في مسألة اختلاق الأعذار والحجج لتبرير كل تأخير أو تخلُّف عن موعد إلى درجة أن أحد الألمان قال لي: «أنتم تتقصدون أن لا تلتزموا بالمواعيد.. لربما تشعرون بنوع من العار أو النقيصة في ذلك!». والواقع أن نظرة مشوبة بنوع من الازدراء أو الاستخفاف يبادل بها كثير من العرب هنا. تلك القلَّة من العرب «المتألمنة» كما يسمُّونها، نظراً لتقليدها الألمان في موضوع الالتزام بالوقت والمواعيد، فيتندرون على «أبو محمد»: «هه، أنظروا لقد أصبح ألمانيا بعدما حصل على الجنسية، وصار يهاتفك قبل يوم من زيارته لك، ويسألك عن الوقت المناسب للزيارة!».

أما غسان، أحد أشهر الفتَّاكين بالمواعيد من العرب، وأحد أبرع المبدعين في اختلاق الأعذار والتبريرات، فهو صاحب نظرية طريفة في هذا الصدد. مفاد النظرية: عليك أن لا تقطع أي خيط أو صلة مع أي كان، فلا أحد يعرف أين يكمن رزقك.

وعليه، تُقطع المواعيد هكذا جزافاً، وغالباً ما تكون مسايرة للوقت الذي يقترحه الطرف الآخر. وأغلب هؤلاء هم من تجَّار السيارات الذين يوزِّعون بطاقتهم على السيارات المتوقفة على جنبات الشوارع أو عبر إعلانات في الصحف أو الإنترنت. وعندما يتصل أحد الزبائن الألمان سوف يسرع التاجر العربي فوراً لملاقاة المتصل، وغالباً ما تأتي هذه الأمور على حساب مواعيد تكون معطاة لآخرين في هذه الأوقات. أمّا حسام أحد المشهورين أيضاً بتخلُّفه المتكرر عن

مواعيده، فيحيل الأمر إلى عامل النسيان: «أهم أمر في الوصول على الموعد، هو تذكُّر الموعد نفسه».

ممرضة الدكتور هيلمش قالت بعد أن لاحظت تذمُّري وامتعاضي: «كان عليك أن تتصل، فالرقم موجود على بطاقة الموعد!». في الحقيقة لم يخطر الأمر ببالي، فأنا أنظر للعلاقة مع الدكتور على أنها علاقة مغفلة وعامة، ولا تسمح لي بتصرف كهذا من قبلي، فالاتصالات الهاتفية تتمُّ بين المعارف، على ما أحسب.

في الموعد الثاني، حرصت أن أكون على الموعد بالتمام. قدرت الوقت اللازم للوصول إلى العيادة بـ15 دقيقة، وانطلقت. راحت الدقائق تفلت مني الواحدة تلو الأخرى. بدا أنها تفعل ذلك عن عمد، تريد مناكدتي أو زيادة توتري. كان الخوف من الموقف الحرج ومن قصة السبعين يورو يزيدان في معدلات الأدرينالين. لا، لن أنجح أيضاً هذه المرة. سحبت الورقة التي عليها الموعد. طلبت الرقم: «آلو أنا فلان». كانت الممرضة السمينة نفسها تمسك بطرف الخط من هناك: «نعم يا سيد، ما الأمر؟». «أنا في الطريق وقد علقت بزحمة السير». لم أكن ببراعة الآخرين لهذا تراني لم أقع على غير هذه الحيلة المستهلكة، فأطلقت الممرضة ضحكة ساخرة، وقالت: «حسناً.. الدكتور لا يزال هنا، يمكنك القدوم»[1].

([1]) نُشر في ملحق شباب السفير في 2009/7/22.

أسئلة لم تُطرح بعد على أمّة الألمان

للوهلة الأولى، بدا أن الطقس البارد جداً سوف يعوق تدفق المشاركين إلى هذه التظاهرة الداعمة لغزّة، التي دعت إليها جمعيات عربية وفلسطينية وألمانية يسارية ومنظمات السلام هنا. غير أن هذه الأعداد الكثيفة تحدَّت موجات البرد القارس، وأتت من كل أنحاء ولاية شمال الراين الألمانية إلى عاصمة الولاية دوسيلدورف.

الكثيرون أتوا من المدن والبلدات المحيطة عبر القطارات ووسائل النقل الأخرى، تجنباً لمخاطر الانزلاق الجليدي. ودأبت بعض محطات الراديو المحلية منذ أوقات الصباح الأولى على بثِّ أخبار تفيد عن رغبة مجموعات من اليمين المتطرف المشاركة وحرق العلم الإسرائيلي. الأمر الذي جذب بالفعل بعض هؤلاء إلى التظاهرة.

وكاد وجودهم أن يؤدي إلى حدوث بلبلة، سارع منظمو التظاهرة لتداركها بأن طلبوا من الشرطة إبعادهم.

يعلّل أحد المنظمين للشرطة أن مجموعات من اليساريين المتطرفين المشاركين في التظاهرة علموا بوجودهم وهم ينوون إبعادهم بالقوة. استجاب رجال الشرطة، وأبعدوا اليمينيين المتطرفين. وسقطت المحاولة.

كان من شأن إحراق العلم الإسرائيلي من قبل هؤلاء النازيين أن يؤدي إلى انقلاب وجهة التظاهرة وصورتها، حيث ستركز وسائل الإعلام على هذا الالتقاء «المريب» بين العرب والفلسطينيين واليمين المتطرّف على العداء لليهود. كان التواطؤ الضمني بين اليمين المتطرّف وبعض الإعلاميين الموالين لإسرائيل على هذه الحيلة جلياً، تشويه صورة التظاهرة ودفع الناس إلى العزوف عن المشاركة بها وتحويل الأنظار إلى مسائل أخرى من اهتمام اليمين. لم تعدم التظاهرة بعض اليهود المناهضين للصهيونية، مثال الناشطة اليسارية ايفيلين غالينسكي، ابنة الرئيس الأسبق الراحل للجالية اليهودية في ألمانيا. غالينسكي شكت قلة أعداد الألمان على الرغم من توزيع الكثير من الدعوات للمشاركة.

في الواقع، كان كثير من الألمان يقفون على جنبات الطرق التي سلكتها التظاهرة. وبعضهم كان يصورِّ. فيما اعترض أحدهم طريق صديقي قائلاً: «أنتم إسلاميون متطرّفون... فارحلوا من هنا!» فرد الصديق:

«أنت والمتطرّفون اليهود أو المسلمون كلكم سواء عندي...».

عندما أخبرني بما جرى معه، كان وجه صديقي يغصُّ بالحنق والغضب: «قلت له ذلك وأنا أضغط على أسناني، أردت أن أضربه»، ورفع قبضته في وجهي، فيما كانت في الأثناء جموع المتظاهرين من خلفنا تردد: «لا إله إلاّ الله.. محمد رسول الله»، بصوت واحد ولغة

عربية جليةً. بدا حينها أن المتظاهرين ملّوا من تكرار بعض الشعارات التي كانوا يرددونها باللغة الألمانية. أو أنهم يئسوا من جدواها في تليين مواقف مستشارة الألمان المنحازة إلى الطرف الآخر بصلافة ربما أشد من موقفها إبّان حرب تموز 2006 على لبنان.

بدا أيضاً أنّ الحماس الذي تبعثه تلكما الشهادتين في النفوس وعلى الملأ –وخاصة في بلاد أجنبية أو في غير ديار المسلمين– أشدّ وأبلغ بمئات الدرجات من أي قول بأية لغة أخرى.

كان صدى الصيحات يترددَّ بين الأبنية الصامتة التي تسيّج جانبي الطريق كجدار إسمنتي عالٍ يعزل بين عالمين ومسارين ولغتين مختلفتين. قبل أن تنعطف التظاهرة إلى باحة التجمع النهائي عند الراين، لاحظت كبر حجمها وهي تتلوى كأفعى بشرية طويلة. وشعرت برهبة ما قد يفكر فيه الألمان العابرون أو الواقفون من حولنا: «إن هذه الأعداد الضخمة كلها من الأجانب والمسلمون والمحجبون و..»، إلاّ أن أعلام فلسطين المرفوعة هدأت من روعي قليلاً، وبدأت أتلمس معالم الطريق، ورحت أشرح الموضوع، وأهوّنه على الألماني الذي نصبته في عقلي محاوراً: «الأسئلة الكبرى لم تُطرح بعد بجديَّة على أمة الألمان وروح أوروبا المعاصرة والديمقراطية الحديثة.

صحيح أنكم أنهيتم أو انتهيتم من المسألة اليهودية كيفما اتفق وبأبشع الطرق، لكن هذه التظاهرات الفلسطينية التي تجوب أكثر من

مدينة أوروبية وعبر العالم، تؤشر على أنكم أمام مسألة أو ضحية أخرى تولَّدت عن حلّ الأولى. ويبدو أنكم ستكونون مضطرين لمواجهتها، إمّا بهولوكوست جديد يكمل ما تقوم «إسرائيل» به الآن في غزّة، وإمّا أن تجدوا لها حلاً على طريقتكم، كأن تخترعوا وطناً موعوداً لهم... أو أن تدمجوهم بالقوة، وهذا ما لن يحصل»[1].

([1]) نُشر في ملحق شباب السفير في.2009/1/14

تأملات في ركود دواليب العولمة

أعلنَ رسمياً دخول ألمانيا مرحلة الركود الاقتصادي. لا أعرف على وجه الدقة ماذا يقصدون بالركود؟ فالناس ما يزالون يتحركون في الشوارع ويزاولون أعمالهم كالمعتاد، حتى إنني شاهدتُ أحدهم يركض، هذا في معزل عن حسابات وزير الاقتصاد ومراكز الأبحاث والدراسات وتشاؤم المستشارة (ميركل).

بعيداً عن هؤلاء المتشائمين والمتفائلين كلّهم، يبدو صديقي تاجر الدواليب المستعملة أكثرهم توجساً وتجهماً وترقباً. غير أنَّ له فلسفة خاصة بالاقتصاد اكتسبها على ما يبدو من خبرته في مجال الدواليب المستعملة، وليست وليدة الدفتر والكتب المدرسية ومقولات (أرسطو) أو دروس (أفلاطون).

تقوم هذه الفلسفة على مقولة تبدو جديرة بالتبصُّر والتعيُّن مفادها: أنَّك إذا أردتَ معرفة الحال الاقتصادية لبلد ما، فما عليك سوى إلقاء نظرة على دواليبه، كما قد يكون النظر إلى حذاء المرء في بعض الأحيان دلالة على مكانته ووضعه الاجتماعيين، كأنَّما مقولة (سقراط) الشهيرة: «اعرفْ نفسك بنفسك!»، أمست عند صديقي: «اعرفْ نفسك بدولابك!».

كمثال تطبيقي على نظريته تلك يقول: «باتَ الناس هنا يسيرون على دواليبهم حتى النهاية»، كأنه يدلّل على صدق نظريته ببعض

الأمثلة الحية. النهاية في عمر الدواليب تعني ظهور الأسلاك المعدنية منها. أما عن محال تركيب الدواليب الألمانية التي بات بعضها يبيع الدواليب المستعملة كذلك، كما هي الحال في بلداتنا، فيقول: «أهلاً» ساخراً، كأنَّه يرحب بألمانيا في منتدى الدول النامية.

ثمة في الواقع كثيرون من المفكرين والمؤرخين يتفقون على أنَّ الحضارة قامت مع اكتشاف الدولاب أو العجلة، هذا الاكتشاف الذي رفع الإنسان عن الأرض وسار به قاطعاً المسافات، ومحدثاً اختلالاً عميقاً في طبيعة العلاقة القديمة بين الإنسان والمكان والزمان.

قاد تطور العجلات المتسارع إلى تطور موازٍ له في المجتمعات الحديثة الصناعية، ولاحقاً شملت هذه العجلة العالم كله، فلم تسلم من هذه العجلات قارات عذراء ولا قبائل كانت تعيش بغنى عن إطارات الغرب وسياراته التي حولت غاباتها من جنات للنعيم إلى أوتوسترادات للزعيق والكاوتشوك الأسود. ولكن يبدو أيضاً أنَّ من سخرية الأقدار أنَّ نهاية الحضارة –لا قدَّر الله– ستبدأ من الدواليب أيضاً.

لا شك في أنَّنا نعيش في زمن المقارنات، حيث إنّ ثقافة الطبقات الاجتماعية المختلفة باتت تتشبه ببعضها بعضاً، وزالت مع ذلك تلك الفوارق الدامغة، فبات في إمكان أي شخص أن يسلك المسلك الذي يرتأيه، بغض النظر عن طبقته أو حاله الاقتصادية والاجتماعية. فالموضة للجميع، والهواتف والسيارات وغيرها تمكن مشاهدتها في قارات ودول متفرقة في الآن نفسه. ولم يقتصر أمر التشبه أو محاولة

التمثل والتكافؤ على الأفراد والمجتمعات وحسب، إنَّما تعداه إلى قارات بعينها باتت تسعى إلى التمثل أو التقدم كغيرها.

أما الأوروبيون فقد ظهر من بينهم –والحال هذه– من يُنذر بقرب سقوط نجمهم وأفوله.

لقد أضحت الفروق الاجتماعية بين الألماني أو الإسباني أو الأرجنتيني أقل بكثير مما كانت عليه قبل ثلاثين عاماً، وهذا ما لا يجب على الأميركي أن يتغافل عنه... ليست هذه فقط أبرز معالم العولمة المشتركة المعاصرة، إنَّما بات الجميع أيضاً يتشاركون في موهبة التذمر على أنواعه، الوجودي أو الاقتصادي أو السياسي وحتى الطائفي والقبلي... الألمان على سبيل المثال، يستشرفون أنّ ما يقارب 250 ألف وظيفة، سيخسرها أصحابها في العام المقبل. ناهيك عن نداءات الاستغاثة التي تصدر كل يوم من شركات السيارات الكبرى وغيرها.

لستُ عالماً أو مرجعاً في الاقتصاد، غير أنَّني ما أزال أسأل نفسي سؤالاً أحسبه بديهياً في عالم الاجتماع والاقتصاد والسياسة وحتى السياحة، مفاده: كيف حدثت هذه الأزمة المالية العالمية هكذا دفعة واحدة، وبمجرد أن أعلن عن وجودها بتنا نعيش في صميم الأزمة فعلياً؟ ثم إنَّني لا أفهم كيف تبخرت هذه الأموال الفلكية وأين حلّت؟! فعلى ما أعتقد، أنَّنا – نحن معشر البشر– نعيش على هذا الكوكب نفسه، ولا يوجد على حد علمي أي مصارف في الفضاء

الخارجي، حيث يمكن القول إنَّ الرأسماليين الجشعين، والمضاربين المصرفيين، قد أودعوا أموالهم هناك، بداعي الاستثمار أو الادخار، أو تهرباً من دفع الضرائب؟!

وهذا يعني أنْ ما من خاسر في اقتصادنا العالمي، إلا ويقابله رابحٌ ما نزلت هذه الأموال في جعبته أو حسابه، هذه حسبة نسوية –كما يقولون عندنا في القرية– ولا أدري ما هو محلها من الإعراب في العلوم الاقتصادية الحديثة[1].

([1]) ننُشر في جريدة الحياة، بتاريخ.2008/12/10

أشباح ماركس توقظ أوروبا وتطلُّ حتى من الكنائس «رأس المال» يصدر من جديد بقلم الأسقف ماركس هذه المرة

قلّما أثار قسٌ الجدل من حوله كما فعل رئيس أساقفة ميونخ راينهارد ماركس. فهو لا تجمعه مع ماركس الجد القرابة العائلية فقط، وإنما الشبه في ملامح الوجه والأفكار أيضاً... إذ فاجأ القس الآتي من ترِيار، مسقط رأس كارل ماركس القديم نفسه، المجتمع الفكري الألماني بإعلانه في مؤتمر صحافي عقده في ميونخ يوم الأربعاء الواقع فيه 29 تشرين الأول المنصرم، وأعلن فيه صدور كتابه الجديد: «رأس المال، نداء إلى الشعب»[1]. ويأتي العنوان في استعارة لاسم مؤلف كارل ماركس الشهير «رأس المال». تناولت وسائل الإعلام هذا الأمر باهتمام لافت، ونشرت كُبريات الصحف الألمانية مقابلات مع القس ماركس، متناولة علاقته بماركس الجد، الفكرية، وكيف أمكن لقسّ كاثوليكي أن يخرق محاذير الكنيسة بإطلاقه كتاباً من هذا النوع يحاكي فيه أفكار ماركس ويسقطه على الواقع الراهن. «المضاربة الوحشيَّة خطيئة» هو عنوان المقابلة التي أجرتها مجلة «ديرشبيغل» معه، حيث رأى أن المضاربين في الأسهم ظنّوا أن

([1]) رأس المال، نداء إلى الشعب، راينهارد ماركس،عن دار بلتوخ، ميونيخ، 2008 ط1 ، 304ص.

بإمكانهم أن يصبحوا أغنياء بدون عمل، أو احتساب العواقب الوخيمة التي سوف تترتب عن أعمالهم. وطالبهم تالياً بالتوبة عمّا قاموا به ودعاهم إلى إصلاح ما أفسدوه. كذلك، دعا إلى العودة إلى الاقتصاد الاجتماعي للسوق، معترفاً بأن الاشتراكية الكاثوليكية استفادت من أفكار ماركس، وذلك بقوله: «نحن نقف اليوم على أكتاف كارل ماركس»، ويجب أن نطلب المعذرة من ناقد الرأسمالية الأبرز، والمحلِّل لأزماتها، إذ تنبأ بجوهر العولمة على أنها عولمة لرأس المال.

وقال: إننا استعجلنا في تنحيته عن مشاركتنا في فهم واقعنا الاقتصادي والاجتماعي ورمينا أفكاره وتحليلاته الاقتصادية في سلة المهملات. وأضاف بأن الرأسمالية الخالية من الأطر الأخلاقية والقانونية هي نظام معادٍ للإنسانية. «العزيز كارل ماركس»، هكذا يفتتح القس راينهارد ماركس كتابه برسالة إلى ماركس الجد. يشير فيها إلى السبعينيات عندما كان لا يزال بعد طالباً في باريس، وكانت الماركسية في عز انتشارها بين الشباب الذين كانوا يسألونه لماذا لا يحتذي بأفكار جدِّه الثورية... لكنه لا يتوانى بأن يصف جدَّه بأنه «الخصم الأكبر». يقول القس راينهارد ماركس إن الداعي لهذا الكتاب الآن لم يكن التشابه في اسم العائلة مع ماركس القديم وحسب، وإنما هو ينطلق في سياق مشروع فكري بدأه منذ عدة سنوات مع أطروحة البابا الراحل يوحنا بولس الثاني غداة انهيار الاتحاد السوفياتي عام

1989 عندما دعا هذا الأخير إلى التفكُّر في مبادئ الرأسمالية التي أعلن الكثيرون حينها عن انتصارها الأبدي وعن نهاية التاريخ.

وقد حذَّر حينها من أن فشل الأنظمة الرأسمالية المعاصرة في حل الأزمات التي يعيشها العالم كالفقر وعدم المساواة والبطالة وغيرها، سوف يكون من شأنه انبعاث جديد لأفكار ماركس القديمة.

يسأله أحد الصحافيين عن رأيه بالصيحة الشهيرة للكاثوليكي نوربرت بلوين في دانتزغ: «ماركس قد مات ويسوع حي»، التي أطلقها غداة انهيار جدار برلين وما تلاه من انهيارات لدول ما كان يُعرف بالمنظومة الاشتراكية. يردُّ الأسقف ماركس قائلاً: «صحيحة مقارنته بيسوع». وصحّت تنبؤات البابا الراحل إذ سرعان ما شهدنا ظهور انبعاثات روحية جديدة للماركسية. ففي عام 1993 كتب الفيلسوف الفرنسي **جاك دريدا** كتابه «**أطياف ماركس**» الذي يدور بمجمله حول كلمة «**das Gespenst**» **(طيف)** وبشّر بحتمية التناسل الروحي لأفكار صاحب رأس المال والبيان الشيوعي التي كلما لاح أنها ذبلت أو غارت، عادت لتنبت وتنمو من جديد كالفطر في حقول الفكر.

وقال بضرورة العودة إلى أفكار الرجل الأكثر خبرة في فهم الرأسمالية، وذلك من أجل مواجهة التوحُّش الرأسمالي. وقال دريدا أن ماركس الذي مات هو ماركس السوفياتي الستاليني، أمّا ماركس المفكر فباقٍ بيننا. يبدو أننا كلما شهدنا أزمة اقتصادية أو تعثراً في

آليات اقتصاد السوق والنظم الرأسمالية كلما ارتفعت أسهم ماركس وأرصدة كتبه. غير أن هذه «العلاقة الجدلية» لا تعني بالضرورة العودة إلى ماركس المؤدلج والمُنتج وفق رغبات هذا الحزب الشمولي أو ذاك الزعيم الأبدي. كذلك، ليس على طريقة اليساريين التقليديين الذين ما برحوا يطلُّون برؤوسهم عند كل سانحة أو عثرة اقتصادية؛ ليرفعوا شعاراتهم وكتب أحزابهم الشيوعية كبيارق الخلاص، ويعيدون طرح وتأويل «آيات» قديسيهم القدماء على أنها تشتمل على البلسم الشافي والمفسِّر الكافي لكل داء أو علَّة.

تدفع الأزمة المالية العالمية الراهنة والحديث عن الركود الاقتصادي المقبل بالكثيرين في العالم –وفي ألمانيا على وجه الخصوص– إلى العودة لقراءة ماركس من جديد. ويشهد المجتمع الألماني، إضافة إلى صعود وتنامي اليسار الجديد، اهتماماً شبابياً وأكاديمياً لافتاً بكتابات ماركس وتحديداً «**رأس المال**»، الأمر الذي يؤكده على سبيل المثال يورن شوترومفن –مدير «كارل ديتريش للنشر» في برلين– المشارك في معرض فرانكفورت للكتاب بقوله:

«**كارل ماركس** من جديد مع الموضة. وكتابه «رأس المال» على لائحة أفضل المبيعات»[1]. وأضاف:

([1]) ديرتاغس شبيغل، 2008/8/16.

أن ما من مجتمع يشعر بضرورة العودة لقراءة ماركس إلا هو بالتأكيد مجتمع لا يشعر بأنه على ما يرام.

في مقابل هؤلاء اليساريين الحالمين بعودة مجد غابر، ثمة اهتمام من نوع آخر بماركس القديم، اهتمام معاصر يأتي من مشارب مختلفة كالجامعة والكنيسة والتيارات الشبابية الجديدة، وبعض المفكّرين الرأسماليين أنفسهم. هؤلاء لا يتطرَّقون إلى أيديولوجيا ماركس الثورية التي قامت عليها أنظمة، وإنما يطرحون ماركس كأحد المفكرين والفلاسفة العظماء الذين أثروا المكتبة والوعي البشريين بالكثير من الأفكار المفيدة التي لا يزال بعضها حتى أيامنا صالحاً لا بل ضرورياً لفهم وتفسير الرأسمالية والعولمة وحركة الاقتصاد المعاصر. يكون ذلك على الرغم من أن كتابات ماركس تأخذ معطيات القرنين الثامن والتاسع عشر كركيزة في بناء معطياتها وتحليلها. فالكثير من المفكّرين الاقتصاديين المعاصرين يرون أن الأسس التي كانت تحكم حركة اقتصاد السوق وتراكم رأس المال، وأزمات هذا الاقتصاد المتتالية، كما أشار إليها ماركس، لا تزال هي نفسها. وهذه هي حال القس راينهارد ماركس وغيره من المفكرين المعاصرين الذين يحتفظون لأنفسهم بمسافة من التمايز لجهة عدم الأخذ بأفكار أي مفكر أو فيلسوف كسلّة متكاملة غير قابلة للاجتزاء أو البتر.

ومن أبرز نقاط اختلاف آراء القس راينهارد ماركس مع أفكار ماركس القديم، مسألة الملكية الخاصة. ويستشهد في هذا السياق برأي

القديس الفيلسوف توما الأكويني: «مَن لا يملك شيئاً، ولا يملك سوى قوة عمله، سوف يتعرض للاستغلال». ولا تكمن المشكلة برأيه في علاقات الملكية وإنما في طريقة تنظيم هذه الملكية وإدارتها.

إذ أن تملُّك الإنسان عبر كدِّه وعمله يُعتبر من حقوقه الأساسية. بالإضافة إلى دفاعه عن الملكية الخاصة والدولة، بالطبع، لن يكون بمقدور رئيس أساقفة ميونخ وبروفسور اللاهوت، أن يجاري أفكار مؤسس الشيوعية في أفكاره حيال الله والعائلة المقدسة[1].

([1]) نُشر في ملحق شباب السفير. 2008/11/19.

الإقامة تتبع الجواز لعام واحد والمسافات في ألمانيا شاسعة
قال الموظف الألماني: وحدهم اللبنانيون يطلبون هذه «البصمة»!

«إنه قرار من تحت»، يردّ موظف المعاملات في السفارة عندما يسأله أحدهم عن سبب المصاعب والتعقيدات الإضافية. جواب الموظف جاء تلقائياً، كأنه مسجَّل على شريط آلي. بدا أن جوابه ذاك يعفيه من المسؤولية، ليدير تذمر وغضب المواطنين نحو جهة مسؤولة أخرى عن هذه القرارات التعسفية والغريبة.

«المعاملة» الرسمية «زوروني كل سنة مرة». باتت رائعة سيد درويش الشهيرة لسان حال سفاراتنا العزيزة في الخارج. فأينما كنت تقيم من بلاد الله الواسعة، منذ أكثر من عشر سنوات أو منذ أكثر من عشرة قرون، فالأمر سيّان، سوف يتوجَّب عليك أن تزور سفارة الوطن، مرةً كل عام لكي تُجدِّد جواز مرورك وبالتالي إقامتك. إذ أن البلد المضيف الذي تقيم فيه لن يمنحك إقامة تتجاوز مدتها تاريخ صلاحية جوازك.

فإن كنت تقيم في بلد كألمانيا، حيث تفوق مساحة إحدى ولاياته مساحة بلدنا العزيز، وكنت تقيم في شمال أو جنوب أو غرب ألمانيا، فإن مسألة الوصول إلى برلين، هي بلا شك، مشروع سفر.

بعد أنّات اللبنانيين هنا، وتعالي صرخاتهم من تكبُّد مشقَّة السفر إلى برلين، اجترحت السفارة اللبنانية –مشكورة– طريقة إنجاز بعض

المعاملات عبر البريد. لكن مشكلة قاهرة بدت غير قابلة للحل ظهرت فجأة، وهي مسألة البصمة. بصمة صاحب المعاملة. فكيف سيتم نقل بصمة إبهامه إلى برلين من دون أن يحضر صاحب الإبهام بنفسه وشخصه الكريم؟

يبدو أن هذا النظام المعقد والعويص يسعى لأن يكون الأكثر أمناً وأماناً وإخلاصاً لصفاء العرق اللبناني أكثر من نظام الألمان أنفسهم أصحاب نظرية الأعراق والتفوق التاريخي. في أروقة السفارة اللبنانية، تدور المعارك والمشادّات والصدامات المتفاوتة الحدّة، ويعلو الصراخ بين جموع المنتظرين الوافدين من مناطق وولايات بعيدة.

يصطفون لساعات في طوابير لا يخرق صفاء تنظيمها اللبناني إلاّ انتشال أحد المنتظرين من بين الجموع بيد قوة قاهرة لا تقاوم ولا تواجه، هذه القوة الخفية التي يعرفها جميع اللبنانيين، ويسمونها بنعومة وأحياناً بصلافة وخشونة: الواسطة.

لكن هذا لم يمنع عدوى التطور والتكنولوجيا من أن تنتقل إلى بعض غابات سفاراتنا في الخارج، إذ فتحت بعض هذه السفارات صفحات لها على الإنترنت، يمكنك من خلالها معرفة المطلوب لإنجاز هذه المعاملة أو تلك. كما يمكنك سحب الطلبات اللازمة وطبعها. لكننا مع ذلك، لا نزال عالقين عند مسألة البصمة. وجاء موعد الحل.

ستون يورو البصمة تُطبع على بطاقة لا يمكنك -هنا في بلاد المهجر- طباعتها أو نسخها، ولا حتى رؤية شكلها أو صورتها، ولا تحصل عليها إلاّ عبر إرسال كتاب خطِّي إلى السفارة تطلب فيه ذلك.

فعلت «إيمان» ذلك، وانتظرت قرابة الأسبوع ولم تصل البطاقة المنشودة، فعاودت الاتصال بالسفارة، وبعد رنَّات طويلة ومحاولات متكررة ومن يوم ليوم أجابها أحد الموظفين، وفهمت منه أن السبب الذي حال دون وصول البطاقة الحبيبة هو أن السيدة إيمان لم تضع ثمن طابع البريد الذي ستستخدمه السفارة لإرسال البطاقة في المغلف إليها، وقدره 55 سنتاً. فعاودت الكرة ونجحت العملية ووصلت البطاقة بخير وسلام.

يشرح ملصق السفارة المرفق بالبطاقة عن الجهات التي يمكن لصاحب العلاقة أن يتوجَّه إليها لوضع بصمته على البطاقة، وهي الكاتب العدل أو مركز الشرطة القريب من مكان السكن، أو بوليس الأجانب. كما أُرفقت البطاقة بملصق آخر يشرح باللغة الألمانية طريقة تعبئة البطاقة، والموقع الذي يتوجَّب على الموظف الحكومي الألماني طبع ختمه عليه، بعدما يشرف ويصدّق على بصمة الإبهام.

في حالة «مريم»، ضحك بوليس محلة سكنها من طلبها، واستغرب الأمر برمته، وحار في ما يقوله لها، فأجرى عدة اتصالات بمن هم أعلى رتبة منه، أو بمن حسبهم قد يكونون أكثر علماً ودراية

بهذا الموضوع. ولمّا اعتذر عن تلبية طلبها، توجَّهَتْ إلى الكاتب العدل، فجَمْرَكَهَا بستين يورو، كثمن لختمه وتصديقه، على أن «مريم» بنت فلان قد حضرت بنفسها وبصمت على هذه البطاقة. أمّا إيمان فقد قصدت مركز بوليس الأجانب بعدما رفض الكاتب العدل في محلتها القيام بأمر لم يسمع به من قبل... وكان ثمن البصمة هناك متدنياً إذ بلغ 10 يورو فقط لا غير.

في المقابل، لم يدفع محمد شيئاً لقاء هذه المهمة في دائرة الأجانب في قريته، ويبدو أن بعض اللبنانيين قد مرُّوا بهذا الموظف من قبل للغرض ذاته، فأخبره بشيء من التباهي:

«أعرف هذا الإجراء، وبلدكم هو البلد الوحيد في العالم الذي يلجأ إليه، وأنا أجده إجراءً جيداً».

موظف ألماني طيب. والألمان، كما هو معلوم، مولعون بالأوراق والمستندات. ولشدَّة ما باتوا يُتهمون بهذه الآفة، أصبحوا يقلّلون قدر الإمكان منها. وتبقى أختامهم ناعمة صغيرة، مقارنة بأختام شعوب أخرى. وتجدهم يترددون كثيراً في استعمالها، وهي تأتي عادة في آخر المعاملة كخاتمة للأحزان. لكن لماذا؟! تجديد الجوازات اللبنانية في الخارج يكون لمدة سنة واحدة فقط. في عهد الإدارات السابقة للأمن العام صدر توجيه رسمي بهذا الصدد يحصر تجديد الجوازات لمدة خمس سنوات بحملة الجواز الكحلي الجديد، وذلك في لبنان فقط. أمّا

أصحاب الجوازات الحمراء القديمة فلن يكون بمقدورهم التجديد سوى لسنة واحدة في الخارج.

تتضارب التفسيرات والتأويلات حيال عدم منح الهيئات والبعثات القنصلية اللبنانية في الخارج لا الإمكانية ولا الصلاحية في إصدار هذه الجوازات الجديدة (الكحلية). ففيما يرى البعض أنه عائد لحسابات مالية وأن رائحة صفقة ما تجوب في الأجواء، يرى البعض الآخر أن حصر هذا الأمر في لبنان فقط يعود لدواعٍ سياسية وطائفية وأمنية. هكذا، تنجح الدولة في تأديب عشرات، بل مئات آلاف اللبنانيين المغتربين وتقوية حسِّهم الوطني المتداعي، عبر دفعهم إلى زيارة وطنهم، حيث سيؤدي ذلك، إضافة إلى تحسين العجلة الاقتصادية ودعم السياحة العامة، إلى تخلُّص الدولة من الجوازات الحمراء، وجني الملايين من جيوب المواطنين الذين هم رسالة هذا الوطن.

على سيرة البصمة، أخبرني أحد المنتقدين للأعمال الوظيفية والمكتبية والبيروقراطية بشكل خاص، أن سبب إصرار دولتنا على مسألة البصمة، ليس فقط كونها لا تثق بأبنائها، وإنما أغلب الظن أنها تنظر إليهم على أنهم أمّيون، لا يجيدون الكتابة. بغضِّ النظر عن البُعد التهكُّمي أو الفلسفي لهذا الرأي، فإننا نسلم جدلاً بمبررات السفارة والأمن العام حول ضرورة البصمة. وذلك لكي لا يتم تزوير أو تقليد

اللبناني، وكلُّنا نعرف أثر ذلك وتداعياته الخطيرة على التركيبة السكانية وعلى التوازنات الطائفية والمذهبية.

وأغلب الظن أن تاريخ هذا التقليد اللبناني العريق في جمع المعلومات الشخصية (بما فيها البصمة) عن المواطنين في كل مرة يتقدَّمون فيها بطلب رسمي هو متوارثٌ من التركة العثمانية وإبداعاتها في عمل الإدارات والمؤسسات والمرافق العامة. ومن يبحث عن التجديد الإداري في بلد لا يخرج من مأزق انتخابي راهن إلا عبر «قانون الستين»؟[1].

([1]) نُشر في ملحق شباب السفير 2008/8/6.

قصة القرآن الجديد
المصوّر الذي صدر في ألمانيا؟!

لطالما انتظرت صدور مثل هذا الكتاب، قرآن، أستطيع أن أقرأ مضمونه من دون صفحات طويلة وشروح كثيرة ومعقدة، تكون مواضيعه مقسمة بيسر وسهولة، تمكنني من قراءته أنا وأولادي... كتبت ميخائليا كايزر في باب تعليقات القرّاء على الكتب الصادرة حديثاً، وذلك على موقع أمازون، أحد أشهر مواقع النشر والإصدارات في ألمانيا والعالم.

غطّت وسائل إعلام ألمانية كثيرة هنا خبر صدور الترجمة الحديثة للقرآن الكريم، المتوجِّهة للأطفال والبالغين بحسب العنوان الفرعي للكتاب الذي صدرت طبعته الأولى في الأسواق في 12 آذار الجاري[1] عرضت دير شبيغل مقتطفات من الكتاب الذي صدر معه شريط ممغنط (ديسكات) يسرد المضمون صوتياً بلغة واضحة ومبسَّطة. كذلك، عرضت موجزاً لمحتوى الكتاب وبعض الآراء المشيدة به. فكتب بياتا لاكوفتا: لأنه لا توجد ترجمة معتمدة في المدارس الألمانية للقرآن تأتي هذه الترجمة المختصرة والمبوبة والمرتبة

([1]) القرآن للأطفال والبالغين، دار بيك للنشر، ط1 ،2008 ، في 240 صفحة، ترجمة واعداد وتعليق كل من لميا قدور والباحثة الألمانية في منهجية الأديان رابيا مولر.

ترتيباً جديداً بالموضوعات والأبواب، بالإضافة إلى الشرح التفسيري الميسر لتُعتبر بحق إنجازاً ثورياً في العالم الإسلامي([1])

بالنسبة إلى لميا قدّور (29 عاماً)، مدرّسة مادة الدين والتربية الإسلامية من جامعة مونستر، أصبح إنجاز قرآن للأطفال والبالغين هاجسها الأكبر وهدفها الأساسي. فبعد معايشتها لجهل كثير من الطلاب ذوي الغالبية التركية لأبسط ركائز الدين الإسلامي وأركانه كفريضة الحج والصوم وغيرهما وصولاً إلى الالتباس الكبير في معلوماتهم المعرفية حول الإسلام، حيث يغدو بذلك النبي محمد (ص) تركيّاً بالنسبة إلى الغالبية منهم... وقد لمست قدّور أن المشكلة الأساسية تكمن في اللغة، فكثير من الطلاب يحفظون بعض السور القرآنية كالفاتحة وغيرها غيباً وبالعربية من دون أن يفقهوا مضمون هذه الآيات أو السور في أغلب الأحيان.

ولمّا كان لأطفال الألمان إنجيلهم الخاص بهم الذي يتوافق وقدراتهم العقلية ويناسب مستواهم العمري، ولليهود أيضاً توراة الأطفال واليافعين، فكان لا بدّ من قرآن أيضاً لأطفال المسلمين من أبناء المهاجرين الذين يعيشون في ألمانيا... وتلك كانت ولادة فكرة هذا الكتاب الجديد. ([2])

([1]) دير شبيغل،/10 آذار 2008./

([2]) مقال مارتن شبيفاك، دي تسايت،/13 آذار 2008./

يأتي محتوى الكتاب في حلّة ليبرالية ومسالمة تظهر فيها جلياً قناعة المؤلفة في اشتراك الأديان التوحيدية الثلاثة في أساسيات كثيرة، بالإضافة إلى الأصل السلالي الذي يعود إلى الجد المشترك أي النبي إبراهيم (ع)، كذلك لناحية مفاهيم كالعدل والتسامح والحض على إعمال العقل، لأن القرآن لا يعطي إجابات مباشرة لجميع الأسئلة. تنقل دي تسايت عن قدّور.

أمّا موضوع المرأة، وهي المسألة التي باتت تُعدّ من مواضيع الغرب الكلاسيكية التي يواجه بها المسلمين، فهي تظهر في القرآن الجديد تحت عنوان الجرأة في المواجهة، وتكون السيدة مريم هي صورة المرأة المستقلة. وتغيب كلمات مثل الجهاد والحجاب بشكل تام عن الكتاب. وتعلّ قدور هذا الأمر بقولها: بالنسبة إلى كتاب للأطفال والمراهقين، رأينا أن موضوعات أخرى هي أكثر أهمية.

ماذا جاء إذا في كتاب القرآن الألماني؟

جاء في التعريف الذي قدمه الناشرون للكتاب: هذا كتاب للأطفال كما للراشدين، للمسلمين كما لغير المسلمين. تُقدم فيه أفكار وقصص القرآن بشكل بيّن ومفهوم (...) يتيح للقارئ التعرّف على كتاب المسلمين المقدس.

ماذا يقول القرآن حيال الخلق؟ وما هو الدور الذي يعطيه القرآن للمرأة؟ وما هو الموقف حيال غير المسلمين؟ وكيف يصف القرآن كُلّاً

من موسى، وإبراهيم، ومريم، وعيسى؟ (...) هذا الكتاب للجميع، أنجز بأفضل الطرق، لكي ينال مكانه في الثقافة الغربية.

قُسّم الكتاب الجديد إلى 12 باباً، يعالج كل منها موضوعاً وما يتفرع عنه من مواضيع وأسئلة. على سبيل المثال:

الله (مَن هو الله؟ كيف هو الله؟ الصفات والمعاني). **الخلق. النبي والرسل. محمد** (ص). **إبراهيم. يوسف. موسى. عيسى. مريم...** واختيرت السور القرآنية بما يتناسب مع المواضيع المطروحة. وحافظ الكتاب على الترقيم والخط المتبعَين في النصوص القرآنية العربية، حيث يقابل كل نص قرآني الترجمة الألمانية في الصفحة المقابلة. وهذه الطريقة متّبعة في أغلب نسخ ترجمات القرآن إلى الألمانية. لكن اللافت أن الترجمة الجديدة تعتمد لغة أسهل نسبياً وأكثر ملاءمة للشباب. أمّا الرسوم التفسيرية المرفقة فهي لوحات فنية إسلامية، إمّا فارسية أو عثمانية، رُسم أغلبها ما بين القرنين الخامس عشر والتاسع عشر. فإلى جانب يسوع وإبراهيم وحوريات الجنّة، يمكن كذلك رؤية النبي محمد (ص) بملامح وجه ظاهرة وليس ببياض يحل محل ملامح الوجه.

وإزاء اعتبار المسلمين المحافظين تصوير النبي على أنه انتهاك للدين، تقول قدور: إن الأطفال واليافعين يتعلّمون بشكل أفضل من خلال الصور، ونحن علينا استخدام هذه التقنية. تنقل دي تسايت عن قدور ما تصفه بالموقف البراغماتي. لقي ذلك إشادة خاصة من قبل

القراء الألمان، الذين علّقوا على هذا الكتاب: يهتم الأولاد بالدرجة الأولى بالصور الموجودة في أي كتاب ومن ثم بالنصوص المرفقة بها، كتبت ميخائليا كايزر على موقع أمازون دي أي في 20 آذار 2008 يبقى للمرء أن يتساءل:

هل نحن إزاء ولادة إسلام أوروبي حديث؟

إسلام يكون ذا طبيعة مغايرة ومتأثرة إلى حدٍ بعيد بمناخات الحرية والأساليب العلمية التي تترافق مع التقنيات البصرية والمعلوماتية الحديثة.

يتبلور إسلام كهذا بين شرائح إسلامية مختلفة تعيش في الغرب، وبين الطلاب الذين تتزايد أعدادهم بشكل لافت في الجامعات والمعاهد الألمانية في اختصاصات علوم الإسلام والاستشراق واللغة العربية... هؤلاء الذين سيشكِّلون في المستقبل الهيكل التعليمي لمادة الدين الإسلامي المقترحة في المدارس الألمانية، وتسعى الدولة هنا إلى أن يكون هؤلاء المتخرجين بديلاً أو حلاً لمسألة استقدام رجال الدين من خارج الاتحاد الأوروبي.

وقد اتجهت دول كثيرة في الاتحاد الأوروبي إلى فرض قيود مشدَّدة على قدوم هؤلاء الشيوخ والعلماء من خارج دول الاتحاد، وشرعت دول كثيرة، منها هولندا والدانمارك، في إخضاع رجال الدين المسلمين لدورات تعليم لغات هذه الدول، واشتراط الإلمام باللغة على الشيوخ

الراغبين بالقدوم إليها. وبينما لم تتضح بعد ردود الأفعال في العالم العربي والإسلامي على هذا الكتاب، لا تستبعد المؤلفة الأساسية قدّور نقد الكتاب: سوف أكون مندهشة ومتفاجئة إذا لم تحصل مشاكل... لكن، إن لم يكن إصدار مثل هذا الكتاب ممكناً في ألمانيا، فأين سيكون ذلك؟

تتساءل وهي ترى أنه على المسلمين الذين يعيشون في أوروبا واجب تطوير إيمانهم ودينهم، لأن الدين في البلدان التقليدية التي ظهر فيها يعيش كأنه في سجن، ومفتاح الحل في هذا السياق هو سلوك الطريق العلمي إلى الدين.

مَن هي لميا قدّور؟

لم تدرس لميا الطب مثلما كان يرغب والداها، لكنها اختارت دراسة علوم الإسلام واللغة العربية والتربية. اليوم تقول والدتها المحجَّبة لها: أنت تجعلين دينك مثلما تريدينه أنت.

تربّت لميا كأخواتها الثلاث تربية دينية. في الثالثة حفظت أقصر السور القرآنية غيباً. والدها (ميكانيكي طائرات) أتى من سوريا إلى ألمانيا في مطلع السبعينيات من القرن المنصرم، وهو يصلي فروضه كاملة، خمساً في اليوم. لميا لا تضع حجاباً على رأسها، فهي لا ترى في ستر الشعر في المجتمعات المحلية أي معنى، كما أنها لا ترى في الإسلام مجموع دوغمائيات، وإنما مصدراً للروحانيات: الدين يجب

أن يتصل بي روحياً. وعلى الرغم من أن المرء قد لا يستطيع التمييز بينها وبين تلامذتها –لناحية لباسها العصري والبسيط– لكنها في الآن نفسه تصلّي وتصوم، مع هذا، لا أسأل نفسي في كل أمر أقوم به عمّا يقول القرآن في ذلك[1][2].

([1]) نقلاً عن مقال دي تسايت، السابق الذكر.

([2]) نُشر في ملحق شباب السفير 2008/4/23.

عاشوراء بعيون ألمانية..
وبأصول إيرانية في النبطية

إنها النبطية، وهذه ساحتها وشوارعها المؤدية إلى أسواقها الشهيرة، تلك التي أعرفها حق المعرفة، فهي كبرى مدننا وممرنا الإجباري إلى قرانا الحدودية. لكني لم أتوقع يوماً أن الصحافة الألمانية ستكون الوسيلة التي ستجعلني أراها اليوم كأنني أتعرف على نفسي فيها من جديد.

صورة المضرَّجين بدمائهم والدم يفرُّ من رؤوسهم التي جذبت الكثيرين على مر السنين لمشاهدتها. فماذا قالت صور النبطية في الصحافة الألمانية؟ دماء جديدة لا تنفك تقطر على بلاط الجامع في النبطية، تقول الصورة التي تنقل أرض المسجد أو الحسينية (غير واضح فيها) ونرى أيضاً بعض أقدام المشاركين تسير على الدماء التي باتت داكنة اللون. يحز المرشح الديني رأس الشاب بالسيف والموسى، تهيئة لبدء المراسم، تقول صورة أخرى. غير أن الصور التي تبين فتى يافعاً مضرجاً بالدماء، وأخرى يظهر فيها أبٌ يحمل طفله الصغير المُدمّى أيضاً، لا تتركان مجالاً للشك في نية المصورين، والتأويلات البديهية التي سوف يخرج بها المشاهدون، إن لم ترفق الصور بتفسيرات تُقرّب إلى الناظر واقع الصور الفعلي... وإن كانت أية محاولات تعليل لما يجري لن تنجح في إجلاء هذه

المشاهد، سوى الإيمان الشديد والرغبة في التطهر والتوبة، أو تعميق وترسيخ الشعور بالذنب الذي يبدو أنه يتناقل بطريقة أقرب إلى الوراثية منها إلى المكتسبة. فنحن، وجميع أجيالنا التي ستأتي من بعدنا وإلى الأبد، لن نتخلى أو نتوانى عن تلبية النداء الذي تخلّف عنه الأجداد.

وتتخبَّط التفسيرات الألمانية فيما تتناقل مواقع الإنترنت أخبار ضرب السيوف على رؤوس الأطفال، لا يمكن أن يكون هذا الأمر بملء إرادتهم، لا بدّ أن أحداً يدفعهم أو يجبرهم على فعل ذلك، إنه شيء مخيف.

فيما تنبري صحيفة أخرى لتهدئة الخواطر قليلاً، التأنيبات الجسدية كانت موجودة لدى المسيحيين أيضاً، لكنها اندثرت وتحوّلت إلى مجرد فلكلور تذكاري ليس إلاّ.

لا شك أن عوامل كثيرة نفسية ودينية واجتماعية مركّبة تتداخل وتكمن في سلوك اللطّيمة والضرّيبة، تبدأ بالتضحية والتأسي الحقيقي والشعور بالذنب والندم البالغين، وقد لا تخلو أحياناً من مشاعر حب الاستعراض والزهو بالنفس والإثارة والانتشاء التي تترافق مع وقع اللطم والضرب المنتظمين ورائحة ومشهد الدماء.

كلها عوامل قد تشتدُّ وتتعاظم أمام الكاميرا عند حلول الصورة. صورة تؤدي في مقلب آخر من العالم، إلى تماثل القاتل مع المقتول،

وجعلهما من صنف أو مرتبة واحدة. ولا يفوت كلام صورة أخرى التطرّق إلى التوظيف السياسي لهذه الشعيرة، يزيدٌ يرمز للشر في زمانه، ولكل زمان أيضاً يزيد يمثّله، فها هو اليوم يتمثل في جورج بوش وإيهود أولمرت، على حد قول السيّد حسن نصر الله. كذلك، يمكن أن يكون أي خصم سياسي آخر، مثلما قال الشيخ إسماعيل من النبطية إذا ما استمرت الحكومة الحالية في نهجها المدعوم من الغرب والإمبرياليين، فعلى المرء حينها أن يرى فيها يزيداً جديداً، كلمات تذيّل في شبيغل أونلاين صورته المنشورة في 191 - 2008 نزف إرادي... حتى يُغمى عليه، فيأتي المسعفون، يضيف الموقع المذكور معلّقاً على صورة أخرى.

حيدر... حيدر، في عاشوراء النبطية سنة 1983.

لا أعرف لماذا أخذتني صور عاشوراء النبطية الألمانية إلى سنة 1983 عندما كادت تتحوّل عاشوراء في النبطية إلى كربلاء ثانية. أصرّت حينها قافلة إسرائيلية مؤللة على اختراق المسيرة والحشود. وصلت القافلة إلى الوسط، ولم يدرِ أحد ما الذي حصل بالفعل، إذ اختلطت الأمور ببعضها، فراح الجنود يتركون آلياتهم مذهولين ليتحصَّنوا في زاروب ضيق متفرّع، فيما الحجارة والخضار تنهال عليهم من كل حدب وصوب. وما هي إلاّ لحظات حتى كانت آلياتهم تحترق وقلبت رأساً على عقب. كأن الجماهير مسّها جنّ، وثارت بما يشبه الهستيريا، أو كأن كل الغضب والشعور بالمرارة من الاحتلال

وجد متنفساً له دفعة واحدة. تداخلت الأمور والشعارات والهتافات، لكن حيدر... حيدر كانت كلمات السر التي تلهب الجموع. ولقد شاع بعد هذه الحادثة أنّ الإسرائيليين ظلّوا لفترة من الوقت يبحثون عن شخص اسمه حيدر، ظناً منهم أنه المسؤول عمّا جرى في عاشوراء النبطية. ضجَّت الصحف ووسائل الإعلام حينها بأحداث النبطية، فكانت إيذاناً بانطلاق مقاومة شعبية سوف تتداخل في نسيجها تيارات واتجاهات سياسية ودينية متنوِّعة. اللافت في الأمر أن المشاركين في تلك المسيرة كانوا من مختلف الأطياف السياسية الجنوبية، ما فتح الباب واسعاً أمام شباب تلك التيارات لينسبوا مآثر الانتفاضة إلى أنفسهم أو أحزابهم. هكذا أمكن لكثير من اليساريين والقوميين وأتباع تيارات سياسية دينية وغيرهم أن يقولوا إنهم من مدبِّري تلك الأحداث. فالكل كان هناك، المؤمن والعلماني، اليساري والقومي، مَن جاء تأسِّياً بمصاب آل البيت، ومن جاء بداعي الفضول وحب الاستطلاع، أو مجاراة لعادات الأهل، ومَن جاء بداعي الإثارة.

لكن، كيف نشأت احتفالية النبطية بعاشوراء؟

يبدو أن الموقعة التي جرت سنة 61 للهجرة (الثاني من تشرين الأول 680م)، ونتج عنها سقوط الإمام الحسين (ع) وأصحابه، لا تزال تتجذَّر وتتسع أصداؤها لتطال أصقاعاً شتى وبعيدة جداً عن مكان حدوثها الأصلي في كربلاء العراق.

في العصر العباسي، رُفع الحظر لفترة قصيرة من الزمن عن ضريح الإمام الحسين (ع)، وأتيح لأتباعه أن يقوموا بزيارته قبل أن يتوالى على هدم هذا المقام وُلاة وخلفاء (هارون الرشيد - 706 809م، والمتوكل 861 - 822م، وآخرون) ثم أعيد بناؤه في عهد المنتصر سنة 862 م. وتوالت عمليات الهدم وإعادة البناء. وفي عام 965 م، جرى أول احتفال رسمي بذكرى عاشوراء في عهد معزّ الدولة. ومع أفول نجم الدولة البويهية في نهاية القرن العاشر، ضمر إحياء هذه الشعيرة في العراق لتظهر من جديد وبحلَّة أخرى هذه المرة في إيران القرن السادس عشر، بعدما اعتمدت الأسرة الصفوية مع الشاه إسماعيل المذهب الشيعي الإثني عشري، مذهباً رسمياً للدولة.

كان الإيرانيون آنذاك أول من أطلق إحياء هذه الشعيرة على النحو الذي نشاهد تنويعاته وأشكاله المستحدثة التي لا نزال نشاهدها في أيامنا هذه، وكانوا أيضاً وراء إطلاق هذه الشعيرة في مدينة النبطية، أي في قلب جبل عامل. ومن ثم راحت تنتقل إلى باقي البقاع اللبنانية حيث يتواجد الشيعة، على ما يذهب كثير من المؤرخين والباحثين في هذا الشأن[1]. ففي عام 1895 أتاح الحاكم العثماني آنذاك للإيرانيين

(1) رالف رزق الله: يوم الدم، مشهدية عاشوراء، مقاربة نفسية واجتماعية لمقتل الامام الحسين(ع)، ترجمة د. خليل أحمد خليل، دار الطليعة، ط1،. بيروت 1997.
الشيخ عبد الله العلايلي: تاريخ الحسين (ع)، دار الجديد، 1994 بيروت.

المقيمين في منطقة النبطية إحياء هذه المناسبة شريطة ألا يشارك فيها أبناء المنطقة. اللافت أيضاً في هذا السياق هو معارضة شيخ النبطية آنذاك السيد حسن الحسيني العاملي للمشروع أو الرغبة الإيرانية. غير أن رغبة والي بيروت العثماني كانت هي الفيصل، وهكذا جالت مواكب اللطيمة وضاربي رؤوسهم بالسيوف للمرة الأولى في شوارع النبطية، وجرى أول تمثيل مسرحي لمذبحة كربلاء. ما لاقى استحسان العديد من أبناء المدينة الجنوبية، وراحت أعداد المنضمين إلى إحياء هذه المناسبة تتزايد عاماً بعد عام، على الرغم من حظر الوالي العثماني[1].

•وضاح شرارة: عاشوراء بنت جبيل، منشورات الجامعة اللبنانية، 1968 بالفرنسية. (ذكره رالف رزق الله في يوم الدم ص 29)، وكانت دراسة شرارة تحاول إظهار أثر حرب فلسطين وإنشاء دولة «إسرائيل»، في رواية مقتل الامام الحسين(ع).

•فريدريك معتوق، عاشوراء النبطية بحث في الجامعة اللبنانية، وله أيضاً «سوسيولوجيا دراما دينية»، أطروحة دكتوراه مقدمة في باريس. منشورات الجامعة اللبنانية 1973.

([1]) نشر في ملحق شباب السفير 2008/1/23

الحي الألماني
بناه المهاجرون فظنته الحاجة تابعاً للمستعمرة

هو حي في قريتنا الجنوبية المحاذية للحدود مع فلسطين. بناه مهاجرون من أبناء قريتنا إلى ألمانيا، على مراحل، وذلك منذ رحيل الاحتلال. لا أحد يعرف بالضبط من وضع أول مدماك أو حجر فيه، وتختلف الروايات في ذلك، فثمة كثيرون يدّعون الأمر لأنفسهم. سرعان ما وجدوا أنفسهم يتجاورون قرب بعضهم البعض.

أحمد اشترى قرب كمال وبنى بيته بقربه هناك، تماماً كما هي حالهما هنا في ألمانيا... وسار الآخرون على المنوال ذاته... وما هي إلاّ سنوات قليلة حتى انتصب هذا الحي في ناحية من قريتنا، معلّقات من الأسمنت السميك العالي، أشكال مربعة ومستطيلة تمتدُّ متلاصقة، متجانسة مع نفسها ومع أصحابها الغائبين عنها إلى حد بعيد. أذكر ما كان قبل مجيء هذا الحي إلى قريتنا. كان ثمة كرم فسيح فيه شجر لوز ودوالي عنب. كان مسوّراً بحائط واطئ مرصوف من الحجارة. بعد التحرير، بات حَّياً نتباهى به أمام المستعمرات المحاذية... وإن كان حَّياً يخلو من الحياة. إنها مصايفنا، نأتي إليها للاصطياف. قال أحد جيراننا الجدد هنا وهناك.

في الواقع، لا أحد يعرف متى أو كيف تحوّلت قريتنا إلى مصيف. فهي لم تكن أو لم تتصف مرةً في تاريخها بهذه الصفة. لمن بنينا هذه

البيوت ولا أحد من أبنائنا يريد السكن فيها؟، يشتكي مقيم هنا لجاره اللبناني. وضعت كل رأسمال مصلحتي هناك في تلك الأعمدة والشرفات. أردف جاره، فيما علّق آخر: أموال ألمانيا ستعود إليها... أولادنا سيبيعون هذه البيوت بعد رحيلنا نحن، وسوف يعودون بأثمانها ليعيشوا بها هنا في ألمانيا. فمن خلق هنا وشرب من مياه هذه البلاد علق وتعلّق بها إلى الأبد، قال بحسرة. لم أفهم لماذا يشتكون! طالما أنهم لا ينفكوُّن يمنّون أنفسهم وكذلك أهل القرية بأنهم أنجزوا شيئاً عظيماً من غربتهم لهم ولقريتهم. وبعضهم لا يتوانى عن رفع رأسه عالياً كالطاووس بين أهله وجيرانه هناك عندما يذهبون للاصطياف فيها كالسياح الأجانب. ويصير الواحد منهم يتندَّر:

«شو بيسموا هيدي بالعربي يا فلان؟».

هذا هناك، أمّا هنا ففلان نفسه لا ينفك يصطحب ابنته أو ابنه معه كترجمان إذا ما أراد الذهاب إلى دائرة ما، أو إتمام معاملة ما. أو كما يقول أحد أصدقائي المقيم بينهم منذ أيام وصولهم الأولى إلى هذه البلاد: إنهم يعيشون لبنان هنا، بكل التفاصيل والعادات والمحرَّمات، لكنهم عندما ينزلون إلى لبنان فهم يعيشون ألمانيا هناك. أمّا الألمان فتراهم يسوقون أمثلة عن أتراك وعرب وغيرهم ممّن يقيمون بين جنباتهم لسنين طويلة. يعملون ويجمعون أموالهم ليقيموا بها منازل لهم في أوطانهم. حتى أن بعض الصحف باتت ترصد حجم التحويلات التركية

سنوياً من ألمانيا إلى تركيا. لكن كثيرين من الألمان يشترون بيوتاً لهم خارج ألمانيا وهذا حق متاح للجميع، لا نزاع حوله.

كما أن كثيرين من الإسبان من أبناء جزيرة مايوركا الذين يعملون في مقاهي هذه الجزيرة المطلّة على المتوسط وفنادقها، باتوا يتأفقّون ويتذمّرون من تصرفات بعض الألمان الآتين وكأنهم يستوطنون هذه الجزيرة، بعدما اشتروا الكثير من الأراضي والعقارات والفنادق فيها. ويتخوّف الكثير من أبناء هذه الجزيرة على الهوية، بعدما أجاد كثيرون من عمالها اللغة الألمانية لضرورات السياحة. ولم يتورَّع بعض الألمان عن إبداء استهجانهم عند مصادفة عمال لا يجيدون الألمانية.

ولقد علّق أحدهم قائلاً: لا أفهم لماذا يتذمّر هؤلاء، فنحن أحيينا هذه الجزيرة التي كانت مغمورة وفقيرة وأعلينا من شأنها، ثم ألا يحق لنا نحن الألمان أن يكون لنا منفذ على المتوسط!

تُرى، هل يفعل مهاجرونا الشيء نفسه في قريتنا؟! يقولون إن لبنان غني بمهاجريه. وبالطبع، بضعفه الذي هو سرّ قوته. وعندما يهاجر أحد أبناء قريةٍ فهو يزيد قوةً على ضعفِ هذه القرية التي ستتحوّل تالياً إلى قوة لكل الوطن. لكن يبدو أن للحاجة «سُكنة» جارتنا في القرية، وهي المقيمة في حينا المقابل للحي الألماني، رأي آخر... فهي تكاد لا تفصل بنظرها الضعيف هذا الحي عن المستعمرة اليهودية المحاذية. ولا تراه بالتالي سوى نمواً وتوسُّعاً لتلك المستوطنة، هذا التوسُّع الذي اعتادت عليه وألفته بعد سنين قليلة من قرار السيد تيودور هيرتزل في

مدينة غير بعيدة عنا هنا، منذ أكثر من قرن، بأن وطنهم العتيد الموعودين فيه لا يمكن له أن يكون في الأرجنتين ولا في الكونغو، حيث لا أثر لأساطير أجدادهم هناك ولا هيكل... وإنما ها هنا، على بعد مئات من الأمتار عن أرض الحاجة «سُكنة» الغالية. لا يمكن لأحد منَّا أن يوافق قول حاجتنا العزيزة وإنما يكون العتب، على ما يبدو، على نظرها الضعيف. وقد يكون سبب هذا الالتباس عائداً لتلك التسمية الأجنبية لهذا الحي! لا أحد يعرف من أطلقها عليه، وإن كان المرء لا يعدم ثلة من المتبرعين من ساكني هذا الحي الذين ينسبون هذه التسمية لأنفسهم. أو لربما يكون أمر هذا الالتباس عائداً لبعض ثرثرات أولاد هؤلاء المغتربين الذين يأتون في الصيف لزيارة القرية ويتكلمون باللغة الألمانية في القرية[1].

([1]) نُشر في ملحق شباب السفير 2007/7/23.

موسم العودة إلى الجنوب
مساهمة في نقد الغربة ولعنة الأوطان

يقول نهاد إنه أنهى مأموريته في غربته. فقد تزوج وأنجب وحصل على جنسية الأقوام البيضاء المتقدمة، وعلى شهادات علومهم، وجمع بعض المال. 20 عاماً اقتضى صرفها في تحصيل هذا كله. 40 ألفاً، ألا تكفي لشراء شقة في إحدى ضواحي الوطن؟ وبضعة آلاف أخرى من العملة الأوروبية، ألا تكفي لإنزال سيارة جديدة نسبياً إلى البلاد؟ وفق نصيحة صديقٍ صدوقٍ، فإن ما جمعه حتى اللحظة سيمكّنه من الحصول على وظيفة في إحدى جامعات الوطن الحبيب. هكذا يرسم نهاد صورة آتيه من الأيام.

«جين» هي صديقته في العمل. لا تصدِّق أنه سيكون بمستطاعه العيش في بلاده من جديد: إنك ولا شك تهذي أو تحلم. لن يكون بمقدورك العيش هناك، مقارنة بما اعتدت عليه هنا.

لا أعرف لماذا اختار أن يُطلعني على رأي «جين» هذا قبل أن يقول شيئاً عن رأي زوجته العربية. ألأنها ابنة العم وهي بالتالي في متناول اليد، ورأيها يكون تالياً بمثابة المفروغ منه أو تحصيل الحاصل، كما يقولون؟ لم يقل نهاد شيئاً عن التضييق والصعوبات التي طالت حياة المهاجرين هنا، وخاصة في السنوات الأخيرة، وخاصة فيما يتعلق بأمور الدين والحجاب والجوامع وغيرها من أشكال الحياة التي باتت

تثير غضاضة الكثيرين هنا. كذلك، لم يقل شيئاً عن الشعور بالأمان وتربية الأطفال ولغة الأهل، ومنشأ الذكريات. في المقابل، لم يقل شيئاً عن موئل العودة ومحط الترحال، أي عن الوطن المفتون بجماله وبأهمية موقعه الجغرافي وبانشغال العالم بشؤونه وشجونه الداخلية وباستحقاقاته المصيرية، وإن بدا ذلك كله لا منطقياً ولا يتناسب مع حجمه مقارنة بالدول والأمم المتطاحنة والمتنافسة على الخارطة. لكن، يبدو أن ذلك كله لا يضير صديقي ولا يحطُّ من عزيمته ولا من شعوره الوطني، فالعودة تكون دائماً على بدء، على ما يبدو، وكلّ عَوْدٍ أحمدُ.

أنا أيضاً أريد العودة، قلت لعقيل صديقي، أحد الراسخين في أوطانهم كنخلة سودانية قديمة. لكنه رغم هذا لا ينفك، كأي لبناني آخر، ينشد الرحيل، الرحيل إلى أيّ مكان... وحتى إلى اللامكان. قال: تروَّ، ولا تستعجل اتخاذ قرارات قد لا يكون بمقدورنا تحمّل نتائجها. لم تعد وحدك في هذا العالم، كما أن النظرية غير الواقع، والبلد صغير، وهو ليس بضع ساحات وزواريب فقط، إنه كتلة معقدة من العوامل الطبيعية والبشرية... لا تستعجل ولا تتهوَّر... وإن مرّت اللحظات المصيرية الحاسمة بقربك كالخطر الداهم، فما عليك سوى التظاهر بالموت، علّ المصائر الكبرى لا تنتبه لوجود جثتك المؤجلة إلى حين.

أي تشاؤم وأية فلسفة محلية خاصة هذه التي اجترحَتْهَا أريحة صديقي، في موسم العودة إلى الجنوب... تيمناً برواية ذلك الجنوبي الذي انتقم لشرف الشرق وعاهاته.

بلى، لقد انتهت أسطورة ذاك الغرب، قلت له. هذا الغرب الذي – على ما يبدو– لم يكن أحد غيرنا نحن أولاد حارات الشرق الأوسط والعالم العربي الأدنى مصاباً بمرض الانكسار أمامه، وبرغبة التماهي معه... أم ترانا نحن الذين أردنا أن نصاب به أكثر من غيرنا.

في العالم، ثمة وجهات أخرى لم تُستلب بالغرب إلى هذا الحد. هناك الهند والصين ودول وأمم كثيرة، كان الغرب تحدياً لها، لكنها لم تضعه كمسلّمة قدرية، وإنما كمنافس حضاري تجب مواجهته والاستفادة منه حيث أمكن، والتخفيف من وطأته وسطوته وجبروته كذلك حيث أمكن. ليس بالانتحار الفردي أو الجماعي، وإنما بالعمل الدؤوب تحت الأرض وسراً وعلانية وفي البحر وعلى رصيف المنارة... وفي اللغة القديمة.

الغربة التي لا تعرف أحداً فيها يكترث لمصيرك، هي مكان يقرّبك من حدود نفسك... كما الأوطان التي لا تتسع لمكان ظلِّك، مدائن هي لضيق التنفس والتهاب الحناجر ومعمل للشكوى والأنين، أو متاع يُغري، لكن لا يسدّ تطلّب الروح المزعج. ومهما تبني ها هنا، يبقى أعمدةً من ورق أو طين. لا تبني إلا وهماً لسراب، أو صنوفاً لأجنحة الريح...

ليس البناء وعاءً للأفكار، وليست اللغة غلافاً لوجود، بل محكّاً لتمايز البشر وتنافرهم، وإن قالوا جميعهم: «هابي نيو يير». هوذا أنت،

ولا أحد غيرك ها هنا، مَن لا يجوز لك حتى المشاركة في جحيم الآخرين، فكيف بنعيمهم!

عساك هناك تكون معنياً أكثر في استبداد قبائلنا وفي شورى ملوكها ورعيتها وفي مفاعيل الديّة وقوانين الشرف! أنت، أي أنا وأنتم وهم كذلك وكل الضمائر المتصلة والمنفصلة والمستترة عن الذوات وعن الأشياء وعن الأسماء وعن الصفات والمعاني، أنت ببساطة مصدر كل هذه الشكوى وكل هذا الأنين والتذمر. فارحل بطيئاً غير متحامل وغير آسف وبلا ضغينة إلى حيث مضارب أهلك في الجنوب، في الصحراء الذهبية والأبدية، واطمر بما أوتيت من قوة ومن دجل منابع الإسفلت والمازوت، واحترس أن يراك الناس وأنت تفعل ذلك! والزم خنجرك البدوي الأصيل، وتحدّث، بل مجّد وخلّد ثاراتك إلى أبد الآبدين ومن جيل إلى جيل. فأنت وحدك بكل غيّك وغدرك وسذاجتك ورعونتك، سوف تكون ملاذ هذه الحضارة الحرباء ومنقذها الأخير [1].

([1]) نُشر في ملحق شباب السفير في.2008/1/9

أسماؤهم لا تزال حركية بعد 20 عاماً على وجودهم هنا

لم أكن من رفاق جيلهما، فأمجد كان صديق أخي الذي يكبرني بعدة سنوات. أما الضيف الثاني فقد تعرفت به هنا وقد صيرتني الغربة واحداً من أصدقائهما أو –بلغة أدق– واحداً بين جمهورهما. كلما أزوره أجده يجلس تحت صورة غيفارا الشهيرة، غيفارا في الجبال. أمجد ليس اسمه الحقيقي الذي منحه إياه والداه لحظة ولادته، وإنما هو اسمه الحركي الذي عُرف به في حزبه خلال الحرب، والذي على ما يبدو لا يزال يشعره بشيء من عزة تلك الأيام. فيبدي امتعاضاً واضحاً ولافتاً إذا ما ناداه أحد باسمه الحقيقي، وقد سألته مرةً: لماذا لا يجعل اسمه الحركي هذا اسمه الرسمي؟ فنظر إليَّ نظرة مستهجنة كأنه يستنكر أو يستغرب استخفافي بأهمية الاسم الحركي الذي يتيح للمرء أن يظل بمنأى عن مخاطر الانكشاف. كيف أطلب منه أن يحوِّل قناعه ذاك إلى وجه؟ ففهمت وتفهمت، مع العلم أننا نعيش هنا في ألمانيا مستورين والحمد لله، لكننا نبقى في نواحٍ معينة مكشوفين أيّما كشفة أو انكشاف. فنحن هنا لسنا كائنات عائمة أو نائمة أو مُغفلة عن جداول العلم الحديث وإحصاءاته وكشوفه وجرداته الشهرية...

ولا يعوز أي موظف في أي دائرة صغيرة أكثر من أن يطبع أحرف وجهك القليلة حتى ترتسم على شاشته قوائم أعياد ميلادنا المجيدة وأرومة أجدادنا وآبائنا.

ما علينا -على كل حال- يبدو أن صديقي هذا لا يجد حرجاً في التصريح باسمه الحقيقي أمام الألمان... وقد دوَّنوه على جواز مروره الألماني الجديد. بدأ العشاء عادياً، التلفاز يتمتم بالألمانية. أولاده وأولاد ضيفه يتسامرون وآخرون يتابعون العرض المتلفز.

الأولاد هنا في مفردات الجيل الأول، هم الجيل الثاني، ولدوا هنا أو أتوا صغاراً مع أهلهم. هؤلاء يكادون لا يفقهون شيئاً من أمور بلدهم. وأغلبهم لا يجيد العربية سوى محكية ركيكة. وقد ولدوا وشبّوا هنا، في جو تسيطر عليه أجواء ألعاب الكمبيوتر وكرة القدم والتليفونات الحديثة. جوٌ يبقى على مرأى ومسمع من صورة غيفارا الذي في الجبال. فيما ترتفع في منازل أخرى صور لسيِّد أو قائد ثوري ملهم آخر.

كنا نحن الثلاثة على طاولة السفرة نتابع ما بعد العشاء برنامج بالعربي. وما بعد العشاء بات معروفاً: هو طبق السياسة المحلية وأشجان الأوطان والساحات. سرعان ما راح الغضب يستعر والنبض يتزايد عندما احتدم النقاش مع الصديق الآخر أبو عمر، هذا مع العلم أنهما في التيار ذاته. راح أمجد يروي بحماسة بادية، وربما ببعض المرارة المستترة، كيف كادت تنتابه جلطة قلبية أو مشاعرية في وسط بيروت، في أثناء زيارته الأخيرة إلى لبنان: من أجل هؤلاء قضيت الليالي بين الزواريب، وكانت الجرذان المقززة تتمشَّى على جثثنا الهامدة بلا حراك في الليل بعد التعب، والبعوض ينهشنا؟ من أجل هذا المشهد الغريب والفاحش قضى من قضى وأصيب من أصيب؟! تمنيت للحظة

لو أن الحرب لم تنتهِ! تقصد قبل الاعتصام؟ سألته مستفسراً عما بدا واضحاً في كلامه. كيف؟، قالها مصحوبة بنظرة «مشْ ولا بُد». فحوَّلت نظري عنه إلى الطاولة وما عليها. وبعدما بدا أن الأمور اتسقت من جديد في لحنها القديم، سألته: هل يعني هذا أنك لست نادماً على الحرب وأنك سوف تشارك فيها مجدداً إذا ما عادت؟ لا، لا، لن أحارب مجدداً، لأني تيقَّنت الآن من أننا كنا موهومين في ما كنا نقاتل من أجله. وتبيّن لي أن لا في قضية ولا من يحزنون، وأن نهاية كل الحروب تكون بالسياسة والتفاوض. فيأتي خطاب ناري يدشّن فيه أبو عمر المهجّر والمهاجر، إطلالته الأولى على ساحة الطاولة: الحرب التي توقفت عام 1990 لم تنتهِ، وكنا حينها في وسط بيروت.

الأمور حالياً تعود إلى نصابها، أي لتستكمل الحرب من حيث توقفت هناك. وبالمناسبة، وعلى سبيل التذكير ليس إلاّ، فإن لقب أبو عمر ليس اسم الرجل الحقيقي كما تبيَّن ذات مرة في جلسة غير هذه الجلسة، وإنما اسمه الحركي أيضاً، وإن كان قد سمَّى آخر أبنائه لاحقاً عمر، كدليل على لا طائفيته. ولا ينفك المرء يلتقي بشباب كثر هنا في المطاعم اللبنانية وغيرها، لا يزالون يُعرفون أو يتباهون ويتمسَّكون بأسمائهم الحركية التي ستروا بها وجوههم في أثناء الحرب. نظرت إلى أمجد وأبو عمر، فبدا لي أنهما لم يهاجرا منذ أكثر من عشرين عاماً. وبدا لي أن الفتاة العشرينية التي تدير حديثاً مستعجلاً بلغة ألمانية مثالية مع ابنة أمجد، ليست ابنة أبو عمر. وغيفارا الذي في الجبال لم

يمت. وبوتين لم يلعب الجيدو أو الغولف مع التنين أو مع بوش الابن. ولم يتزلج بوش الأب فوق زيت الخليج. ولم تشرف «اسرائيل» على المشاركة في القمة العربية المقبلة... ولم، ولم... ولقد بدا لي أنهما بقيا واقفين هناك في اللحظة والمكان اللذين غادرا فيهما البلد، أواسط ثمانينات القرن الماضي. هذا ما يفسر ربما سبب امتعاضهما كلما سألت أحدهما عن تاريخ حادثة أو معركة يرويها، فيقول الواحد منهما: 94 أو 95، متغاضياً على الأقل عن عشر سنوات من تاريخ الأحداث الفعلي.

ولمّا كنت أستغرب هذا، قائلاً بأن هذا غير ممكن –ففي تلك السنين كانت الحرب قد انتهت– يُجيبُ بامتعاض بعد أن يكون قد أدار وجهه نحو السماء التي فوق سقف الغرفة: إيه، إيه، قصدنا 83 أو 85 يا شيخ[1].

(1) نُشر في ملحق شباب السفير في2007/4/11.

مبروك ...صرت منذ الآن ألمانياً

منذ متى وأنت تحلم بالحصول على جنسية أخرى أو وطن آخر أو ثانٍ، على اعتبار أنك واحد ممّن يحق لهم حمل وطنين أو جوازين معاً، واحداً تعبر به حدود الدول الراسخة والآخر لتلك القلقة؟ أولم يراودك هذا الحلم منذ أيامك الأولى ومراهقتك وشبابك! حلم أو رغبة شبقيّة غريبة نحو الهروب أو الهجرة، تراها تلد مع اللبنانيين ويتوارثونها جيلاً بعد جيل! أم تراها سمات الموقع الجغرافي ومزاملة الجبل للساحل البحري، ضريبة الطبيعة والزمان؟ أولم يكن أجدادنا الفينيقيون أيضاً من سابري مجاهل البحار وما بعد الحدود؟! لكن أكثر ما كان يدفعنا للتفكير في الرحيل، هو اهتزاز هذا الوطن من أساس بنيانه، وتضعضعه منذ ولادته المتعثرة.. فكان منذ البدء، ساحة لصراع اللاعبين الإقليميين والدوليين. كلما اختلفوا تفجّرت الأوضاع عندنا وتطايرت الأشلاء وأقيمت الحدود، وخرجت الذئاب الطائفية والمذهبية.. وكلما تهادنوا أو اتفقوا هدأت أوضاعنا كذلك، وشهدنا استقراراً مؤقتاً. إنه وطن رهن الظروف والتسويات الخارجية والمتداخلة.

لا شيء جديداً في بلادك القديمة إلى الأبد، ولا شيء كثيراً يتبدّل أو يتغيرّ، من جنيف ولوزان والطائف والدوحة و.. الأسماء والوجوه والألقاب تكاد تكون هي نفسها، تحتل صدارة الشاشات والساحات والأحداث وتُمسك بفتيل قنابل القبائل اللبنانية. الآن وأنت تتسلّم أوراقك الثبوتيّة الجديدة، ألا يجب أن ينتهي أمر هذا التوتر والبحث الدائم عن

الأمكنة والأوطان والهويّات الثابتة والاستقرار والشعور بالأمان؟ لماذا لا تصير منذ هذه اللحظة غيرك؟ لماذا تصرُّ أن تظل إيّاك ذاك البدوي القديم المفعم بريح الريف والزعتر البلدي والحنّاء والقمح المسلوق بطقوس الجماعة؟ سألتني نفسي الأمَّارة بالسوء، وحدثتني بما قد يقوله بعض الأصدقاء الخبثاء.

لكن ما سرُّ هذا الشعور الغريب الذي راودك لحظة طلبت موظفة دائرة الجنسيات منك أن تسلمها جواز مرور وطنك الأم؟ شعور غريب كأنك تخون شخصاً حميماً جداً، تسلّمه إلى أيدٍ غريبة، وقد خفت أن لا تعيد وطنك الحبيب إليك، إذ كانت المعلومات تختلف من شخص لآخر بهذا الصدد، فمنهم من قال إنك تسلِّم جواز مرورك هناك، ومن ثم يمكنك الحصول على آخر جديد من سفارتك هنا، وقال آخرون غير ذلك. لكنّها أعادته بعد أن ألغت الإقامة عنه، وقالت: «أنت منذ الآن ألمانيا، فلا حاجة بك بعد الآن لهذه الإقامة».

يتبدَّد شعور الخيانة والتسليم لتعود من جديد مشاعر الشكوى من الوطن الذي تكتشف فجأة أنك رغم كل شيء، وكل المصائب والشكوى، تحبه، بشماله وجنوبه وشرقه وبحره درَّة الشرقين والشعب العنيد. بحفاوة بادية لا مراء فيها استقبلنا رئيس بلديتنا الجديدة؛ وهو يعرّفنا على حقوقنا وواجباتنا، وعلى رأس هذه الواجبات: الانتخابات واحترام القوانين والدستور الذي بين يديك. تلك الانتخابات التي فوّتها، قبل أيام، جُل أقاربك وبنو جنسك وجلدتكَ، المقيمين هنا، فأتاح هذا

التخلف والتقاعس عن المشاركة في إنتاج السلطة الجديدة لأحزاب اليمين المتطرف أن تنجح في الحصول على مقعدين في مجلس المدينة..

هؤلاء المتطرِّفون الذين لا يريدون أن يقرُّوا بحقيقة أن في هذه المدينة الوادعة يتعايش فيها قرابة 157 جنسية وإثنية مختلفة بوئام وتواصل وود.. على ما قال عمدة المدينة الذي لم ينسَ أن يدعونا في الختام إلى المشاركة بكثافة في الانتخابات المقبلة. المغلّف الذي سلمنا إياه عمدة المدينة كان فيه –إضافة إلى الدستور الألماني– كتيب يدلّك على أبرز معالم المدينة وخريطة تبيِّن الطرق ووسائل النقل فيها. لكن الأكثر غرابة أو لطافة في كل ذلك، كان الملصق الأزرق المقدَّم بعدة لغات أولها العربية، يشرح الطرق الحديثة والصديقة للبيئة في توضيب القمامة وعزلها. شعرت أن الكتيب قد حُشِرَ بين الكتيبات الأخرى، بشكل يستهدفني مباشرةً أنا وبعض العرب الآخرين من المتواجدين في حفل تسلُّم الجنسيات.

لا أعرف حقيقة مصدر هذه الحساسية الغريبة تجاه كل ما يتعلق بأمور النظافة والبيئة والقوانين. راح صوت داخلي يقول: «طالما أصبحت مواطناً من هذه البلاد، عليك منذ الآن وصاعداً أن تعتني بنظافة بيتك وبيئتك الجديدين، وعليك أن تولي العناية والانتباه لكثيرٍ من الأمور، التي كنت تحسبها في بلادك القديمة، قليلة الأهمية، أو حتى مثيرة للسخرية. عليك منذ الآن وصاعداً أن تكون غير ما كنت

عليه هناك، عليك أن تعتاد أن تكون هادئاً ومرناً وملتزماً ومحترماً للقوانين، التي لطالما كنت تسخر منها وتستخف بها.. إنها ورطة بلا شك، والدخول بها سوف يعني الكثير من التغييرات على حياتك.. عليك أن تفكر مليّاً، وأن تتروّى في كثير من الأمور...!».

بدا الأمر كأنه امتحان ولادة آخر، ودخول في عالم جديد. ولادة يُقبل عليها البعض، والبعض الآخر يرفضها.

شانول، مثلاً، صديقي التركي، تحق له الجنسية، لكنه لا يريدها. يقول إنه لا يجد سبباً وجيهاً لها، فالإقامة الدائمة التي يملكها كافية. لكن شانول لا يقول كل الحقيقة، وهو أنه سوف يخسر جنسيته التركية إذا ما حصل على الجنسية الألمانية أو أي جنسية أخرى. لهذا السبب تجد ملايين الأتراك الذين يعيشون هنا، لا يتقدمون للحصول على الجنسية الألمانية. لكن الكثير من أبناء الجالية العرب يحملون الجنسيات الألمانية، ومع هذا فلم يتغيّر الشيء الكثير في حياتهم، حتى أن الكثيرين منهم لم يخضعوا لكل تلك الامتحانات والأسئلة التي خضعت لها.

زوجتي المولودة هنا، تراها حدست بما يختلج في صدري من ارتباكات. قالت بلهجة واثقة حاسمة:

«مبروك لقد صرت منذ الآن ألمانيا، لكن هذه البطاقة الخضراء وهذا الجواز لن يجعلا منك شخصاً آخر، غير ذاك الأجنبي الذي قدم إلى هذه البلاد.. ولو أقمت هنا ألف عام...!» [1].

([1]) نُشر في ملحق شباب السفير في.2009/10/7

الجزء السادس:

خواطر

النص ومبضع الجراح

كنت على قناعة راسخة أن الجراحة المتأخرة للنص «أيّ نصّ»، بعد تدحرجه من جبل الذاكرة، وانبثاقه من روح اللغة، لا تجدي، لكن على العكس، لا يني مبضع الجراح أن يخدشه أو يجرحه في أكثر من مكان أو ضلع. ولكن رغم هذا فإن النص المنتهي أو المكتمل هو أيضاً خرافة. لذا لا يسودنا وهم ببلوغ المعنى واقتصاره على حدود النص، فالمعنى هو الموجود بالقوّة في أفياء العقل ومزاج الخارج والداخل، أمّا النص فهو المسعى المطَّرد أبداً والمفعم بالشوق نحو التأويل والسرد!

***

المرأة والمرآة

هل هي مجرد قرابةٍ لغوية بين الكلمتين، أم أنها تتعدى هذه القرابة والتشابه في التشكيل حدود الأحرف الظاهرية إلى المضامين في التراكيب الباطنية!

فإذا ما كانت المرآة هي سطح عاكس لصورتنا، ولكن الدخول إلى أعماقها مستعصٍ وفيها تتجلى كنه العلاقة ما بين الشيء وصورته المنعكسة فيها!

الشيء الذي في ذاته أو في صورة الذات!

أمّا المرأة، فهي خليط من كل ذلك، من الرغبة والشهوة واللوح العاكس لذواتنا ولأكثر الحقائق رسوخاً من علامات الحب والكره والكيد والنفور والتجسُّد؛ آلة حادة ضرورية في حياة الرجل، وذلك لوأد المشاعر الضعيفة والسخيفة.

والمرأة كذلك مرآة لذواتنا

لكي نراها على حقيقتها في عتمة غرورنا

وانسياقنا وراء الأوهام

وإغراء الأيام.

***

المرأة والصداقة

المرأة لابسة متلبسَّة كل الأدوار؛ المرأة والصديق.

عندما تكون المرأة حبيبة، فإنها تميل لأن تكون علاقة مفتوحةً على كل الاحتمالات!

أمّا عندما تصير المرأة زوجة، فإنها لن تطيق أن يشاركها أحد بك، ولو من باب المجاز أو الاستعارة فهي ستكون بهذا المعنى، موسىً قاطعاً لنحر فكرة الصديق، من جذورها!

كذلك، الصديق سيكون بمثابة السيف المسلول

الدائم في سبيل تهدئة روع الحياة

والحدّ من تعالي الذات

لكنه لن يتوانى عن نهيك عن خوض غمار

بحار المرأة

بدافعٍ من شهوة الذكر الأصلية على الاستحواذ والفوز بالأنثى التي تستبدُّ في كل رجل!

لهذا تكون المرأة والصديق، شفرتين بارقتين لعملةٍ واحدة، وذلك لانعكاس الذات في عيون الآخرين.

***

جسور متأرجحة

لا تحاول أن تبني جسوراً وثيقة ما بين ذاتك وبين الكائن الأسمى، سمّه ما شئت، عبر جسور الآخرين! فإنك بذلك قد تخسر كل شيءٍ! لأن الجسور التي تشيدها على أكتاف الآخرين، مهما كانوا من مدعّي حَمَلَة مفاتيح السماء، أو عتاةً أو جبابرةً أو حتى فاتحين، فإن تلك الجسور مهما بدت مديدة وعالية، فإنها سوف تظل متأرجحة وقلقة ما لم تسبر سفنك غمار بحار الشك والظلال المتلاطمة، وأن ترمي شباك المعرفة في رغو أمواجها. فاحرص أن لا تجمع ثمار بحار معرفتك من أصداف الماضي السحيق أو محارات اللؤلؤ الحكيمة، أو

أن ترشّ برديتك بحبر حبارها العظيم، احرص وتهيّب، قبل أن ترسو على شواطئ السلام الأبدي المترامي!

قبل أن تفعل أيَّ شيءٍ من كل هذا، أن لا تكون خفيفاً ووضيعاً وأعدد نفسك لملاقاة وجه الحقيقة بكل شجاعة ونُبل وتسليم!

وتجرّع كأس النور، بكل حزمٍ وامتلاء! أمّا الآخرون، فقد تجاوزوا، ومنذ زمنٍ بعيد حدود الجحيم، وأطراف السماء!

***

الفرعون والكون

مَن بنى الأهرامات؟ هل كانوا أناساً طيبين وساذجين؟

إن كانت الأهرامات إنجازاً بشرياً عظيماً، فلا مدعاة للغرابة والعجب، لماذا عدَّ الفرعون نفسه من صنف الآلهة، أو ربما نصف إله..

لا شك أن الفرعون لم يكن يرى صنواً أمامه إلاّ الكون!

***

الإله الجديد!

لقد انقطع إله الأديان القديم عن الوجود منذ مئات السنين، منذ أن خاضت هذه الأديان كل الحروب باسمه!

وعلّقت كل المشانق باسمه

وسالت كل هذه الدماء باسمه!

فقام الإنسان، لا بالسيف، بل بقلم العقل

والعلوم يبحث عن نور المحبة والخير

والمعرفة من خارج الأديان. وتجاوز ذاك الإله القديم، هذا الذي

نعاه نيتشه وأعلن موته.

ولكن، وقد بدا أنه لا بد لهذا العالم من ضمير، من إله جديد!

إله يكون كلمة الإنسان وصورته!

إلهاً وليس آلة!

***

الفن والدين

شكلان أو طريقان للانفكاك من الواقع

وضرورات الجسد

نحو ما خلف الأشياء

من معنى

وصور

كلٌ على طريقته

لهذا نرى؛

الفن نقيض الدين

لأنه يحاول الخلق من عدم.

أو المشاركة

في صياغة أشكاله وإعادة تلوينه من جديد!

أمّا الدين، فإنه يسعى إلى إبقاء الواقع على حاله، مستقراً وساكناً، ريثما تقتضي الطبيعة أو المشيئة والأقدار غير ذلك!

***

العمال والفلاحون والفنون

العمال والفلاحون هم ألد أعداء الفنون، لأن العمال يصنعون الآلات والوسائل، والفلاحون يزرعون الأرض، والبناؤون يشيدون المباني والبيوت والجسور، أمّا الفنانون فإنهم يحاولون أن يصيغوا العالم بعبارة أو أغنية أو رواية، أو أن يرسموا الحقول من نوافذهم بفرشاة وبعض أصابع التلوين، ومن ثمّ يحصدونها عملةً ورقية في المزاد!

***

الرجل والظل

«ظلِّ حيطة ولا ظلِّ راجل»،

قالت المرأة المنتظرة في محطة الباص،

وقال الرجل العابر أمام ظلِّها:

«لا فيء للإنسان إلاّ قبره!».

***

الحجر والبندقية

أدخلت انتفاضة الحجر عرفات إلى فلسطين ويبدو أن بندقية المقاومة سوف تخرجه منها. لماذا كان حجرنا أقوى من كل المدافع الهزيلة والبنادق التي لا نملك غيرها!

لا أعرف لماذا بدأوا حفلة الاغتيالات السياسية بغسان كنفاني؟ لماذا تراهم يغتالون كاتباً؟

أليس لأنهم يخافون من الكلمة أكثر من الرصاص! بلى، لقد كان حجرنا أقوى وأبلغ وأبعد صدىً من كل بنادقنا! هذا الحجر الذي كان يختزن كل المعاني والصور والكلمات وكان يتقمص الماضي

والحاضر، وكل أشكال الحياة الأخرى، من أغانٍ وفلكلور شعبي وكلام مأثور وأساطيرنا الحديثة، التي سنتناقلها كما نتداول التحية والسلام!

***

عادة تنقيب الأسنان

عادة تنقيب الأسنان بعود خشبي،

بعد وجبات الطعام الدسمة،

هي عادة إنسانية خالصة،

لا تخلو من أبعاد أخلاقية؛

غايتها إخفاء آثار الجريمة

وإراحة الضمير!

وكأنها تخشى لنا العودة

إلى ماضٍ سحيق!

***

العقل والدين

نعم أنا عقلاني، وأريد أن أحترم دينك،

لكنك بالمقابل،

هل تستطيع

أن تحترم عقلي!!

***

نيرون وروما

روما ماتت ولم يمت نيرون...

فهو لا يزال يتجذِّر في كل فردٍ فينا، ويتناسل ويتوالد، إنها شهوة السلطة الأبدية!

***

حديث وقديم

حديثه حديث، ولكن،

ما لي أراه دائماً يحلق مع السرب القديم!

***

سمعته تسبقه

ما جدوى ما يقوله أو يفعله، إن صرت تصدّق كل شيء يقال عنه!!؟

***

رأس وكأس السنة

أضرب رأس السنة بكأسها

كي لا تريك بأسها!!

***

برلين.. أمُّ المدن

بعض المدن تضمُّك إلى صدرها برحابة وسرعان ما ترفع الكلفة بينكما، كأنك مولود في أفيائها، هكذا هي برلين أم المدن، والمشردين.

***

الخلف والأمام

اِشترِ لنفسك حذاءً جديداً وامضِ إلى الأمام!

ولا تنظر إلى الخلف،

فالأيام تعدو هكذا بلا تروٍّ ولا رحمة.

***

الطبيعة والتكرار

جاء الشتاء كعادته، وفي موعده، ألا تضجر الطبيعة من تكرار أفعالها! هذا ما كان يحدس به المتشائم الوجودي الصلف، وهذا ما كان يأمله الفلاح، وينشده الكاتب وتتوقعه الكائنات في الغابة!

بلى يبدو أن هذا ما بات يحصل، إذ يبدو أن الطبيعة قد بدأت حفلة التغيير الكبرى، فراحت الفصول تتداخل وتختلط. وصارت الثلوج تتساقط في الصيف، والشمس تشرق باهية في الشتاء.

***

المفاجأة والدهشة

لم يعد يفاجئني شيء، فكل الأشياء الكبرى قد حصلت، وما بقي إلاّ التداعيات والترددات وبعض التفاصيل.

***

البلاد المخصية والشتيمة المبتورة

مأساة المخصي هناك، أنه لم يعد بمقدوره استعمال عضوه المبتور في شتم البلد وقبائله.

المنطقة والمنطق

ثمة أنظمة كان يجب أن تسقط منذ زمن بعيد، كما أن أنظمة أخرى ما كان يجب أن تظهر البتة، لكن على ما يبدو أن المنطقة تسير خارج أي منطق وأي تاريخ.

الخصم والألم

كفاك طيبة وسذاجة وخلطاً بين السياسة والأخلاق الحميدة البالية، وعليك أن لا تحتسب من الخصم أن يضربك على اليد التي لا تؤلمك!

***

القضية الأم، هي الهم الأهم

لا أعرف قضية سامية كبرى يجتمع اللبنانيون على أنها قضيتهم الأم فيثابرون للوصول إليها ما خلا حرص كل طائفة الشديد ألا تكون أوضاع الطائفة الأخرى أحسن حالاً؛

وهذا هو الهمُّ الأهم!

***

مستنقع الشرق

في مستنقع الشرق لا يحصد إلاّ الجراد، لأن الشرق عصيٌّ على العبور. وما هو إلاّ سرد كبير للمتاهات المغلقة، ولواحات الأفول المطلقة!

***

حوار الحضارات

عندما شاهدت الطائرة الأولى، ظننته طائر الأباتشي، يُغير على أبراج الرجل الأبيض. وعندما شاهدت الطائرة الثانية حسبتها سهم مقاتل الساموراي العنيد ينقّضُّ على الأسطول المتعامد نحو السماء. قلت في نفسي، إنه حديث خاصّ بين حضارتين، يخرج من بين رماد السنين وغبار الكتب الصفراء والشرائع الحديثة وحرية الإنسان التي طوت معالم المذابح الحضارية بدساتير العصر الرخيم في بلاط فخم وأنيق يجثو على جثث التاريخ العفن... ولا يجدر لأحد من شعوب الأرض أن يتدخل فيها.

وقد حسبتها –للوهلة الأولى– صفعاتٍ إعصارية من فعل جبابرة غابرين لا يمكن أن ينتموا لأيٍّ من أشكال معارفنا الحاليين.

لكنها كانت غارة قَبَلية من الصحاري البعيدة المقفلة على ذاتها. غارةً تحمل غلاً بدوياً لا يثري ولا يُسمن الغلّة، لا بل يزيد الطين بلّة!

***

أخلاق الألماني الحديث

هذا المخدّر بوخز الضمير ووجع الأخلاق الحقيرة، أخلاق العبيد والخانعين. آه منك يا نيتشه العنقاء والسفنكس.!. أين تراك اليوم من هذا الألماني الحديث؟ هذا الذي أحسّ بمتعة بالغة عندما أعاد بعض النقود التي سقطت من مواطن ألماني حديث آخر. متعة الفوز برضى البال ورضى الوالدين والضمير، يُسرع في استلامه من يد هذا المواطن الساهي عن حدود ملكية جيبه وملكيته الخاصة، ليستلم في اليد الأخرى صكّ الاعتراف من الحاضرين في وضح النهار وفي غياهب باطنه القويم، شهادة بسلامة تربيته وخُلقه وحسّه العام.

***

متى تقع الحروب؟

تقع عندما يرى الحاكم أنه مندوب من الغيب وأنه صوت الشعب، وأداة التاريخ، أي أنه يصير نصف إله، أمّا عندما يكبس على زر الفناء، فإنه لا يدعي الحلول، ودحي البشر، ولكنه يعلن أنه صار هو الإله والقضاء والقدر!

***

لا تفكر!

الدعوة إلى عدم التفكُّر والتفكير، هي بلا منازع سمة هذا العصر، لا حاجة ولا داعي بك للفهم لإدراك أي شيء، فكل شيء مرسوم من الآلة والدولة والعائلة والإذاعة والحاسوب والدعاية، وهكذا فكل شيء مقيَّد ومحسوب! ليس عليك أن تفكر، فإن الآخرين، جميعاً قد فكّروا عنك وقرّروا أنك لا تصلح إلاّ للمضغ والتكرير والتكرار الممل، والاستهلاك الأجوف. وأنه لا جنحة عليك ولا حرج، ولا ضرر ولا ضرار، إن فعلت أي شيء خارج دائرة التفكير الحر، ولكن بشرط أن تظل ابن المملكة، وعضواً في جماعة الهيكل، وهكذا، لك أن تعمل بكدّ وأن تشقى وتحرد وأن تموت بغيظك، ولكن المكتوم في نفسك!!

***

درس الجمل والكلب

آهٍ كم ذليل أنت أيها الأحمق الكبير، لقد حسبتك تعلَّمت درس الجمل، ولكنك أبيت إلاّ أن تظل راسباً وراكباً في صف الحمار المتجاسر، والذي سلَّم جميع وظائفه للقطيع ومضى!! وحده بقي الكلب ينبح في تخوم الحقول الفارغة وصار يبحث في قمامات المدينة الساقطة عن بقايا أثر كانت حاسته البعيدة قد طالته، فأردته المرأة المتوجسة بطلقة!

صورة الفجر

منذ زمن بعيد لم يعد الفجر هو الفجر بصورته الشرقية، الذي ينسلُّ ضوؤه من بين نجوم الليل وأسمال ظلاله، هنا يكون الصباح جميلاً عندما تكون الشمس مشرقة، لكن شمس الشمال خجولة لا تنفكُّ تظل قابعة خلف السحاب، فلا تراه يتألق ها هنا، سوى الرمادي وحده لوناً، سرمدياً للسماء...

***

الجدل والمحبة

لا تجادل من أحببت، فإنك بلا شك ستخسره، إن لم يكن الآن، فلا بدّ أن يغلب الجدال خصال الود والصفاء. ولأن من طبائع الأمور الخلاف، فكذلك.. من طبع المحبة الزوال!

***

كأنما هي كأوقات الحرب!

كانوا يقولون: «كل يوم كنا نحياه، هو مكسب إضافي». كأنما حياتنا كانت مرسومة للموت المجاني، هكذا بلا أدنى سببٍ نفهمه! هكذا تارةً لأن دولاً إقليمية تتصارع مخابراتها وأجهزتها على أرضك، ويريد كلٌّ منها أن يعكر صفو حياتك برسائل مفخخة من هنا، وعبوة محشوة في مستوعب النفايات من هناك. كذاك الذي مررت من أمامه قبل لحظات قليلة ولم أزل تحت مرماه، حتى انفجر كبركانٍ مصغّر على حجم مدينة سائبة، بدت لكل مارقٍ أنها لقمة سائغة أو فتاة سهلة المنال!

أو لأن مجنوناً قرّر في لحظة تخلٍّ جنونية أنه يريد أن يحررك من نفسك، ومن شخصك، ومن قواتٍ للردع، لم تكن تردع أحداً غيرك. نحن المعتوهين بحمّى القضايا والأغاني السياسية الملتزمة، فصار يرميهم بصواريخ دقيقة، بيّنت حجم الدعم المحلي، ربما في تحديد الإحداثيات الذي كان يضيق ذرعاً بهذه القوات على ما تناهى لسمعنا لاحقاً.

ولكن على الأرجح، لأن غباء قيادتها وعجرفتها وتعنتها واستخفافها بحياة العسكريين الذين كانوا يُتركون في قمرة الحواجز العسكرية الثابتة والهشّة، والتي كان يسهل على مدفعية جيش الجنرال الأشوس آنذاك أن تصيبها بدقة. وهكذا أذكر كيف أصابت قذيفة بعد

اثنتين أخطأتا الهدف، وكادتا أن تسقطا على رؤوسنا، كوخ العسكري «الشقيق» وأردته قرب جسر الكولا وهرعنا لنجدته، لكن كلمات الضابط الذي أخبره الجندي قائلاً: «سيدي لقد أصيب العسكري وسقط!». فقال له الضابط بعجرفة باردة: «آه لُم البارودة!»، كانت بمثابة صدمة لنا. هذا لأننا صرنا نعرفهم بحكم مكان تواجدنا قرب مركزهم...

كذلك أتذكر كشك بائع الصحف والسجائر في الأونيسكو وغيره، الذي قضى بقذيفة جنرالية.. كانت الحياة في كل يوم إضافي كأنها ولادة من جديد أو كأن أكثر جيلنا يحسب مواصلة حياته في تلك الأيام عائدة فقط للصدفة، والعبث!، إذ لا شيء منطقيّاً في الحروب الأهلية أو غيرها! ولا حتى في أيام الهدوء والسلام، حتى غدا المنطق نفسه غير منطقياً! كما أنني لا أحسب أن المشيئة الإلهية تتدخل في أوقات الحروب وقتلاها وجرحاها، إذ أنها تتركها –على ما أعتقد– مرهونة لخطايا البشر، وبالتالي لمنطوق فكرة الثواب والعقاب. وإلاّ ماذا تراه يفعل مَن كان يضغط على الزناد، أو مَن كان يُطلق زخات الراجمة ويشعر بكل ذاك الزهو، والاعتزاز الغريب بالنفس إن لم يكن يشعر بأنه يتعدّى على صلاحيات القدر، أو كأنه ينوب عنه في تخفيض أعداد وأعمار البشر!

لا شك أنّ كثيرين منّا آنذاك كان ممتعضاً من الميليشيات وفوضى السلاح و«الزعرنات»، والكثيرون كانوا ينشدون الخلاص!

وقد درجت الناس في معرض إجابتها على مَن يسألها عن أحوالها أن تقول: «الحمدالله بعدنا طيبين!». وهذا كدلالة على أن الحال لم يعد يُقدّر أو يُقاس وفق رغبات بال المرء وتطلعاته أو أحلامه، وإنما وفق منسوب الحظ الذي يتوفر عليه في البقاء على «حاله» كما هو، في حيّز أو عداد الطيبين! ترى أيامنا هذه، هي كتلك، مع فارق في الأزمان، والمسميَّات، والوسائل، والطرق!

***

قرابين السياسة

على مَن يشتغل بالسياسة في «جمهوريات الموز»، أن يتوقع أن يكون كبشاً، عندما ترتأي الدول المتصارعة أن تلتقي. وكما اعتاد الملوك والرؤساء عندما يلتقون بعد خصام أو مجرد جفاء، أو حتى عندما تقوم قوافل الأمراء والرعايا من الأطراف بزيارة الملك، فإنهم يجلبون معهم الهدايا الوفيرة وغالباً ما تكون على شاكلة قرابين أو أضحية وأكباش، فيرتأون كأفضل هدية، إمّا لفكِّ حالة البرودة والعداء، أو لمجرد تقديم مراسم الطاعة، فيجلبون رأس معارض لهذه المملكة أو الحاكم، كعربون لهذه الصداقة الجديدة، أو المتجددة، هكذا قُدم أوجلان وحزبه إلى الوالي العثماني أواخر التسعينيات كهدية وعربون حسن نيّة مع تحسن العلاقات بين البلدين بعد أن كادت

الأمور تندفع إلى حرب مباشرة بين تركيا وسوريا التي كانت تدعم حزب أوجلان في عملياته ضد الأتراك!

كذلك جرى بالأمس مع «رأس» القرداحي إذ قُدم كعربون حُسن نية قبيل هبوط الطائرة الفرنسية في أراضي المملكة!؟

بصدد الصحة

عندما تلتقي بشخص ما ويلقي أحدكما التحية على الآخر. وتسأله عن حاله وأحواله، تكون الإجابات تقليدية وشَبَه بعضها. غير أنه سرعان ما يبادر أحدكما إلى الإشادة بالصحة، التي هي أثمن شيء في الوجود. لا تعرف حقيقة هذا الشعور والقول إلاّ عندما تعلم أنّ ما جمعته من ثروة طائلة فيما أنت تشاهد ذاك الذي يأكل أصناف الفواكه بشراهة، هو أكثر غنىً وثراءً وسعادة منك، فيما أنت عاجز عن تناول قطعتين أو ثلاثة من الفواكه الشهية، لخوفك من ارتفاع معدلات السكر أو الدهون وثالثهم المتلازم العصري الحميم؛ الضغط المرتفع، فأعلم أنك ستسلِّم بمقولات الصحة؛ أغلى ما في الحياة!!

***

ندوب الماضي كعائق أمام الحاضر

لا تعرف كم استغرقت من وقتٍ لتُدرك أنّ الماضي مضى! كما أنك لا تدرك كم أنفقت من وقتٍ لتثبيت هذا «الماضي» في حاضرك؟! وكم نسجت عليه من خيوطٍ وأوهام ومواقفَ بالية، وراكمت خصوماتٍ غير مستحقةٍ من أجل كلمةٍ قيلت في ذلك الماضي السحيق!؟ أو من أجل موقفٍ مضى في جريانِ الحياة كومضة. كان من الأجدر بك يا هذا، التفلُّت من عقال ذاك الماضي وأسره!

فلا حرية ولا بعث في الحياة ولا تجدد إلاً بالوثبة التي تخرج ممَّا مضى بلا هوادة ولا قرار ولا من يرجعون! مَن منا قادر على ترك ماضيه خلفه ليمضي في مستقبله من أمامه؟! أمّا الحاضر فهو الملهى الليلي الأكبر الذي لا يكسبه إلاّ المراهنون الخاسرون أبداً!

***

هل مات الشِّعر من العالم؟

من جملة الذين ماتوا أو يموتون تدريجياً وكل يومٍ ومع كل نفس وكل تكَّة وكل كلمة وصورة، يموت الشعر أيضاً. يموت مع موت الكلمة، وانحدارها إلى الخواء. إلى الاختصار الواضح كصفحة بيضاء، وتحوُّلها إلى الاسم الأولي للشيء. إلى المسطح الباهت.. يموت الشِّعر لأننا لم نعد نطيق التفكير وفك الطلاسم والألغاز، لقد صرنا في عجلةٍ من أمرنا ولا متسع بعد لاحتمالات المعنى وتجاور الكلمات وألاعيب اللغة والغيب. والشعر لا يموت فقط لأن ناعيه

ونادبيه يكثرون، بل لأن الكلمة الشعرية تخبو، تضمر، تضمحل، تتوارى وتأفل بحياء ورفعة. تكفُّ عن أن تكون حاضرةً في العالم كما كانت فيه على الدوام، طريقة الآلهة في التعبير عن الوجود وعن الذات.

لقد كانت شيفرة الشعر وما نُسج على منوالها حيلة القدامى في التعبير عن مكنونات أنفسهم وما اختلج في صدورهم، وما اعتصرته مخيلتهم من معانٍ وما عرفوه من تجارب وما بنوه من صور...

بلى، لقد مات الشاعر عندما لم يعد نجماً منتظراً لأنه يحمل موهبة القول، وسرّ الكلام ودفقاته، هذا الذي اختصَّت به الآلهة والأنبياء، والأبطال الأسطوريون! ألم يعد يتبعهم الغاوون!؟

أيكون الشعر مات مع موت الآلهة الذي أطلقه نيتشه؟! وبتنا نعيش زمن موت اللغة وموت الإنسان بإزاء سطوة الحساب على العالم؟!

لا أعرف ما الذي كان يشدّني إلى الرياضيات والشعر معاً في سنوات المدرسة!؟ وتحديداً الهندسة، فيما كنت أتوجس من الأرقام! لطالما شعرت أنها ماكرة ومريبة، والغوص فيها يسحب ويمتد إلى ما لا نهاية، كانت كأنها رمال رخوة متحركة، لا تضفي إلاّ إلى تكرار وتسلسل عدمي لا قرار لها، على عكس الخطوط والهندسة التي كانت تبني إلى الجمال إلى الكمال، وتشكل الأجسام والدوائر..

هل يوجد ما هو أجمل وأكمل من الدائرة؟! أمّا تفكيكها فيحيلنا مجدداً إلى الأرقام وعلاقاتها الزئبقية.. سيحيلك إلى عالم الـ pi ولا نهائية أرقامها ما بعد الفاصلة!!

جدل الرقم وعلاقاته الحسابية في الطبيعة والعقل، برأيي لم تتجلَّ قدرة الإنسان في التماهي والتناغم معه إلاّ في الفنون، والشعر، والموسيقى، والرسم، والأدب..

كنت أحسب مكانة الشعر بالنسبة للغة والوجود، كعلاقة الرياضيات بالفيزياء أو بالطبيعة، أي كما أن لغة الأعداد هي التي تجيد بمعادلاتها فكّ وترجمة قوانين الفيزياء والطبيعة، كذلك كان الشعر يجرّد المعنى ويكثفه في معادلات لغوية ساحرة...

كذلك لا شكَّ من وجود علاقة ما بين الشعر والسحر! ولكن كل اللغات تهاوت اليوم أمام لغة الأرقام والحساب. الشعر والسحر واللغات القديمة وأساطير الأولين التي كانت تغلف العالم وتنقله وتتناقله من جيل إلى جيل! بالتراتيل، والأغاني، والأشعار، والأناشيد. لم يعد العالم مفتوناً بالغموض وبالسحر، لقد بات لديه ألاعيبه الذكية الواضحة، وأزرار أساطيره الحديثة.

***

العلامات والعلاقات الرقمية
وصناعة القطيع الرقمي

باتت هذه العلامات التقنية الافتراضية كأنها رموز نمطية أو لغة «منزلة» يريدنا «مارك» وغيره من رواد عالم «الأرقام» أن نسير بها -كما هم يتوقَّعون- فهي بلا شك تساعدهم في إحصائنا وتلمس مشاعرنا ومعرفة ميولنا السياسية والاستهلاكية، وهكذا يتمُّ اقتيادنا بالجملة بالسياسة والاقتصاد!!..

ألا تحولنا هذه الأزرار إلى قطيعٍ رقمي؟! بماذا ترانا نختلف عن القطيع؟!، أي قطيع؟! فلنرَ تعريف القطيع ولنقارنه بحالنا! أليس القطيع هو انتظام رهطٍ من الأغنام أو الجمال أو.. البشر، بمسيرٍ واحدٍ وبسلوك متشابه وبطواعية وانصياع تام لنسق ونظام وقواعد وعادات هذا القطيع؟! ومَن يخالفها، فعصا الراعي الغليظة والعقاب له بالمرصاد! وهكذا نحن نفعل كما يُشار إلينا، ونُعجب ونُحب كما يُراد لنا أن نفعل، باتباع نسقٍ رقمي رتيبٍ وممّل. فكلماتنا معدودة ومحسوبة وأصحابنا عددهم كذا وكذا، وهذا «البوست» حصد كذا وكذا (رقماً)، من المعجبين أو الضاحكين... إذن تحديد القيمة تتمُّ تماماً وفق قانوني السوق الرأسمالي الرقمي إياه، قانونَيْ: العرض والطلب، وهنا ما تعرضه أنت من محتوى وما يطلبه الجمهور من

معنى.. وهكذا يتشكَّل السوق أو الذوق الرقمي، وتتشكَّل القيمة المضافة الرقمية للسلعة الافتراضية...

حسنٌ.. لا أحسب أنني أول من يطالب بتعديل أو إلغاء زر الإعجاب، فغيري كثيرون في كثير من الدول، انتقدوا هذا التنميط الذي قد يصيب البعض بالإحباط ويحول البعض الآخر إلى مهووس بجمع "اللايكات" أي عدد المعجبين بأي ثمن وبأية طريقة، وتحوّله إلى حالة مرضية. ولا شك أن ثمن ذلك كلّه يأتي على حساب المضمون والمحتوى.

وقد عانى كتاب كبار على الفايسبوك وغيره من هذه المسألة، وعانوا من قلَّة المعجبين أو المتابعين لهذا الكاتب المهم وكثرتهم لدى كاتب آخر يكون ربما أقل أهمية لكنه بارع في مسألة العلاقات واللياقات...

أنا بلا شك ضايقني هذا الموضوع منذ بدايات الفايسبوك، وقد حسمته بأن حسمت الأمر وجزمت الرأي، أنّ هذا الموقع هو موقع مخصَّص بشكل أكبر للقفشات الصغيرة واللقطات السريعة والبوست المفرقع المكثفَّ والقصير الذي يواكب اللحظة ويقدم موقفاً، أو خبراً، أو نكتةً، أو نعياً، وقد لعب دوراً هائلاً في فترات الحجر والأوبئة.. وربما هذا هو معنى التواصل الاجتماعي. وأنّ من يكتبون نصوصاً دسمة أو طويلة عليهم أن يتوقعوا عكوف المتابعين، هذا إن وُجد متابعون من أصله!؟

وذلك لعدة أسباب؛ منها: عدم الرغبة في قراءة نص طويل، أو انعدام الوقت سيراً مع نظرية أو «موضة» عصر السرعة، أي زمن «المنقوشة» أو «الفاست فود»، الذي يملأ البطن، ولكنه لا يشبع جوع العقل ولا يصيب المعنى. إنه العصر السريع، الذي يجمع البلاهة والذكاء المدهش في لحظة واحدة ومكان واحد...

بأي حال هذه ليست ظاهرة عربية أو لبنانية خاصة، ولكنها ظاهرة عامة، ولكن سطوتها تختلف من ثقافة إلى أخرى، فإذا ما كان معدل قراءة العربي السنوي هو صفحة وربع، فلا يتوجب عليّ أن أكون طامحاً جداً أو ساذجاً إلى هذا الحد بأن أتوقع أنه سيمنحني هذه الصفحة العزيزة والفريدة لي!!

لقد تجاوزت الموضوع منذ زمن، وأعرف أنني أكتب لنفسي بالدرجة الأولى ومن ثمّ لقارئٍ افتراضي؛ هو الآخر قارئ نزق صعب المراس، حاد الذكاء، ناقد جارح، ثاقب النظر كسهم مارق في عباب السماء، متطلِّب فجور، لا يعجبه العجب، ولا يملأ عينه كثرة أو ندرة الكتب. لهكذا قارئ افترضه موجوداً، ولو في خيالي فقط كحاجةٍ للكتابة لآخر كغاية سردية ربما ليس أكثر!!

وأحاول أن أبني معه علاقة افتراضية في فضاء المعنى والكلمة العابرة، حينها، أظنني لا آبه البتة إذا ما «لايّكَ» لما أكتبه شخص واحد أو بضع مئات أو آلاف!

قد يقول أحدهم إنّ المعترضين –وأنا منهم– نقول هذا لأننا نعاني من محدودية «اللايكات» وأنّ العالم الافتراضي يحاكي الواقع الحقيقي، وكل امرءٍ وقدره وشأنه وعلاقاته وكاريزماته... وإننا يجب أن نتقبل هذه الحقيقة التي لا ذنب لهؤلاء الذين ينالون الاعجابات الكثيرة بها، وأننا لو كناَّ مكانهم لما فكَّرنا ربما كما نفكر الآن؟!

أي لكنا صمتنا طالما أن هذا العالم الافتراضي يحقق لنا ما نبتغيه من نجاح وشهرة!!

حسنٌ.. أنا موافق في هذا ودوره، ولكن الموضوع يجب أن يُطرح من جانب آخر أيضاً، أي جانب القوة الاعتباطية والقاهرة الممنوحة للمشارك بهذه الأزرار، فتجعل منه بمثابة القاضي أو الناخب والجمهور والحكم والناقد الفني أو الأديب والمدرس الذي يمنح بكبسة زر من هذه الأزرار وببساطة شديدة لأي شيءٍ مطروح أمامه، أو يتجاهله! وهذا بلا شك أمر معقد وشائك، وقابل للنقاش والنقد، ولا أحد أيضاً يريد انتزاع هذا الحق من المشاركين، ولكن الفكرة، هي إيجاد طريقة جديدة لا تساهم في عملية التسفيه والتنميط والتقييم السائدة حالياً...

أعتقد أن الحل ربما يكون بإتاحة خاصيَّة حذف أو ترك خاصيات التقييم كلها، أي أن يستطع المرءِ أن ينزل «بوست» من دون أن يكون فيه خانة أزرار الاعجاب والحب، والكره، والغضب، والحزن.. كلها! وإمكانية ترك أو حذف نافذة كتابة التعليقات أيضاً، أمّا خاصية إعادة إرسال أو متابعة النشر أو عدمه فهذه موجودة الآن..

أعتقد هكذا حل ممكن تطبيقه، عبر تشكيل عريضة يوقِّع عليها الراغبون ورفعها إلى السيد مارك، مالك الأرقام كلها...!

وهذا ما وجدته عن طريق الصدفة على موقع فايسبوك أيضاً، ولكن في داخل مجموعة متفرعة منه ومتخصصة بالقصة القصيرة باللغة الألمانية، ما لاحظته في هذا الموقع هو عدم استعمال علامات الاعجاب المعهودة رغم وجود أزرارها، ولكن يتم الاكتفاء بذكر عدد القراء الذين قرأوا هذه القصة أو تلك في أسفل كل مشاركة، أو قصة.

فأدركت أنني أمام موقع رصين وجاد، كحال النموذج الذي أشرت إليه فيما سبق، لناحية عدم استعار حمّى الإعجابات والمعجبين، بما يُذهب بقيمة المكتوب كرمى لعيون المحبوب!

***

«اللوح» المحفوظ، بين ما في الجيب.. وما قد يأتي به الغيب!

انشغلت الصحف الألمانية قبل عدة سنوات بخبر غريب؛ وهو: نزول أحد الأمراء العرب في أحد الفنادق الألمانية، حيث إنه أخبر إدارة الفندق أنه سيتكفل بدفع حساب كل نزلاء الفندق. وراحت الصحف تتندر وتتساءل عن تفسير لهكذا سلوكيات في مجتمعات يُحسب فيه كل شيءٍ بعقلانية ومنطقية بالغة. وصارت تطرح أسئلة

أخلاقية مشروعة، من قبيل جواز تصرف المرء بأمواله على هذا النحو، ومصدر هذه الأموال، وهل صفة أمير هي صفة مدنية وجاهية، أم مرتبة في مملكة تجعل منه بمثابة الوزير أو أرفع شأناً، وبالتالي يدخل هذا التبذير في باب ظاهرة «الفساد» التي تميز بلدان العالم الثالث.!

في الواقع لم أجد –وأنا العربي القح؛ على ما تقول شجرة العائلة الكريمة التي حفظها وجمعها كبار العائلة منذ سنين وعادت بجذورنا القديمة إلى اليمن– تفسيراً يبرر هذا السلوك.

فلا كرم حاتم الطائي ولا كل مكرمات العرب تنفع هنا في تبرير هذا التبذير العظيم، ولا يمكن وضعه إلاّ في خانات العادات والتقاليد البالية والخاطئة التي تعشش في مجتمعاتنا...

وهي بأي حال لا تختلف كثيراً عمّا يفعله كثير منّا –نحن اللبنانيين– عندما نكون في مطعم ما ويريد واحدنا أن يطلب ما يأكله، فيطلب ما هبَّ ودبَّ من المأكولات بما يفيض بكثير عن حاجة وقدرة المدعوين على الأكل.

إنها ثقافة الانتفاخ والاستعراض والتباهي البالي، وهكذا هي أعراسنا وحفلاتنا وموائدنا الفاخرة.

لا أعرف إلى أي حدٍّ أسهمت هذه العادات والتقاليد والسلوكيات الاجتماعية المتضخمة فيما وصلنا إليه من إفلاس اقتصادي وسياسي

وأخلاقي.. ولكن مما لا شك فيه أنها لعبت الدور الكبير، لأنها ثقافتنا المعممة، والتي تنطبق على كل حياتنا وإداراتنا وكيفية عيشنا ومشاريعنا الفاشلة ونماذج أعمارنا وبناء بيوتنا (حيث نخصص فيها قرب شرفة المطبخ، زاوية صغيرة نُطلق عليها، غرفة الخادمة، كان يوجد في لبنان أكثر من 600 ألف خادمة، في بلد لا يتجاوز سكانه الـ 6 ملايين نسمة)، وهدرنا وفسادنا!!

ما هذا السلوك «الخنفشاري» غير المنتج وغير المعقول، الذي يصرف ما في الجيب ويتكل في غده على ما سيأتي به «الغيب»؟

ابتداءً من امتلاك السيارات دون الحاجة الفعلية لها، وإن احتجنا لواحدة صغيرة اقتنينا اثنتين منها أو أكثر!! وهكذا..

ولعل سرد قصة ذلك اللبناني الذي جمع ثروة معقولة في البرازيل تقرب من المليون دولار، ولمّا سمع عن كرم حاتم سلامة الطائي ومصارفه في الإغداق للفوائد الخيالية على الأموال المجمّدة لديهم، أحضر ما ادخره من جنى عمره في البرازيل ووطَّنه في أحد المصارف العظيمة في لبنان، وعاد ليعيش من فوائدها في لبنان، وما إن انقضت السنة الأولى وحلّت الثانية إلاّ وهلّت معها –لسوء حظه– الكارثة الكبرى، وطار المال والأمل، أو الجمل كما يُقال، مع الريح بما حمَل.

***

Tafeln Die

كحلٍّ لمسألة رمي وإتلاف المواد الغذائية التي تزيد أو تبقى على رفوف المحال والتعاونيات الكبرى، والتي تقدر بملايين الأطنان، والتي ترمى في النفايات وهي لا تزال بحالة صالحة للاستهلاك البشري. ولمّا كانت المجتمعات المعاصرة، لا تعدم المحتاجين والفقراء، أو الذين يحتاجون بالعموم للمساعدة في هذا المجال، فقد كانت فكرة الـ «طاولة»؛ وسوف أقترح هذه الترجمة لأنني لم أجد ترجمة مناسبة لها. ولكن قد يفيد الشرح في الوصول إلى المعنى المقصود. إذ أن أصل هذه الكلمة « Die Tafel »، تستعمل للوح الصف. وقد يكون المقصود بها هي ألواح الطاولات الطويلة التي يوضع الطعام المقدمَّ لمحتاجيه عبر هذه المؤسسة، عليها.

انطلقت الفكرة في برلين عام 1993، لتتطور بسرعة كبيرة وتنتشر في العديد من المدن الألمانية من قبل السيدة «زابينه فيرت» من ضمن جمعية نسائية كانت تهدف لتحسين أوضاع ومستوى معيشة المواطنين المشردين في برلين.

وعلى الرغم من أن ألمانيا من الدول الرائدة صناعياً، تُعد مستويات المعيشة والخدمات الاجتماعية والمساعدات التي تقدمها الدولة للعاطلين عن العمل أو للمشردين كبيرة ومرتفعة نسبياً، إلاّ أنه يُقدر وجود ما يقرب من 15 مليون الماني يعيشون عند حد الفقر

الذي تحدده الدولة، وهؤلاء يكونون من العاطلين عن العمل والمتقاعدين وكبار السن أو العائلات ذات الدخل المحدود أو الكبيرة الحجم، واللاجئين.. ممّن يكون دخلهم يكاد يغطي تكاليف حياتهم ويضطرهم ذلك إلى التوفير في تنويع وإثراء طعامهم...

وقد لاحظ مطلقو هذه المبادرة أنّ الطعام والفواكه والخضار التي تُرمى يمكن توضيبها والحفاظ عليها وهي تظل صالحةً للاستخدام. حيث ترى بعض التعاونيات الكبرى أنها لم تعد صالحةً للبيع لأنها لم تعد طازجةً أو نضرةً كفاية، ولا تبدو بحالةٍ ممتازةٍ وفاخرةً. وهكذا قامت هذه المبادرة، التي انطلقت في الأساس في أمريكا عام 1963...

وكأي فكرة تنطلق في البدء من المجتمع المدني، تتلقفها الدولة وتصير تتعامل معها وتدرجها في سياق قوانينها التي تُعنى بالمساعدات الاجتماعية، بحيث لا يتم استغلال هذه الجمعيات وهذا الطعام المجموع من قبل غير مستحقيه...

وبلغ عدد مراكز «Tafel» عام 2021 في ألمانيا قرابة الألف مركز موزعين في عموم ألمانيا. ويُقدر عدد أطنان المواد الغذائية الموزعة من قبل هذه المراكز بـ 265,000 طناً في السنة، وذلك من أصل ما يُقدر بـ 18 مليون طناً من المواد الغذائية التي تُرمى سنوياً في النفايات وهذا وفق دراسة قامت بها إحدى المؤسسات المعنية....

لماذا هذا الكلام الآن؟

لأننا نعيش في لبنان ونسمع أشياءً مثل العجائب. نسمع عن أناسٍ باتوا لا يملكون ثمن ربطة الخبز. وأنّ الناس وصلت حدود الفقر والعوز في مسلسل إفقار ونهب وبل سلب ونصب لم يحدث مثيلاً له في التاريخ الحديث، وقد طال شعباً بأكمله ما خلا قلَّة قليلة هي تلك المحظية من قبل أحزاب الفساد وسلطته العفنة العميقة...

ونحن –أي الناس– نتحمل كذلك مسؤولية كبيرة بهذا الصدد، ليس فقط السلطة وأحزابها وبنوكها، ولكن نحن أيضاً من أوصلناهم ونصبناهم فوق رؤوسنا ومن أنتجنا هذه الثقافة كلها. ولنبدأ بأبسط الأمور؛ تغيير نظرتنا إلى الحياة والطبيعة والإنسان...

وأنا لا أزال أتذكر ذلك الوزير الفريد من نوعه «جورج قرم» وقد جاء وزيراً للاقتصاد –على ما أذكر– في حكومة لسليم الحص، وصار يتحدث عن ضرورة تنظيم الحياة وفق الضرورات والحاجات الأساسية منها والكمالية، وعن أهمية ركوب الدراجات والنقل العام، وقد كنت أراه يتمشى على كورنيش المنارة عصراً وحيداً بلا مرافقة ولا طبل ولا زمر، وكان الناس يتهكَّمون ويتندَّرون عليه، ويقولون هذا وزير «فقري»، يدعونا للتقشف والجوع عوضاً أن يقيم المعارض والفنادق الفخمة التي تجذب السيّاح..

لم يطل عمر هذا الوزير في وظيفته الذي هو بالمناسبة دكتور بالاقتصاد ومرجع في العلوم الاقتصادية، فقد رحل إلى حيث يعرفون قيمته، وقد كان يحذر دائماً أن هذا المسار العام في لبنان سيؤدي به إلى الكارثة.. وهوت كذلك حكومة الحص، لتأتي من بعدها حكومات

البذخ و«البلد ماشي».. لننتهي بعدها في الحضيض العظيم والجحيم الذي صرنا نعرفه، «كلنا يعني كلنا» عن ظهر قلب...

***

الدولة، و« ويكي فايس»
وتهاوي صورة الهرم الرقمي الأكبر

البيت الأبيض يخشى من تغوّل «الفايسبوك» وهو يستدعي «مُطلقة» ما يمكن تسميته بـ «ويكي فايس» العصر الرقمي، وذلك تيمناً بعملية «ويكيليكس»، الشهيرة، وذلك للإدلاء بشهادتها.

الهدف الأساسي، تجزئة هذا العملاق الذي بات يستحوذ على مليارات المستخدمين، والمعلومات، وعشرات المواقع ، والتطبيقات.. لقد فاقت قدرته وسعته وتخطّت قدرة وحدود وطاقة، الدولة والدول، وبات يُقلق السلطات ويهدد استقرار الاقتصادات وباتت تُطرح أسئلة كثيرة مشروعة حول الأمان وضمان حماية المعلومات والبيانات الشخصية، وأن لا تتحوّل إلى شركات التسويق والإعلانات والشركات الكبرى وحتى أجهزة الأمن عبر طرق وآليات مختلفة قد يكون أحد عناوينها، «سرقة أو فقدان البيانات في عملية قرصنة».. إنه عالم الرقميات الذي ولجنا لجَّته واستغرقنا في الهناء والانتشاء به، وروّجنا قيمه في اختصار اللغة والمعنى وتغليب الصورة والإشارة على آليات التواصل القديمة.

اليوم يكشف هذا العطل أو «الهجوم» المدبر من الداخل أو الخارج هشاشة هذا العالم وسرعة تهاويه.. وما يمكن أن تجرَّ هكذا أعطال من خسائر كبيرة لفقدان ساعات من التواصل والجهد والكتابة أو التعليقات والعلاقات والذكريات المفترضة كلها، والتي يمكن أن تتبخر كلها في قرار

إقفال أو عطل تقني أو مفتعل! لا شك أن هذه الأعطال واستمرارها واتساعها لتطال مواقع وتطبيقات مختلفة سوف تترك تداعيات كبرى، ولسوف يتجذر النقاش حول الخيارات الشاملة للكثيرين الذين يودعون هذه التقنيات جلَّ أعمالهم وحياتهم! بالطبع لا شك أبداً في الأدوار العظيمة التي تلعبها هذه المواقع والخدمات الجليلة التي تؤديها في التواصل وإيصال المعلومات، ويبدو أنها باتت الوسيلة الحيوية الطاغية أو شبه الوحيدة التي لا يمكن للكثيرين الاستغناء عنها! خاصةً لما لها من جاذبية وسحر وسرعة تواصل وإيصال المعلومة في برهة إلى أي مكانٍ في العالم، ويبدو أنها باتت تلعب الأدوار التي كانت تقليدياً من نصيب الأحزاب والنوادي وأماكن الالتقاء الاجتماعية، والملعب والحي وساحات القرى. لقد باتت باختصار قريتنا الرقمية الكبيرة...

خواطر مُخاطِرة

المفعول العكسي

من حسنات بعض المفاهيم الفكرية –والتي أعتقد أنها مستقاة من الرياضيات والفيزياء– أنها تساعد على تفسير وفهم بعض الظواهر البشرية.

مثال: عندما تضرب على قطعة خشب مقوسة بعض الشيء، وقد تكون مهملة في جانب البيت، يحدث أن ترتد المطرقة على يدك، فتطير منها وتكسر بعض الأثاث المهم في البيت، أو تكسر يدك. ويسمى هذا بالحسابات الخاطئة. أو بقانون الارتداد العكسي.

عندما كانت النصيحة بجمل

أعرف قصة هذا المثل، ولكني دائماً أنساها.. وكلما أعيد البحث عنها وأحسب أنني ركنتها في مكان ناءٍ ومميز من ذاكرتي، أعود كلما أحتاج إليها، أنساها.

الأدب والخوف من العواقب

لقد أصبحت ميالاً إلى الاقتناع التام أن منشأ الأدب والقصص والشعر وكل تنويعاته وحتى الرسم والنحت، هو عدم رغبة الإنسان في التعبير المباشر عمّا يختلج في صدره، وربما بلغة العلوم الحديثة، من مكنونات ورغبات النفس اللاواقعية الممنوعة أو المرفوضة، وربما يكون عامل الخوف من التصريح برأيٍ قد يجر على قائله عواقب وخيمة.

هكذا أحسب أصل نشأة نظام التورية والاستعارة والإشارة في الأدب، والتي يفهمها اللبيب وقد لا يحاسب عليها الرقيب!

فهرس المحتويات

الإهداء:... 2
المقدمة:...4
الجزء الأول:...7
فلسفيات خفيفة:....................................7
اِعرف نفسك! :....................................8
الفلسفة ومكانتها ما بين الألمان وبيننا:...........9
زينة المدينة وتجميل بشاعة العالم:..............18
عدَّاد العمر:....................................... 21
تمارين على الوحدة الوجودية:......................22
فن أن تكون دائماً على صواب:......................26
حديث في حداثة الآخرين وفي معالم طريق حداثتنا:.........29
الجزء الثاني: شؤون وشجون لبنانية:............. 42
غرام وانفصام وانتقام:.................................43
الفساد بين "غوغل" وسقراط؟!:...................... 46
انطباعات بلدية:...................................... 51
على الكلاب في لبنان، الانتباه!:......................52
نهاية الفيلم اللبناني:..................................53

حديثي مع شتيفان في نقد الشعب والثقافة:.......................54
عبادة الزعيم هل هي مستمدة من عبادة الأصنام:...............63
سيكولوجية الجماهير:..64
من أخلاق العبيد، إلى أحزاب الزعيم:..........................64
تظاهرتا 8 و14 آذار أعادتا حليمة إلى عادتها القديمة:..........67
المسالك الإمبراطورية في المنطقة ما بين الواقع والخيال!:........74
التقاليد البالية، الأخلاقيات الزائفة:..............................84
كلمات في معنى الثورة:..86
رسالة إلى علي، الكافر!:.. 87
الجزء الثالث يساريات:...90
موت الأحزاب التقليدية اللبنانية:..................................91
نقد اليسار اللبناني؛ انفصام الشخصية ما بين الواقع والدور المفقود
نحو يسارٍ إنساني جديد!:...92
ظهور النازية والعداء لروسيا!:................................ 125
حول لاعقلانية الإنسان والحرب:................................127
البوتينية كألد أعداء الشيوعية واللينينية:.........................129
الأجور المرتفعة تغلب القناعات:.................................132
الجزء الرابع مشاهدات:.. 134
الحضارة الفرعونية الفضائية:...................................135
الصين والأسوار الثقافية العظيمة:...............................138

ملاحظات لافتة في رحلة تركيا:..........................141
الحضارة البشرية تحتضر:..........................142
تجربة الانفجار الكوني على الأرض، قد تقلب أسس الفيزياء الحديثة!:145
روح العلاقة:..155
العلاقة بين كتلة الكائنات وسرعتها وأعمارها والنظرية النسبية:........157
أخلاق «التشيع العلوية» وروح الرفض «الثورية»؛:...............162
اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً!:..........162
(محاولة سوسيولوجية، لتطبيق نموذج ماكس فيبر):........... 162
عندما تقتل الضحية نفسها مرةً وتستأصل أشلاءها:.............197
نظرة في أزمة الأخلاق العربية:..............................197
هل فعلاً شعار: (الإسلام هو الحل) هو الحل؟! :............ 204
حضارة القلق:...213
"رجال الرعب":...219
كتاب ألماني يحلل ظاهرة العمليات الانتحارية أو نفسية "الخاسرين المثاليين":......219
المجال الحيوي عند الشعوب:.............................222
بيروت، كمدينة ساحلية وعلاقتها بالبحر،:.. وانعكاس ذلك في الفن والثقافة؛:.....228
عمر الزعنّي نموذجا:..228
أين كان الله؟:...248
لا يزال امتحان الغرب قائماً؛:...............................251
العائلة أم الكلب!:... 251
صور ومشاهد مُفارقة:.....................................256

الجزء الخامس مقالات منشورة:...............................261
نفرتيتي الجميلة التي أتت إلى برلين هل تذهب لزيارة مصر؟:...262
نظرة إلى وجوه العائدين من موسم العطلة:.....................269
التنين الأصفر "يسرق" من أوروبا برامجها:.....................273
ماذا يفعل "طلاّب" ورجال أعمال صينيون في ألمانيا؟:..........273
هكذا غيّرت قوانين الهجرة حياة المهاجرين وشروط زواجهم:.....278
دعوة ألمانية لمناقشة "آيات شيطانية" في جامع في مدينة كولن:284
حيث اختبأ رشدي:..284
18عاماً على زوال جدار برلين:................................290
هل بلغت الوحدة الألمانية سن الرشد؟:.........................290
بنج عام:...295
عن الحرب التي لم تبدأ.. ولم تنتهِ:............................300
القراصنة الألمان في البرلمان:.................................305
موسم الثورات وشروط الحالة اللبنانية:.........................309
لبنان في مئويته الأولى:.......................................316
قلق الهوية والوطن النهائي!:...................................316
اللادينيون والملحدون الجدد يدقّون ناقوس الخطر حان الوقت من أجل تفكير إنساني جديد!:331
القانون أو الشريعة وحدود الديمقراطية والتسامح:.................351
في مداليل تنحية قاضية ألمانية استدلت بالقرآن:...................351
الوحدة الألمانية وسؤال الاندماج:..............................366
زارتسين وجينات المسلمين:....................................366

من بغداد إلى.. غزة:..................................372
الملك وحيداً: مايكل جاكسون، وحدود الحرية والإبداع:..........380
القمر بخير، فأطيلوا السهر:.................................384
الفايسبوك.. وازعاجات الماضي:.........................389
عندما تدفع نقداً:...393
ثمن التأخير عن الموعد:.................................393
أسئلة لم تُطرح بعد على أمّة الألمان:......................397
تأملات في ركود دواليب العولمة:........................401
أشباح ماركس توقظ أوروبا وتطلُّ حتى من الكنائس «رأس المال» يصدر من جديد:405
بقلم الأسقف ماركس هذه المرة:.........................405
الإقامة تتبع الجواز لعام واحد والمسافات في ألمانيا شاسعة:........ 411
قصة القرآن الجديد المصوّر الذي صدر في ألمانيا؟!:..........417
عاشوراء بعيون ألمانية وبأصول إيرانية في النبطية:............424
الحي الألماني بناه المهاجرون فظنته الحاجة تابعاً للمستعمرة:...430
موسم العودة إلى الجنوب:..................................434
مساهمة في نقد الغربة ولعنة الأوطان:.......................434
أسماؤهم لا تزال حركية بعد 20 عاماً على وجودهم هنا:........438
مبروك... صرت منذ الآن ألمانياً:...........................442
الجزء السادس:.. 447
خواطر:..447
النص ومبضع الجراح:.....................................448

المرأة والمرآة:.........................448
المرأة والصداقة:.........................449
جسور متأرجحة:.........................450
الفرعون والكون:.........................451
الإله الجديد! :........................451
الفن والدين:......................... 452
العمال والفلاحون والفنون:.........................453
الرجل والظل:.........................454
الحجر والبندقية:.........................454
عادة تنقيب الأسنان:.........................455
العقل والدين:.........................455
نيرون وروما:......................... 456
حديث وقديم:.........................456
سمعته تسبقه:......................... 456
رأس وكأس السنة:.........................456
برلين.. أمُّ المدن:.........................457
الخلف والأمام:.........................457
الطبيعة والتكرار:.........................457
المفاجأة والدهشة:.........................458
البلاد المخصية والشتيمة المبتورة:.........................458

المنطقة والمنطق:......................................459
الخصم والألم:...................................... 459
القضية الأم، هي الهم الأهم:.......................... 459
مستنقع الشرق:...459
حوار الحضارات:......................................460
أخلاق الألماني الحديث:..............................461
متى تقع الحروب؟:...................................461
لا تفكر! :.. 462
درس الجمل والكلب:..................................462
صورة الفجر:...463
الجدل والمحبة:..................................... 463
كأنما هي كأوقات الحرب! :........................... 464
قرابين السياسة:......................................466
بصدد الصحة:..467
ندوب الماضي كعائق أمام الحاضر:.....................467
هل مات الشِّعر من العالم؟:...........................468
العلامات والعلاقات الرقمية:............................471
وصناعة القطيع الرقمي:...............................471
«اللوح» المحفوظ، بين ما في الجيب:.................. 475
وما قد يأتي به الغيب! :............................. 475

Tafeln: Die.. : 478
الدولة، و"ويكي فايس":..................................482
وتهاوي صورة الهرم الرقمي الأكبر:..........................482
خواطر مُخاطِرة:... 483

ناجي طاهر

مواليد ١٩٦٨ حولا/ مرجعيون لبنان.
_حائز على شهادة الفلسفة من الجامعة اللبنانية.
_وعلى شهادة الدبلوم سنة أولى/ معهد العلوم الاجتماعية، الجامعة اللبنانية، علم اجتماع الثقافة.
_زاول التدريس في العديد من المدارس والثانويات في بيروت والشويفات لعدة سنوات.
_درس اللغة الالمانية في جامعة بوخوم، غرب ألمانيا.
_تابع دراسة الفلسفة والاستشراق، في مرحلة الماجستير، في جامعة بوخوم المانيا بتقطع.
يقيم في المانيا منذ العام ٢٠٠١.
نُشر له العديد من المقالات والخواطر والقصص القصيرة، والدراسات في بعض الصحف والمواقع الالكترونية، أبرزها، "زاوية على حائط برلين" في ملحق شباب السفير، استمرت لعدة سنوات وتوقفت باقفال الصحيفة، كذلك نشر له العديد من المقالات في صحف مختلفة منها، القدس العربي والحياة والبيان، ومواقع مختلفة منها موقع "زوايا" وغيرهم

هذا الكتاب هو جمع لنصوص وخواطر ومقالات متنوعة، كتبها صاحبها على مدار ما يقرب من العقدين من الزمن، وقد يرجع تاريخ كتابة بعضها إلى ما قبل العام ٢٠٠٠م، إذا ما أردنا أن نحتسبه كمفصلٍ بين الألفيتين. أغلبية هذه النصوص تُنشر لأول مرة. أمّا بعضها فقد نُشر في ملحق شباب السفير امتدت لأعوامٍ عديدة، وفي صحف ومواقع أخرى مُختلفة.

ترى هذه النصوص إذاً، شذرات من الروح تبعثرت هنا أو هناك، حتى غدت كلماتٍ وصفحات .. تتنقل على جسورٍ متارجحةٍ ما بين أصناف العلوم والأدب والفلسفة والسياسة قبل أن تحط رحالها بعد أن تآلفت ظروفها، والتأم شملها بين دفتي هذا الكتاب.

وعليه، فالكاتب لا يدّعي أبداً أنه قارب شتى الموضوعات التي تطرق لها، بغاية البحث العلمي الدقيق، ولكنه في الآن نفسه حافظ على قدر كبير من الأمانة الفكرية والأكاديمية التي تقتضيها الحال، إذ أنه إمّا ذكر اسم المصدر أو المفكر المقصود، أو أشار إلى الكتاب الذي قرأ هذه الفكرة أو تلك فيه. هذا لأنها كانت بأغلبها بمثابة الخواطر أو المقالات القصيرة أو حوارات، ولم تكنْ أبحاثًا دراسية بحد ذاتها. ولكن هذا لا يجب أن يُعفي الكاتب من تحمّل أية مسؤولية قد تترتب من جراء المكتوب في هذا الكتاب، فهو يتحملها كلها على عاتقه، وهو مسؤول عن كل شاردة وواردةٍ في متنه أو هوامشه !